تيسير العلي القدير

لاختصار

تفسير ابن كثير

اختصره وعلق عليه واختار أصح رواياته

محمد نسيب الرفاعي

المجلد الثالث

مكتبة المعارف

الرياض

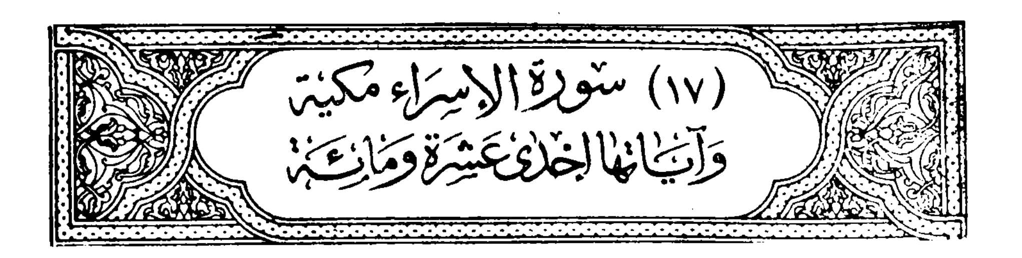
طبعة جديدة
١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٤٠١٣٧٠٨ - ٤٠٢٣٩٧٩
الرياض - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم



اختصره وعلق عليه واختار أصح رواياته
محمد نسيب الرفاعي



إلاَّ الآيات ٢٦ ، ٣٢ ، ٥٧ ومن آية ٧٣ – ٨٠ فمدنيَّة نزلت بعد القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۞ (١) ﴾

يمجّد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إلّه غيره ولا ربَّ سواه ﴿ الذي أسرَى بعبده ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ ليلاً ﴾ أي في الليل ﴿ من المسجد الحرام ﴾ وهو مسجد مكة ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ وهو بيت المقدس الذي بالقدس ، معدن الأنبياء من لدن ابراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا جمعُوا له هنالك فأمَّهم في محلتهم ودارهم ، فدلَّ على أنه هو الإمام الأعظم والرئيس المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وقوله تعالى : ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿ لنريَه ﴾ أي محمداً ﴿ من آياتنا ﴾ أي العظام . كما قال تعالى : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ وسنذكر من ذلك – ما ييسره الله – كما وردت به السنة من الأحاديث عنه ﷺ وقوله تعالى : ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، مصدّقهم ومكذّبهم ، البصير بهم فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة .

* * *

ذكر الأحاديث المتيسرة في الإسراء :

في صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : ١ [أُتيتُ بالبراق وهو دابّة [١] ابيضُ طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرْفه. قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس.قال فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء.قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين،ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل ﷺ اخترت الفطرة ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما فرحبا ودعوا لي بخير ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد ﷺ قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قال وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخير قال الله عز وجل : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون ﷺ فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام ، قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل قد بعث إليه قال قد بعث إليه فإذا أنا بموسى ﷺ فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد ﷺ قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، واذا هو يدخله كل يوم سبعون الف ملك ، لايعودون إليه ثم ذهب بي الى السدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من أمر الله ما غشي ، تغيرت فمـــا

---

(١) قلت : ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى رواية البخاري وفيها شريك بن عبد الله بن أبي نمر وهو ليس بالقوي ووهاه ابن حزم فانه اضطرب في هذا الحديث وساء حفظه ولم يضبطه وقال مسلم : فزاد ونقص وقدم وأخر . ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ عن حماد بن سلمة بهذا السياق وهو أصح من سياق شريك ولذا ضربنا صفحاً عن الأخذ برواية شريك وأثبتنا بدلا عنها رواية مسلم كما هو أعلاه .

أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إليّ ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاةً في كل يوم وليلة فنزلت الى موسى ﷺ فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بلوت بني اسرائيل وخبرتُهم قال فرجعت إلى ربي فقلت يا رب خفف على أمتي فحطّ عني خمساً فرجعت الى موسى فقلت حطّ عني خمساً قال فإن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف قال فلم أزل ارجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال يا محمد انهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشرٌ فذلك خمسون صلاة ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن همّ بسيئةٍ فلم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فقلت قد رجعت الى ربي حتى استحييت منه] .

وفي رواية الإمام أحمد عن قتادة يحدث عن انس بن مالك أن مالك بن صعصعة حدثه ... فذكر الحديث إلى ان قال ﷺ : ٢ ... [ثم رفعت الى سدرة المنتهى ، فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة فقال هذه سدرة المنتهى ، قال وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات – قال – ثم رفع الى البيت المعمور]

وفي رواية قتادة عن أبي هريرة ٣ : [... قال – قلت قد سألت ربي حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم فنفذت فنادى منادٍ قد أمضيت فريضي وخففت عن عبادي] وأخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة بنحوه .

وفي رواية البخاري في كتاب الصلاة : ٤ [... ثم انطلق بي حتى **انتهى** إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي ، ثم أُدخلت الجنة ، فإذا فيها حبائل اللؤلؤ واذا ترابها المسك] . وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال ٥ [سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنّى أراه »] وعن محمد بن بشار بسنده الى عبدالله بن شقيق قال : قلت لأبي ذر ٦ [لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته ، فقال : **عن** أي شيء كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟ قال أبو ذر : قد سألت فقال « رأيت نوراً »] وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي في حديث شريك زيادة تفرد بها ، على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل يعني قوله : ثم دنا الجبار رب العزة فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى . قال وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآية على رؤيته جبريل أصحّ . وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو

الحق . وقوله تعالى ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ، وعن ابي مسعود وكذلك هو في صحيح مسلم عن ابي هريرة ، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية .

وفي صحيح مسلم : قال ابن شهاب وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبّة الأنصاري كانا يقولان قال رسول الله ﷺ : ٧ [ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام] .

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله انه سمع رسول الله ﷺ يقول . ٨ [لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس ، قمت في الحجر فجلّى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه] أخرجاه في الصحيحين .

وقال ابن شهاب قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : ٩ [فتجهز ، ـ أو كلمة نحوها ـ ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا : هل لك في صاحبك يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع الى مكة في ليلة واحدة ؟ فقال أبو بكر : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم قال فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع الى مكة قبل أن يصبح ؟ قال نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء ، قال أبو سلمة : فيها سمّي أبو بكر الصديق] .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ١٠ [« لما كان ليلة أسري بي ، فأصبحت بمكة فظعت وعرفت ان الناس مكذبيّ » فقعد معتزلاً حزينا ، فمرّ به عدوّ الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزىء : هل كان من شيء ؟ فقال له رسول الله ﷺ « نعم » قال : وما هو ؟ قال : « اني أسري بي الليلة » قال إلى أين ؟ قال : « إلى بيت المقدس » قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : « نعم » قال فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه فقال : أرأيت ان دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني ؟ فقال رسول الله ﷺ « نعم » فقال : يا معشر بني كعب بن لؤي ، قال فانفضت اليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال : حدث قومك بما حدثتني ، فقال رسول الله ﷺ « إني أسرى بي الليلة » فقالوا : إلى أين . قال : « إلى بيت المقدس » قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا قال : « نعم » قال فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب . قالوا : وتستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفيهم من سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ؛ فقال رسول الله ﷺ : « فما زلت

أنعت حتّى التبس علي بعض النعت » – قال : « فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتّى وضع دون دار عقيل – أو عقال – فنعته وأنا أنظر إليه قال وكان مع هذا نعت لم أحفظه فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب فيه »] وأخرجه النسائي من حديث عوف ابن أبي جميلة وهو الأعرابي أحد الأئمة الثقات ورواه البيهقي من حديث النضر بن شميل بن عوف .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

١١ [« لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلي أنظر إليه ، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء ، وإذا موسى قائم يصلي ، وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا ابراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبها به صاحبكم – يعني نفسه – فحانت الصلاة فأممتهم ، فلما فرغت قال قائل : « يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفتُّ إليه فبدأني بالسلام »] .

﴿ فصل ﴾ : وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث [١] يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وان اختلفت عبارات الرواة ، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت اسراآت متعدّدة ، فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ، ولم يتحصل على مطلب . وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط ، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء ، وفرح بهذا المسلك ، وانه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات ، وهذا بعيد جداً ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ؛ ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبيُّ ﷺ به أمته ، ولنقله الناس على التعدد والتكرر .

روى موسى بن عقبة عن الزهري : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة، وكذا قال عروة وقال السدي: بستة عشر شهراً . والحق أنه عليه الصلاة والسلام أسري به يقظة لا مناماً من

---

(١) قلت : لقد أورد الحافظ ابن كثير أحاديث مختلفة الدرجات صحة وضعفا ولكن انتقينا لك يا أخي القارىء المسلم ما صح منها كما هو مبين في محله ، مما يؤكد لك أن الاسراء والمعراج كان حقيقة لا خيالا ويقظة لا مناما وبجسمه وروحه معاً ولله الحمد على توفيقه .

مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ، ربط الدابة عند الباب ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم حتى مر بموسى الكليم في السادسة ، وابراهيم الخليل في السابعة ثم جاوز منزلتيهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام أي أقلام القدر بما هو كائن ، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة ، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، وابراهيم باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه . لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمسٍ رحمةً منه ، ولطفاً بعباده وفي هذا اعتناءٌ عظيم بشرف الصلاة وعظمتها .

ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة ، ومن الناس من يزعم أنه أمَّهم في السماء ، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس ، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم ، وهذا هو اللائق لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى ، ثم لما فرغ من الذي أريد به ، اجتمع به هو واخوانه من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة ، وذلك عن إشارة من جبريل عليه السلام له في ذلك .

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس ، والله سبحانه وتعالى أعلم . ثم اختلف الناس : هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط ؟ على قولين : فالاكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً ، ولا ينكرون أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً ثم رآه بعده يقظة ، لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح – ثم وقع الإسراء والمعراج يقظة وحقيقة بعد ذلك – والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ فالتسبيح انما يكون عند

الأمور العظام ، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ، ولم يكن مستعظماً ، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم ، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد ، وقد قال تعالى : ﴿ أسرى بعبده ليلاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ قال ابن عباس : هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به. رواه البخاري. وقال تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ والبصر من آلات الذات لا الروح ، وأيضاً ، فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان ، وإنّما يكون هذا للبدن لا للروح ، لأن الروح لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه ، والله تعالى أعلم .

فائدة حسنة جليلة :

روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب دلائل النبوة عن طريق محمد بن عمر الواقدي عن محمد بن كعب القرظي ما خلاصته : لما استدعى هرقل أبا سفيان وسأله عن رسول الله ﷺ وجهد أن يحقر أمره وقال : أُيها الملك ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب ؟ قال وما هو ؟ قال قلت إنه يزعم انه خرج من أرضنا أرض الحرم ، في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد ايلياء ، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح قال وبَطريق ايلياء عند رأس القيصر ، فقال بَطريق ايلياء قد علمت تلك الليلة قال ، فنظر إليه القيصر وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لا أنام ليلةً حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة أغلقتُ الأبواب كلها غير باب واحد غلبني فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فعالجته ، فغلبنا فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً ، فدعوت اليه النجاجرة فنظروا اليه فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ، ولا نستطيع ان نحركه حتى نصبح ، فننظر من أين أتى . قال فرجعت وتركت البابين مفتوحين . فلما أصبحت غدوت عليهما ، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب وإذا فيه أثر مربط الدابة ، قال فقلت لأصحابي ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي ، وقد صلّى الليلة في مسجدنا ... وذكر تمام الحديث .

فائدة : قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية : وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد ، وابن عباس ، وشداد بن أوس ، وأبيّ بن كعب ، وعبد الرحمن بن قرط ، وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين ، وعبد الله بن عمر وجابر وحذيفة وبريدة

وأبي أيوب وأبي أمامة ، وسمرة بن جندب وأبي الحمراء ، وصهيب الرومي وام هانىء وعائشة وأسماء ابنتيَ أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين . فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمٌ نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً ❁ (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ❁ (٣) ﴾

كثيراً ما يقرن تعالى بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام وبين ذكر التوراة والقرآن ولهذا قال بعد ذكر الاسراء : ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب ﴿ هدى ﴾ أي هادياً ﴿ لبني اسرائيل أن لا تتخذوا ﴾ أي لئلاَّ تتخذوا ﴿ من دوني وكيلاً ﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً من دوني ، لأنه تعالى أنزل على أنبيائه جميعاً أن يعبدوه وحده لا شريك له .

ثم قال تعالى : ﴿ ذريَّة من حملنا مع نوح ﴾ تقديره أي يا ذرية من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ إنّما سمي عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله . قاله الطبراني عن سعد بن مسعود الثقفي الامام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٢ [ان الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها] وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي . وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زرعة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ١٣ [أنا سيد ولد آدم يوم القيامة – بطوله وفيه – : فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح إنك أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً فأشفعْ لنا إلى ربك . وذكر الحديث بكماله .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ❁ (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً

مَفْعُولاً ❁ (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ❁ (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ❁ (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ❁ (٨)

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب ، أي تقدم إليهم وأخبرهم في التوراة أنهم سيفسدون في الأرض مرّتَيْن ويعلُون علوّاً كبيراً أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس وقوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ أي أولى الإفسادتين ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي قوّة وعدة ﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أي بينها ووسطها﴿ وكان وعداً مفعولاً ﴾ أي كان وعد هذا اليوم واقعاً لا محالة وكائناً لا محيد عنه .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلّطين عليهم من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة أنه جالوت الجزري وجنوده ، سلط عليهم أولاً ، ثم أديلوا عليه بعد ذلك وقتل داود جالوت ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم ردَدْنا لكم الكرّة عليهم ﴾ الآية وعن سعيد بن جبير أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده وعنه وعن غيره أنه بختنصر ملك بابل وقد وردت في هذا آثار كثيرة اسرائيلية لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها . وفيما قص الله علينا في كتابه غنيةٌ عمّا سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم ، ولقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا ، سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد فإنهم كانوا قد تمرّدوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء ثم قال تعالى : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ أي فعليها كما قال سبحانه : ﴿ ... ومن أساء فعليها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أي الكرة الآخرة أي أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم : ﴿ ليسوءوا وجوهكم ﴾ أي يهينوكم ويقهروكم ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ أي بيت المقدس

﴿ كما دخلوه أول مرة ﴾ أي التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وليتبرّوا ﴾ أي يدمروا ويخربوا ﴿ ما علوا ﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿ تتبيراً * عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ أي فيصرفهم عنكم ، ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد ﴿ عدنا ﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ أي مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه وقال قتادة : قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي محمداً ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون [1] .

﴿ إِنَّ هَذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً * (٩) وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * (١٠) ﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ، وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل ، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجراً كبيراً أي يوم القيامة وان الذين لا يؤمنون بالآخرة أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذاباً أليماً ، أي يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلشَّرِّ دُعَاءَهُ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ عَجُولاً * (١١) ﴾

يخبر تعالى عن عجلة الانسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله

(١) قلت : ولقد عاد بنو اسرائيل في زماننا هذا إلى إفسادهم ، ولكن في هذه المرة لم يكن أمامهم أمة تتقي الله تعالى وتحكم فيها حكومة وأمة وأفراداً بما أنزل الله في جميع شؤونها بل رأى اليهود أمامهم غثاء كغثاء السيل فغلبوهم غلبة منكرة وما ذلك إلا لأن الله تعالى نظر إلى هذه الأمة التي تدعي أنها أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإذا بها أبعد ما تكون عن دين محمد وتعاليم محمد : فمقتها وسلط عليها من هم أقذر الأمم وأنجس الشعوب لتعتبر وتعود إلى منطلقها الأول يوم نادى رسولها محمد صلى الله عليه وسلم بلا إله الا الله محمد رسول الله ، فان عادت إلى ذلك المنطلق ، أعاد الله لها مكانتها ومجدها وحرّرها ... لا من اليهود فحسب ، بل من كل سلطة وراء اليهود ... ! ! ! وجعلها كما كانت خير أمة أخرجت للناس .

بالشر أي بالموت والهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه كما قال تعالى ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ وكذا فسره ابن عباس وغيره وقد تقدم في الحديث : ١٤ [لا تدعوا على أنفسكم ، ولا على أموالكم ان توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها] وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً * (١٢) ﴾

يمتنُّ تعالى على خلقه بآياته العظام فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل ، وينتشروا في النهار للمعايش والأعمال والأسفار ، وليعلموا عدد الأيام والجُمع والشهور والأعوام ، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والاجارات وغير ذلك ، ولهذا قال : ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ أي في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك ، ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً لما عرف شيء من ذلك كما قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ قال ظلمة الليل وسدف النهار قاله عبد الله بن كثير وقال مجاهد : الشمس آية النهار والقمر آية الليل .

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * (١٣) ٱقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً * (١٤) ﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله ؛ كما قال ابن عباس ومجاهد

وغيرهما من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه وكما يقول تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ ومكتوب في قوله تعالى : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ أي نجمع له عمله في كتاب يعطاه يوم القيامة إما بيمينه ان كان سعيداً ، أو بشماله ان كان شقياً ، منشوراً أي مفتوحاً يقرأه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ أي إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت ، لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأميٍّ. وقوله تعالى : ﴿ ألزمناه طائره في عنقه ﴾ انما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد ، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه . قال معمر ، وتلا الحسن البصري : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك ، ووكّل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر، حتّى إذا متّ طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ، إقرأ كتابك ... الآية فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك . هذا من أحسن كلام الحسن ، رحمه الله .

﴿ مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ۞ (١٥) ﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتّبع الحق ، واقتفى أثرَ النبوّة ، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿ ومن ضلّ ﴾ أي عن الحق ، وزاغ عن سبيل الرشاد فانما يجني على نفسه ، والوبال عليها ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد ، كما قال تعالى : ﴿ وان تدعُ مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾ ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿ وليَحمِلُنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ فإن الدّعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلّوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ، ولا يحمل عنهم شيئاً ، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده وكذا قوله تعالى :

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ إخبار عن عدله تعالى ، وأنه « لا يعذّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بارسال الرسول إليه ، كقوله تعالى : ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلاّ في ضلال كبير ﴾ .

---

(١) قلت : الحمد لله الذي قال «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ولم يقل حتى نبعث نبياً رسولا ؟ لأنه يمكن أن يكون رسول غير نبي ، وإليك البيان : لا شك مطلقاً في ختم النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الرسالة المبنية على نبوة ، والمعنى أنه لم يعد نبي أو رسول نبيٌّ ، بعد محمد صلى الله عليه وسلم . والمعلوم أن النبوة هي تبليغ رجل من البشر بواسطه جبريل عليه السلام بأن الله اختاره نبياً وكلفه بشرع خاص به أما الرسول فهو النبي المكلف بشرع لنفسه ولقومه أو للناس كافة . فإذا قلنا قد انقضى زمن النبوات والرسالات بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ هل يعني ذلك أنه انقضى أيضاً زمن التبليغ؟ الجواب : لا فالتبليغ قائم لن ينقطع حتى يوم القيامة ، والمبلغون الحقيقيون هم الذين يوصلون شرع محمد صلى الله عليه وسلم كاملا تاماً إلى الناس ، أو يجددون للأمة أمر دينها على ما كان في زمن محمد صلى الله عليه وسلم فخرج بذلك تبليغ غير شرع محمد صلى الله عليه وسلم أو العمل به إذ كل شرع وكل عمل وكل هدي لا يستند إلى شرع وعمل وهدي محمد صلى الله عليه وسلم فهو رد ... فإذا فهم هذا تبين أن كل من حمل هذه الشريعة المحمدية ، إلى أقوام لم تبلغهم من قبل ... وبلّغوهم إياها فهم حجة عليهم يوم القيامة ... بل وعلى كل من يسمعون بالدعوة أو يبلّغونها ... فإذا علم أن الداعين هم حجةٌ على المدعوين ... تبين واضحاً معنى قوله تعالى : « حتى نبعث رسولا » إذاً فالرسول المعنيُّ في هذه الآية هو الرسول النبي ، والرسول غير النبي ، إذ كل من حمل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغوها فهم رسل إليهم ، وسيعذبون إن لم يتبعوهم . وكذلك شأن الذين يرسلهم الأنبياء والرسل إلى أقوام آخرين ... أو من يعلم شريعة النبي ويبلغها لمن لم تصلهم إن في حياة النبي أو بعدها داخلون تحت معنى الآية المتقدمة كحواريي عيسى عليه السلام وكالحنفاء الذين كانوا يبلغون دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة الأيادي وغيرهم. ولنضرب لك مثلا موضحاً وهو : لو أنك يا أخي القارىء المسلم ذهبت إلى أقوام لم يبلّغوا الإسلام فقمت أنت بتبليغهم الرسالة فمنهم من اتبعك ، ومنهم من عصاك وبقي على كفره ووثنيته ، فاذا قام يوم الحساب وقضى الله تعالى على من لم يتبعك منهم بالعذاب فدافعوا عن أنفسهم وقالوا : يا ربنا لم ترسل إلينا رسولاً يبلغنا الدعوة وأنت قلت يا رب في كتابك : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» وأنت لم تبعث لنا رسولا فإذا قال لهم : كذبتم بل أرسلت إليكم فلاناً وسماكَ واستقدمكَ شاهداً عليهم بأنك بلغتهم فشهدت بما قمت من التبليغ ، ألا تكون أنت حجة عليهم ...؟ ثم إذا عذبهم الله ، إلا يكون ذلك عدلا ؟ أجل ... إنه العدل بعينه ... وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وانقطعت حجتهم وقامت حجة الله عليهم ... بإلهام الله لك بالذهاب إليهم ودعوتهم إلى الإسلام وقد ذهبت وبلغت وقامت بك حجة الله ، إذاً فأنت الرسول الذي بك أمن الطائعون منهم من العذاب والرسول الذي بك حق العذاب على العاصين فأنت ولا شك رسول الدعوة إليهم . وكذلك إذا وصلهم كتاب يشرح لهم الإسلام فهو رسول لهم ، أو سمعوا بالمذياع عن الإسلام والعقيدة الإسلامية ، فكل ذلك تقوم به الحجة . إذن ... فأنت رسول ... والكتاب رسول ... وصوت المذياع رسول ... بمعنى مبلغ الرسالة والله تعالى أعلم .

وأما ما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : ١٥ [« اختصمت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال : « وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً وانه ينشىء للنار خلقاً فيلقون فيها فتقول هل من مزيد ؟ ثلاثاً]وذكر تمام الحديث فهذا إنما جاء في الجنة لأنها ، دار فضل ؛ وأما النار فإنها دار عدل لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه . وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة وقالوا : لعله انقلب على الراوي بدليل ما أخرجاه في الصحيحين ، واللفظ للبخاري من حديث عبد الرزاق بن معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : تحاجّت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال : ١٦] ... فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع فيها قدمه فتقول : قط قط ، فهنالك تمتلىء وينزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً » ...]

وهنالك مسألة اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى قديماً وحديثاًفيها وهي:الولدان الذين ماتوا صغاراً وآباؤهم كفار : ماذا حكمهم ؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ومن مات في الفترة ولم تبلغه الدعوة فقد ورد في شأنهم أحاديث نذكرها بعون الله وتوفيقه ثم نذكر ملخصاً من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان .

روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال : ١٧ [أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في فترة فأما الأصم فيقول : رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، واما الأحمق فيقول : رب قد جاء الاسلام والصبيان يحذفوني بالبعر ، وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الاسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفترة فيقول ربّ ما أتاني لك رسول . فيأخذ مواثيقهم ليطيعُنّه فيرسل اليهم أن ادخلوا النار فوالذي نفس محمد بيده ، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً] . وبالاسناد عن قتادة إلى أبي هريرة مثله غير أنه قال في آخره ١٨ (« ... فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن لم يدخلها يسحب إليها »] روى الحافظ ابو يعلى الموصلي عن البراء بن عازب قال : ١٩ [سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين قال : هم مع آبائهم وسئل عن أولاد المشركين فقال : « هم مع آبائهم » فقل يا رسول الله ما يعملون ؟ قال : « الله أعلم بهم »] .

روى هشام بن عمار بسنده إلى معاذ بن جبل عن نبي الله ﷺ : ٢٠ [« يؤتى يوم القيامة بالمسوخ عقلاً وبالهالك في الفترة ، وبالهالك صغيراً ، فيقول الممسوخ : يا رب لو أتيتني عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد مني ﴾ وذكر في الهالك في الفترة والصغير

نحو ذلك فيقول الرب عز وجل إني آمركم بأمر تطيعوني ؟ فيقولون نعم ، فيقول : إذهبوا فادخلوا النار قال : ولو دخلوها ما ضرتهم ، فتخرج عليهم قوابص فيظنون انها قد أهلكت ما خلق الله من شيء ، فيرجعون سراعاً ، ثم يأمرهم الثانية ، فيرجعون كذلك ، فيقول الرب عز وجل قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون ، وعلى علمي خلقتكم ، وإلى علمي تصيرون ، ضميهم ، فتأخذهم النار »] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه أن رسول الله ﷺ قال : ٢١ [كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمةُ بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟] وفي رواية قالوا : ٢٢ [يا رسول الله ، أفرأيت من يموت صغيراً ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين »] .

روى الإمام أحمد عن موسى بن داوود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما أعلم - شك موسى - قال ٢٣ [ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم ابراهيم عليه السلام] وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل انه قال : ٢٤ [اني خلقت عبادي حنفاء] وفي رواية : (مسلمين) .

روى الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه المستخرج على البخاري من حديث عوف الأعرابي بسنده إلى سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٢٥ [كل مولود يولد على الفطرة فناداه الناس : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ قال « وأولاد المشركين »] روى الطبراني عن سمرة قال : ٢٦ [سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال « هم خدم أهل الجنة »] .

روى أحمد عن خنساء بنت معاوية عن بني صويم قالت : حدثني عمي قال قلت : ٢٧ [يا رسول الله من في الجنة ؟ قال : النبي في الجنة ، والشهيد في الجنة ، والمولود في الجنة ، والوئيد في الجنة] .

فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث ، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري ٢٨ [انه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان فقال له جبريل : هذا ابراهيم عليه السلام وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ قال : « نعم وأولاد المشركين »] ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله عليه السلام » هم مع آبائهم ومنهم من ذهب انهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات ،

فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة . هذا القول يجمع بين الأدلة كلها ، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض ، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة ، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الاعتقاد ، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد . وليعلم أن الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء في أنهم من أهل الجنة ، وهذا هو المشهور وهو الذي نقطع به ان شاء الله عز وجل .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ۞ (١٦) ﴾

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى : ﴿ أمرنا ﴾ فالمشهور قراءة التخفيف والمعنى : أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش ، فاستحقوا العقوبة رواه ابن جريج عن ابن عباس .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ۞ (١٧) ﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسل من بعد نوح ودل هذا على ان القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قاله ابن عباس ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى . وقوله تعالى : ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم : خيرها وشرها لا يخفى عليه خافية سبحانه وتعالى .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً ۞ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ

ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ◉ (١٩)

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل عليه ، بل إنما يحصل لمن أراد الله و ما يشاء وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات ، فانه قال عز وجل ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ يصلاها ﴾ أي يدخلها حتى تغمره ﴿ مذموماً ﴾ من سوء تصرفه وصنيعه ، إذ اختار الفاني على الباقي ﴿ مدحوراً ﴾ مقصيّاً حقيراً مهانا .

روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :
٢٩ [الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له]
وقوله تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ أي أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ أي طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿ وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مؤمن أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ◉ (٢٠) ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ◉ (٢١)

يقول تعالى : ﴿ كُلاًّ ﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه ﴿ من عطاء ربك ﴾ أي يعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ أي ممنوعاً ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ في الغنى والفقر والحسن والقبح ، ومن يموت صغيراً ومن يعمر حتى يشيخ وما بين ذلك ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ أي لتفاوتهم في الدار الآخرة ، فمن يكون في دركات جهنم وأغلالها ومن يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها ثم أهل الدركات يتفاوتون كما أهل الدرجات يتفاوتون ، فإن الجنة مائة درجة ، وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وفي الصحيحين ٣٠ : [ان أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء] ولهذا قال تعالى :

﴿ وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً ﴾ .

لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴿٢٢﴾

المراد المكلفون من الأمة فيقول تعالى : لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك شريكاً له ﴿ فتقعد مذموماً ﴾ أي على إشراكك به ﴿ مخذولاً ﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يكلك إلى الذي عبدت معه ، وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً ، لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وقد روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٣١ [من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلاً ، وإما غنى عاجلاً] .



وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴿٢٤﴾

يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له ، فان القضاء هاهنا بمعنى الأمر ولهذا قرن بعبادته برَّ الوالدين ، فقال سبحانه : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أي وأمر بالوالدين إحسانا كقوله تعالى:﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ﴾ أي لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أي لا تفعل قبيحاً معهما ، ولا تنفض يدك عليهما ، ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح ، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال عز من قائل : ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ أي ليناً حسناً طيباً بتأدُّب وتوقير وتعظيم ، ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ أي تواضع لهما بفعلك ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ أي ارحمهما في كبرهما وعند وفاتهما قال ابن عباس : ثم انزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ .

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروي عن أنس وغيره من طرق : ٣٢ [ان النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال « آمين آمين آمين » قيل يا رسول الله علام ما أمنت ؟ قال « أتاني جبريل فقال : يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك قل آمين فقلت آمين ثم قال رغم انف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له ، قل : آمين ، فقلت آمين ثم قال رغم انف رجل ادرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل آمين ، فقلت آمين »] .

روى الإمام أحمد عن أبي أسيل وهو مالك بن ربيعة الساعدي قال : ٣٣ [بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول هل بقي علي من بر أبويَّ شيء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال : « نعم خصال أربع : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقيهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلاَّ من قبلهما ، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما »] ورواه ابو داود وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن سليمان وهو ابن الغسيل به .

• روى الإمام أحمد عن معاوية بن جاهمة : ٣٤ [جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أردتُ الغزو وجئتك استشيرك فقال : « هل لك من أم » قال نعم قال : « فالزمها فان الجنة عند رجليها » ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثل هذا القول .] ورواه عن المقدام بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال ٣٥ [إن الله يوصيكم بآبائكم ان الله يوصيكم بأمهاتكم ان الله يوصيكم بأمهاتكم . ان الله يوصيكم بامهاتكم ، ان الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب » .] واخرجه ابن ماجه .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً ۝ (٢٥) ﴾

قال سعيد بن جبير : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد إلا الخير بذلك أي في نيته وقلبه لا يريد إلا الخير ، فقال تعالى ﴿فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ أي للذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ، ويصيبون الذنب ثم يتوبون قاله سعيد بن المسيب . وقال عبد الرزاق عن عبيد بن عمير قال : كنا نعد الأواب الحفيظ أن يقول:اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا . قال ابن جرير : هو التائب من الذنب ، الرجاع من المعصية إلى الطاعة ، وهذا الذي قاله هو الصواب ، لأن الأوّاب مشتق من الأوب وهو الرجوع قال تعالى :

﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ وفي الحديث الصحيح [ان رسول الله ﷺ كان اذا رجع من سفر قال : ٣٦ [آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون] .

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ۝ (٢٦) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ۝ (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً ۝ (٢٨) ﴾

لما ذكر الله تعالى بر الوالدين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام وفي الحديث : ٣٧ [أمك وأباك ثم أدناك أدناك] وفي رواية : (ثم الأقرب فالأقرب) وفي الحديث ٣٨ [من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأله في أجله فليصل رحمه] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ لما أمر بالأنفاق ، نهى عن الإسراف فيه بل يكون وسطاً كما قال عز من قائل : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ ثم قال منفراً من التبذير والسرف : ﴿ ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ أي اشباههم في ذلك في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته ولهذا قال سبحانه : ﴿ وكان الشيطان لربه كفوراً أي جحوداً لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته بل أقبل على معصيته ومخالفته قال ابن مسعود : التبذير الأنفاق في غير حق وكذا قال ابن عباس . وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً .

وقوله تعالى: ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ﴾ الآية أي إذا سألك أقاربك ومن أمرناك باعطائهم وليس عندك شيء واعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ أي عدهم وعداً بسهولة ولين ، إذا جاء رزق الله فسنصلكم ان شاء الله كما فسر ذلك مجاهد وعكرمة وغير واحد .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ۝ (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ۝ (٣٠) ﴾

يأمر تعالى بالاقتصاد في العيش ويذم البخل، وينهي عن السرف: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ أي لا تكن بخيلاً لا تعطي أحداً شيئاً ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ أي أي ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك؛ فتقعد إن بخلت ملوماً يلومونك ويذمونك ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير وهي الدابة التي عجزت عن المسير فوقفت ضعفاً وعجزاً، فانها تسمى الحسير، وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ يقول: ٣٩ [مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره واما البخيل فلا يريد ان ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع] هذا لفظ البخاري في الزكاة.

وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله ﷺ ٤٠ [أنفقي هكذا وهكذا وهكذا ولا توعي فيوعي الله عليك ولا توكي فيوكي الله عليك] وفي لفظ (ولا تحصي فيحصي الله عليك). وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ : ٤١ [ما من يوم يصبح العباد فيه إلاّ وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً] وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: ٤٢ [ما نقص مال من صدقه، وما زاد الله عبداً أنفق إلاّ عزّاً، ومن تواضع لله رفعه الله.

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ ٤٣ : [ما عال من اقتصد] وقوله تعالى: ﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ إخبار انه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء بحسب حكمته.ولهذا قال جل وعلا: ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي بمن يستحق الغنى، ويستحق الفقر.كما جاء في الحديث: ٤٤ [إن من عبادي لـمَنْ لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى، ولو افقرته لأفسدت عليه دينه] وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدارجاً، والفقر عقوبةً، عياذاً بالله من هذا وهذا.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً * (٣١) ﴾

هذه الآية الكريمة دالّة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلاّ تكثر عيلته ، فنهى الله عن ذلك وقال جل وعلا : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أي مخافة أن تفتقروا في ثاني الحال ، ولهذا قدّم الاهتمام برزقهم فقال جل جلاله : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾ أي ذنباً عظيماً . وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قلت : ٤٥ [يا رسول أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت : ثم أيٌّ ؟ قال : « ان تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أي قال : « أن تزاني بحليلة جارك »]

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (٣٢)

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزني وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه ... ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً ﴾ أي ذنباً عظيماً ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي وبئس طريقاً ومسلكاً . وقد قال الإمام أحمد عن أبي أمامة : ٤٦ [ان فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي بالزنى فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه مه ؛ فقال « أدنه » فدنا منه قريباً ، فقال : « إجلس » فجلس فقال « أتحبه لأمك » قال : لا والله جعلني الله فداك قال : « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم » . قال أفتحبه لابنتك ؟ قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لبناتهم » . قال « أفتحبه لأختك ؟ » قال لا والله جعلني الله فداك قال « ولا الناس يحبونه لأخواتهم .. » قال « أفتحبه لعمتك » ؟ قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لعمّاتهم » ، قال « أفتحبه لخالتك » قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لخالاتهم » قال فوضع يده عليه وقال : « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه ، وأحصن فرجه » قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .]

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ (٣٣)

نهى تعالى عن قتل النفس بغير حق شرعي كما ثبت في الصحيحين ان رسول الله ﷺ قال : ٤٧ [لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة] . وفي السنن : ٤٨ [لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم .] وقوله تعالى : ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ أي سلطنة على القاتل ، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله فوراً ، وإن شاء عفا عنه على الدية ، وإن شاء عفا عنه مجاناً ، كما ثبت ذلك بالسنّة. وقوله تعالى : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ قالوا : معناه فلا يسرفِ الوليُّ في قتل القاتل بأن يمثّلَ به أو يقتصّ من غير القاتل . وقوله تعالى : ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ أي أن الوليّ منصور على القاتل شرعاً وغالباً وقدراً .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ❁ (٣٤) وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ❁ (٣٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغَ أشدَّه ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلاّ بالغبطة ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : ٤٩ [يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمّرن على اثنين ، ولا تولّينّ مال يتيم] وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها فإن العهد والعقد كل منهما يُسألُ صاحبُه عنه ﴿ إن العهد كان مسؤولا ﴾ أي عنه . وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ أي من غير تطفيف ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾ قرىء بضم القاف وكسرها . كالقرطاس وهو الميزان وقوله تعالى : ﴿ المستقيم ﴾ أي الذي لا انحراف فيه ولا اضطراب ﴿ ذلك خير ﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم ، ولهذا قال : ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿ ولا تقفُ ﴾ أي لا تقلْ ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ أي لا تقلْ رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، فان الله تعالى سائلك عن ذلك كله وقوله تعالى : ﴿ كل أولئك ﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤآد ﴿ كان عنه مسؤولا ﴾ أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة ، وتسأل عنه وعما عمل فيها .

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾

ينهي الله تعالى عباده عن التجبر والتبختر في المشية ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ أي مشيَ الجبارين ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ أي لن تقطع الأرض بمشيك وقوله تعالى : ﴿ وان تبلغ الجبال طولاً ﴾ أي بفخرك وإعجابك **بنفسك** ، بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده وفي الحديث : ٥٠ [من تواضع لله رفعه الله ، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن استكبر وضعه الله فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير حتى لهو أبغض اليهم من الكلب والخنزير] .

نظر الحسن إلى رجل هو الأهيم ويريد المنصور وعليه جباب خزٍ منضود بعضها فوق بعض وهو يمشي **ويتبختر** فقال له الحسن : أف أف شامخ بأنفه ، ثاني عطفه مصعرّ خده ... أي أحيمق ينظر في عطفه في نعم غير مشكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدي حق الله منها .. فسمعه ابن الأهيم فرجع يعتذر إليه فقال لا تعتذر إلي وتب إلى ربك أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض وان تبلغ الجبال طولاً ﴾ .

ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته فقال : إن للشياطين إخواناً ، وقوله تعالى : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ أي كل هذا الذي ذكرناه من قوله تعالى :

﴿ وقضى ربك ان لا تعبدوا إلاّ إياه ﴾ إلى قوله ﴿ ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ فسيّئه ... أي فقبيحه مكروه عند الله ، هكذا وجّه ذلك ابن جرير رحمه الله .

ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً ۞ (٣٩)

يقول تعالى : هذا الذي أمرناك به من الأخلاق العالية ، ونهيناك عن الصفات الرذيلة ، مما أوحينا اليك يا محمد لتأمر به الناس ، ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ المراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم .

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ۞ (٤٠)

يقول تعالى رادّاً على المشركين الكاذبين الزاعمين أن الملائكة بنات الله ، ألا لعنهم الله فقد جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، ثم ادعوا أنهم بناته ، ثم عبدوهم فأخطأوا في المقامات الثلاث خطأ عظيماً ، فقال تعالى منكراً عليهم : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين ﴾ أي خصصكم بالذكور ﴿ واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ أي واختار لنفسه على زعمكم البنات ، ثم شدد الإنكار عليهم فقال سبحانه : ﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ أي في زعمكم ان لله ولداً ثم جعلكم ولده **الاناث** التي تأنفون أن يكنّ لكم وربما قتلتموهن بالوَأدِ ، فتلك إذاً قسمة ضِيزَي ﴿ تكاد السموات يتفطّرنَ منه وتنشقّ الأرضُ وتخر الجبال هدّاً أنْ دعوا للرحمن ولدا ۞ وما ينبغي للرحمنْ أن يتخذ ولداً ... ﴾ .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً ۞ (٤١)

هذه الآية كما قال تعالى : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي صرفنا فيه من الوعيد لعلّهم يذّكّرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ **فينزجروا**

عماهُمْ فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿ وما يزيدهم ﴾ أي الظالمين منهم ﴿ إلا نفوراً ﴾ أي عن الحق وبعداً منه .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ۝ (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ۝ (٤٣) ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون أن مع الله آلهة يعبدونها من دونه لتقربهم إليه وتشفع لديه .. ليس الأمر كما تقولون ... إنمّا المعبودون الذين تعبدونهم ، هم أنفسهم يعبدون الله ويتقرّبون إليه ، ويبتغون إليه الوسيلة فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونهم من دونه ، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطةً بينكم وبينه ، فإنه سبحانه لا يحب ذلك ولا يرضاه ، وقد نهى عنه على ألسنة جميع رسله وأنبيائه ، ثم نزه نفسه الكريمة فقال عز من قائل : ﴿ سبحانه عما يقولون ﴾ أي هؤلاء المشركون المعتدون ﴿ علوا كبيراً ﴾ أي تعاليا كبيراً بل هو الله **الأحد** الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ۝ (٤٤) ﴾

يقول تعالى : تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتكبره عما يقول المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته :

ففي كل شيء له آيـــة   تدل على انه واحـــد

روى الطبراني عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ قال لما رجع ليلة أسري به : ٥١ [سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا ، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى] .

وقوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ﴾ أي كل مخلوق يسبح بحمد الله ،

﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ لأنه بخلاف لغاتكم ، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات وهذا أشهر القولين ؛ كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود انه قال : ٥٢ [كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .] . وفي حديث ابي ذر : ٥٣ [أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسُمع لهن تسبيح كحنين النحل ...] وفي سنن النسائي عن عبدالله بن عمر قال : ٥٤ : [نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفادع ، وقال : «نقيقها تسبيح» وروى الامام أحمد عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ في الحديث الذي يذكر فيه وصية نوح لولديه ... إلى أن قال عليه السلام : ٥٥ ... [وآمركما بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء] قال عكرمة : الاسطوانة تسبح ، والشجرة تسبح وقال بعض السلف صرير الباب تسبيحه ، خرير الماء تسبيحه وقال الثوري الطعام يسبح . وقال آخرون : إنما يسبح من كان فيه روح ، يعنون من حيوان ونبات [1] ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ أي انه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره ، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين : ٥٦ [« ان الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾) ومن أقلع عما هو فيه من كفر وعصيان ، ورجع إلى الله وتاب إليه تاب عليه. كما قال تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ وقال ها هنا : ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً ۞ (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ۞ (٤٦) ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : واذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن ، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً أي حائلاً ساتراً عن الأبصار فلا تراه ، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى . ومال إلى ترجيحه ابن جرير رحمه الله وقال قتادة وابن زيد هو الأكنة على قلوبهم وهي جمع كنان الذي يغشي القلب ولهذا قال تعالى ﴿ وجعلنا على

(١) قلت : قوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » عام يشمل ذي الروح وغير ذي الروح .

قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه ﴾ أي لئلا يفهموا القرآن ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به وذلك جزاء إعراضهم عنه وكفرهم به وقوله تعالى : ﴿ وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده ﴾ أي إذا قلت في تلاوتك : لا اله الا الله ﴿ ولّوْا ﴾ أي أدبروا راجعين ﴿ على أدبارهم نفوراً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ وقد أبى الله الا أن يعلي هذه الكلمة الطيبة ، ويظهرها على من ناوأها . إنها كلمة من خاصم بها فلج ، ومن قاتل بها نصر .

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُوراً ۝ (٤٧) ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ (٤٨) ﴾

يخبر تعالى بما يتناجى به رؤساء كفار قريش حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور ، من السحر المشهور ، فمنهم من قال : شاعر ، ومنهم من قال : كاهن ، ومنهم من قال : مجنون ، ومنهم من قال : ساحر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً . قال محمد بن اسحق في السيرة ما خلاصته : أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليستمعوا من رسول الله وهو يصلي بالليل في بيته فأخذ كل واحد مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتّى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق... تلاوموا وتكرّر هذا منهم ثلاثاً ثم أتى الأخنس أبا سفيان في بيته ، فقال اخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها فقال الأخنس وأنا والذي حلفت به . ثم خرج الأخنس حتى أتى أبا جهل فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ : قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسَيْ رهان ، قالوا : منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه ...؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدِّقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

حزب

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ۞ (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ۞ (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ۞ (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً ۞ (٥٢) ﴾

يخبر تعالى عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد والمستنكرين حدوثه بقولهم : ﴿ أئذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴾ أي تراباً وغباراً ﴿ أئنّا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ أي يوم القيامة بعد البلاء والعدم ؟ ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً ﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات ﴿ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ قال ابن عباس : هو الموت والمعنى انه لو استحلتم بعد الموت لا إلى عظام ورفات فحسب بل لو استحلتم إلى حجارة أو حديد لأحياكم الله حتى لو أنكم صرتم موتاً بذاته لجعلكم أحياءً إذا شاء ومتى شاء فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده . وقوله تعالى : ﴿ فسيقولون من يعيدنا ﴾ أي من يعيدنا إذا كنا حجارةً أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فسينغضون اليك رؤوسهم ﴾ أي يحركونها استهزاءً وهذا الذي تعرفه العرب من لغاتها .

وقوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هو ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ أي احذروا ذلك فانه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة ، وقوله تعالى : ﴿ يوم يدعوكم ﴾ أي الرب تبارك وتعالى اذا أمركم بالخروج من الأرض فإنه لا يخالف ولا يمانع بل كما قال تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي انما هو أمر واحد فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها ﴿ فتستجيبون بحمده ﴾ أي تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته ، وله الحمد في كل حال . وقد جاء في الحديث :

٥٧ [ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ، كأني بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون لا إله الا الله] وفي رواية يقولون : ٥٨ [الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن] وقوله تعالى : ﴿ وتظنون ﴾ أي يوم القيامة من قبوركم ﴿ إن لبثتم ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ إلا قليلاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشيةً أوضحاها ﴾ .

﴿ وقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً ﴿٥٣﴾ ﴾

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباده المؤمنين ألاّ يتكلموا إلا الكلام الحسن والكلمة الطيبة وإلاّ نزغ الشيطان بينهم وأخرج الكلام إلى الفعال ، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، إذ أن عداوته ظاهرة من لدن آدم ولهذا نهى ان يشير المسلم إلى اخيه المسلم بالسلاح فإن الشيطان ينزغ [١] في يده أي فربما أصابه بها . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٩ [لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار] أخرجاه من حديث عبد الرزاق .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ أيها الناس أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿ إنْ يشأ يرحمْكم ﴾ بأن يوفقكم إلى طاعته والإنابة اليه ، ﴿ أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك ﴾ يا محمد ﴿ عليهم وكيلاً ﴾ أي إنما أرسلناك نذيراً ، فمن

---

(١) النزغ : وسوسة الشيطان . نزغه : طعنه بيد أو رمح . حركه أدنى حركة .

أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار . ﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية ، ﴿ ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض ﴾ كما قال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين ان رسول الله ﷺ قال : ٦٠ [لا تفضلوا بين الأنبياء] فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهيّ والعصبية لا بمقتضى الدليل ، فإذا دلّ الدليل على شيء ، وجب اتباعه ، ولا خلاف ان الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضلهم وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب : ﴿ وإذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ وفي الشورى في قوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ، ثم بعده إبراهيم ثم موسى ، ثم عيسى عليهم السلام على المشهور. وقد بسطناه بدلائله في غير هذا الموضع ، والله الموفق. وقوله تعالى : ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ تنبيه على فضله وشرفه . والزبور الكتاب الذي نزل على داود ﷺ

﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ (٥٦) أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝ (٥٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ ف ﴾ إنهم ﴿ لا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أي بالكلية ، ﴿ ولا تحويلا ﴾ أي ولا يحوّلونه إلى غيركم ، والمعنى ان الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر ، وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ قال قتادة عن ابن مسعود قال : نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم الجنيّون ، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم ، فنزلت هذه الآية ... وقيل : الملائكة والعزير والمسيح ، وقيل الشمس والقمر ، والصحيح الذي اختار ابن جرير قول ابن مسعود ، لقوله تعالى :

﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ وهذا لا يعبّر به عن الماضي ، فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة ... وقال : الوسيلة هي القربة. قال قتادة : ولهذا قال تعالى : ﴿ أيّهم أقرب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ؛ فبالخوف ينكفّ عن المناهي ، وبالرجاء يكثر من الطاعات . وقوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ، ويُخافَ وقوعُه وحصوله ، عياذاً بالله منه .

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (٥٨)

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتّم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ : انه ما من قرية كفرت إلاّ سيهلكها الله بأن يبيد أهلها جميعَهم، أو يعذبهم ﴿ عذاباً شديداً ﴾ أمّا بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وذلك بسبب خطاياهم. كما قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (٥٩)

روى الامام أحمد عن ابن عباس ، قال : ٦١ [قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ، ونؤمن بك . قال « وتفعلون » قالوا : نعم . قال : فدعا فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفرمنهم بعد ذلك عذبتُه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم ابواب التوبة والرحمة ؛ فقال : « بل باب التوبة والرحمة »] .

وروى الحافظ ابو يعلي عن ام عطاء مولاة الزبير بن العوام حديثاً أطول وبنفس المآل إنما قالت اخيراً بروايتها عن الزبير عنه ﷺ : ٦٢ [... « والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتم ولو شئت لكان ، ولكنه خيرّني بين ان تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم

وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلّوا عن باب الرحمة ، فلا يؤمن منكم أحد ، فاخترت باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم ، وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه يعذبكم عذاباً لا يعذّبه أحداً من العالمين » ونزلت : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاّ أن كذب بها الأوّلون ﴾] والمعنى إن الله تعالى لم يرسل الآياتِ التي طلبها المشركون من قريش إلاّ أنه قد كذب بها الأوّلون بعد ما سألوها ، وجرت سنته تعالى فيهم وفي أمثالهم . انهم لا يؤخرون إن كذبّوا بها بعد نزولها كما قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ قال الله اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ناقة تخرج من صخرة عيّنوها فدعا صالح عليه السلام ربّه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا ... ، فلما ظلموا بها أي كفروا بمن خلقها وأخرجها ، وكذبوا رسوله وعقروها ؛ فقال : ﴿ تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ أي دالة على من خلقها وأنه الواحد الأحد ، وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿ فظلموا بها ﴾ أي كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وقوله تعالى : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ قال قتادة : إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون ، ذكر لنا ان الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه ، فقال : يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه . وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات ، فقال عمر : أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ۞ (٦٠) ﴾

يحرّض تعالى رسوله ﷺ على تبليغ رسالته ، ويخبره بأنه قد عصمه من الناس فالكل في قبضته وذلك بقوله ﴿ وإذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس ﴾ : أي عصمك منهم . وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة للناس ﴾ الآية قال البخاري عن ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ﴿ والشجرة الملعونة

في القرآن ﴾ ﴿ شجرة الزقوم ، وكذا رواه احمد وعبد الرزاق ، وغيرهما عن سفيان بن عيينه به ، وكذا العوفي عن ابن عباس ، وقد رجع أناس من المسلمين عن دينهم بعدما كانوا على الحق لأنه لم تتحمل قلوبهم وعقولهم معجزة الاسراء فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين ولهذا قال : ﴿ إلا فتنة ﴾ أي اختباراً وامتحاناً ، وكل من فسر ﴿ الرؤيا التي أريناك ﴾ ليلة الاسراء ﴿ والشجرة الملعونة ﴾ بشجرة الزقوم ولهذا اختار ابن جرير ان المراد بذلك ليلة الإسراء وان الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم قال : لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك أي في الرؤيا والشجرة وقوله تعالى ، ﴿ وتخوفهم ﴾ أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿ فما يزيدهم إلا طغيانا كبيراً ﴾ أي تمادياً في الكفر والضلال وذلك من خذلان الله لهم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ۝ (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝ (٦٢) ﴾

يذكر تعالى عداوة ابليس لعنه الله لآدم وذريته ، وأنها قديمة منذ خلق آدم وامتناع ابليس عن السجود له تكبّراً واحتقاراً ﴿ أأسجد لمن خلقت طيناً ﴾ كما قال تعالى :﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وقال أيضاً متجرّئاً على الرب والرب يحلم وينظر : ﴿ قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني الى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريته إلا قليلاً ﴾ أي لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم .

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُوراً ۝ (٦٣) وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُوراً ۝ (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝ (٦٥) ﴾

لما سأل ابليس النظرة قال تعالى : ﴿ اذهب ﴾ فقد أنظرتك كما قال تعالى : ﴿ فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم ﴾ أي على أعمالكم ﴿ جزاءً موفوراً ﴾ أي لا ينقص لكم منه شيء .

وقوله تعالى : ﴿ واستفززْ من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال ابن عباس : كل داع إلى معصية الله عز وجل واختاره ابن جرير ، وقيل هو الغناء واللهو .

وقوله تعالى : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ أي كل راكب وماش في معصية الله ، واحمل عليهم بجنو دك خيالتهم ورجلتهم وتسلط عليهم بكل ما تقدر عليه ، كقوله تعالى : ﴿ ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهم أزّاً ﴾ أي تسوقهم إلى المعاصي سوقاً .

وقوله تعالى : ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ أما مشاركة الأموال فهو ما حرموه من أنعامهم من البحائر والسوائب وما أمرهم به من إنفــاق الأموال في معاصي الله تعالى ، وكل مال جمع من خبيث وأنفق في حرام . أما الأولاد : فكل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميته بما يكرهه الله أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله ، أو وأده أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله فقد دخل في مشاركة إبليس . فكل ما عصى الله فيه أوبه أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة . فقد ثبت في الصحيحين ان رسول الله ﷺ وعلى آله قــال ٦٣ : [لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدَّر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً] .

وقوله تعالى : ﴿ وعدهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً ﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس انه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضي بالحق : ﴿ ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ إخبار بتأييده تعالى لعباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ولهذا قال تعالى : ﴿ وكفى بربك وكيلاً ﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً .

﴿ رَبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ● (٦٦) ﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر ، وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى اقليم ؛ ولهذا قال جل وعلا ﴿ انه كان بكم رحيماً ﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ كَفُوراً ۝ (٦٧) ﴾

يخبر تعالى وتبارك أن الناس إذا مسّهم ضرٌّ دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين. ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا مسَّكم الضرُّ في البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه ﴾ أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى ، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هارباً فركب في البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغني عنكم إلا ان تدعوا الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره ، فانه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك عليَّ عهد لئن اخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنّه رؤوفاً رحيماً ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه .

وقوله تعالى : ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ أي سجيته هذا ، ينسى النعم ويجحدها إلاّ من عصم الله .

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ۝ (٦٨) ﴾

يقول تعالى : أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر أو يمطركم بحجارة . كما قال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم

بسَحَرٍ نعمةً من عندنا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ أي ناصر اً يرد ذلك عنكم وينقذكم منه .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ۝ (٦٩) ﴾

يقول تبارك وتعالى : أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعدما اعترفتم بتوحيد نا في البحر وخرجتم إلى البر أن يعيدكم في البحر مرة ثانية فيرسل عليكم قاصفاً من الريح يقصف الصواري ويغرق المراكب ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى . وقوله جل وعلا : ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ أي نصيراً يأخذ بثأركم بعدكم ولا نخاف احداً يتبعنا بشيء من ذلك .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئآت وأكملها كقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ أي يمشي منتصباً على رجليه ويأكل بيديه وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه ، وجعل له سمعاً وبصراًوفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به ، ويفرق بين الأشياء ، ويعرف خواصها نفعاً وضرراً في الأمور الدينية والدنيوية وحملناهم في البر على الدواب من الخيل والبغال وفي البحر على السفن الكبار والصغار ، ورزقناهم من الطيبات من زروع وثمار ولحوم وألبان ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع مما يصنعون لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من الجهات الأخرى ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات . وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة .

روى الحافظ ابو القاسم الطبراني عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : ٦٤ [ان الملائكة قالت : يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو ، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان]

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ۞ (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ۞ (٧٢) ﴾

يخبر تعالى وتبارك عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم قبل نبيّهم ولكن المراد هنا بالإمام هو كتاب الأعمال.ولهذا قال تعالى هنا : ﴿ يوم ندعوا كلَّ أُناس بإمامهم فمن أوتيَ كتابَه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ﴾ أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرأه ويحب قراءته.كقوله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ــ إلى قوله تعالى ــ وأما من أوتي كتابه بشماله ... كما قال تعالى : ﴿ وترى كلَّ أمة جاثية كل أُمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ۞ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبيّ إذا حكم الله بين أمته ، فإنه لا بد أن يكون شاهداً على أمتّه بأعمالها ۞ كقوله تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أُمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً . ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ الفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة وقد روى الحافظ ابو بكر البزار حديثاً في هذا عن أبي هريرة رضي الله عنه ٦٥ [عن النبي ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ قال : [يدعى أُحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويمد له في جسمه ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون : اللهم أتنا بهذا ، وبارك لنا في هذا فيأتيهم فيقول لهم : أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا ، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ويراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا ، اللهم

لا تأتنا به ، فيأتيهم ، فيقولون : اللهم اخزه ، فيقول : أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا »] ثم قال البزار لا يروي إلاّ من هذا الوجه . وقوله تعالى : ﴿ ومن كان في هذه أعمى ﴾ قال ابن عباس وغيره ﴿ ومن كان في هذه ﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿ أعمى ﴾ أي عن حجة الله وآياته ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ أي كذلك يكون ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ أي أضل مما كان في الدنيا عياذاً بالله من ذلك .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ۞ (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا ۞ (٧٤) إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيٰوةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ۞ (٧٥) ﴾

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره ، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليّه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه، وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۞ (٧٧) ﴾

نزلت في كفار قريش لما همّوا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم ، فتوعّدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً ، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلاّ سنة ونصف ، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم ، فقتل اشرافهم وسبى ذراريهم.ولهذا قال تعالى : ﴿ سنّة من قد أرسلنا ﴾ الآية أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ الآية

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝ (٧٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝ (٧٩) ﴾

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ قال ابن عباس : دلوكها زوالها وقال ابن عمر وابن مسعود والحسن والضحاك وغيرهما واختاره ابن جرير ، ومما استشهد عليه ما رواه ابن حميد عن جابر بن عبدالله قال : ٦٦ [دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبي ﷺ فقال : « أخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس »] .

ثم رواه عن سهل بن بكار عن أبي عوانة عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزي عن جابر عن رسول الله ﷺ نحوه [1] فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس ، فمن قوله تعالى : ﴿ لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾ وهو ظلامه أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

وقوله تعالى : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ يعني صلاة الفجر ، وقد تواترت السنة بتفاصيل هذه الأوقات مما تلقاه أهل الاسلام خلفاً عن سلف وقرناً بعد قرن ، كما هو مقرر في مواضعه ، ولله الحمد . ﴿ ان قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ٦٧ [« فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » يقول أبو هريرة : أقرأوا إن شئتم : ﴿ وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾] وفي لفظ في الصحيحين عن ابي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : ٦٨ [يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون] وقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة

---

(١) قلت : الرواية الأولى فيها رجل لم يسمّ وفي الرواية الثانية الذي يرويه عن جابر هو نبيح العنزي فلعل الرجل الذي لم يسمّ في الرواية الأولى هو نبيح العنزي والله أعلم .

لك ﴾ أمرٌ له بقيام الليل وبعد المكتوبة كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : ٦٩ [أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال « صلاة الليل »] ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل فإن التهجد ما كان بعد نوم . قاله علقمة والأسود والنخعي وغير واحد ، وهو المعروف في لغة العرب وقوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ أي إفعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً ، يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشّفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .

(قلت) : لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، أو يساويه فيها أحد :

فهو أول من تنشق عنه الأرض ، ويبعث راكباً إلى المحشر ، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الحوض الذي ليس في الموقف اكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق.وذلك بعدما تسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكل يقول ، لست لها ، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول : « أنالها أنالها » ومن ذلك أنه يشفع في اقوأم قد أمر بهم إلى النار فيردّون عنها وهو أول الأنبياء يقضي بين أمته ، وأولهم إجازةً على الصراط بأمته ، وهو أول شفيع في الجنة كما ثبت في صحيح مسلم .

وفي حديث الصور : إن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلاّ بشفاعته ، وهو أول داخل إليها ، وأمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع في درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم ، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلةٍ في الجنة لا تليق إلاّ له ، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلاّ الله تعالى ، ولا يشفع أحد مثله ، ولا يساويه في ذلك ، ولنذكر الآن بعض الأحاديث الواردة في المقام المحمود والله المستعان .

روى البخاري عن ابن عمر يقول : ٧٠ [إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء كل أمة تتبع نبيّها يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً] ورواه حمزة بن عبدالله عن أبيه عن النبي ﷺ .

روى البخاري عن جابر بن عبدالله ان رسول الله ﷺ قال : ٧١ [من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة . وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة] إنفرد به دون مسلم .

روى الإمام أحمد عن أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال : ٧٢ : [اذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر] أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح واخرجه ابن ماجه قال الإمام أحمد رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ٧٣ [أتى رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ، ثم قال ، «أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ... يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ، ولا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السلام ... — فيعتذر ثم يأتون نوحاً فإبراهيم فموسى فعيسى وكلهم يعتذر بسبب ذنب يعتقد أنه اقترفه فيستحيي ربه وكلهم يقول : نفسي نفسي ... ثم يأتون محمداً ﷺ —[1] ... فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي عز وجل ، ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي ؛ فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول : أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، أمتي يا رب فيقال لي : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال : والذي نفس محمد بيده ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى] أخرجاه في الصحيحين .

وروى رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٤ [أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة ، وأول شافع ، وأول مشفع] .

---

(١) قلت : ما بين المعترضتين من كلامي اختصاراً لمعنى الحديث .

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ۝ (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝ (٨١) ﴾

قال قتادة ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق ﴾ يعني المدينة ﴿ وأخرجني مخرج صدق ﴾ يعني مكة قال الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله تعالى ﴿ وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ قال الحسن في تفسير ها : وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له . قال قتادة فيها : ان نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلاَّ بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم . واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة ، وهو الأرجح لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه.ولهذا يقول تعالى : ﴿ ... وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ وفي الحديث : ٧٥ [إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن] أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع .

وقوله تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ... ﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش ، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه، وهو ما أنزل من القرآن والإيمان والعلم النافع . وزهق باطلهم أي اضمحل وهلك ، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ روى البخاري عن ابن مسعود قال : ٧٦ [دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾]وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي وعبد الرزاق.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝ (٨٢) ﴾

يخبر تعالى عن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ الذي لا يأتيه الباطل ، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل ، فالقرآن يشفي من ذلك كله ، وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه وليس هذا إلاّ لمن آمن به وصدقه واتبعه ، أما الكافر الظالم نفسه بكفره فلا يزيده سماعه للقرآن إلاّ بعداً وكفراً ، والآفة من الكافر لا من القرآن . قال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً * فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَئُوساً * (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا * (٨٤) ﴾

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلاّ من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء ، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية ، ورزق ونصر أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه قال مجاهد : بَعُد عنّا وهذا كقوله تعالى : ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ ﴿ و ﴾ بأنه ﴿ إذا مسّه الشر ﴾ وهو المصائب والنوائب ﴿ كان يئوساً ﴾ أي قنط أن يحصل له خير بعد ذلك كقوله تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منّا رحمة ثم نزعناها منه إنّه ليؤوس كفور ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ أي على دينه وطريقته وهذه الآية – والله أعلم – تهديد للمشركين ووعيد لهم كقوله تعالى : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم ﴾ ولهذا قال جل وعلا : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾ أي منّا ومنكم وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا * (٨٥) ﴾

روى الإمام أحمد بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ٧٧ [كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة ، وهو متوكىء على عسيب فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح . وقال بعضهم : لا تسألوه . قال : فاسألوه عن الروح ، فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فما زال متوكئاً على العسيب . قال فظننت أنه يوحى إليه فقال :﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قال : فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه] . وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث الأعمش به وهذا ... يقتضي فيما يظهر باديء الرأي أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية والدليل على ذلك ما روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : ٧٨ [قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فسألوه . فنزلت : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قالوا : أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً ، قال : وأنزل الله : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، أو أنزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدمة .

روى محمد بن اسحق عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : ٧٩ [نزلت بمكة : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود وقالوا : يا محمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك ، فقال : « كلاً قد عنيت » فقالوا إنك تتلو أنّا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء ؛ فقال رسول الله ﷺ « هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم » وأنزل الله تعالى : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم ﴾ .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال . أحدها : أنها هي أرواح بني آدم التي في أجسادهم . وقيل المراد بالروح ههنا جبريل ، وقيل المراد به ههنا ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها . وقيل المراد طائفة من الملائكة على صور بني آدم ، وقيل : طائفة يرون الملائكة ولا تراهم ، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم [١] أما قوله

---

(١) فيما يبدو — والله أعلم — ان المراد بالروح ها هنا ... الروح التي في الجسد أما الروح اطلاقاً فلها معان عدة، منها الروح التي في الجسد، والروح هو جبريل، والروح هي كلمة «كن» ويتجلى المراد منها بحسب موقعها، وكل هذه المعاني وردت في القرآن . أما كونها ملك عظيم اسمه الروح أو هم قبيل من الملائكة فليس من دليل صحيح ثابت فيما أعلم والله تعالى أعلم .

تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أي إن الروح من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلاّ على القليل فانه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلاّ بما شاء تبارك وتعالى .

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ۞ (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ۞ (٨٧) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۞ (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۞ (٨٩) ﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ ، فيما أوحاه إليه من القرآن العظيم المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد قال ابن مسعود رضي الله عنه ، يطرق الناسَ ريح حمراء – يعني في آخر الزمان – من قبل الشام فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية » ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمع الإنس والجن واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك لأن هذا الأمر لا يستطاع . وكيف يشبه كلامُ المخلوقين كلامَ الخالق الذي ليس كمثله شيء . وقوله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا للناس ﴾ الآية ... أي بيّنا لهم الحجج والبراهين القاطعة وبسّطنا لهم الحق . ومع هذا فأبى أكثر الناس إلا جحوداً للحق ورَداً للصواب .

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ۞ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۞ (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ

تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَـٰئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾

روى ابن جرير عن ابن عباس ما ملخصه : ٨٠ [دعا أكابر قريش محمداً ﷺ فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ، ويعزّ عليه عنتهم حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا وان كنت تريد ملكاً ملكناك عليناوان كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي ـ فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ، فقال رسول الله ﷺ « ما بي ما تقولون ؛ ما جئتكم بما جئتكم به ، أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكمَ الله بيني وبينكم »]أو كما قال رسول الله ﷺ تسليماً .

ثم طلبوا منه وسألوه أن يسأل ربه ـ على سبيل العناد والكفر ـ فليسيّر عنا هذه الجبال ، وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ... فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وانه بعثك رسولاً كما تقول .

ثم سألوه أن يسأل ربه ان يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن

كنت رسولاً كما تزعم . وكان يجيبهم ﷺ في كل مرة ما أجابهم في المرة الأولى ، قالوا فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك ، فإنا لن نؤمن لك إلاّ أن تفعل ، فقال لهم رسول الله ﷺ « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك » فقالوا يا محمد : أما علم ربك إنّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلّمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وإنّا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتّى نهلكك أو تهلكنا ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتّى تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، فلما قالوا ذلك ، قام رسول الله ﷺ عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ، وهو ابن عمته عاتكة إبنة عبد المطلب ؛ فقال : يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبلْ منهم ، ثم سألوك أموراًليعرفوابهامنزلتك من الله فلم تفعل ذلك ، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب ، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتّى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا انظر حتّى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك ، ثم انصرف رسول الله ﷺ حزيناً أسفاً لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه) .

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له ، لو علم الله منهم انهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه ، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً .

وقوله تعالى : ﴿ حتّى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ الينبوع : العين الجارية ، فقد سألوه أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا ، وذلك سهل على الله تعالى يسير ، لو شاء لفعله ، ولأجابهم إلى جميع ما سألوا ، ولكن علم أنهم لا يهتدون كقوله تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت ﴾ أي عجل لنا العذاب الذي تعدنا به يوم القيامة من انشقاق السماء وتدلي أطرافها فأسقطها الآن قطعاً كما قال قوم شعيب له : ﴿ أَسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم وأما نبيُّ الرحمة فسأل إنظارهم وتأجيلهم لعلَّ الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئاً ، وكذلك وقع فإن من هؤلاء الذين كفروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتّى عبد الله بن أبي أمية

الذي تقدم ذكره ... أسلم إسلاماً تاماً وأناب إلى الله عز وجل . وقوله تعالى : ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ ، أي من ذهب في قراءة ابن مسعود وقال ابن عباس وغيره نحوه ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ أي تصعد في السماء في سلم ونحن ننظر إليك ﴿ ولن نؤمن لرقيّك حتى تُنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ أي مكتوب فيه إلى كل واحد منهم هذا كتاب من الله إلى فلان بن فلان تصبح موضوعة عند رأسه ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً ﴾ أي سبحانه أن يتقدم أحدٌ بين يديه في أمرٍ من أمور سلطانه ، بل هو الفعال لما يشاء وما أنا إلا رسول اليكم أبلغكم الرسالة وأنصح لكم وقد فعلت ذلك . وأمركم فيما سألتموه إلى الله عز وجل .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَراً رَسُولاً ۞ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً ۞ (٩٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وما منع الناس ﴾ أي أكثرهم ﴿ أن يؤمنوا ﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً كما قال تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ والآيات في هذا كثيرة ، ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه ويخاطبوه، ولو بعث رسولاً ملكاً لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ منه كما قال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنّين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ أي من جنسهم ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمةً .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ۞ (٩٦) ﴾

يقول تعالى : مرشداً لنبيه ﷺ إلى الحجة البالغة على قومه في صدق ما جاءهم به : انه أي الله شاهد عليَّ وعليكم ، عالم بما جئتكم به ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم منّي

أشد الانتقام .كما قال تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي عليماً بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة [١] ؛ ولهذا قال سبحانه :

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ۞ (٩٧) ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في خلقه ، ونفوذ حكمه ، وأنه لا معقِّب لحكمِهِ ، فمن يهده فلامضلّ له ، ومن يُضللِ فلن تجد له أولياء من دونه أي يهدونهم.وقوله تعالى :﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك يقول : ٨١ [قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال « الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم »] وأخرجاه في الصحيحين . وقوله تعالى : ﴿ عمياً ﴾ أي لا يبصرون ﴿ وبكماً ﴾ يعني لا ينطقون ، ﴿ وصماً ﴾ لا يسمعون جزاءً لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق ، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿ مأواهم ﴾ أي مصيرهم ﴿ جهنم كلما خبت ﴾ أي طفئت ﴿ زدناهم سعيراً ﴾ أي لهباً ووهجاً وجمراً ، كما قال سبحانه : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلاّ عذابا » .



﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ۞ (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَىٰ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُوراً ۞ (٩٩) ﴾

(١) قلت : أي علم بسابق علمه من سيؤمن من خلقه فيستحق الإنعام والإحسان والهداية بتثبيته على الإيمان جزاء ما آمن ، ومن سيكفر منهم فيستحق منه الشقاء والإضلال والإزاغة جزاء ما كفر كما قال تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » والحمد لله على التوفيق بنعمة الإيمان .

يقول تعالى : هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه لأنهم كذّبوا ﴿ بآياتنا ﴾ أي بأدلّتنا وحججنا . واستبعدوا وقوع البعث ﴿ وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورفاتاً ﴾ أي بالية نخرة ﴿ أإنّا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾؟ أي بعد البلى والهلاك تُعاد مرة ثانية !؟ فنبههم الله تعالى على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض ، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال تعالى : ﴿ لَخلْقُ السموات والأرض أكبرُ من خلق النّاس ﴾ وقال ههنا : ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم . وقوله تعالى : ﴿ وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً لا بد من انقضائه ، كما قال تعالى : ﴿ وما نؤخره إلاّ لأجل معدود ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأبىَ الظالمون ﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿ إلاّ كفوراً ﴾ أي تمادياً في كفرهم .

﴿ قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنْفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ قَتُورًا ۞ (١٠٠) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرفَ في خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق أي خشية ان تذهبوها فتفتقرون مع أنها لا تنفد أبداً ، لأن هذا من طباعكم ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ وكان الإنسان قتورا ﴾ أي بخيلاً منوعاً ، كما قال تعالى : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ أي لما أعطوا أحداً شيئاً لأن البخل والجزع والهلع صفة للإنسان ، وهذا عام فيه ، إلا من وفقه الله وهداه .كما قال تعالى : ﴿ إن الإنسان خُلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً واذا مسّه الخير منوعا إلا المصلّين ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا ۞(١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۞ (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً ۞ (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ٱسْكُنُوا ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ۞ (١٠٤)

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته ، وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون ، وهي : العصا ، واليد ، والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات قاله ابن عباس ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها ، كفروا بها وجحدوا ، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ، وما نجعت فيهم ؛ فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا ، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً إلى آخرها ... لما استجابوا ولا آمنوا إلاّ أن يشاء الله ، كما قال فرعون لموسى وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات : ﴿ إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ قيل بمعنى ساحر والله تعالى أعلم . وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة ، منها ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه ، ومنها تظليلهم بالغمام ، وانزال المن والسلوى ، وغير ذلك مما أوتوه بنو اسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ولكن ذكرها هنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً .

وقوله تعالى : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ أي ما أنزل هذه الآيات التسع إلا رب السموات والأرض حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ أي هالكاً مغلوباً ملعوناً .

وقوله تعالى : ﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ أي يخليهم منها ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ فإن أهلَ مكة همُّوا بإخراج الرسول منها ولهذا أورث الله رسولَه مكة فدخلها فاتحاً وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً ، وكما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني اسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ أي جميعكم أنتم وعدوكم .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝ (١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ۝ (١٠٦) ﴾

يخبر تعالى عن كتابه العزيز أنه بالحق نزل أي متضمناً للحقّ كما قال تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾ أي متضمناً علمَ الله الذي أراد أن يُطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه ، وقوله تعالى : ﴿ وبالحق نزل ﴾ أي ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يُشَب بغيره ولا زيد فيه ولا نقص منه بل وصل إليك بالحق وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ أي مبشراً لمن أطاع ونذيراً لمن عصى . وقوله تعالى : ﴿ وقرآناً فرقناه ﴾ أما قراءة التخفيف أي فصلْناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا وبالتشديد أي نزّلناه أي آيةً آية مفرقاً منجّماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة مبينا ومفسراً ولهذا قال سبحانه : ﴿ لتقرأه على الناس ﴾ أي لتبلغه لهم وتتلوه عليهم ﴿ على مُكثٍ ﴾ أي مهل ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ أي شيئاً بعد شيء .

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ۝ (١٠٩) ﴾

سجدة

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بما جئتهم من القرآن العظيم : ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ أي سواء آمنتم به أم لم تؤمنوا ، فهو حقٌ أنزله الله ، ونوّه بذكره في كتبه المتقدمة ولهذا قال تعالى : ﴿ إنَّ الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ أي من صالحي أهل الكتاب العالمين العاملين به كما نزل ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ هذا القرآن ﴿ يخرّون للأذقان ﴾ جمع ذقن ﴿ سجّداً ﴾ لله سبحانه شكراً على ما أنعم عليهم من إدراكهم هذا الرسول الكريم الذي أنزل عليه هذا الكتاب ، ولهذا يقولون : ﴿ سبحان

ربنا ﴾ أي تنزيهاً وتعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة وأنه لا يخلف وعده الذي وعده على ألسنة الأنبياء المتقدمين والمبشرين ببعثة محمد ﷺ ولهذا قال تعالى مخبراً عن قولهم : ﴿ سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويخرّون للأذقان يبكون ﴾ خضوعاً له عز وجل ، وإيماناً بكتابه ورسوله ﷺ ﴿ ويزيدهم خشوعاً ﴾ أي تصديقاً وتسليماً كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ .

﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ (١١٠) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝ (١١١) ﴾

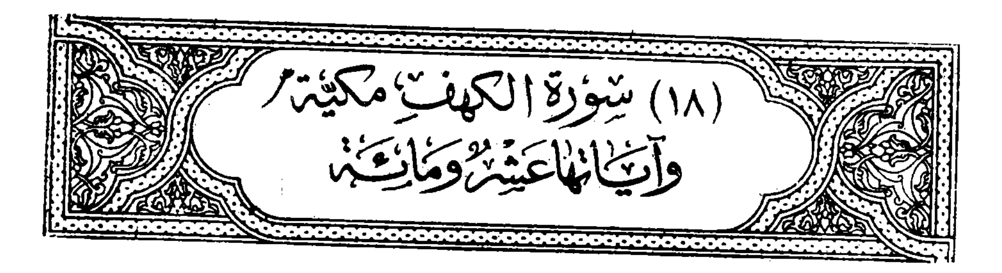
روى مكحول : ٨٢ [ان رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم فقال : إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية .] وكذا روي عن ابن عباس ، رواهما ابن جرير .

فقوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل المانعين من تسميته بالرحمن لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن فإنه ذو الأسماء الحسنى كما قال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم – إلى قوله تعالى – له الأسماء الحسنى يسبح اله ما في السموات والأرض ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : ٨٣ [نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة ، ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فلما سمع ذلك المشركون سبّوا القرآن وسبّوا من أنزله ومن جاء به قال فقال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ ولا تجهرْ بصلاتك ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابكِ فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ أخرجاه في الصحيحين ، وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس ، وزاد :

٨٤ [فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك ، يفعل أيَّ ذلك شاء] .

وقوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزَّه نفسه عن النقائص فقال سبحانه : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿ ولم يكن له ولي من الذلّ ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى ولي أو وزير أو مشير ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له ، ومدبرها بمشيئته وحده ﴿ وكبرّه تكبيراً ﴾ أي عظّمْه ، وأَجلَّه عما يقولُ الظالمون المعتدون علواً كبيراً . آخر اختصار سورة الإسراء ولله الحمد والمنة .

١٣٨٩/٧/١٩
١٩٦٩/٩/٣٠



إلاّ الآية /٢٨/ ومن آية ٨٢ ـ ١٠١ فمدنية نزلت بعد سورة الغاشية

* * *

ذكر ما ورد في فضلها :

روى الإمام أحمد عن البراء يقول : ٨٥ [قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « إقرأ فلان فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت للقرآن »] أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير كما تقدم في سورة البقرة .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : ٨٦ [من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال] رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي

من حديث قتادة به ، ولفظ الترمذي : ٨٧ [من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف] وقال حسن صحيح .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : ٨٨ [من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجّال] ورواه مسلم أيضاً والنسائي من حديث قتادة به ولفظ النسائي : ٨٩ [من قرأ عشر آيات من الكهف ...] فذكره .

وأخرج الحاكم في مستدركه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : ٩٠ [من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين] ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ۞ (١) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ۞ (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ۞ (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ۞ (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ۞ (٥) ﴾

قد تقدم في أول التفسير انه تعالى يحمد نفسه المقدسة ، عند فواتح الأمور وخواتمها ، فإنه المحمود على كل حال ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله عليه وسلامه . فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ بل يهدي إلى صراط مستقيم واضحاً بيّناً ، نذيراً للكافرين، بشيراً للمؤمنين. ولهذا قال تعالى: ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي ليس معوجاً ولا مائلاً بل ﴿ قيّماً ﴾ أي مستقيماً ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ أي لينذر به الذين لم يؤمنوا به عقوبة في الدنيا والآخرة ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ أي الذين صدّقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ أن لهم أجراً حسناً ﴾ أي مثوبة من عند الله ﴿ ماكثين فيه ﴾ في ثوابهم وهو الجنة خالد فيه ﴿ أبداً ﴾ دائماً لا زوال له .

وقوله تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ المعنيّون بهذه الآية كل من قال هذا من أي أمة من الأمم وان كان نزولها من أجل المشركين العرب لما قالوا نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله ﴿ ما لهم به من علم ﴾ بهذا الافتراء والإفك ﴿ ولا لآبائهم ﴾ أي لأسلافهم ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ، ولا دليل عليها إلاّ كذبهم.ولهذا قال جل وعلا : ﴿ إن يقولون إلاّ كذباً ﴾ وقد ذكر

محمد بن اسحق سبب نزول هذه الآية الكريمة فقال – ما ملخصُهُ – عن ابن عباس قال : ٩١ [بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته فإنهم أهل الكتاب ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله : فقالوا سلوه عن ثلاث فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلاَّ فرجل متقول فتروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية : ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، فعاد النضر وعقبة حتى قدما على قريش فأخبراهم بما قال أحبار اليهود فجاءت قريش وسألت النبي ﷺ عن ذلك فقال لهم ﷺ : « أخبركم غداً عما سألتم عنه » ولم يستثن[1] فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يأتيه جبريل بالوحي حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا فيها ، لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن الروح ... ﴾ الآية] .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۞ (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۞ (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۞ (٨) ﴾

يسلّي الله تعالى نبيّه ﷺ في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبُعدهم عنه ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ يقول لا تهلك نفسك أسفاً وحزناً ، أي لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تُذهب نفسك عليهم حسرات . وقوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا ما على

(١) قلت : أي لم يقل : ان شاء الله .

الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ أي أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار فقال تعالى : ﴿ وإنّا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ أي وإنّا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، لا ينبت صعيدها ولا ينتفع به . والصّعيد الجرز أي البلقع الذي ليس فيه شجر ولا نبات . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً * (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً * (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * (١٢) ﴾

هذا إخبار مجمل من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف ، فقال سبحانه : ﴿ أم حسبت ﴾ يعني يا محمد ﴿ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ أي ليس امرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرته تعالى أعجب من أخبار أصحاب الكهف . وأما الكهف فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ اليه هؤلاء الفتية المذكورون وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس : هو وادٍ قريب من أيلة قال الضحاك : أما الكهف فهو الغار والرقيم اسم الوادي وقال سعيد بن جبير : الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف . وقال ابن جرير : الرقيم فعيل بمعنى مرقوم كما يقال للمقتول قتيل واختاره **والرقيم الكتاب**

وقوله تعالى : ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربّنا آتنا من لدنك رحمةً وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فرّوا بدينهم من قومهم لئلاّ يفتنوهم عنه، فهربوا منهم فلجأوا إلى غارٍ في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا : ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمةً ﴾ أي هب لنا رحمة تسترنا عن قومنا ﴿ وهيء لنا

من أمرنا رشداً ﴾ أي اجعل عاقبتنا رشداً .كما جاء في الحديث : ٩٢ [وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدا .] وقوله تعالى : ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً﴾ أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف سنين عديدة ﴿ ثم بعثناهم ﴾ أي من رقدتهم تلك ﴿ لنعلم أي الحزبين ﴾ أي المختلفين فيهم ﴿ احصى لما لبثوا أمدا ﴾ أي أحصى عدداً لما لبثوا في الكهف اي غاية ما لبثوا فيه .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۞ (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطًا ۞ (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ۞ (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ۞ (١٦) ﴾

وهنا شرع في تفصيل قصة أصحاب الكهف وشرحها ، فذكر تعالى أنهم فتية أي شباب ، وهم أقبل للحق من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان اكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً ، وأما المشايخ من قريش ، فعامتهم بقوا على دينهم ولم يُسلمْ منهم إلاّ القليل . وهكذا اخبر تعالى عن اصحاب الكهف أنهم كانوا فتيةً شباباً ، فآمنوا بربهم أي اعترفوا له بالواحدانية ، وشهدوا أن لا إله إلا الله ﴿ وزدناهم هدى ﴾ وقد استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص.ولهذا قال تعالى : ﴿ وزدناهم هدى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ﴾ وكما قال سبحانه : ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك وقد قيل انهم كانوا على دين النصرانية ، والظاهر أنهم سبقوا زمن المسيح عليه الصلاة والسلام لاعتناء اليهود بحفظ خبرهم وقد تقدم عن ابن عباس ان قريشاً بعثوا إلى احبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم

أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ، فبعثوا اليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء ، وعن خبر ذي القرنين ، وعن الروح فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ يقول تعالى : وصبرناهم على مخالفة قومهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ، فقد ذكر غير واحد من السلف والخلف أنهم كانوا من ابناء ملوك الروم وسادتهم ، وقد فارقوا قومهم الذين كانوا يعبدون الاصنام والطواغيت ويذبحون لها ، وكان لهم ملك جبار يأمر الناس بذلك ، ولما خرج الناس يوماً في بعض أعيادهم خرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ونظروا إلى ما يصنع قومهم من السجود والذبح لغير الله تعالى عرفوا أن هذا لا ينبغي إلا لله خالق السموات والأرض فانحاز كل من الفتية عنهم ، فكان أول من جلس وحده أحدهم تحت ظل شجرة ، ثم أتى إليه الآخر فالآخر ولا يعرف واحد منهم الآخر وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان وقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ٩٣ [الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها أئتلف ، وما تناكر منها اختلف] واخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً . وقد جعل كل واحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم ، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم : تعلمون والله يا قوم ، أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلاّ شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره ؛ فقال آخر : أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل ، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ، وقال كل واحد منهم ذلك حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة ، فصاروا يداً واحدةً وإخوانَ صدق فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه ، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم ، فاستحضرهم فسألهم فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله جل وعلا : ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً ﴾ أي باطلاً وكذباً وبهتاناً ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهةً لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن ﴾ أي هلاّ أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ أي لا أظلم ممن يفتري على الله الكذب ، فغضب عليهم الملك ، وأمر بنزع لباس الزينة عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم ، وهددهم إن لم يعودوا إلى دين قومهم ، ثم أجلهم لينظروا في أمرهم

لعلهم يرجعون ، وكان هذا من لطف الله بهم لانهم توصلوا بهذا التأجيل إلى الهرب والفرار بدينهم من الفتنة ، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن بين الناس ، كما جاء في الحديث : ٩٤ [يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن] ولا تشرع العزلة فيما عدا ذلك ، فلما وقع عزمهم على الهرب واختار الله لهم ذلك بقوله جل وعلا : ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ أي فارقتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ﴿ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أي يرحمكم ويستركم من قومكم ﴿ ويهيء لكم من أمركم ﴾ الذي انتم فيه ﴿ مرفقاً ﴾ أي أمراً ترتفقون به ، فعند ذلك هربوا إلى الكهف فأووا إليه ففقدهم قومهم من بين أظهرهم ، وتطلبهم الملك ولكن عمّى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيّه محمد ﷺ وصاحبه الصدّيق حين لجآ إلى الغار وعمّى الله عنهما المشركين فلم يهتدوا إليهما لذلك قال رسول الله ﷺ للصديق : ٩٥ [يا أبا بكر ما ظنّك باثنين الله ثالثهما] ، ولا شك أن قصة غار حراء أجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف .

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ (١٧)

فهذا فيه دليل على ان هذا الكهف كان من جهة الشمال [١] ، لأنه تعالى أخبر ان الشمس اذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ ذات اليمين ﴾ أي يتقلّص الفيءُ يمنةً وذلك إنها كلما ارتفعت في الأفق تقلّص شعاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل هذا المكان ولذلك قال عز وجل : ﴿ واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق ، فدل على صحة ما قلناه ، وقد اخبر الله

(١) أي هو في الجهة الشمالية لكن بابه متجه نحو الجنوب ، وعلى هذا فيكون يمينه غرباً وشماله شرقاً فإذا أشرقت الشمس دخلت أشعتها إلى الكهف وملأت الجهة الغربية وإذا غَرُبت دخلت أشعتها إلى الكهف وملأت الجهة الشرقية منه وذلك لأن باب الكهف متجه إلى الجنوب .

تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبيره ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض، إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً فقيل في أيلة وقيل ببلاد الروم، وقيل: ببلاد البلقاء[1] والله أعلم بأي بلاد الله هو ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه فقد قال ﷺ : ٩٦ [ما تركت شيئاً يقرّبكم إلى الجنة ، ويباعدكم من النار إلاّ وقد أعلمتكم به] .

وقوله تعالى : ﴿ وهم في فجوةٍ منه ﴾ أي في متسع منه داخلاً بحيث لا تصيبهم الشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم ثم قال سبحانه : ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء ، ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ أي هو الذي أرشد هؤلاء إلى الهداية من بين قومهم فإنه من هداه الله اهتدى ، ومن أضلّه فلا هادي له .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۞ (١٨) ﴾

لما ضرب الله عليهم بالنوم ، شاء سبحانه أن تبقى أعينهم مفتّحة وهم رقود ولذا قال تعالى : ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴾ وقوله جلا وعلا : ﴿ ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ قال ابن عباس : لو لم يقلّبوا لأكلتهم الأرض، وقوله تعالى : ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ الوصيد : الباب الموصد أي ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب وكان جلوسه بفناء الباب من الخارج ٩٧ [لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب] ، كما ورد في الصحيح ٩٨ [ولا صورة ولا جنب ولا كافر] كما ورد فيه الحديث الحسن ، وشملت بركتهم كلبهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال وهذا فائدة صحبة الأخيار فإنه صار لهذا الكلب ذكرٍ وخبر وشأن وقوله تعالى : ﴿ لو اطلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلاّ هابهم وذعر منهم ، لئلاّ يدنو منهم أحد ولا تمسّهم يدُ لامس ، حتى يبلغ الكتابُ أجلَه وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم ، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة .

---

(١) أيلة : العقبة . بلاد الروم : هي الأناضول اليوم . البلقاء : بلاد الأردن .

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۞ (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَدًا ۞ (٢٠) ﴾

يقول تعالى : كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم ، لم يفقدوا من أحوالهم وهيأتهم شيئاً وذلك بعد ثلثمائة وتسع سنين ، ولهذا تساءلوا بينهم : ﴿ كم لبثتم ﴾ أي رقدتم ؟ ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار ، واستيقاظهم كان في آخر النهار ولهذا استدركوا فقالوا : ﴿ أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ أي الله أعلم بأمركم ، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم ، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا : ﴿ فابعثوا أحدكم بوَرِقِكم هذه ﴾ أي فضتكم هذه ، وذلك أنهم لما أَوَوا إلى الغار استصحبوا معهم دراهمَ من منازلهم لحاجتهم إليها ﴿ إلى المدينة ﴾ التي خرجوا منها ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾ أي أطيب طعاماً ﴿ وليتلطف ﴾ أي في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه ﴿ ولا يُشعِرنَّ ﴾ أي ولا يعلمن ﴿ بكم أحداً ۞ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم ﴾ أي إنْ علموا مكانكم ﴿ أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس ، فلا يزالون يعذبونهم إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا ، فإن وافقتموهم على العود في الدين الكافر فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا قال : ﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ

بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً ۞ (٢١)

يقول تعالى : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ ذكر غير واحد من السلف : انه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث و القيامة ، ومنهم من قال تبعث الأرواح دون الاجساد ، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك ، ولما ذهب أحدهم ليشتري طعاماً دخل البلدة فأنكرها فرأى البلد غير البلد والأهل غير الأهل فظن به مسأ وما به من شيء إنما تبدل الناس قرناً بعد قرن وأمة بعد أمة ، ثم رأى ان يتعجل بالخروج من البلدة ، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام فدفع إليه ما معه من النفقة ، فلما رأى نقوده أنكرها وانكر ضربها فدفعها إلى جاره ، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون : لعل هذا وجد كنزاً فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النقود فقال أنا من أهل هذه البلدة وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس ، فنسبوه إلى الجنون ، فحملوه إلى ملكهم فسأله عن شأنه فأخبره بأمره وهو متحيّر في حاله وما هو فيه فقام ملك البلد وأهلها .. حتى انتهى بهم إلى الكهف فقال لهم : دعوني اتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل ، فيقال انهم لا يدرون كيف ذهب فيه ، واخفى الله عليهم خبرهم ، ويقال بل دخلوا عليهم ورأوهم ، وسلم عليهم الملك واعتنقهم وكان مسلماً فيما قيل ، ففرحوا به وآنسوه بالكلام ثم ودعوه وسلموا عليه ، وعادوا إلى مضاجعهم وتوفاهم الله عز وجل والله أعلم [١] .

وكان اطلاع أهل ذلك الزمان على حقيقة أهل الكهف حجة للمسلمين منهم وحجة على منكري البعث وأهل الشرك منهم . وقوله تعالى : ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ أي في أمر القيامة فمن مثبت لها ومنكر ﴿ فقالوا ﴾ أي المسلمون [٢] منهم ﴿ ابنوا عليهم

---

(١) قلت : أرجح الرواية الثانية القائلة : بل دخلوا عليهم ورأوهم ... الخ وهذا مطابق لقوله تعالى : « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها » . وإلا فكيف يقول الله : « وكذلك أعثرنا عليهم » ويتم مراد الله وحكمته من بعث أهل الكهف ، وتنجلي وتظهر الحجة والدلالة على قدرة الله على البعث فتقوم الحجة البالغة على الذين كانوا ينكرون البعث من أهل ذلك الزمان ويعلمون ان وعد الله حق وان الساعة آتية لا ريب فيها كما قال الله تعالى ..؟

(٢) قلت : جملة : « أي المسلمون منهم » ليس من كلام المفسر رحمه الله، بل من كلامي لأن هذا يوافق شريعة الاسلام التي لا تقول ببناء المساجد على القبور بل قولهم : « إبنوا عليهم بنياناً » هو الموافق لشريعة الإسلام لذلك استنتجت ان أصحاب هذا القول مسلمون .

بنياناً ربهم اعلم بهم ﴾ أي سدّوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم ﴿ قال الذين غَلَبُوا على أمرهم ﴾ أي أصحاب الكلمة والنفوذ : ﴿ لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ وليس هذا القول محموداً لأنه مخالف لقوله ﷺ : ٩٩ [لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد] يحذر ما فعلوا « وملة الإسلام ملة واحدة عقائدها هي هي من لدن آدم إلى نبينا عليهم الصلاة والسلام » (١)

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝ (٢٢) ﴾

حكى الله تعالى ثلاثة أقوال عن عدة أهل الكهف فدل على أنه لا قائل بقول رابع ولما ضعّفَ القولين الأولين بقوله عز وجل ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي قولاً بلا علم ، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله تعالى : ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ فدل على صحته وأنه هو الواقع في نفس الأمر ، وقوله تعالى : ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ ارشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذا لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، لكن اذا اطلعنا على أمرٍ قلنا به وإلاّ وقفنا . وقوله تعالى : ﴿ ما يعلمهم إلاّ قليل ﴾ أي من الناس . قال قتادة : قال ابن عباس أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل كانوا سبعة . أما اسماؤهم فليس هناك من قول صحيح بذلك ، فإن غالب ما في الأمر اخبار متلقاة من أهل الكتاب ولا يترتب على معرفة اسمائهم كبير فائدة وقد قال تعالى : ﴿ فلا تمار فيهم إلاّ مراءً ظاهراً ﴾ أي سهلاً هيناً ﴿ ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً ﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك والذي عندهم فهو لا يستند إلى كلام معصوم وقد جاءك الله يامحمد بالحق الذي لا شك ولا مرية فيه فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝ (٢٤) ﴾

(١) ما بين القوسين الصغيرين من كلامي .

هذا إرشاد منه تعالى لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى علام الغيوب . وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف (غداً أجيبكم) فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً وقد ذكرناه ملخصاً في أول السورة ... وقوله تعالى: ﴿ واذكر ربك إذا نسيت﴾ أي اذا نسيت ان تقول إن شاء الله لشيء ستفعله في المستقبل، فقل إن شاء الله عندما تذكره قاله ابو العالية والحسن البصري وعن ابن عباس قال : في الرجل يحلف له أن يستثني ولو إلى سنة وقوله تعالى : ﴿ وقل عسى ان يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ أي اذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه ، وتوجه اليه في ان يوفقك للصواب وللرشد في ذلك والله أعلم .

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعاً ۝ (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۝ (٢٦) ﴾

يخبر تعالى رسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان وأنه كان مقدار لبثهم ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية وهي ثلثمائة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين،فلهذا قال تعالى﴿ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ أي اذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء بل قل في مثل هذا ﴿ الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه عليه من خلقه ، وهذا الذي قلناه قاله غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف .

وقوله تعالى : ﴿ أبصر به واسمع ﴾ أي ما ابصره وأسمعه يعني لا أحد أبصر من الله ولا أسمع وقوله تعالى : ﴿ ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ أي انه تعالى له الخلق والأمر لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير تعالى الله وتقدس .

﴿ وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۞ (٢٧) وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۞ (٢٨) ﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه للناس ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل وقوله تعالى : ﴿ ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ أي ملجأ قال ابن جرير ؛ يقول الله إن انت يا محمد لم تتل ما أوحي اليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله سواءٌ كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء . روى مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص قال : ١٠٠ [كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال وكنت أنا وابن مسعود وبلال ورجل من هذيل ورجلان نسيت اسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ انفرد باخراجه دون البخاري .

روى الحافظ ابو بكر البزار عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا : ١٠١ [جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحج أو سورة الكهف ، فسكت ؛ فقال رسول الله ﷺ : « هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم . »]

روى الطبراني عن عبدالرحمن بن سهل بن حنيف قال ١٠٢ [نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية فخرج يلتمسهم ، فوجد قوماً يذكرون الله تعالى ، منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب

الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم »]

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ قال ابن عباس ولا تجاوزهم إلى غيرهم ، يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿ ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع ، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً له ولا محباً لطريقته ، ولا تغبط بما هو فيه .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ (٢٩)

يقول تعالى لرسوله ﷺ : وقل يا محمد للناس ، هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إنّا اعتدنا ﴾ أي أرصدنا ﴿ للظالمين ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ أي سورها قال ابن جريج : قال ابن عباس أي حائط من نار . وقوله تعالى : ﴿ وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ قال ابن عباس : المهل : الماء الغليظ مثل دردي الزيت – اي عكر الزيت – وهو أسود منتن غليظ حار ولهذا قال سبحانه : ﴿ يشوي الوجوه ﴾ من حرّه إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتّى تسقط جلدة وجهه فيه . وقوله تعالى : ﴿ بئس الشراب ﴾ أي بئس هذا الشراب كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وساءت مرتفقا ﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ

مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَائِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴿٣١﴾

لما ذكر تعالى حال الاشقياء ، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا ، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة ، فلهم جنات عدن والعدن الإقامة ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم ﴿ يحلّون ﴾ أي من الحلية ﴿ فيها من أساور من ذهب ﴾ وقال في المكان الآخر ﴿ ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ وفصله ها هنا فقال سبحانه : ﴿ ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق ﴾ فالسندس لباس رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها وأما الاستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق .

وقوله تعالى : ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ أي المتكآت والأرائك جمع أريكة وهي السرير تحت الحجلة [١] وقوله تعالى : ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ أي نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم وحسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً .

وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ

(١) قلت : ما يزين بالثياب والبستور للعروس وهو ما يسمى في زماننا (بالقرنة / وما يسمى أيضاً / بالقياس/) اذا كان طويلا وله متكآت ومساند .

هٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين ، وافتخارهم عليهم بأموالهم وأحسابهم ، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين ، أي بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل ، المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع ، وكل ذلك مثمر في غاية الجودة ولهذا قال تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ﴾ أي أخرجت ثمرها ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ أي ولم تنقص منه شيئاً ﴿ وفجرنا خلالهما نهرا ﴾ أي والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا ﴿ وكان له ثمر ﴾ أي ثمار ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره ﴾ أي يخاصمه ويجادله مفتخراً عليه : ﴿ أنا اكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ أي اكثر خدماً وحشماً وولداً .

وقوله تعالى : ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ﴾ أي بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿ قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار الجارية في أرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف ، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله ، واعجابه بالحياة الدنياوزينتها ، وكفره بالآخرة ، ولهذا قال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي كائنة ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا .

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ

ٱلسَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۞ (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۞ (٤١)

يخبر تعالى عما وعظه به صاحبه المؤمن زاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ﴾ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه كما قال تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ أي كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية لا ينكرها أحد ويعلمها من نفسه فإن كل أحد من المخلوقات يعلم أنه كان عدماً ، ولا يستند وجوده إلى شيء من المخلوقات لأنها مثله فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله الا هو خالق كل شيء ، ولهذا قال المؤمن ﴿ لكنا هو الله ربي ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك بل اعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿ ولا أشرك بربي أحداً ﴾ بل هو المعبود وحده لا شريك له .

ثم قال : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة إلاّ بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً ﴾ أي هلا إذا اعجبتك حين دخلتها ، ونظرت اليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك وقلت ما شاء الله لا قوة الا بالله .

وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له : ١٠٣ [ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله]

وقوله تعالى : ﴿ فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ ويرسل عليها ﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿ حسباناً من السماء ﴾ أي مطراً عظيماً يقلع زرعها وأشجارها ولهذا قال : ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ أي بلقعاً تراباً أملس لا تثبت فيها قدم وقوله تعالى : ﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ أي غائراً في الأرض كما قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾ أي جار وسائح . والغور مصدر بمعنى غائر وهو أبلغ منه .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۞ (٤٢)

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَايَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى : ﴿ وأحيط بثمره ﴾ بأمواله وثماره ، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي اغترّ بها وألهته عن الله عز وجل ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ أي يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها ﴿ ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً * ولم تكن له فئة ﴾ أي عشيرة أو ولد ﴿ ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً * هنالك الولاية لله الحق ﴾ أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب ، كقوله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ ومنهم من كسر الواو من الولاية ، أي هنالك الحكم لله الحق ، ومنهم من خفض القاف من الحقّ على أنه صفة لله عز وجل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هو خير ثواباً ﴾ أي جزاءً ﴿ وخير عقبا ﴾ أي الأعمال التي تكون لله عز وجل خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير .

وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى : ﴿ واضرب لهم ﴾ يا محمد ﴿ مثل الحياة الدنيا ﴾ في زوالها وفنائها ، وانقضائها ﴿ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴾ أي ما فيها من الحب ، فشبَّ وحَسُن ، ثم بعد ما علاه الزهر والنضرة ﴿ فأصبح هشيماً ﴾ يابساً ﴿ تذروه الرياح ﴾ أي تفرقه هنا وهناك ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ أي هو قادر في كل الأحوال . وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل ، كما قال تعالى في سورة يونس : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام » الآية ... وفي الحديث : ١٠٤ [الدنيا خضرة حلوة] . وقوله تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾

أي الاقبال عليه تعالى والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم ، والجمع لهم ، والشفقة المفرطة عليهم ولهذا قال عز وجل : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ .

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف : الباقيات الصالحات الصلوات الخمس . وروى الإمام أحمد الحارث مولى عثمان رضي الله عنه يقول : ١٠٥ [جلس عثمان يوماً فجاءه المؤذن فدعا بماء في إناء أظنه سيكون فيه مدّ ، فتوضأ ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ثم قال : « من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينها وبين المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ، ثم إن قام فتوضأ وصلىّ صلاة الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئآت » قالوا هذه الحسنات ، فما الباقيات الصالحات يا عثمان ؟ قال هي لا إله إلا الله وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ،] تفرد به . وروى الطبراني عن سعد بن جنادة رضي الله عنه قال : ١٠٦ [كنت في أول من أتى النبي ﷺ من أهل الطائف ، فخرجت من أعلى الطائف من السراة غدوةً ، فأتيت منى عند العصر ، فتصاعدت في الجبل ، ثم هبطت فأتيت النبي ﷺ فأسلمت وعلمني ﴿قل هو الله أحد الله﴾ و﴿ إذا زلزلت ﴾ وعلمني هؤلاء الكلمات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلاّ الله ، والله أكبر ، وقال : « هــن الباقيات الصالحات »] وبهذا الإسناد : ١٠٧ [من قام من الليل فتوضأ ، ومضمض فاه ، ثم قال : سبحان الله مائة مرة ، والحمد لله مائة مرة والله أكبر مائة مرة ، ولا إله إلا الله مائة مرة غفرت ذنوبه إلا الدماء فإنها لا تبطل] . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال : هي ذكر الله قول لا إله إلا الله والله اكبر وسبحان الله ، والحمد لله وتبارك الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، واستغفر الله ، وصلى الله على رسول الله والصيام والصلاة ، والحج ، والصدقة ، والعتق ، والجهاد ، والصلة ، وجميع اعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض . وقال العوفي عن ابن عباس : هي الكلام الطيب ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : هي الأعمال الصالحة كلها ، واختاره ابن جرير .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۞ (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۞ (٤٨) وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۞ (٤٩) ﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظام كما قال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ۞ فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا ﴾ أي تذهب الجبال ، وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض قاعاً صفصفاً ، أي سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا أمتا أي لا وادي فيه ولا جبل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ أي بادية ظاهرة ، لا مكان يواري أحداً ، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية . وقوله تعالى : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ فلم نترك أحداً من الأولين والآخرين كما قال تعالى : ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ يحتمل انهم يقومون بين يدي الله تعالى صفاً أو صفوفاً . وقوله تعالى : ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ولهذا قال سبحانه ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هـذا كائن . وقوله تعالى : ﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والصغير والكبير ﴿ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ أي من أعمالهم السيئة وأفعالهـم القبيحة ﴿ ويقولون يا ويلتنا ﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً الا أحصاه وضبطه وحفظه . وروى الطبراني بإسناده المتقدم في الآية قبلها إلى سعد بن جنادة قال : ١٠٨ [لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء ، فقال النبي ﷺ « إجمعوا من وجد عوداً فليأت به ، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به » قال فما كان الاّ ساعة حتى جعلناه ركاماً ، فقال النبي ﷺ « أترون هذا ؟

فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة ، فانها محصاة عليه »]

وقوله تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ أي من خير أو شر كما قال تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً ولا يظلم أحداً من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله ، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين . وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم .

وعن شعبة عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ١٠٩ [ان الجماء لتقتصُّ من القرناء يوم القيامة]

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا (٥٠) ﴾

ينبه تعالى بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم ، ومقرعاً لمن اتّبعه منهم وخالف خالقه ومولاه ، وهو الذي أنعم عليه النعم التي لا تعد ولا تحصىٰ ، ثم بعد هذا والىَ ابليس وعادىٰ الله فقال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ أي لجميعهم ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ أي سجود تشريف وتكريم وقوله تعالى : ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ﴾ خانه أصله فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ١١٠ [خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم فعند الحاجة نضح كل وعاءٍ بما فيه وخانه الطبع عند الحاجة وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك ، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة] ونبّه تعالى ههنا على أنه من من نار ، كما قال تعالى : ﴿ انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾

قال الحسن البصري : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر . رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه .

وقوله تعالى : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ أي فخرج عن طاعة الله، ثم قال تعالى مقرعاً لمن يتبعه وموبخاً لمن أطاعهُ : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ﴾ أي بدلاً عني ولهذا قال سبحانه : ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ .

﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝ (٥١) ﴾

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ۝ (٥٢) وَرَأَ ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّواْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً ۝ (٥٣) ﴾

يقول تعالى : إن الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد امثالكم لا يملكون شيئاً ، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا كانوا موجودين ، فأنا خالق الاشياء كلها وحدي ومدبرها ومقدرها ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ أي أعواناً قاله مالك وقوله تعالى : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم ﴾ أي في دار الدنيا ، ادعوهم اليوم ينقذوكم مما أنتم فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ . وقولُه تعالى : ﴿ فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ وكما قال سبحانه ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له . ﴾ وقال أيضاً : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ قال ابن عباس وقتادة وغير واحد : مهلكاً . والمعنى ان الله تعالى بيّن أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا وأنه يفرّق بينهم وبينها في الآخرة فلا سبيل ولا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير .

وقوله تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾

أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين الف زمام مع كل زمام سبعون الف ملك ، تحقق المجرمون أنهم لا محالة مواقعوها ليكون ذلك من باب التعجيل، تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقُّعَ العذاب، والخوف منه قبل وقوعه ، عذاب ناجز . وقوله تعالى : ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بدَّ لهم منها . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ انه قال : ١١١ [ان الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعتُه من مسيرة أربعين سنة]

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا هُزُوًا ۞ (٥٦)

يقول تعالى ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الحق والهدى ومع هذا البيان وهذا الفرقان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبصّره طريق النجاة . روى الإمام أحمد ١١٢ [عن علي بن أبي طالب ان رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ليلة ، فقال « ألا تصليان » فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً ، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه ويقول : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾] أخرجاه في الصحيحين وقوله تعالى : ﴿ وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلاّ أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ أي ان الكفرة في قديم الزمان وحديثه يتمردون على الحق ويكذبون به وهو بيِّنٌ ظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات ، وانه ما منعهم من اتباع الحق إلاّ أن يشاهدوا العذاب الذي وُعِدوا به عياناً كما حكى الله عن قريش حين قالت : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ إلاّ أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم ﴿ أو يأتيهم العذاب قُبُلاً ﴾ أي يرونه مواجهةً ثم قال تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ أي قبل العذاب مبشرين من صدقهم

وآمن بهم ، ومنذرين من كذبهم ، ثم أخبر عن الكفار بقوله تعالى : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ أي ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل على زعمهم ﴿ واتخذوا آياتي وما انذروا هزواً ﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين وما أنذرهم به الرسل وخوفوهم به من العذاب ﴿ هزواً ﴾ أي سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۞ (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ۞ (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۞ (٥٩) ﴾

يقول تعالى : لا أَظْلَمُ من عباد الله أحدٌ ، مثل من ذكر بآيات الله فأعرض عنها أي تناساها ولم يُلقِ لها بالاً ﴿ ونسي ما قدمت يداه ﴾ من الأعمال السيئة ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنةً ﴾ أي غشاوات ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي لئلاّ يفهموا هذا القرآن ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي صمَماً معنوياً عن الرشاد ﴿ وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة ، ﴿ لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ ثم اخبر أنه يحلم ويستّر ويغفر ، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد . ومن استمر منهم على ضلاله ، فلينتظر يوماً تشيب فيه الولدان ولهذا قال تعالى : ﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد وقوله تعالى : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾ أي الأمم السالفة اهلكناهم بسبب كفرهم ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ، ووقت معين ، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا ان يصيبكم ما أصابهم ، فقد كذبتم اشرف رسول وأعظم نبي ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذر .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۞ (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۞ (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۞ (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۞ (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۞ (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۞ (٦٥) ﴾

سبب قول موسى عليه السلام لفتاه وهو يوشع بن نون هذا الكلام أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى ، فأحب الرحيل اليه وقال لفتاه ذلك ﴿ لا أبرح ﴾ أي لا أزال سائراً ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ قال قتادة وغير واحد : هما بحر فارس مما يلي المشرق ، وبحر الروم مما يلي المغرب ، وقال محمد بن كعب القرظي بمجمع البحرين عند طنجة والله سبحانه وتعالى أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ أي ولو أني أسير دهراً . وقوله تعالى : ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ وذلك أنه قد أمر بحمل حوت يجعله بمكتل ، فحيثما فقد الحوت فثمّ الرجل الذي يرحل اليه ، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق وفتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى اذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسها فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً فجعل يسير في الماء مثل السرب في الأرض لا يلتئم الماء بعده فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلاّ صار ماءً جامداً .

وقوله تعالى : ﴿ فلما جاوزا ﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه ، ونسب النسيان اليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه كقوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وانما يخرج من المالح ، فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا ﴾ أي الذي جاوزا فيه المكان ﴿ نصبا ﴾ أي تعباً ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن

أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا * قال ذلك ما كنا نبغي ﴾ أي هذا الذي نطلب ﴿ فارتدا أي رجعا ﴿ على آثارهما ﴾ أي طريقهما ﴿ قصصاً ﴾ أي يقفوان أثرهما ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنّا علماً ﴾ وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

روى البخاري ، عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس : إن نوفاً البكالي [١] يزعم ان موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بني اسرائيل . قال ابن عباس كذب عدو الله حدّثنا أبي بن كعب رضي الله عنه انه سمع رسول الله ﷺ يقول : ١١٣ [إن موسى قام خطيباً في بني اسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ قال : أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يا رب وكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ ؛ فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ ، نسي صاحبه ان يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى اذا كان من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به فقال له فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ قال : فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً فقال : ﴿ ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : واني بأرضك السلام . فقال أنا موسى فقال : موسى بني اسرائيل ؟ قال : نعم . قال أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه ، لا تعلمه انت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . فقال موسى : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ فقال له الخضر : ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة ، فكلموهم ان يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلاّ والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى :

(١) قلت : هو ابن امرأة كعب الأحبار .

قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرا ﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ ــ فكانت الأولى من موسى نسياناً ، قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر في البحر نقرةً أو نقرتين فقال له الخضر ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما أنقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له موسى ﴿ أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى ﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عُذراً فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ ﴾ أي مائلاً فقال الخضر بيده ﴿ فأقامه ﴾ فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ فقال رسول الله ﷺ « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما »]

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۞ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۞ (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۞ (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك النبي الآخر ــ وهو الخضر ــ الذي خصّه الله بعلم لم يطلع عليه موسى كما أنه أعطى موسى علماً لم يعطه الخضر ﴿ قال له موسى هل أتبعك ﴾ سؤال تلطف، لا على وجه الإلزام وهذه آداب المتعلم مع معلمه ، وقوله : ﴿ اتبعك ﴾ أي أصحبك ﴿ على أن تعلمني مما عُلّمتَ رشداً ﴾ أي استرشد بما علمك الله من علم نافع وعمل صالح ، فعندها ﴿ قال ﴾ الخضر لموسى ﴿ انك لن تستطيع معي صبرا ﴾ أي انك لن تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك

فكلٍ منا على علم من الله لا يعلمه الآخر ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ﴾ وستنكر عليّ ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته التي اطلعتُ عليها أنا دونك ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ على ما أرى من أمورك ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾ فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام ﴿ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء ﴾ ابتداءً ﴿ حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ أي حتى أبدأك أنا به قبل ان تسألني .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ❁ (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ❁ (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ❁ (٧٣) ﴾

يخبر تعالى عن موسى وصاحبه الخضر ، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا واشترط عليه ألاّ يبتدئه بالسؤال عن شيء ينكره قبل شرحه وبيانه ، فركبا السفينة ، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا السفينة ودخلت بلجة البحر قام الخضر فخرقها فلم يتمالك موسى أن انكر عليه ذلك فقال : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ٭ لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ اي شيئاً منكراً فذكره الخضر عليه السلام بما تقدم من الشرط : ﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يعني فعلت ذلك قصداً وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها ﴿ قال ﴾ أي موسى : ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ أي لا تضيق علي ولا تشدد عليّ . ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ انه قال : « كانت الأولى من موسى نسياناً » .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ❁ (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ❁ (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ❁ (٧٦) ﴾

الجزء ١٦

يقول تعالى : ﴿ فانطلقا ﴾ أي بعد ذلك ﴿ حتّى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾ وكان يلعب مع الغلمان ، وكان أحسنهم وأجملهم روي أنه احتز رأسه . وقيل رضخه بحجر وقيل اقتلعه بيده والله أعلم فأنكر موسى عليه السلام فعل الخضر أشد من الأول وقال : ﴿ أقتلت نفساً زكيةً ﴾ أي صغيرةً لم تعمل الحنث ولا الإثم ، فقتلته ﴿ بغير نفس ﴾ أي بغير مستند لقتله ﴿ لقد جئت شيئاً نكرا ﴾ أي ظاهر النكارة ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول . فلهذا قال له موسى : ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ أي قد أعذرت إلي مرةً بعد مرة . روى ابن جرير عن أبي بن كعب قال : ١١٤ [كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه . فقال ذا يوم « رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب . ولكنه قال : « إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً »]

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۞ (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۞ (٧٨) ﴾

يخبر تعالى عنهما أنهما ﴿ انطلقا ﴾ بعد المرتين الأوليين ﴿ حتّى إذا أتيا أهل قرية ﴾ روى ابن جريج انها الايلة وفي الحديث : حتّى اذا أتيا أهل قرية لئاماً » أي بخلاء ﴿ فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ ﴾ أي يريد أن يسقط ﴿ فأقامه ﴾ أي فردّه إلى حالة الاستقامة . فعند ذلك قال موسى له ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا ﴾ أي لأجل أنهم لم يضيّفونا كان ينبغي ان لا تعمل لهم مجاناً ﴿ قال هذا فراق بيني وبينك ﴾ أي لانك شرطت عند قتل الغلام أنك ان سألتني عن شيء بعدها ، فلا تصاحبني ، فهذا فراق بيني وبينك . ﴿ سأنبئك بتأويل ﴾ أي بتفسير ﴿ ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ .

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۞ (٧٩) ﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام . وما كان أنكر ظاهره . وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ يأخذ كل سفينة ﴾ أي صالحة ﴿ غصباً ﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها ، فينتفعَ بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها .

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

عن ابن عباس عن أُبَيْ بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : ١١٥ [الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً] رواه ابن جرير ولهذا قال : ﴿ فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾ أي يحملهما حبُّه على متابعته على الكفر وصح في الحديث : الحديث : ١١٦ [لا يقضي الله لمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له] وقال تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ . وقوله : ﴿ فأردْ نا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما ﴾ أي ولداً أزكى من هذا وهما أرحم به منه .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة لأنه قال أولاً : ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ وقال ها هنا : ﴿ فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾ ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحتهُ لأنه كان لغلامَيْن يتيمَيْن في المدينة وكان تحته كنز لهما أي تحته مال مدفون لهما وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وقوله : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ فيه

دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم كما جاء في القرآن ووردت به السنة وقوله: ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ﴾ ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله وقال في الغلام ﴿ فأردنا ان يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة ﴾ وقال في السفينة ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ وقوله تعالى: ﴿ رحمةً من ربك وما فعلته عن أمري ﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو رحمة من الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ووالدَيْ الغلام وولَدي الرجل الصالح وما فعلته عن أمري لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضِر عليه السلام مع ما تقدم من قوله تعالى: ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنّا علماً ﴾

وقيل ان الخضِر ما يزال باقياً أي حيّاً وذكروا في ذلك حكايات ولا يصح شيء من ذلك وأشهرها أحاديث التعزية وهي غير صحيحة وأسانيدها واهية.

ورجح آخرون خلاف ذلك أي أنه ليس حياً ومات كما مات غيره من الأنبياء على نبيّنا وعليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام واحتج هؤلاء على وفاة الخضِر بقوله تعالى: ١ً ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ وبقول النبي ﷺ يوم بدر: ١١٧ [٢ً اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض] ٣ً وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلَيْن: الجن والإنس وقد قال: ١١٨ [لو كان موسى حياً لما وسعه الا اتباعي] ٤ً وأخبر عليه الصلاة والسلام قبل موته بقليل أنه [١١٩ لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته عين تطرف]. إلى غير ذلك من الدلائل.

وفي صحيح البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ١٢٠ [إنّما سمي الخضِر لأنه جلس على فروةٍ. فإذا هي تهتز من خضراء] والمراد بالفروة ههنا: الحشيش اليابس وهو الهشيم من النباتً، قاله عبد الرزاق. وقوله: ﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾ أي هذا تفسير ما ضِقت به ذَرعاً، ولم تصبر حتى أخبرَك به ابتداءً، ولما أن فسره له وبيّنه ووضّحه وأزال المشكل قال ﴿ تسطع ﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال: ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾، فقابل الأثقل بالأثقل والأخف

بالأخف ، كما قال تعالى : ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿ وما استطاعوا له نقبا ﴾ وهو أشق من ذلك ، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتلوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * (٨٤) ﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿ ويسألونك ﴾ يا محمد ﴿ عن ذي القرنين ﴾ أي عن خبره وقد قدّمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألونهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية ما يدري ما صنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة الكهف وفيها : ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ﴾ وقد ظن بعضهم أنه رومي وهذا غير صحيح ، والصحيح هو ما ذكره الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع ابراهيم عليه السلام أول ما بناه واتّبعه وقرّب إلى الله قرباناً وقد ذكرنا طرفاً من اخباره في كتاب البداية والنهاية ، بما فيه كفاية ولله الحمد .

وقوله تعالى : ﴿ إنّا مكّنا له في الأرض ﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً ممكّناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود والآلات الحربية وآلات الحصار ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له الملوك وخدمته الأمم من العرب والعجم ؛ ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها . وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ كقوله تعالى في حق بلقيس : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ أي مما يؤتى مثلها من الملوك وهكذا ذو القرنين ، يسر الله له الأسباب أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والأراضي ، وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض ، وإذلال أهل الشرك قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً والله تعالى أعلم

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً * (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ

نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً ۞ (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۞ (٨٨)

قال مجاهد : ﴿ فأتبع سبباً ﴾ أي منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب . وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس ﴾ أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وقوله تعالى : ﴿ وجدها تغرب في عين حمئة ﴾ أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه ، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تغادره . وفيما يؤثر من قول تُبعٍ فيما ذكر به ذا القرنين في تخلّقه بالعلم واتباعه إياه :

بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب أمرٍ من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذا خلب وثاطٍ حرمَدِ

وقد سمع ابن عباس هذين البيتين من ابن حاضر فسأله ابن عباس : ما الخلب ؟ قلت الطين بكلامهم . قال فما الثاط ؟ قلت الحمأة ، قال : فما الحرمد ؟ قلت الأسود ، فدعا ابن عباس رجلاً أو غلاماً فقال : اكتب ما يقول هذا الرجل [1] وقوله تعالى : ﴿ ووجد عندها قوماً ﴾ أي أمة من الأمم ، ذكروا انها كانت أمة عظيمة من بني آدم . وقوله تعالى : ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما ان تعذب وإما ان تتخذ فيهم حسناً ﴾ اي ان الله مكّنه منهم ، وحكمه فيهم ، وأظفره بهم وخيره إن شاء قتل وسبى ، وإن شاء منّ أو فدى ، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله : ﴿ أما من ظلم ﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه ﴿ فسوف نعذبه ﴾ عذاباً أليماً يغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم . وقوله : ﴿ ثم يردُّ إلى ربّه فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ أي شديداً بليغاً وجيعاً أليماً. وفي هذا إثبات المعاد والجزاء . وقوله : ﴿ وأما من آمن ﴾ أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له : ﴿ فله جزاء الحسنى ﴾ أي في الدار الآخرة عند الله عز وجل ﴿ وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ أي معروفاً في الدنيا .

---

(١) قلت لما كان البحر ذا لون أزرق مائل إلى السواد و « حمئة » فيها معنى السواد فيكون المعنى ان الشمس وجدها تغرب في البحر ذي اللون الأزرق الأسود .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ۞ (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۞ (٩١) ﴾

يقول تعالى : ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها ، وكان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل ، فإن أطاعوه .. وإلاّ أذلّهم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم واستخدم منهم جنداً له ، على قتال الإقليم المتاخم لهم ، ﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم ﴾ أي أمة ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ أي ليس لهم بناء يكنّهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس قال سعيد بن جبير : كانوا حمراً قصاراً مساكنهم الغيران وأكثر معيشتهم من السمك ، وعن قتادة قال : هم الزنج وقوله تعالى : ﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ﴾ أي نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا منها شيء وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض فإنه تعالى : ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۞ (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۞ (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ۞ (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۞ (٩٦) ﴾

يخبر تعالى عن ذي القرنين : ﴿ ثم أتبع سبباً ﴾ أي سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿ حتى إذا بلغ بين السدّين ﴾ وهما جبلان متناوحان ، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك ، فيعيثون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج

ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين : ١٢١ [ان الله تعالى يقول يا آدم فيقول لبيك وسعديك فيقول : ابعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها فقال إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلاّ كثّرتاه : يأجوج ومأجوج] وقوله تعالى : ﴿وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ أي لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس ﴿قالوا يا ذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً﴾ أي أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سدا فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير : ﴿ما مكني فيه ربي خير﴾ أي ان الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه : ﴿فأعينوني بقوة﴾ أي بعملكم وآلات البناء ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً آتوني زبر الحديد﴾ والزبر جمع زبرة أي القطعة وهي كاللبنة ويقال ان كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي أو تزيد عليه . ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً ، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله ﴿قال انفخوا﴾ أي أجّجوا عليه النار حتى صار كله ناراً ﴿قال آتوني أفرغ عليه قطرا﴾ قال ابن عباس وغيره هو النحاس المذاب ويستشهد بقوله تعالى : ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ ولهذا يشبه بالبُرْدِ المحبّر أي طريقة سوداء وطريقة حمراء . ثم قال تعالى :

﴿فَمَا ٱسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۞ (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۞ (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ۞ (٩٩)﴾

ربع الحزب

يخبر تعالى عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله ، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال تعالى : ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه .

وقوله تعالى : ﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ أي لما بناه ذو القرنين ﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ أي إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جعله دكَّاء ﴾ أي ساواه بالأرض ، ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ أي كائناً لا محالة . وقوله تعالى : ﴿ وتركنا بعضهم ﴾ أي الناس يومئذ ، أي يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ، ويتلفون أشياءهم ، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال كما سيأتي بيانه عند قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال السدي : هذا أول يوم القيامة ﴿ ونفخ في الصور ﴾ على أثر ذلك ، والصور كما جاء في الحديث : قرن ينفخ فيه ، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ، وفي الحديث عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري مرفوعاً : ١٢٢ [« كيف أنعَمُ وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، واستمع متى يؤمر ؟ » قالوا : كيف نقول ؟ قال : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا »] وقوله تعالى : ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ أي أحضرنا الجميع للحساب . كقوله تعالى : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً * (١٠٠) ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً * (١٠١) أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً * (١٠٢) ﴾

يخبر تعالى عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم ، أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ ، يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ثم قال مخبراً عنهم : ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ﴾ أي تغافلوا وتعاموا ، وتصامموا عن قبول الهدى واتباع الحق ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وقال ههنا ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ أي لا يعقلون عن الله

أمره ونهيه ؛ ثم قال تعالى : ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك وينتفعون به ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ (١٠٤) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْناً ۞ (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَٱتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً ۞ (١٠٦) ﴾

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ أي هل نخبركم بالأخسرين أعمالاً ، ثم فسرهم فقال عز من قائل : ﴿ الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ أي عملوا أعمالاً باطلةً على غير شريعة مشروعة ، مرضية مقبولة ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون محبوبون ، وهم في الواقع مخطئون واعمالهم مردودة على أن هذه الآية لم تنزل في جماعة مخصوصة بل هي أعم من هذا ... فهي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبولٌ بينما هو مخطىء مردود العمل كما قال سبحانه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ﴾ أي جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقامها على وحدانيته وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة ، ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ أي لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير . روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : ١٢٣ ﴿ ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال : ﴾ اقرأوا إن شئتم : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ . وقوله تعالى ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً ، أي استهزأوا بهم وكذَّبوهم أشدَّ التكذيب .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۞ (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۞ (١٠٨) ﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به ، أنّ لهم جنات الفردوس . وفي الصحيحين : ١٢٤ [إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة] وقوله تعالى : ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبداً ﴿ لا يبغون عنها حولاً ﴾ أي لا يختارون عنها غيرها ولا يحبون سواها ، كما قال الشاعر :

فحلت سويدا القلب لا أنا باغياً   سواها ولا عن حبها أتحول

على أن المقيم في مكان عادي ، قد يتسرب إلى نفسه السأم أو الملل ، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يبغون متحولاً ، ولا انتقالاً ولا ظعنا ولا رحلة ولا بدلاً .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ۞ (١٠٩) ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالّة عليه ، لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿ ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ أي بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جرّا لما نفدت كلمات الله ، كما قال تعالى : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ إنّ ربّنا كما يقول وفوق ما نقول .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ۞ (١١٠) ﴾

روى الطبراني عن عمرو بن قيس الكوفي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان أنه قال : هذه آخر آية أنزلت [1] ، يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله عليه وسلامه : ﴿ قل ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين **برسالتك** إليهم : ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ فمن زعم أني كاذب ، فليأت بمثل ما جئتُ به فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما سألتم من قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر ، لولا ما أطلعني الله عليه ، وانما أخبركم ﴿ أنما إلٰهكم إلٰه واحد ﴾ لا شريك له ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ﴾ ما كان موافقاً لشرع الله ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذان ركنا العمل المتقبل ، لا بد أن يكون خالصاً لله ، صواباً على شريعة رسوله ﷺ .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : ١٢٥ [كنا نتناوب رسول الله ﷺ فنبيت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا ، فكثر المحبوسون وأهل النوب ، فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال « ما هذه النجوى ؟ » قال : فقلنا تبنا إلى الله أي نبي الله ، إنما كنا في ذكر المسيح وفرقنا منه فقال: ﴿ ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي » قال : قلنا بلى قال : ﴿ الشرك الخفي ان يقوم الرجل يصلّي لمكان الرجل »] .

روى الامامأحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال ١٢٦ [أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا بريء منه وهو للذي أشرك] تفرد به من هذا الوجه .

روى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : ١٢٧ [إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ﴾ قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال « الرياء . يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : إذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء . »]

روى أبو يعلى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٢٨ [من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو ، فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل] آخر تفسير سورة الكهف ولله الحمد والمنة .

١٣٨٩/٨/٦
١٩٦٩/١٠/١٧

---

(١) يعني معاوية أنها آخر آية أنزلت من سورة الكهف



سوى الآيتين (٥٨) و (٧١) فمدنيتان نزلت بعد فاطر

روى محمد بن اسحق في السيرة من حديث أم سلمة وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كهيعص ۞ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۞ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۞ (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۞ (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۞ (٦) ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقدم تقدم في أول سورة البقرة . وقوله تعالى : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني اسرائيل وفي صحيح البخاري أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في النجارة وقوله تعالى : ﴿ إذنادى ربه نداءً خفياً ﴾ إنما أخفى دعاءه لأنه أحب إلى الله تعالى الذي يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفي ﴿ قال رب إني وهن العظم مني ﴾ أي ضعفت وخارت قواي ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ أي اضطرم المشيب في السواد ، والمراد الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة وقوله تعالى : ﴿ ولم أكن بدعائك ربّ شقياً ﴾ أي ولم أعهد

منك إلاّ الإجابة في الدعاء ، ولم تردني قط فيما سألتك ، وقوله تعالى : ﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ أي أخشى أن يتصرف عصبتي من بعدي في الناس تصرفاً سيئاً ﴿ وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً ﴾ أي ولداً نبياً من بعدي يسوس الناس بما يوحى اليه من النبوة ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ أي يكون نبيّاً كما كانت آباؤه أنبياء ، وكل ما قيل من أنه طلب أن يرث ماله فهذا غير صحيح لأن النبي أجل شأناً وأعظم منزلةً ، وأعلا قدراً ، من أن يشفق على ماله ، في الوقت الذي كان فيه زكريا نجاراً يأكل من كسب يديه ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا . وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : ١٢٩ (لا نورّث ما تركناه صدقة) وعلى هذا تعيّن حمل قوله : ﴿ فهب لي من لدنك ولياً . يرثني ويرث آل يعقوب ﴾ على ميراث النبوة لا على ميراث المال . وكل ما جاء من الأحاديث بميراث المال فهي أحاديث ضعيفة مرسلة لا تعارض الصحاح والله تعالى أعلم . وقوله : ﴿ واجعله ربي رضياً ﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك ، تحبّه وتحبّبه إلى خلقك في دينه وخلقه .

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (٧)

ان الله تعالى أجاب عبده زكريا ما سأله فقال تعالى : ﴿ يا زكريا إنّا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيىٰ مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لم نجعل له من قبل سميّاً ﴾ قال قتادة وغيره : أي لم يسمّ أحداً قبله بهذا الاسم وقال مجاهد : سميّاً أي شبيهاً ، أخذه من معنى قوله تعالى : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميّاً ﴾ أي شبيهاً وقال ابن عباس ، أي لم تلد العواقر قبله مثله .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (٨) ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (٩)

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ففرح فرحاً شديدا ، وسأل عن كيفية ما يولد له ، والوجه الذي يأتيه منه الولد ، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها» ومع أنه قد كبر وعتا أي عسا عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع قال مجاهد : عتياً يعني نحول العظم .

﴿ قال ﴾ أي الملك مجيباً لزكريا عما **استعجب** منه ﴿ كذلك قال ربك هو علي هين ﴾ أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ، ﴿ هين ﴾ أي يسير سهل على الله تعالى ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل ، فقال جل وعلا : ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ❁ (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ❁ (١١)

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه : ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني ، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني ، كما قال ابراهيم عليه السلام ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ وهاهنا ... ﴿ قال آيتك ﴾ أي علامتك ﴿ أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ أي تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال ، وأنت صحيح سوي ، من غير مرض ولا علّة قال ابن عباس وغيره : اعتقل لسانه من غير مرض ولا علّة وقال ابن زيد بن أسلم : كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلاّ إشارة .

والمراد من قوله تعالى : ﴿ ثلاث ليال سوياً ﴾ أي ثلاثة أيام بلياليها متتابعات ، وقال مالك ابن زيد بن أسلم : من غير خرس ، وكما قال تعالى في آل عمران : « إلا رمزاً ﴾ أي إشارة وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فخرج على قومه من المحراب »[1]

(١) قلت : «من المحراب » أي من المسجد وليس المحراب هو تلك الفجوة التي يقف فيها الإمام للصلاة فهذه ليس اسمها محراباً ولم تكن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا من السلف الصالح إنما أحدثت بعده

أي الذي بشر فيه بالولد﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي أشار إشارة خفيةً سريعة ﴿ ان سبحوا بكرة وعشياً ﴾ أي موافقةً له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه .

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۞ (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۞ (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۞ (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۞ (١٥) ﴾

ان الله تعالى علم يحيى التوراة التي كان الذين في ذلك العصر يتدارسونها بينهم ، ويحكم بها النبيون فقوله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ أي تعلم الكتاب وهو التوراة بجد وحرص واجتهاد وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم والاقبال على الخير والاجتهاد فيه وهو صغير حدث.قال معمر : قال الصبيان يوما ليحيي بن زكريا : اذهبْ بنا نلعب فقال ما للّعب خلقنا قال فلهذا أنزل الله تعالى : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ أي وآتيناه الحكم وحناناً وزكاة أي وجعلناه ذا حنان وزكاة ، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل .

وقوله : ﴿ وزكاةً ﴾ معطوف على وحناناً ، فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب ﴿ وكان تقياً ﴾ طهّرَ أي فلم يعمل بذنب . وقوله تعالى : ﴿ وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه ثنّي ببره لوالديه قولاً وفعلاً فجزاه بقوله تعالى : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ أي له الأمان في هذه المواطن الثلاثة . قال سفيان بن عينية : أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوماً لم يعاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم قال فأكرم الله فيها يحيي بن زكريا فخصه بالسلام عليه فقال

عز من قائل : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا ❁ (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا ❁ (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ❁ (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيًّا ❁ (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ❁ (٢٠) قَالَ كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيًّا ❁ (٢١) ﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وانه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركا ، عطف بذكر قصة مريم في ايجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب ، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا، وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين ليقارب ما بينهما في المعنى ، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه ، وانه على كل شيء قدير . فقال جل ثناؤه : ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام وان أمها نذرتها محررة أي تخدم بيت المقدس تقرّباً إلى الله تعالى ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ فنشأت نشأة عظيمة في بني إسرائيل ، وكانت أشهر العابدات تنسكاً وتبتّلاً ودأباً . ورأى لها زكريا عليه السلام زوجُ أختِها وكفيلُها من الكرامات الهائلة ما بهره: ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنىَّ لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فلما أراد الله تعالى — وله الحكمة والحجة البالغة — أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولى العزم الخمسة العظام ﴿ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ أي اعتزلتهم وتنحّت عنهم وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس .

وقوله تعالى : ﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً ﴾ أي استترت منهم وتوارت ، ﴿ فأرسلنا

إليها روحنا ﴾ يعني جبرائيل عليه السلام ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ أي على صورة إنسان تام كامل ﴿ قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً ﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر في مكان منفرد ، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها ، فقالت : ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ أي ان كنت تخاف الله ، تذكيراً له بالله تعالى ، وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل ، فخوفته أولاً بالله عز وجل . ﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ أي لست كما تظنين ، ولكني رسول ربك ﴿ لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغياً ﴾ أي كيف يكون لي غلام ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور مني الفجور ﴿ قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ﴾ أجابها جبريل عليه السلام : إن الله تعالى قد قال انه سيوجدُ منك غلاماً بلا بعل،ولا فاحشة فإنه على كلّ شيء قدير ولهذا قال سبحانه : ﴿ ولنجعله آيةً للناس ﴾ أي دلالة وعلامة لهم على قدرته تعالى ، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وانثى إلا عيسى فإنه أوجده من انثى بلا ذكر فجلت قدرته ، وعظم سلطانه ولا إلٓه غيره ولا رب سواه .

وقوله تعالى : ﴿ ورحمة منا ﴾ نبياً يدعو إلى عبادة الله وتوحيده ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ أي لا بد منه .

نصف الحزب

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا * (٢٢) فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا * (٢٣) ﴾

يخبر تعالى عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال ، استسلمت لقضاء الله تعالى عند ذلك نفخ جبريل في جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى . فلما حملت به ضاقت ذرعاً ، ولم تدر ماذا تقول للناس فإنهم لا يصدّقونها فيما تخبرهم به ، غير أنها أفشت سرها ، وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا التي حملت بيحيي ، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها وقالت : أشعرت يا مريم أني حبلى ؟ فقالت لها مريم : وهل علمت أيضاً أني حبلى ، رذكرت لها شأنها وما كان من خبرها ، وكانوا بيت إيمان وتصديق . وقد اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام ، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء

بأولادهن ، وقال محمد بن اسحق : فلما حملت به وملأت قلّتها ورجعت استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون ، حتى فطر لسانها ، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا ، وشاع الحديث في بني اسرائيل فقالوا : إنما صاحبها يوسف النجار فلم يكن معها في الكنيسة غيره ، وتوارت من الناس واتخذت من دونهم حجاباً ، فلا يراها أحد ولا تراه وقوله تعالى : ﴿ فأجأها المخاض إلى جذع النخلة ﴾ أي فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحّت إليه . وقد اختلفوا فيه ، إنّما المشهور أنه بيت لحم وهي قرية تبعد عن بيت المقدس ثمانية أميال إلى الشرق وهذا هو المشهور الذي تلقّاه الناس بعضهم عن بعض ، ولا يشك فيه النصارى أنه ببيت لحم .

وقوله تعالى إخباراً عنها : ﴿ قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، فانها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يصدقها الناس من أمرها فيه ، بعد مكانها منهم من العبادة والتقوى والصلاح ، ويظنون أنها عاهرة زانية ، فتمنت أن تموت قبل هذا الحال من الولادة من غير بعل وان تكون شيئاً لا يعرف ولايذكر ككل شيء نسي وترك فكان نسياً منسياً . وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت الا عند الفتنة عند قوله تعالى : ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ [1] .

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) ﴾

اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى : ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وعمر بن ميمون والسدى وقتادة : أنه الملكُ جبريل عليه الصلاة والسلام ، أي ناداها من أسفل الوادي ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها وقال مجاهد والحسن : هو ابنها وهو إحدى الروايتين عن سعيد بن جبير واختاره ابن

---

(١) راجع الآية (١٠١) من سورة يوسف .

جرير في تفسيره - والله أعلم - .

وقوله تعالى : ﴿ أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريّا ﴾ أي ناداها قائلاً : لا تحزني فقد جعل ربك تحتك نهراً تشربين منه والسري : هو النهر الصغير ثم قال : ﴿ وهزّي إليك بجذع النخلة ﴾ قيل كان الجذع يابساً فهزته مريم فتساقط عليها الرطب ولهذا امتنَّ الله عليها بذلك، بأن جعل عندها طعامها وشرابها فقال : ﴿ تساقط عليك رطباً جنّيا * فكلي واشربي وقَرِي عيناً ﴾ أي طيبي نفساً ، ولهذا قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية ...

وقوله : ﴿ فإما ترين من البشر أحداً ﴾ أي مهما رأيت من أحد ﴿ فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ المراد بهذا القول هو الإشارة إليه بذلك لا أن المراد به القول اللفظي لئلا ينافي : ﴿ فلن أُكلم اليوم إنسيّاً ﴾ قال أنس بن مالك في قوله : ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ أي صمتاً وفي رواية عنه : صوماً وصمتاً . وكان في شريعتهم اذا صاموا يحرم عليهم الطعام والكلام .

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا * (٢٧) يَا أُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا * (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا * (٣٢) وَٱلسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * (٣٣)

يخبر تعالى عن مريم حين أمرها ألاَّ تكلم أحداً من البشر ، فاستسلمت ، فكفاها أمرها وأقام حجتها ، فأتت قومها تحمل ولدها ، فلما رأوها أعظموا أمرها جداً واستنكروه

و﴿قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا﴾ امراً عظيما﴿ياأخت هارون﴾ ياشبيهة هارون في العبادة.﴿ ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً ﴾ أي أنت من بيت طاهر طيب معروف بالصلاح والعبادة والتّقوى . فكيف صدر هذا منك ؟ ﴿ فأشارت إليه ﴾ أي اسألوا هذا المولود يخبركم ﴿ قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾ أي فوق ما جاءت به من الداهية ، تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبياً أي : من هو موجود في مهده طفلاً كيف يتكلّم ...؟ ﴿ قال ﴾ أي المولود عيسى : ﴿ إنّي عبد الله ﴾ أول ما تكلم به نزه جناب ربّه تعالى وبرأه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربّه ثم قال : ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً﴾ أي يؤتيني الكتاب والنبوة . وقوله : ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنت ﴾ أي جعلني معلماً للخير ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر أينما كنت ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ إشارةً إلى عِظم هذين الركنين الركينين .

وقوله : ﴿ وبراً بوالدتي ﴾ أي لا أعصى لها أمراً . ذكر البر بالوالدة بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين كما قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ وقوله ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ استكبرُ عن عبادته وطاعته ، وبر والدتي فأشقَى بذلك وقوله ﴿ والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً ﴾ أي أثبت لنفسه العبودية لله عز وجل بأنه مخلوق كسائر المخاليق يحيا ويموت ويبعث حياً كبقية الخلائق عليه من الله أطيب الصلوات وأزكى التحيات .

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ❁(٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ❁ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ❁ (٣٦) فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ❁ (٣٧) ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه : ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿ قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ أي يختلف فيه المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به ، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبيّاً ، نزه نفسه المقدسة فقال سبحانه : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ﴾ عما يقول هؤلاء الجاهلون والظالمون المعتدون

علوّاً كبيراً ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي إذا أراد شيئاً ، فإنّما يأمر فيصير كما يشاء وذلك كقوله تعالى : ﴿ إن مَثَل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ أي ومما أمر به عيسى عليه السلام قومه وهو في المهد أن أخبرهم إذ ذاك ان الله ربّه وربهم وأمرهم بعبادته فقال : ﴿ فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم.من اتبعه رشد، وهَدى ، ومن خالفه ضل وغوى . وقوله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى عليه السلام بعد بيان أمره بأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فصمّمتْ طائفة منهم ، وهم جمهور اليهود – عليهم لعائنُ الله – على أنه ولدُ زنية ، وقالوا : كلامه هذا سحر . وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله ، وقال آخرون ، بل هو ابن الله وقال آخرون ثالث ثلاثة . وقال آخرون بل هو عبد الله ورسوله ، وهذا هو قول الحق الذي أرشد إليه المؤمنين ، وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف .

وقوله تعالى : ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أن له ولداً . ولكن أنظر هم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم علماً وثقة بقدرته عليهم ، فانه الذي لا يعجل على من عصاه كما جاء في الصحيحين : ١٣٠ [إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾] فقال تعالى: ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ أي يوم القيامة . وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته،عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٣١] من شهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته القاها إلى مريم ، وروح منه ، وان الجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل] .

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ

فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۞ (٤٠)

يخبر تعالى عن الكفار يوم القيامة أنهم يكونون أسمع شيء وأبصره كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا و سمعنا ﴾ أي يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً ، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعاً لهم ، ومنقذاً من عذاب الله ، ولهذا قال : ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ أي في **الدنيا** ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون ، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك ثم قال تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ أي أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿ إذ قضي الأمر ﴾ أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه ﴿ وهم ﴾ أي اليوم ﴿ في غفلة ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ أي لا يُصدقون به . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ١٣٢ [« إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ – قال – فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت – قال – فيقال : يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت – قال – فيؤمر به فيذبح قال : ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ وأشار بيده ثم قال : « أهل الدنيا في غفلة الدنيا »] هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن الأعمش به ولفظهما قريب من ذلك وفيهما عن ابن عمر و قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ : يخبر تعالى أنه هو الخالق المتصرف المالك ، وان الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس ولا أحد يدعى ملكاً ولا تصرفاً ، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم الحاكم فيها ، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة .

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا ﴾ (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (٤٥)

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ واذكر في الكتاب ابراهيم ﴾ أي اذكر لقومك الذين يعبدون الأصنام مع انهم يدعون انهم من ذريته وعلى ملته ﴿ إنه كان صديقاً نبياً ﴾ واتلُ خبره واذكر لهم ما جرى له مع أبيه وكيف نهاه عن عبادة الأصنام : ﴿ إذ قال لأبيه يا أبتِ لِمَ تعبدُ ما لا يسمَع ولا يُبصر ولا يغنى عنك شيئاً ﴾ أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً ، ﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ﴾ يقول وإن كنتُ من صلبك وتراني أصغرَ منك لأني ابنُك فاعلم أني قد اطلعتُ من العلم من الله تعالى على ما لم تعلمه أنت ، ولا اطلعتَ عليه ولا جاءك ﴿ فاتبِعْني أهدِك صراطاً سوياً ﴾ أي طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب والنجاة من المرهوب ﴿ يا أبت لا تعبدِ الشيطان ﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام فان الشيطان هو الداعي إلى ذلك والراضي به ، كما قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الشيطان كان للرحمن عصِياً ﴾ أي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه فطرده وأبعده ، فلا تتبعْه تصِرْ مثله ﴿ يا أبت إني أخاف ان يمسّك عذاب من الرحمن ﴾ أي على شركك وعصيانك لما آمرك به ﴿ فتكون للشيطان ولياً ﴾ يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولا مغيثاً إلاّ إبليس ، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب لك ، كما قال تعالى : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزَين لهم الشيطان أعمالَهم ، فهو وليُّهم اليومَ ولهم عذاب أليم ﴾ .

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۞ (٤٦) قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۞ (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۞ (٤٨) ﴾

يخبر تعالى عن جواب أبي إبراهيم لولده ابراهيم فيما دعاه إليه انه قال : ﴿ أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ﴾ يعني ان كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها فلا تشتمها وإلاّ اقتصصت منك وشتمتك وهو قوله : ﴿ لأرجمنّك ﴾ قاله ابن عباس وغيره وقوله : ﴿ واهجرني مليّا ﴾ أي اهجرني أبداً قبل أن تصيبك مني عقوبةٌ واختاره ابن جرير . فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿ سلام عليك ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين : ﴿ واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ ومعنى قول ابراهيم لأبيه : ﴿ سلام عليك ﴾ يعني أما أنا فلا ينالك مني مكروه لحرمة الأبوّة ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ أي سأسأله أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿ إنه كان بي حفياً ﴾ الحفيُّ الذي يهتم بأمره. وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة حتى وبعد أن بنى المسجد الحرام هو واسماعيل عليه السلام في قوله : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلهم من المشركين في ابتداء الإسلام وذلك اقتداء بابراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله – إلى قوله – إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ﴾ الآية ... يعني إلا في هذا القول فلا تتأسوا به ثم بين تعالى أن ابراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه فقال تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم أصحاب الجحيم ۞ وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلاّ عن موعده وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه إن ابراهيم لأوّاه حليم ﴾ وقوله : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي ﴾ أي اجتنبكم واتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿ وأدعو ربي ﴾ أي واعبد ربي وحده لا شريك له ﴿ عسى ألاّ أكونَ بدعاء ربي شقياً ﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة فإنه عليه الصلاة والسلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝ (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝ (٥٠) ﴾

يقول تعالى : فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خير منهم ؛ ووهب له اسحاق ابنه،ويعقوب ابن ابنه أي جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته أي اسماعيل واسحق وابنه يعقوب ولهذا قال تعالى : ﴿ وكلاً جعلنا نبياً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ قال ابن عباس الثناء الحسن ، وقال ابن جرير : انما قال : ﴿ علياً ﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم ، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم أجمعين .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝(٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝ (٥٣) ﴾

لما ذكر تعالى ابراهيم الخليل ، وأثنى عليه ، عطف بذكر الكليم فقال تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلَصاً ﴾ بفتح اللام بمعنى أنه كان مصطفى كما قال تعالى : ﴿ إني اصطفيك على النّاس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وكان رسولاً نبيّاً ﴾ جمع الله له بين الوصفين ، فإنه كان نبيّاً ورسولاً من أولى العزم . وقوله تعالى ﴿ وناديناه من جانب الطور ﴾ أي الجانب ﴿ الأيمن ﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، فكلّمه الله تعالى وناداه ﴿ وقربناه نجيّا ﴾ أي أدنيناه وكلمناه، وناجيناه بطور سيناء . وقوله تعالى : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّاً ﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً ، فكان نبياً .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ

رَسُولاً نَبِيًّا ۞ (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۞ (٥٥)

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد . قال ابن جريج : لم يعدْ ربّه عِدة إلاّ أنجزها ، يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلاّ قام بها ووفاها حقها . وقال ابن جرير عن سهل بن عقيل حدثه أن إسماعيل النبيّ عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيه ، فجاء ونسي الرجل ، فظل به اسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد ، فقال : ما برحت من هاهنا قال : لا.قال : إني نسيت . قال : لم أكن لأبرح حتى تأتيني ، فلذلك : ﴿ كان صادق الوعد ﴾ وقال بعضهم : إنما قيل له : صادق الوعد لأنه قال لأبيه : ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ فصدق في ذلك وقوله تعالى : ﴿ وكان رسولاً نبيّاً ﴾ في هذا دلالة على شرف اسماعيل على أخيه اسحق لأنه إنما وصف بالنبوّة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة . وقد ثبت في صحيح مسلم ان رسول الله ﷺ قال : ١٣٣ [ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل] وذكر تمام الحديث . فدل على صحة ما قلناه وقوله تعالى : ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً ﴾ هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة ، والخلّة السديدة حيث كان صابراً على طاعة ربه عز وجل آمراً بها لأهله ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ الآية ... وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ الآية ... أي مُروهم بالمعروف وانْهوهم عن المنكَر ولا تدَعُوهم همَلاً فتأكلهم النار يوم القيامة ، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٣٤ [رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبتْ نضح في وجهها الماء . رحم الله امرأةً قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجَها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء] أخرجه أبو داود وابن ماجة . وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ١٣٥ [اذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين ، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات] رواه ابو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له .

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ۞ (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا ۞ (٥٧)

ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه ﴿ إنه كان صدّيقاً نبياً ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة وعن مجاهد قال ادريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى وقال : رفع إلى السماء الرابعة . وعن ابن عباس إنه كان خياطاً ، فكان لا يغرز إبرةً إلا قال سبحان الله فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحد أفضل منه عملاً . وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قال : الجنة .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴾

سجدة

يقول تعالى : هؤلاء النبيون - وليس المراد بمن ذكروا في هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء عليهم السلام استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - ﴿ الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ﴾ الآية ... قال السدي وابن جرير رحمهما الله : فالذي عنى به من ذرية آدم : إدريس ، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوحٍ : ابراهيم ، والذي عنى به من ذرية ابراهيم : اسحق ويعقوب واسماعيل والذي عنى به من ذرية اسرائيل : موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . قال ابن جرير : ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو ادريس فإنه جد نوح (قلت) هذا هو الأظهر .

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى : في سورة الأنعام : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له اسحق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين * واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * - إلى قوله - أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ .

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكيّاً ﴾ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمّن حججَه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانةً وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكي جمع باك ، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداءً بهم واتباعاً لهم . قال سفيان الثوري عن أبي معمر قال : قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم فسجد وقال : هذا السجود فأين البكي ؟ يريد البكاء .

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۞ (٥٩) إلا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً ۞ (٦٠) ﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره ، المؤدّين فرائضَ الله التاركين لزواجره ، ذكر أنه : ﴿ خلف من بعدهم خلف ﴾ أي قرون أخر ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع ، لأنها عماد الدين وقوامه ، وخير أعمال العباد ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ أي أقبلوا على الشهوات ، ورضوا بالحياة الدنيا وملاذّها واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقَوْنَ غياً أي خساراً يوم القيامة ، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة هاهنا فقال قائلون : المراد بإضاعتها تركها بالكلية . قاله محمد بن كعب القرظي وابن زيد بن اسلم والسدّي واختاره ابن جرير .

وقال الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة في قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾ قال : إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً وقال وكيع عن ابن مسعود انه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ و ﴿ على صلاتهم دائمون ﴾ ﴿ وعلى صلاتهم يحافظون ﴾ فقال ابن مسعود : على مواقيتها . قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على الترك ؛ قال : ذلك الكفر ، وقال بذلك مسروق وعمر بن عبد العزيز قال : لم تكن اضاعتها تركها ولكن أضاعوا الوقت . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ قال :

عند قيام الساعة وذهاب صالحي أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزقه . روى ذلك عن مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح أنهم من هذه الأمة يعنون في آخر الزمان وقال مجاهد : يتراكبون تراكب الأنعام والحمر في الطرق لا يخافون الله في السماء ، ولا يستحيون من الناس في الأرض .

قال أبو الأشهب العطاردي : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة ، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتي . وقوله تعالى : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ أي خسراناً وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن مسعود قال : واد في جهنم بعيد القعر ، خبيثُ الطعم . وقوله تعالى : ﴿ إلاَّ من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي إلا من رجع عن ترك الصلوات واتّباع الشهوات ، فإن الله يقبل توبتَه ويُحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾ وذلك لأن : ١٣٦ [التوبة تجب ما قبلها] ، وفي الحديث الآخر ١٣٧ [التائب من الذنب كمن لا ذنب له] ولهذا لا يُنقصُ هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها، لأن ذلك ذهب هدراً ، وعفي عنه تفضلاً،وذهب مجاناً من كرم الكريم وحلم الحليم . وهذا الاستثناء في قوله تعالى :﴿ إلا من تاب ... ﴾ الآية كقوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق – إلى قوله تعالى – وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ۝ (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝ (٦٢) تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۝ (٦٣) ﴾

يقول تعالى : الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن أي إقامة التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب ، أي هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم ، وقوله تعالى : ﴿ إنه كان وعده مأتياً ﴾ تأكيد لثبوت

الحصول عليه وأنهم حتماً صائرون اليه وسيأتونه كقوله تعالى : ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ أي في هذه الجنات ليس فيها كلام تافه لا معنى له وقوله تعالى : ﴿ إلاّ سلاماً ﴾ كقوله سبحانه : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ وقوله عز من قائل : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ أي صباحاً ومساءً وليس في الجنة ليل أو نهار ، ولكن أهلها في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار مقدار الليل والنهار ، يعرفون ذلك بإرخاء الحجب ، وإغلاق الأبواب ، وبرفعها وفتحها .

وقال الحسن وقتادة وغيرهما : كانت العرب ، الأنعم فيهم من يتغدى ويتعشى ، فنزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم فقال تعالى : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشياً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ أي هذه الجنة التي وصفناها بهذه الصفات العظيمة ، هي التي نورثها عبادنا المتقين ، وهم المطيعون لله عز وجل في السرّاء والضرّاء والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس .كما قال تعالى : في أول سورة « المؤمنون » ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ إلى أن قال عز من قائل : ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * (٦٤) رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا * (٦٥) ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : ١٣٨ (قال رسول الله [ﷺ لجبرائيل : « ما يمنعك ان تزورنا أكثر مما تزورنا » قال : فنزلت : ﴿ وما نتنزل إلاّ بأمر ربك ﴾ إلى آخر الآية إنفرد باخراجه البخاري عن أبي نعيم عن عمر بن ذر به ..

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير . فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ . قال مجاهد : وهذه الآية كالتي في الضحى : ﴿ ما ودّعك ربك وما قلى ﴾ وكذلك قال الضحاك وقتادة والسري وغير واحد أنها نزلت في احتباس جبريل وقوله : ﴿ له ما بين ايدينا وما خلفنا ﴾ أي ما يستقبل من أمر الآخره وما مضى من امر الدنيا ﴿ وما بين ذلك ﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة ويروى نحوه عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم

واختاره ابن جرير والله أعلم .

وقوله : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ قال مجاهد والسدي : معناه ما نسيك ربك وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء يرفعه ، قال : ١٣٩ [ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى ثم تلا هذه الآية : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس : هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً . وقال عكرمة عنه : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه .

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝ (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝ (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝ (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝ (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ﴾ وقال ها هنا : ﴿ ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً * أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾

يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة ، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً أفلا يعيده وقد صار شيئاً كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ عليه ﴿ وفي الصحيح : ١٤٠ (يقول تعالى : كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني ، أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من آخره ، وأما أذاه إياي فقوله إن لي ولداً وأنا الأحد

الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد] .

وقوله تعالى : ﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة انه لا مناص من حشرهم وشياطينهم الذين عبدوهم من دون الله تعالى ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ﴾ أي جلوساً على ركبتهم وقوله تعالى : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة ﴾ يعني من كل أمة ﴿ أيهم أشد على الرحمن عتياً ﴾ أي لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر حتى إذا تكاملت العدة ، بدأنا بالأكابر فالأكابر جرماً ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضِعفاً من النار — إلى قوله — بما كنتم تكسبون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صِلياً ﴾ أي أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد : أن يصلى بنارِ جهنم ويخلد فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب كما قال في الآية المتقدمة ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۞ (٧٢) ﴾

روى الامام أحمد عن أبي سمية قال : ١٤١[اختلفنا في الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً ، ثم ينجي الله الذين اتقوا . فلقيت جابر ابن عبد الله فقلت له : إنا اختلفنا في الورود فقال يردونها جميعاً . وقال سليمان بن مرة : يدخلونها جميعاً وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه ، وقال صمتا ان لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا يبقى بَر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجّي اللهُ الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً .] .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود : ١٤٢[﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ قال رسول الله ﷺ « يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم »] ورواه الترمذي وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٤٣ [لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلاّ تحلةَ القسم]وقال السدي عن

مرة عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ قال : قسماً واجباً . وقال مجاهد : حتماً ، قال قضاءً ، وكذا قال ابن جريج. وقوله تعالى: ﴿ ثم ننجّي الذين اتقوا ﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم ، نجّى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم ، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا ، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين ، فيشفع الملائكة والنبيون ، والمؤمنون فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلاّ دارت وجوههم وهي مواضع السجود وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان ، فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان ، ثم الذي يليه ثم الذي يليه ثم الذي يليه حتى أنهم يخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر ، لا إله الا الله ولم يعمل خيراً قط ولا يبقى في النار إلاّ من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم ننجّي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۞ (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ۞ (٧٤) ﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة ، أنهم يصدون ، ويعرضون عن ذلك ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الباطل بأنهم ﴿ خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ أي أحسن منازل وناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً ، فكيف يكونون ـ بزعمهم ـ على باطل وأولئك الذين هم مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق ، كما قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ أي وكم من أمة من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ﴿ هم أحسن أثاثاً ورئيا ﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً .

قال الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس : ﴿ خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ قال : المقام المنزل ، والندي المجلس » والأثاث المتاع ، والرئي المنظر .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي ٱلضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۞ (٧٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وانكم على الباطل ﴿ من كان في الضلالة ﴾ أي منا ومنكم ﴿ فليمدد له الرحمن مدّا ﴾ أي فأمهله الله فيما هو فيه ، ولْيدعهُ في طغيانه إلى أن يلقى ربّه ﴿ إما العذاب ﴾ يصيبه ﴿ وإما الساعة ﴾ بغتة تأتيه ﴿ فسيعلمون ﴾ حينئذ ﴿ من هو شر مكاناً وأضعف جندا ﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن النديّ . وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في سورة البقرة عندما ادعوا أنهم أولياء الله من دون الناس وكما ذكر تعالى في مباهلة النصارى في سورة آل عمران عندما ادعوا أن عيسى عليه السلام ابن الله ، سبحان الله وتعالى عما يصفون ، فنكلوا جميعاً عن المباهلة لعلمهم أنهم على الباطل وأن محمداً ﷺ على الحق . وإلاّ لباهلوه .

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۞ (٧٦) ﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه ، وزيادته على ما هو عليه ، أخبر بزيادة المهتدي هُدًى ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قد تقدم تفسيرها والأحاديث المتعلقة بها في سورة الكهف [١] ﴿ خير عند ربك ثواباً ﴾ أي جزاءً ﴿ وخير مردّا ﴾ أي عاقبة ومردّاً على صاحبها .

---

(١) راجع الآية رقم /٤٦/ من سورة الكهف .

﴿ أفرأيتَ ٱلَّذي كَفَرَ بآياتِنا وقالَ لأُوتَيَنَّ مالًا وَوَلَداً ۞ (٧٧) أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْداً ۞ (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۞ (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ۞ (٨٠) ﴾

روى الإمام أحمد عن الخبّاب بن الأرت ، قال : ١٤٤ (كنت رجلاً قيناً . وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث . قال : فإني إذا متُّ ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك . فأنزل الله تعالى . ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينَّ مالاً وولداً – إلى قوله تعالى – ويأتينا فرداً ﴾ أخرجه صاحبا الصحيح وغيرهما . وقوله تعالى : ﴿ اطلع الغيب ﴾ إنكار على هذا القائل : ﴿ لأوتَيَنَّ مالاً وولداً ﴾ يعني يوم القيامة أي أعلمَ ماله في الآخرة حتى تألّى وحلف على ذلك ﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ أم له عند الله عهد وموثق بأنه سيؤتيه ذلك ؟ وقال ابن عباس قال : لا إله الا الله فيرجو بها ؟ وقوله تعالى : ﴿ كلاّ ﴾ حرف ردع لما قبلها ، وتأكيد لما بعدها ؛ ﴿ سنكتب ما يقول ﴾ أي من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما يتمنّاه وكفره بالله العظيم ﴿ ونمدُّ له من العذاب مدّا ﴾ أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ من مال وولد أي نسلبه ماله وولده وكل ما كان في الدنيا ، ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ أي لا يتبعه مما قال كثير ولا قليل .

﴿ وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۞ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۞ (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۞ (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۞ (٨٤) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم اتخذوا من دونه آلهة يعتزون بها ويستنصرونها ثم نفى الله

تعالى ما زعموه فقال عزّ من قائل : ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ويكونون عليهم ضدّاً ﴾ أي بخلاف ما ظنوا فيهم وزعموه فإذا بهم أصبحوا ضداً لهم وخصماء أشداء وأعداء ألداء ، وأعوانا عليهم تخاصمهم وتكذّبهم كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون • وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّاً ﴾ أي تطغيهم طغياناً جزاء ما تنكبوا عن طرق الحق . وذلك كما قال تعالى : ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيّضْ له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعدُّ لهم عدّاً ﴾ أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿ إنّما نعدّ لهم عدّاً ﴾ أي إنّما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله كقوله تعالى : ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذابٍ غليظ ﴾ .

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْداً ۝ (٨٥) وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً ۝ (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْداً ۝ (٨٧) ﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به ، وانتهوا عما عنه زجروهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه ، والوفد هم القادمون ركباناً ، والوفود إلى الله تعالى وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون إلى خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار ﴿ ورداً ﴾ عطاشاً قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم وههنا يقال : ﴿ أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ وقال ابن أبي حاتم عن ابن مرزوق : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً فيقول : من أنت ؟ فيقول أما تعرفني ؟ فيقول : لا ، إلاّ أن الله قد طيب ريحك ، وحسّن وجهك فيقول أنا عملك الصالح وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل

طيبه في الدنيا ، فطالما ركبتك في الدنيا فهلمّ اركبني فيركبه، فذلك قوله تعالى : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسند أبيه عن النعمان ابن سعيد قال : كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه ، فقرأ هذه الآية : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ قال : لا والله ما على أرجلهم يحشرون ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم يرَ الخلائق مثلها ، عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة . وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عبد الرحمن بن اسحق المدني به ، وزاد عليها : رحائل من ذهب وأزمتها الزبرجد والباقي مثله .

وقوله تعالى : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ أي عطاشاً ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض كما أخبر تعالى عنهم : ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ، ولا يرجو إلا الله عز وجل . وقال ابن أبي حاتم عن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله يعني ابنَ مسعود هذه الآية : ﴿ إلاّ من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ ثم قال : اتخذوا عند الله عهداً فإن الله يقول يوم القيامة من كان له عند الله عهد فليقم قالوا : يا أبا عبد الرحمن فعلِّمنا : قال : قولوا : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلْني إلى عملي يقرّبني من الشر ويباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلاّ برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد » وكان يلحق ابن مسعود بهن ، خائفاً مستجيراً مستغفراً راهباً راغباً إليك .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۞ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ (٨٩) تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۞ (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۞ (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۞ (٩٥)

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه الصلاة والسلام وذكر خلقه من مريم بلا أب ، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ، تعالى وتقدس وتنزّه عن ذلك ، فقال سبحانه وتعالى علواً كبيراً : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم ﴾ أي في قولكم هذا ﴿ شيئاً إدّاً ﴾ أي عظيماً ، وقوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً * أن دعوا للرحمن وَلَدا ﴾ أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالا ، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده ، وأنه لا إله إلاّ هو ، وانه لا شريك له ولا نظير له ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ، ولا كفء له بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . قال ابن جرير عن ابن عباس : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين . وكادت أن تزول منه لعظمة اللهَ ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وقال رسول الله ﷺ : ١٤٥ [لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة ، فقالوا يا رسول الله فمن قالها في صحته ؟ قال تلك أوجب وأوجب ثم قال : « والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن ، فوضعوه في كفة الميزان ، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن] هكذا رواه جرير ، ويشهد له حديث البطاقة ، والله أعلم .

قال الضحاك : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ أي يتشققن فرقاً من عظمة الله الله تعالى . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وتنشق الأرض ﴾ أي غضباً له عز وجل ﴿ وتخر الجبال هدّاً ﴾ قال ابن عباس : هدماً وقال سعيد بن جبير : هداً ينكسر بعضها على بعض متتابعات . روى الإمام أحمد عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٤٦ [لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ان يُشرك به ويُجعل له ولد ، وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم] أخرجاه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ أي لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته ، لأنه لا كفء له من خلقه ، وكلهم عبيد له ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلاّ آت الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عداً ﴾ أي قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ أي لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۞ (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدًّا ۞ (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ۞ (٩٨) ﴾

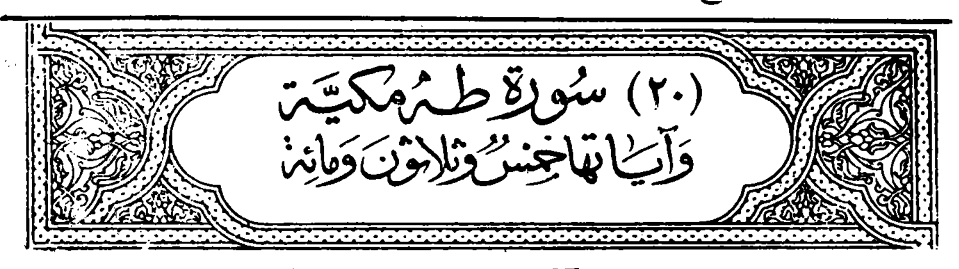
يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبةً ومودة وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه ، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ١٤٧ [ان الله إذا أحب عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه ــ قال ــ فيحبه جبريل ، قال : ثم ينادي في أهل السماء : ان الله يحب فلاناً فأحبوه ، قال : فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض ، وان الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني ابغض فلاناً فأبغضه قال فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضه أهل السماء ثم يوضع له البغضاء في الأرض] . ورواه مسلم من حديث سهيل ، ورواه أحمد والبخاري من حديث ابن جريج عن موسى بن عتبة عن نافع مولى ابن عمر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ نحوه .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ١٤٨ . [إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إني قد أحببت فلانا فأحبه ، فينادي في السماء ، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض] فذلك قول الله عز وجل: ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً ﴾ ورواه مسلم والترمذي وقال : حسن صحيح .

وقال ابن أبي حاتم عن الحسن البصري رحمه الله قال : قال رجل : والله لأعبدن الله عبادة أذكرُ بها ، فكان لا يُرى في حين الصلاة إلا قائماً يصلي ، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج ، فكان لا يعظم فمكث بذلك سبعة أشهر ، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا : انظروا إلى هذا المرائي ، فأقبل على نفسه فقال : لا أراني أذكر إلاّ بشر ،

لأجعلن عملي كلّه لله عز وجل ، فلم يزد على ان قلب نيته ، ولم يزد على العمل الذي كان يعمله ، فكان يمر بعد بالقوم فيقولون : رحم الله فلانا الآن وتلا الحسن : ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فانما يسرناه ﴾ يعني القرآن ﴿ بلسانك ﴾ أي يا محمد . وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل — ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ أي المستجيبين لله المصدقين لرسوله ﴿ وتنذر به قوماً لدّاً ﴾ أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل لا يستقيمون صماً فجاراً . وقوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ ﴾ أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله : ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمعُ لهم ركزاً ﴾ أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم من صوت . والركز في أصل اللغة: الصوت الخفي. آخر اختصار تفسير سورة مريم ولله الحمد والمنة

١٣٨٩/٨/٢٧
١٩٦٩/١١/٧



سوى آيتي ١٢٠ و ١٢١ فمدنيتان
نزلت بعد مريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حزب ٣٢

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته . وقوله تعالى : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ قال قتادة : أي لا والله ما جعله شقاءً ولكن جعله رحمةً ونوراً ودليلاً إلى الجنة ﴿ إلاّ تذكرة لمن يخشىٰ ﴾ أي إنَّ الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمةً رحم بها عباده ليتذكر ذاكر ، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكرٌ أنزل الله فيه حلاله وحرامه . وقوله تعالى : ﴿ تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلىٰ ﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك ، ربِّ كل شيء و مليكه القادر على كل شيء والذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها ، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها . وقوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوىٰ ﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً[1] ، وان المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة، من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقوله تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ أي الجميع ملكه ، وفي قبضته ، وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه وهو خالق ذلك ومالكه وإلهُ لا إله سواه ولا رب غيره .

---

(١) راجع سورة الأعراف الآية /٥٤/

وقوله تعالى : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنَّه يعلم السرَّ وأخفى ﴾ أي أنزل هذا القرآنَ الذي خلق الأرض والسموات العُلىٰ الذي يعلم السر وأخفى .كما قال تعالى : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ السّر ﴾ ما أسرّه ابن آدم في نفسه، ﴿ وأخفىٰ ﴾ ما أخفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله. وقوله تعالى: ﴿ الله لا اله إلاّ هو له الأسماء الحسنى ﴾ أي الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلاَّ هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العُلىٰ ؛ وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة الأعراف ولله الحمد والمنة .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۞ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۞ (١٠) ﴾

من هنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى عليه السلام ، وكيف كان الوحي إليه وتكليمه إياه ، وذلك بعدما وفىّ صهره ما كان عليه من رعاية الغنم ، وسار بأهله قاصداً بلاد مصر ومعه زوجته فأضلّ الطريق وكانت ليلة شاتية باردة،ذات ظلام وضباب فجعل يقدح بزند معه ليوري ناراً كما جرت به العادة ، فجعل لا يقدح شيئاً ولا يخرج منه شرر ولا شيء ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطّور ناراً فبشّر أهله : ﴿ إني آنست ناراً لعليّ آتيكم منها بقبس ﴾ أي شهاب من نار ليستضيء ويصطلي هو وأهله ﴿ أو أجد على النار هدىٰ ﴾ أي أجد من يهديني الطريق فدل على أنه لم يهتد إلى الطريق فلما رأى النار قال : ان لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنارٍ توقدون بها

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۞ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ (١٢) وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۞ (١٣) إِنَّنِي أَنَا ٱللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي ۞ (١٤) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ

نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۞ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۞ (١٦)

يقول تعالى : ﴿ فلما أتاها ﴾ أي النار واقترب منها ﴿ نوديَ ﴾ من قِبَل الله ، ﴿ يا موسى ﴾ وفي الآية الأخرى : ﴿ نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله ﴾ وقال ههنا : ﴿ إني أنا ربّك ﴾ الذي يكلّمك ﴿ فاخلع نعليك ﴾ تعظيماً للبقعة المقدسة ف ﴿ إنك بالوادي المقدس طوىً ﴾ وهو اسم الوادي ، وقوله تعالى : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ كقوله عز وجلّ : ﴿ إني اصطفيتك على الناس ﴾ أي على ناس زمانه ﴿ فاستمعْ لما يوحي ﴾ أي لما أوحيه إليك : ﴿ إنني أنا الله لا إلّه إلاّ أنا ﴾ وهذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إلّه إلا الله وحده لاشريك له. وقوله تعالى : ﴿ فاعبدني ﴾ أي قم بعبادتي وحدي من غير شريك . ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ أي صلِّ عند ذكرك لي : ويشهد لهذا القول ما جاء في الصحيحين عن أنس قال قال رسول الله ﷺ ١٤٩ [من نام عن صلاة أونسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلاّ ذلك] وقوله تعالى : ﴿ إن الساعة آتية ﴾ أي قائمة لا محالة وكائنة لا بد منها . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أكاد أخفيها ﴾ أي اخفيها عن كل مخلوق ولم أُعلِمْ بموعدِها أحداً ، وأكاد أخفيها حتى من نفسي [(١)] والحكمة من ذلك : ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ أي من أجل أن أجزي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ فلا يصدنّك عنها من لا يؤمن بها ﴾ الآية ... المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على دنياه وعصى مولاه ، وأتبع هواه فتهلكوا .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۞ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۞ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ۞ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۞ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۞ (٢١)

(١)قلت : مبالغة في شدة الإخفاء وهذا معروف من لغة العرب . وإلا فإن الله لاتخفى عليه خافية

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ، ومعجزة عظيمة ، وخرق للعادة ، باهرٌ دالٌّ على انه لا يقدر على مثل هذا إلاّ الله عز وجل ، وأنه لا يأتي به إلاّ نبيٌّ مرسل .

وقوله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ هذا سؤال على سبيل الإيناس له كما هو أيضاً استفهام تقرير ﴿ قال هي عصاي أتوكأ عليها ﴾ أي أعتمد عليها في المشي ﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ أي أهزّ بها الشجرة برفق ليتساقط ورقها لترعاه غنمي وقوله : ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ أي مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك ، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية التي كانت تقول أنّ له فيها بعض الخوارق ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعباناً فما كان يفرُّ منها هارباً . وقوله تعالى : ﴿ قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعىٰ ﴾ أي صارت حالاً ثعباناً عظيماً يتحرك حركة سريعة ، كأنها جان.وهو أكثر الحيات حركةً ولكنه صغير ، أما هذا الثعبان فهو في غاية الكبر وغاية السرعة فخاف منها خوفاً شديد وفرّ منها هرباً فقال تعالى : ﴿ خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى ﴾ فحاول موسى أن يأخذها بطرف مدرعته ولفّها على يده فقال له ملك: أرأيت يا موسى لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً ؟ قال لا ولكني ضعيف ومن ضعف خلقت ، فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب ، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ سنعيدها سيرتها الأولىٰ ﴾ أي حالها التي تعرف قبل ذلك . .

۞ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۞ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ ۞ (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۞ (٢٤) قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۞ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۞ (٢٦) وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۞ (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ۞ (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ۞ (٢٩) هٰرُونَ أَخِي ۞ (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ (٣١) وَأَشْرِكْهُ

فِي أَمْرِي ❁ (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ❁ (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ❁ (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ❁ (٣٥)

وهذا برهان ثان لموسى عليه الصلاة والسلام وذلك قوله تعالى : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ أي كفَّك تحت عضدك ، وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها ، تخرج متلألئةً كأنها فلقةُ قمر . وقوله تعالى : ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أي من غير برص ولا أذى ، ولا شين فعلم موسى انه قد لقي ربّه عز وجل.ولهذا قال تعالى : ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إذهب إلى فرعون إنه طغىٰ ﴾ أي إذهب إلى فرعون الذي خرجت منه هارباً ، فادْعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ومُرْهُ فليحسنْ إلى بني اسرائيل ولا يعذبهْم فانه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الربَّ الأعلى . ﴿ قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدرَه فيما بعثه به فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم ، بعثه إلى أعظم ملك علىٰ وجه الأرض إذ ذاك ، وأجبرهم وأشدهم كفراً ، واكثرهم جنوداً ، وأعمرهم ملكاً ، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً ، بلغ من أمره أنِ ادّعى أنه لا يعرف الله ، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره ؛ هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه ، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه فهرب منهم هذه المدة بكمالها ، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له. ولذا قال موسى : ﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ أي إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري وإلاّ فلا طاقة لي بذلك ﴿ واحْلل عقدةً من لساني يفقهوا قولي ﴾ وذلك لما أصابه من اللثغُ حين عرض عليه التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، كما سيأتي بيانه ، وما سأل أن يزول بالكلية بل بحيث يزول العيُّ ، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ، ولو سأل الجميع لزال ولكن الأنبياء لا يسألون إلاّ بحسب الحاجة فآتاه الله سُؤْلَه فحلّ عقدة لسانه وقوله : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ﴾ وهذا سؤال من موسى عليه السلام بمساعدة أخيه هارونَ له قال الثوري عن ابن عباس أنه قال : نُبِّئَ هارونُ ساعتئذ حين نبيء موسى عليهما السلام . وقوله : ﴿ اشددْ به أزري ﴾ قال مجاهد : أي ظهري ﴿ وأشركه في أمري ﴾ أي في مشاورتي ﴿ كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾ قال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً

ومضطجعاً . وقوله : ﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ أي في اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوّة وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون فلك الحمد على ذلك .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ * (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي *(٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ قال قد أوتيتَ سؤلك يا موسى ﴾ هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأله ربه من حل عقدة اللسان ، وجعلِ هارونَ أخيه وزيراً يشد به أزره ونبياً مرسلاً معه ، ثم شرع سبحانه يذكره بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه ، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه ، لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان ، فاتخذت له تابوتاً ، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في النيل، وتمسكه إلى منزلها بحبل ، فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها ، وذهب به النيل فحصل لها من الهم والغم ما ذكره الله عنها في قوله تعالى : ﴿ وأصبح فؤآد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ فذهب به النيل إلى دار فرعون ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ أي قدراً مقدوراً من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني اسرائيل حذراً من وجود موسى ، فحكم الله وله السلطان العظيم والقدرة التامة أن لا يربّى إلا على فراش فرعون ، ويغذىٰ بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له ولهذا قال تعالى : ﴿ يأخذه عدو لي وعدو له * وألقيت عليك محبة مني ﴾ أي عند عدوك جعلته يحبك ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ أي بحيث أرى ... فجعلتك في بيت الملك تنعم وتترف ، وغذاؤك عندهم غذاء الملك ، فتلك الصنعة .

وقوله تعالى : ﴿ إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى امك كي تقرَّ عينها ﴾ وذلك انه لما استقر عند آل فرعون،عرضوا عليه المراضع فأباها .كما قال الله تعالى : ﴿ وحرّمنا عليه المراضع من قبل ﴾ فجاءت أخته وقالت : ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة ، فذهبت به وهم معها إلى أمه فعرضت عليه ثديها ، فقبله ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة" في الدنيا ، وفي الآخرة أعظم وأجزل ، ولهذا جاء في الحديث ١٥٠[مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترصع ولدها وتأخذ أجرها .] .

وقال تعالى ها هنا : ﴿ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ﴾ أي عليك ﴿ وقتلتَ نفساً ﴾ يعني القبطي ﴿ فنجيناك من الغم ﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله ، ففرّ منهم هارباً حتى ورد ماء مدين وقال له ذلك الرجل الصالح : ﴿ لا تخف نجوتَ من القوم الظالمين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وفتنّاك فتوناً ﴾ روى النسائي رحمه الله في كتاب التفسير من سننه قوله﴿وفتنّاك فتوناً﴾بسنده إلى سعيد بن جبير قال سأل عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل : ﴿ وفتنّاك فتوناً ﴾ فسألته عن الفتون ما هو ؟ . فقال : استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون فقال : « ... وهنا قال ابن عباس حديثاً طويلاً موقوفاً عليه ، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنه مما أبيح نقله من الاسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره والله أعلم .

ونحن نقتطف منه خلاصةً نحرص بقدر الإمكان،ان تكون موافقة للواقع الذي حصل إذاك.وذلك مما يوافق ما جاء في القرآن الذي نزل على نبينا محمد ﷺ .

يتلخص حديث الفتون الذي رواه ابن عباس موقوفاً عليه بمنّ الله تعالى على موسى عليه السلام منذ أن كان جنيناً في بطن أمه إلى أيام التيه ونزول المن والسلوى على بني اسرائيل فيها وضرب موسى الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها .

• وهنا نذكر أولاً : قرر فرعون أن يذبح كل مولود من بني اسرائيل ذكراً ويترك الأنثى لكيلا يأتي من ذرية إسرائيل ملك يقضي على فرعونَ وملكِه ، فلمّا رأوا أن الكبار

من بني اسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يذبحون قالوا : ليوشكنْ أن تُفنوا بني اسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر واتركوا بناتهم ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً فقدر الله ان يلد هارون في العام الذي يعفى فيه الذبح،وولد موسى في العام المقرر فيه ذبح الذكور.فوقع في قلب أمه من الهم والحزن ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به . وذلك من الفتون يا ابن جبير .

* ولما ولد موسى وألهم الله أمه أن تصنع تابوتاً وتجعله فيه وتلقيه في اليم إلى أن يصل إلى قصر فرعون ويلتقطه جواري امرأة فرعون ويعطينها إياه فتفتحه واذ بغلام ويلقي عليها الله محبةً منه في قلبها وتفرح به ، وتعرضه على المراضع فيأبى المولود أن يرضع من أحد إلى أن أتت أخت موسى التي كانت تتحسس خبر اخيها الوليد إلى أن رأته في بيت فرعون يفتشون له عن مرضع فلا يجدون.فقالت اخته أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا : ما يدريك ما نصحهم له هل تعرفينه ؟ حتى شكّوا في ذلك – وذلك من الفتون يا ابن جبير – فقالت : نصحهم له هو رغبتهم في رجاء منفعة الملك فتركوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصّه حتى امتلأ جنباه رياًّ وانطلق البشير إلى امرأة فرعون فأتت بها وبه وراودتها على البقاء في بيت فرعون فاعتذرت لعدم استطاعتها ترك بيتها وولدها وذكرت أم موسى ما كان وعدها الله فيه فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت ان الله منجز وعده فرجعت به إلى بيتها من يومها وأنبته الله نباتاً حسناً وحفظه لما قد قضى فيه .

* طلبت امرأة فرعون من أم موسى أن تأتي بموسى لشدة شوقها إليه في زيارة لها فلما زارتها نحلت أمه الهدايا واخذته إلى فرعون ليهديه ويكرمه فلما جعله في حجره تناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون ألا ترى إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير فتداخلت امرأة فرعون في الأمر وقالت هذا وليد لا يعقل إئت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن اليه فإن أخذ اللؤلؤتين عرفت انه يعقل وان تناول الجمرتين علمت أن أحداً يعقـل لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين فتناول الجمرتين فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد همّ به .

* ولما بلغ أشده ورأى القبطي يريد قتل الإسرائيلي واستغاثة الإسرائيلي فوكز القبطي فقتله وما أحد يعلم ذلك إلا الله ثم الإسرائيلي فقال موسى حين قتل الرجل : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين.ثم قال : ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو

الغفور الرحيم ﴾ ثم في الغد رأى موسى ذلك الإسرائيلي يقاتل قبطياً آخر فاستغاثه الاسرائيلي على الفرعوني القبطي فقال موسى للاسرائيلي إنك لغويّ مبين فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال فإذا موسى غضبان كغضبه بالأمس ، فخاف ان يكون موسى أراد قتلَه ـ ولم يكن يريد موسى قتله بل كان يريد أن يقتل الفرعوني ـ فخاف الإسرائيلي وقال : يا موسى أتريدُ ان تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس فتاركا وانطلق الفرعوني ليخبر فرعون بما سمع من الاسرائيلي فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فجاء رجل من شيعته فاخبره . وذلك من الفتون يا ابن جبير .

ثم ذكر وصوله إلى مدين ونجاته من فرعون وزواجه بإحدى ابنتي ذلك الرجل الصالح(١) في مدين . ثم إتمام عدة الثماني سنوات التي رعى فيها موسى لذلك الصالح غنمه ثم أتمها بعشر . ثم لما انهى العشر وسار موسى بأهله وقال لهم : إني آنست ناراً فذهب ليأتي منها بقبس واذ نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة إني انا الله ... ثم اطلعه الله على معجزة العصا كيف تنقلب إلى حية ثم معجزة اليد ثم كلفه بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله ثم طلب موسى أن يشرك أخاه هارون في أمره ثم الذهاب إلى فرعون والقاء العصا ولألأة اليد ، ثم حشر السحرة والقاء عصيهم وحبالهم ثم القاء موسى عصاه فإذا هي ثعبان عظيم ما أبقى عصاً ولا حبلاً الأ ابتلعه ، ثم لإيمان السحرة بالله تعالى وغضب فرعون عليهم وقتلهم لأنهم آمنوا ، وموقف امرأة فرعون المؤمنة التي كانت تدعو الله ان ينصر موسى على فرعون واشياعه ثم ارسال الطوفان على قوم فرعون والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات لعلّهم يؤمنون. فما زادهم ذلك إلا عتوّاً وكفراً وكان فرعون كلما أتته آيةٌ من الله، يستغيث بموسى أن يكفّها عنه ويُواثقه على أن يرسل معه بني اسرائيل، فإذا كف عنهم ذلك أخلف فرعون موعده ونكث عهده . حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً فتبعه فرعون صباحاً بجنوده فضرب موسى البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى فانفرق البحر كما أمره ربه ، فلما أن جاز موسى واصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه التقىُ عليهم البحر كما أمره ربه ، فغرق فرعون وجنوده وخشي قوم موسى أن لا يكون فرعون قد غرق فعلاً، فأخرجه الله من البحر ليطمئنوا ويفرحوا بغرقه، ويروا آية الله فيه ظاهرةً جليةً . ثم مَروُّا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم : ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قومٌ تجهلون إن هؤلاء متّبرٌ ما هم فيه ﴾ الآية ... ثم

---

(١) يقال انه نبي الله شعيب والله تعالى أعلم .

استخلف موسى أخاه هارون على قومه لذهابه إلى ربه ثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن ثم أتمهن بعشر بأمر الله ثم لما استبطأ قوم موسى نبيهم عليه الصلاة والسلام ..

أضلهم السامري فعبدوا العجل ولم يصغوا إلى ردع هارون لهم عن ذلك ففرقة منهم عبدوا العجل وأخرى قالت هذا من عمل الشيطان وليس العجل ربنا ولا نؤمن به ، ثم رجع موسى إلى قومه ورآهم على ذلك فغضب وأسف أسفاً شديداً وأخذ برأس أخيه يجره وألقى الألواح من الغضب ثم عذر أخاه بعذره واستغفر له ، ثم حرق العجل ونسفه في اليم فاستيقن بنو اسرائيل أنه ليس آلهاً ثم سأل موسى عليه السلام التوبة لقومه مما فعلوا فقال الله : إن توبتهم ان يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل حتى بلغ القتل سبعين ألفاً ثم رفع الله عنهم القتل وغفر للقاتل والمقتول .

ثم سار موسى متوجهاً بهم إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب وأمرهم بأن ينقذوا الأرض المقدسة ممن فيها ، قالوا ان فيها قوماً جبارين لا طاقة لنا بهم ، ولن ندخلها ما داموا فيها قال رجلان منهم : نعم من الجبارين ولكن لا قلوب لهم ولا منعة لهم فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم الغالبون . قالوا لموسى عليه السلام : إذهب انت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون فغضب موسى ودعا عليهم فحرَّم الله الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ليس لهم فيها قرار ثم ظلّل الله عليهم الغمام وأنزل عليهم المنّ والسلوى وجعل لهم حجراً يتنقل معهم إذا ضربه موسى بعصاه انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً . وعلم كلُّ أناسٍ مشربهم ، أي كل سبطٍ من أسباطهم علموا مشربهم.هذا تفسير قوله تعالى : ﴿ وفتنّاك فتوناً ﴾ أي أنقذناك وتوليناك في كل ما مر عليك من هذه الفتون وخرجت منها مرعياً بعناية الله محفوفاً بتأييده ونصره ولله الحمد والمنـــة .

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ۝ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝ (٤١) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۝ (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝ (٤٤) ﴾

يخاطب تعالى موسى عليه السلام إنه لبث مقيماً في أهل مدين فاراً من فرعون وملئه ، يرعى على صهره قوله ﴿ ثم جئت على قدريا موسى ﴾ أي على موعد ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ اي اخترتك رسولاً لنفسي كما أريد وأشاء . وقوله تعالى : ﴿ إذهب انت واخوك بآياتي ﴾ أي بمعجزاتي ، ﴿ ولا تنيا في ذكري ﴾ أي لا تضعفا ولا تفترا في ذكر الله تعالى ليكون ذكر الله عوناً لهما على فرعون وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له ، كما جاء في الحديث ١٥١ [إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه] وقوله تعالى : ﴿ إذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ وهذه الآية فيها عبرة عظيمة في أسلوب الدعوة في اللين والملاطفة كما قال يزيد الرقاشي : يا من يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟ .

اي ذكراه بأن له رباً وله معاداً وهناك جنة ونار ،كل ذلك يكون بكلام رقيق سهل لين ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع . كما قال تعالى : ﴿ أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى ربّه ، فالتذكر الرجوع عن المحذور والخشية تحصيل الطاعة كل ذلك لإقامة الحجة عليه وإنذاره قبل عقابه .

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ۞ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۞ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ۞ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۞ (٤٨) ﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام ، أنهما قالا مُستجيرَين بالله تعالى ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ يعنيان انهما يخافان أن يبطش بهما ويعتدي عليهما : ﴿ قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ أي لا يخفى عليَّ من أمركما شيء واعلما أن ناصيته بيدي ، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلاّ بإذني ، وبعد أمري ، وانا معكما بحفظي ونصري وتأييدي .

وقوله تعالى : ﴿ فأتياه فقولا إنّا رسولا ربك ﴾ عن ابن عباس انه قال مكثا على بابه حيناً لا يؤذن لهما حتى أذن لهما بعد حجاب شديد . وذكر السدي أنه لما قدم موسى بلاد مصر ضاف أمّه وأخاه وهما لا يعرفانه ، ثم عرفاه وسلما عليه فقال له موسى : يا هارون ان ربي قد أمرني أن آتي هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى الله وأمرك ان تعاونني . قال : افعل ما أمرك ربك ، فذهبا وكان ذلك ليلاً ، فضرب موسى باب القصر بعصاه فسمع فرعون فغضب وقال : من يجترىء على هذا الصنيع الشديد ، فأخبره السدنة والبوابون بأن ها هنا رجلاً مجنوناً يقول انه رسول الله فقال : عليّ به قالا : ﴿ إنّا رسولا ربك فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ﴾ أي قد جئناك بمعجزة من ربك والسلام عليك ان اتبعت الهدى ﴿ إنّا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم ان العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته ، كما قال تعالى : ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى ﴾ .

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ * (٥٢) ﴾

يخبر تعالى عن فرعون أنه أنكر على موسى وجود الصانع الخالق إلٰه الكون وربه ومليكه ﴿ قال فمن ربكما يا موسى ﴾ أي مَن الذي أرسلك فإني لا أعرفه وما علمت لكم من إلٰه غيري ﴿ قال ربنا الذي أعطى كلّ شيءٍ خلقه ثم هدى ﴾ قال سعيد بن جبير : أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه ، ولم يجعل للانسان من خلق الدابة ولا للدابة من خلق الكلب ، ولا للكلب من خلق الشاة وأعطى كل شيء ما ينبغي له ، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ أي أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى شرع يحتج بالقرون الأولى ، أي الذين لم يعبدوا الله ، أي فما بالهم فقال موسى : هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله ، وهو اللوح المحفوظ ، وكتاب

الأعمار ﴿ لا يضلُّ ربي ولا ينسى ﴾ أي لا يشذ عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير ، ولا ينسى شيئاً وهو بكل شيء محيط بعلمه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه . فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان : أحدهما عدم الإحاطة بالشيء ، والآخر نسيانه بعد علمه ، فنزه الله نفسه عن ذلك .

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ * (٥٣) كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلنُّهَىٰ * (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ * (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ * (٥٦) ﴾

ربع الحزب

هذا من تمام كلام موسى عليه السلام فيما وصف به ربّه عز وجل حين سأله فرعون عنه فقال : ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ ثم اعترض الكلام بين ذلك ثم قال : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أي قراراً تستقرون عليها ، وتقومون وتنامون عليها ، وتسافرون على ظهرها ﴿ وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ أي جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها ،كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلّهم يهتدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى ﴾ أي من أنواع النباتات من زروع وثمار ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ أي شيء لطعامكم وفاكهتكم ، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً ويبساً ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي لدلالات وحججاً وبراهين ﴿ لأولي النهى ﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة ، على انه لا إله إلا الله ولا رب سواه . ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ أي من الأرض مبدأكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض وفيها نعيدكم أي وإليها تصيرون إذا متم وبليتم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى كقوله تعالى : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلاّ قليلاً ﴾ وفي الحديث الذي في السنن ١٥٢[ان رسول الله ﷺ حضر جنازة فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر وقال : « منها خلقناكم » ثم أخذ أخرى وقال : « وفيها نعيدكم »

ثم أخرى وقال : « ومنها نخرجكم تارة أخرى »]

وقوله تعالى : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذّب وأبى ﴾ يعني فرعون.أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات ، وعاين ذلك وأبصره فكذّب بها وأباها كفراً وعناداً وبغياً كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ الآية ...

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ۝ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى ۝ (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝ (٥٩) ﴾

يخبر تعالى عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً ، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء ، فقال : هذا سحر جئت به لتسحرنا ، وتستولي به على الناس فيتبعونك ، وتكاثرنا بهم فلن نمكّنك ، فإنّ سحرنا مثل سحرك الذي أنت مغترٌّ به ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً ﴾ أي يوماً نجتمع فيه في مكان معين لا نخلفه نحن ولا أنت ، عندها ﴿ قال ﴾ لهم موسى ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ وهو يوم عيدهم وتفرغهم واجتماعهم . ليشاهدَ الناسُ قدرةَ الله على كل شيء ، ويثبت لديهم ان معجزات الأنبياء تبطل معارضة السحر لها.ولهذا قال ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ ليكون الأمر أظهرُ وأجلى ، وهكذا شأن الأنبياء ، فإن كل أمرهم واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج قال ابن عباس : وكان يوم الزينة هو يوم عاشوراء ، وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده كما ثبت في الصحيح .

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ۝ (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ ۝ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ

مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۞ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۞ (٦٤)

يخبر تعالى عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين تولىّ أي شرع في جمع سحرة مملكته ، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً ، ثم اجتمع الناس في يوم الزينة الموعود فحضر فرعون واكابر دولته ورعاياه ، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئاً على عصاه ومعه أخوه هارون ، ووقف السحرة صفوفاً وفرعون يحرضهم ويرغبهم في العطايا إن هم تغلبوا على موسى ﴿ قال لهم **موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً** ﴾ **أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم** ... إيجاد أشياء لا حقائق لها وأنها مخلوقة ، وليست مخلوقة فتكونون قد كذبتم على الله ﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ أي يهلككم بعذاب هلاكاً لا بقية له ﴿ وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم ﴾ أي اختلفوا بينهم فمن يقول ليس هذا بكلام ساحر انما هذا كلام نبي وآخر يقول بل هو ساحر ﴿ وأسرُّوا النجوى ﴾ أي تناجوا بينهم : ﴿ قالوا إن هذان لساحران ﴾ وهذه لغة لبعض العرب ومنهم من قرأ : ﴿ إنْ هذان لساحران ﴾ وهذه اللغة المشهورة ، والغرض ان السحرة قالوا عن موسى وهارون ساحران عالمان خبيران بصنعة السحر يريدان في هذا اليوم ان يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس ، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده ويخرجاكم من أرضكم ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ أي ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر وتنتهي اليهما الرياسة ويذهبا بملكنا ومعاشنا ويصرفا الناس عنا . ويتصرفا هما وبنو اسرائيل بأموالنا وما نحن فيه من الملك والعيش الرغيد ﴿ فاجمعوا كيدكم ثم **ائتوا صفاً** ﴾ أي اجتمعوا كلكم صفاً واحداً والقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الابصار ، وتغلبوا هذا وأخاه ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى أي منّا ومنه فإن علونا نحن نحظ بعطاء الملك الجزيل ، وإن علا موسى واخوه فينالا الرئاسة العظيمة .

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۞ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۞ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ۞ (٦٧) قُلْنَا لَا

تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ❁ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ❁ (٦٩) فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ❁ (٧٠)

يخبر تعالى عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام انهم قالوا لموسى : ﴿ إما أن تلقيَ ﴾ أي أنت أولاً ﴿ وإما أن نكون أول من ألقىٰ * قال بل ألقوا ﴾ أي أنتم أولاً لنرى سحركم ، وليظهر للناس حقيقة دجلهم ﴿ فإذا حبالهم وعصيّهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ وذلك أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد،بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها ، وإنما كانت حيلةً،وكانوا جماً غفيراً . حتى صار الوادي مليئاً بحيّات يركب بعضها بعضاً ﴿ فأوجس في نفسه خيفةً موسى ﴾ أي خاف على الناس ان يفتنوا بسحرهم ﴿ قلنا لا تخفِ إنك أنت الأعلىٰ * وألق ما في يمينك تلقفْ ما صنعوا ﴾ أي من الدجل والتمويه ، وذلك أنها صارت تنّيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبقِ منها شيئاً إلا ابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرةً نهاراً ضحوةً ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر ولهذا قال تعالى ﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ روى ابن أبي حاتم عن جندب بن عبدالله البجلي قال : قال رسول الله ﷺ ١٥٣ [« إذا أخذتم » – يعني الساحر – « فاقتلوه » ثم قرأ : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ قال « لا يؤمّن حيث وجد »] وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً .

فلما شاهد السحرة ذلك علموا علم اليقين أن ما فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل وانه حق لا مرية فيه ولا يقدر على هذا إلاّ الذي يقول للشيء كن فيكون،عندها خرُّوا سجداً لله تعالى وقالوا : ﴿ آمنا برب هارون و موسى ﴾ ولهذا قال ابن عباس وعبيد بن عمير : كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة قال ابن عباس كان عددهم سبعين رجلاً ، وعن سعيد بن جبير قال : رأوا منازلهم تبين لهم وهم في سجودهم وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة .

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۞ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۞ (٧٣) ﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون ، وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة ، والآية العظيمة ، ورأى من استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم ، وغُلبَ كل الغلب شرع في المكابرة والبهت ، وعدل إلى استعماله جاهه وسلطانه في السحرة فتهددهم وتوعدهم وقال : ﴿ آمنتم له ﴾ أي صدقتموه ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ أي دون أن آمركم بذلك ، ثم بهت وكذب عليهم بقوله : ﴿ انه لكبيركم الذي علّمكم السحر ﴾ أي إنما أخذتم السحر عن موسى وهو الذي علمكموه ، واتفقتم معه على نصرته وخذلاني ثم أخذ يتهددهم فقال : ﴿فلأقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ أي لأجعلنكم مثلة ، ولأقتلنكم ولأشهّرنكم قال ابن عباس فكان أول من فعل ذلك . وقوله : ﴿ ولتعلمن أيّنا أشدُّ عذاباً وأبقى ﴾ أي تدعون أنني على ضلالة وإنكم عليّ مع موسى وقومه ، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ، فهانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل و ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿ والذي فطرنا ﴾ أي لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم ، فهو المستحق للخضوع والعبادة لا أنت ﴿ فأقض ما أنت قاض ﴾ أي فأفعل ما شئت ﴿ انما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ إنما تسلطك في هذه الدنيا وهي دار زوال ، ونحن قد رغبنا في دار القرار : ﴿ إنّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ أي آثامنا ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه . ﴿ والله خير وأبقى ﴾ أي خير لنا منك وأدوم ثواباً مما وعدتنا به ، وهكذا

كان فعل فرعون بهم رحمةً لهم من الله ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء .

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ❁(٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ❁ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ❁ (٧٦) ﴾

وهذا من تمام وعظ السحرة لفرعون يحذرونه نقمة الله وعذابه السرمدي ، ويرغبونه في ثوابه المخلّد فقالوا : ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً ﴾ أي يلقاه يوم القيامة مشركاً ﴿ فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ١٥٤ [« أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماتةً حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة جيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثّوا على أنهار الجنة فيقال : يا أهل الجنة افيضوا عليهم فينبتون نبات الحبّة تكون في حميل السيل ﴾ فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية] وهكذا أخرجه مسلم . وقوله تعالى : ﴿ ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات ﴾ أي ومن لقي ربه مؤمناً قولاً وعملاً ﴿ فأولئك لهم الدرجات العلىٰ ﴾ أي الجنة ذات الدرجات العاليات ، والغرف الآمنات ، والمساكن الطيبات ، روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال ١٥٥ [« الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة ، والعرش فوقها ، فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس) ورواه الترمذي .

وفي الصحيحين ١٥٦ [إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم – قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء قال : بلىٰ والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين] وفي السنن : وإن ابا بكر وعمر لمنهم وأنعما . وقوله تعالى : ﴿ جنات عدن ﴾ أي إقامة وهي بدل من الدرجات العلىٰ ﴿ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين أبداً . ﴿ وذلك جزاء من تزكىّ ﴾ أي طهر

نفسه من الدنس والخبث والشرك واتبع المرسلين .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي ٱلْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَىٰ ۞ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۞ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۞ (٧٩) ﴾

يخبر تعالى أنه أمر موسى عليه السلام أن يسري بقومه ليلاً حين امتنع فرعون ان يرسلهم معه فخرج موسى بقومه أجمعين ، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل يجمع الجند من جميع بلدانه فتهيأ له جيش عظيم ساقه في طلب بني اسرائيل عند شروق الشمس فلما تراءى الجمعان ظنّ أصحاب موسى أنهم لمدركون ، فوقف موسى بقومه والبحر أمامهم وفرعون وراءهم ، فعند ذلك أوحى الله إليه : ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ فضرب البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم فلم يعد بنو اسرائيل يخافون أن يدركهم فرعون ولا يخشون الغرق في البحر ثم قال تعالى : ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ أي ما هو معروف ومشهور من الغرق الذي حاق بفرعون وقومه كما انه تقدمهم فسلك بهم في البحر فأضلهم واغرقهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد كذلك يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار فبئس الورد المورود .[1]

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۞ (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ۞ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۞ (٨٢) ﴾

(١) فماذا يقول المشفقون ...؟!

يذكر تعالى نعمه على بني اسرائيل العظام ومننه الجسام لانجائهم من عدوهم فرعون وأقرّ أعينهم بهلاكه وهم ينظرون إليه وإلى جنده فقد غرقوا صبيحة واحدة ، لم ينج منهم أحد . كما قال تعالى : ﴿ وأغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون ﴾ روى البخاري عن ابن عباس قال ١٥٧ [لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء ، فسألهم فقالوا : هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون فقال : « نحن أولى بموسى فصوموه »] رواه مسلم في صحيحه أيضاً .

ثم انه تعالى واعد موسى وبني اسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن وهو الذي كلمه الله تعالى عليه ، وسأل فيه الرؤية ، واعطاه التوراة هنالك . وفي خلال ذلك عبد بنو اسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريباً ، أما المنّ فحلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى طائر يسقط عليهم فيأخذون من كلٍ قدر الحاجة إلى الغد لطفاً من الله ورحمة بهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ﴾ أي لا تخالفوا أمري فتأخذوه من غير حاجة فأغضب عليكم ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ أي فقد شقي . وقوله تعالى : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي كل من تاب إليّ تبت عليه من أي ذنبٍ كان، وقوله تعالى : ﴿ تاب ﴾ أي رجع عما كان فيه من كفر وشرك أو معصية أو نفاق وقوله تعالى : ﴿ وآمن ﴾ أي بقلبه . ﴿ وعمل صالحاً ﴾ أي بجوارحه ، وقوله تعالى : ﴿ ثم اهتدى ﴾ اي استقام على السنة والجماعة ولزم الاسلام حتى يموت وعلم أن لهذا ثواباً من الله تعالى .

نصف الحزب

۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ❁ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ❁ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ❁ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ❁ (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ❁ (٨٧)

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۞ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ۞ (٨٩)

لما سار موسى عليه السلام ببني اسرائيل بعد هلاك فرعون ﴿ وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبرّ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشراً ، فتمت اربعين ليلة أي يصومها ليلاً نهاراً ، فسارع موسى مبادراً إلى الطور واستخلف على بني اسرائيل أخاه هارون ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري ﴾ أي قادمون ينزلون قريباً من الطور ﴿ وعجلت اليك رب لترضى ﴾ أي لتزداد عني رضا ﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني اسرائيل وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري . وقوله تعالى : ﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ أي بعدما أخبره تعالى بذلك فأصبح في غاية الغضب والحنق عليهم ، فبينما هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم ، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم وفيها شرف لهم اذا بهم قد عبدوا غير الله ، ولهذا رجع اسفاً حزيناً غاضباً على ما صنع قومه من بعده من سخافة عقل، وشرك بالله الذي أنعم عليهم وأنقذهم ﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ على لساني ، كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من نعم الله ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أي أنسيتم ما سلف من نعمه تعالى وما بالعهد من قدم ﴿ أم اردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴾ ؟ بل اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم ﴿ فأخلفتم موعدي قالوا ﴾ أي بنو اسرائيل ﴿ ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ أي باختيارنا وقدرتنا ﴿ ولكنّا حُملنا أوزاراً من زينة القوم ﴾ وهو تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر ﴿ فقذفناها فكذلك ألقى السامري * فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ وعن ابن عباس قال : إنما أراد هارون حين أمرهم بالقاء الحلي في حفرة فيها نار ، وإن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة ، ويُجعَل حجراً واحداً حتى اذا رجع موسى عليه السلام ، رأى فيه ما يشاء ثم جاء ذلك السامري فألقى عليها القبضة التي أخذها من أثر الرسول الذي جاوز ببني اسرائيل البحر ، فمرّ بهارون فقال له هارون عليه السلام :

يا سامري ألا تلقي ما في يدك ، والسامري قابض عليه لا يراه أحدٌ طول ذلك فقال السامري : لا ألقيها لشيء إلاّ ان تدعو الله إذا ألقيتها ان يجعلها ما أريد فألقاها ودعا له هارون فقال السامري : أريد أن يكون عجلاً فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح ولا خوار قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه ، وكان ذلك الصوت من ذلك ﴿ فقالوا ﴾ أي الضُّلاّل من بني اسرائيل الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه : ﴿ هذا إلهكم وإلهُ موسى ... ﴾ فعكفوا عليه وأحبّوهُ حباً لم يحبّوا شيئاً مثله قط وقوله تعالى : ﴿ فنسي ﴾ أي ترك السامري ما كان عليه من الإسلام ، قال الله تعالى رداً عليهم وتقريعاً، لهم وبياناً لفضيحتهم، وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه : ﴿ أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي أفلا يرون ان العجل لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً أي في دنياهم ولا في أخراهم .

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة انهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم ، وعبدوا العجل ، فتورّعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَرُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۞(٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۞ (٩١) ﴾

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل ، واخباره إياهم انما هذا فتنة لكم وان ربكم هو الرحمن الذي خلق كل شيء ﴿ فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾ أي فيما آمركم به ، واتركوا ما أنهاكم عنه ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى ﴾ أي لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه وخالفوا في ذلك هارون وحاربوه وكادوا ان يقتلوه .

﴿ قَالَ يَا هَرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۞ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۞ (٩٣) قَالَ يَابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا

بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ❁ (٩٤)

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه ، فرأى ما حدث فيهم من الشرك ، فامتلأ غضباً وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية ، وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه وشرع يلوم أخاه هارون فقال له : ﴿ ما منعك إذ رأيتم ضلّوا ألاّ تتبعن ﴾ أي فتخبرني بما وقع فوراً ﴿ أفعصَيْتَ أمري ﴾ فيما كنت قدمت اليك وهو قوله : ﴿ أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ ﴿ قال يا ابنَ أمَّ ﴾ ترقق له بذكر الأم مع انه شقيقه لأبويه لأن ذكر الأم ها هنا أرقُّ وأبلغ في الحنو والعطف ولهذا قال : ﴿ يا ابن أمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ الآية وقوله : ﴿ إني خشيت ﴾ هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان اي خشيت أن اتبعك فأخبرك بهذا ﴿ أن تقول ﴾ لم تركتهم وحدهم و ﴿ فرّقت بين بني اسرائيل ولم ترقبْ قولي ﴾ أي وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم قال ابن عباس : وكان هارون هائباً مطيعاً له .

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ❁ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ❁ (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَٱنْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفاً ❁ (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ❁ (٩٨)

﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام للسامري ﴿ فما خطبك يا سامريّ ﴾ أي ما حملك على ما صنعتَ قال محمد بن اسحق عن ابن عباس : كان السامري من قوم يعبدون البقر وكان قد أظهر الإسلام مع بني اسرائيل وكان اسمه : موسى بن ظفر ﴿ قال ﴾ السامري

﴿ بصُرْت بما لم يَبْصُروا به ﴾ أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ أي من أثر فرسه ، وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو اكثرهم ﴿ فنبذتها ﴾ أي ألقيتها . وقال ابن أبي حاتم عن عكرمة : أن السامري رأى الرسول فألقي في روعه انك ان أخذت من اثر هذا الفرس قبضةً فألقيتها في شيء فقلت له كن فكان فقذف القبضة وقال كن فكان عجلاً جسداً له خوار ﴿ وكذلك سولت لي نفسي ﴾ أي حسنته وأعجبها ، عندها ﴿ قال فاذهب فإن لك في الحياة ان تقول لا مساس ﴾ أي فكما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من اثر الرسول فعقوبتك في الدنيا ان تقول لا مساس اي لا تمس الناس ولا يمسُّونك ﴿ وان لك موعداً ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لن تخلفه ﴾ أي لا محيد لك عنه ﴿ وانظر إلى إلهك ﴾ أي معبودك ﴿ الذي ظلت عليه عاكفاً ﴾ أي أقمت على عبادته يعني العجل ، ﴿ لَنحرِّقَنَّهُ ﴾ قال ابن عباس : سحله بالمبرد وألقاه على النار ﴿ ثم لنَنْسِفَنَّهُ في اليم نسفاً ﴾ في شاطيء النهر . وقوله ﴿ إنّما إلهكم الله الذي لا إلَه إلاّ هو وسع كل شيءٍ علماً ﴾ يقول لهم موسى عليه السلام : ليس هذا إلهكم إنما إلهكم الله الذي لا إلَه الا هو ، أي لا يستحق ذلك على العباد إلاّ هو ، ولا تنبغي العبادة إلاّ له ، فإن كل شيء فقير إليه عبد له وقوله : ﴿ وسع كل شيء علماً ﴾ نصب على التمييز أي هو عالم بكل شيء أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها .

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً ۞ (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً ۞ (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ۞ (١٠١) ﴾

كما يقص تعالى على نبيه محمد ﷺ خبر موسى عليه السلام تماماً بلا نقص ، فانه يقول سبحانه : ﴿ كذلك نقصُّ عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ أي كذلك نقص عليك الأخبار الماضية ، هذا ﴿ وقد آتيناك من لدنّا ﴾ أي من عندنا ﴿ ذكراً ﴾ وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل والذي لم يعط نبيٌّ كتاباً مثله ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن ، وحكم الفصل بين الناس .

وقوله تعالى : ﴿ من أعرض عنه ﴾ أي كذب به ولم يتبعه ، وابتغى الهدى في غيره ﴿ فانه يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ أي إثماً ، وهذا عام في كل من بلغه القرآن فهو نذير له

وداع فمن اتبعه هدي ، ومن أعرض عنه ضلّ وشقي في الدنيا والنار موعده في الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ خالدين فيه ﴾ أي لا محيد لهم عنه أي عن ذلك الحمل ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾ أي بئس الحمل حملهم .

يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً (١٠٤)

ثبت في الحديث عنه ﷺ ١٥٨[انه سئل عن الصور فقال : «قرن ينفخ فيه»] وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة ١٥٩ [انه قرن عظيم، الدائرة منه بقدر السموات والأرض ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام] وقوله تعالى : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ معناه زرق العيون من شدة الهول ﴿ يتخافتون بينهم ﴾ اي يتسارّون بينهم : ﴿ إن لبثم إلاّ عشرا ﴾ أي في الدار الدنيا أي عشرة أيام فقال تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ في حال تناجيهم بينهم ﴿ إذ يقول أمثلهم طريقةً ﴾ أي العاقل الكامل فيهم : ﴿ إن لبثم إلاّ يوماً ﴾ لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد ، لأن الدنيا وان تكررت أوقاتها وتعاقبت أزمانها كأنها يوم واحد كقوله تعالى : ﴿ كم لبثم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين * قال إن لبثم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ .

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً (١٠٨)

يقول تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول ؟ ﴿ فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ أي يذهبها عن أماكنها ويمحقها ﴿ فيذرها ﴾ أي الأرض ﴿ قاعاً صفصفاً ﴾ أي بساطاً واحداً والقاع هو المستوى من الأرض والصفصف تأكيد لمعنى

ذلك وقوله تعالى : ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ أي لا ترى في الأرض وادياً ولا رابية قاله ابن عباس وغير واحد من السلف ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾ أي يوم يرون أهوال يوم القيامة يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كانوا يستمعون إليه في الدنيا لكان أنفعَ لهم ولكن كانت الاستجابة حيث لا ينفعهم كما قال تعالى : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ أي مسرعين إليه ﴿ لا عوج له ﴾ أي لا يميلون عنه وقوله تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمنّ ﴾ قال ابن عباس : سكنت ﴿ فلا تسمع إلاّ همساً ﴾ بصوت خفي ، ومشي الأقدام في سكونٍ وخضوع .

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۞ (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۞ (١١٠) وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۞ (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۞ (١١٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ يومئذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ أي عنده ﴿ إلاّ من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال١٦٠ [آتي تحت العرش وأخرُّ لله ساجداً ، ويفتح عليَّ بمحامد لا أحصيها الآن ، فيدعني ما شاء أن يدعني ثم يقول : يا محمد إرفع رأسك وقل يسمعْ واشفع تشفع — قال — فيحدُّ لي حداً ، فأدخِلهم الجنةَ ثم أعود فذكر أربع مرات ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء] . وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي يحيط علماً بالخلائق كلهم ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ أي ذلت وخضعت واستسلمت الخلائق لجبّارها الحي الذي لا يموت القيوم الذي لا ينام وهو قيّم على كل شيء ولا قوام لشيء إلاّ به . وقوله تعالى : ﴿ وقد خاب من

حمل ظلماً ﴾ أي يوم القيامة ، فإن الله تعالى سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء وفي الصحيح :١٦١ « [إياكم والظلم فإن الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة ، والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو به مشرك فإن الله تعالى يقول إن الشرك لظلم عظيم] . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ لما ذكر تعالى الظالمين ووعيدهم ، ثني بالمتقين وحكمهم ، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون ، أي لا يزاد في سيآتهم ولا ينقص من حسناتهم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ۞ (١١٣) فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ۞ (١١٤) ﴾

يقول تعالى : ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة ، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عي ﴿ وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتّقون ﴾ أي يتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿ أو يحدث لهم ذكرا ﴾ وهو إيجاد الطاعات وفعل القربات ﴿ فتعالى الله الملك الحقّ ﴾ أي تنزه وتقدس الملك الحق في وعده ، ووعيده ، ورسله ، والجنة ، والنار وكل شيء منه حق . وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار ، وبعثة الرسل ، والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه ﴾ كقوله تعالى ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجلَ به إن علينا جمعه وقرآنه ۞ فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه ۞ ثم إنَّ علينا بيانه ﴾ وهنا قال تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضَى إليك وحيُه ﴾ أي بل أنصت فإذا فرغ الملَك من قراءته عليك فاقرأه بعده ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ أي زدني منك علماً وفي الحديث١٦٢ [إن الله تابع الوحي على رسوله حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم توفي رسول الله ﷺ] وروى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : ١٦٣ [اللهم انفعني بما علّمتني ، وعلمني ما ينفعني وزدني علماً ، والحمد لله على كل حال] . وفي رواية البزار ... وزاد في آخره ١٦٤ [وأعوذ بالله من حال أهل النار]

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۞(١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۞ (١١٦) فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۞ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۞(١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۞(١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۞ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۞ (١٢٢) ﴾

قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إنما سمي الإنسان لأنه عهد اليه فنسي ، وقوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضّله به على كثير ممن خلق تفضيلاً ﴿ فسجدوا إلا أبليس أبَى ﴾ أي امتنع واستكبر ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ﴾ يعني حواء عليهما السلام ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ أي إياك أن يسعى في إخراجك منها فتتعب في طلب الرزق فعيشك هاهنا رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة ﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ إنما قرن بين الجوع والعري لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر ، ﴿ وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحَى ﴾ وهذان أيضاً متقابلان فالظمأ حر الباطن والضحى حر الظاهر . وقوله تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد وملكٍ لا يبلى ﴾ قد تقدم أنه دلاّهما بغرور ﴿ وقاسماهما إني لكما من الناصحين ﴾ وقد تقدم أن الله تعالى منعهما من ان يقربا شجرة معينةً في الجنة فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها . وقوله تعالى : ﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ﴾ أي عوراتهما جزاء ما خالفا أمر الله وأطاعا وسوسة الشيطان وقوله تعالى : ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ أي ينتزعان من ورق الجنة

(١)الآية /٢٢/ من سورة الأعراف /٧/

فيجعلانه على سوآتهما ﴿ وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ – أي اصطفاه ربّه فعلمه كيف يتوب إليه هو وزوجه : ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا فإن لم تغفر لنا وترحمّنا لنكوننّ من الخاسرين ﴾ وهذا ما تلقاه آدم من ربه كما قال تعالى : ﴿ فتلقّى آدم من ربّه كلماتٍ فتاب عليه إنّه هو التواب الرحيم [(١)] –

روى البخاريّ عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال ١٦٥[حاجَّ موسى آدم فقال له : أنت الذي أخرجتَ الناس من الجنّة بذنبك وأشقيتَهم ؟ قال آدم يـا موسى انت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل ان يخلقني و قدّره الله عليّ قبل أن يخلقني ؟ قال رسول الله ﷺ فحج آدمُ موسىَ] وهذا الحديث له طرق في الصحيحين وغيرهما من المسانيد .

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ❁ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ❁ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ❁ (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ❁ (١٢٦) ﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وابليس : اهبطوا منها جميعاً ، أي من الجنة كلكم وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة [(٢)] ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ قال آدم وذريته وابليس وذريته وقوله تعالى : ﴿ فإمّا يأتينّكم مني هدى ﴾ قال ابو العالية : الأنبياء والرسل والبيـان ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ قال ابن عباس : لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿ ومن اعرض عن ذكري ﴾ أي خالف الأمر الذي أنزلته على رسولي وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿ فإن له معيشةً ضنكاً ﴾ أي ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة ولاانشراح. بل صدره ضيق لضلاله فمهما تنعّم من نعم الدنيا فإن قلبه ... لم يخلص الى اليقين والهدى فهو دائماً في قلق وحيرة وشك وفي الآخرة ينتظره عذاب القبر . روى البزار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ قال : ١٦٦[المعيشة

---

(١) ما بين المعترضتين من كلامي لا من كلام المفسر رحمه الله . (٢) عند الآية رقم /٣٦/ راجع التعليق في سورة البقرة ص/ ٤٥ /

الضنك الذي قال الله انه يسلط عليه تسعة وتسعين حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة] .
وقوله تعالى : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال عكرمة : عمى عليه كل شيء إلا جهنم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر الى النار أعمى البصر ، والبصيرة أيضاً ، كما قال تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم ﴾ الآية ... ولهذا يقول : ﴿ رب لمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ أي في الدنيا ﴿ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ أي لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها اليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ، كذلك اليوم ، نعاملك معاملة من ينساك ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ، فأما نسيان لفظ القرآن ، مع فهم معناه والقيام بمقتضاه ، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص ، وان كان متوعداً عليه من جهة أخرى ، روى الامام أحمد عن سعد ابن عبادة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال١٦٧: [ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ (١٢٧)

يقول تعالى : وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة : ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ أي أشد ألماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين١٦٨ [ان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة]

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴾ (١٢٨) ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ (١٢٩) ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (١٣٠)

يقول تعالى : ﴿ أفلم يهْدِ ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمّد كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم ، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها يمشون فيها ﴿ ان في ذلك لآيات لأولي النهي ﴾ أي العقول الصحيحة والألباب المستقيمة ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمّىً ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلاّ بعد قيام الحجة عليه لكان العذاب لازماً لهم في الدنيا ولجاءهم بغتةً ولكن قدر ان يكون عذابهم لأجل مسمّى أي في الآخرة ولهذا قال لنبيه مسلياً له : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أي من تكذيبهم لك ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعني صلاة العصر ، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبدالله البجلي رضي اللهعنه قال١٦٩: [كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر الى القمر ليلة البدر فقـــال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامُّون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فا فعلوا »] ثم قرأ هذه الآية ...

وقوله تعالى : ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ أي من ساعاته فتهجد به وحمله بعضهم على المغرب والعشاء : ﴿ واطراف النهار ﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿ لعلك ترضى ﴾ كقولـــه تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وفي الصحيح ١٧٠[يقول الله تعالى : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك ؛ فيقول : إني أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً] وفي الحديث الآخر ١٧١ [يا أهل الجنة إنلكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه فيقولون : وما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة ، فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه وهـــي الزيادة]

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وما هم فيه من النعيم فإنما هو زهرة زائلة ، لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور ، فقد آتاك خيراً مما آتاهم . كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تمدنَّ عينيك ﴾ الآية وكذلك ما ادَّخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة أمر عظيم لا يحد ولا يوصف ولهذا قال تعالى : ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ وفي الصحيح١٧٢[أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن ، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير وليس في البيت إلاَّ صبرة من قرظ واهية معلقة ، فابتدرت عينا عمر بالبكاء فقال له رسول الله ﷺ « ما يبكيك يا عمر » فقال : يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وانت صفوة الله من خلقه ؟ فقال « أو في شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا »] فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت له يُنفِقُها هكذا وهكذا في عباد الله ولم يدَّخر لنفسه شيئاً لغدٍ .

وقوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة واصبر أنت على فعلها ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم واهليكم ناراً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لا نسألك رزقاً نحن نرزقك ﴾ يعني اذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب .

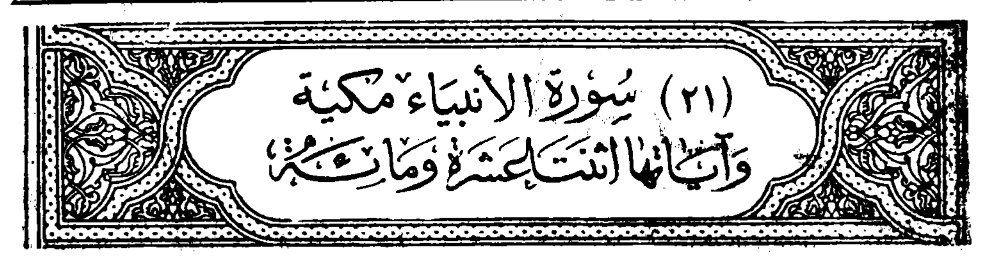
روى ابن أبي حاتم عن ثابت قال :١٧٣[كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله : « يا أهلاه صلّوا صلّوا » . قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا الى الصلاة] وقد روى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٧٤[يقول الله تعالى : يا ابن آدم تفرَّغْ لعبادَتي املأ صدرك غنى وأسد فقرك وإن لم تفعل ، ملأت صدرك شغلاً ولم أسدَّ فقرك] . وقوله تعالى : ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة ، وهي الجنة لمن اتقى الله . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال :١٧٥« [رأيت الليلة كأنّا في دار عقبة بن رافع وانّا أتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة وأن ديننا قد طاب]

۞ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۞ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ

لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ❁ (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ❁ (١٣٥)

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم ﴿ لولا ﴾ أي هلاّ يأتينا محمد بآية من ربّه أي بعلامة دالّة على صدقه في أنه رسول الله فقال الله تعالى : ﴿ أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ يعني ألم يروا في القرآن العظيم أخبار الأولين وبما كان منهم في سالف الدهر مع أنه أميٌّ لا يكتب ولا يقرأ ولم يدارس أهل الكتاب ، فإنّ القرآن مهيمن على تلك الكتب ، يصدق الصحيح منها ويبين الخطأ المكذوب الذي فيها .

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ انه قال :١٧٦[ما من نبي الا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن اكون اكثرهم تابعاً يوم القيامة] وانما ذكر هنا أعظم الآيات التي أعطيها وهو القرآن ، وإلاّ فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر كما هو مقرر في مواضعه . ثم قال تعالى : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ﴾ أي لو أهلكناهم قبل ان نرسل اليهم هذا الرسول الكريم وأنزلنا هذا القرآن العظيم لقالوا : ﴿ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ﴾ قبل ان تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه. كما قال ﴿ فنتبع آياتك من قبل ان نذلّ ونخزي ﴾ يبين تعالى انهم متعنتون معاندون. كما قال تعالى : ﴿ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ثم قال تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لمن كذّبك واستمر كافراً ﴿ كلٌّ متربصٌ ﴾ أي منّا ومنكم ﴿ فتربصوا ﴾ أي فانتظروا ﴿ فستعلمون من أصحاب الصراط السويّ ﴾ أي الطريق المستقيم ﴿ ومن اهتدى ﴾ الى الحق وسبيل الرشاد وهذا كقوله تعالى : ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ آخر اختصار تفسير سورة طه ولله الحمد والمنه ونسأله التوفيق والسداد .



نزلت بعد سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء ١٧

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۞ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۞ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۞ (٥) مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۞ (٦)

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ، والناس في غفلة عنها فلا يعملون لها ولا يستعدون إليها. روى النسائي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ١٧٧[﴿ في غفلة معرضون ﴾ قال «في الدنيا»] وقال تعالى: ﴿ اتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ ثم أخبر تعالى انهم لا يصغون إلى الوحي الذي انزل الله على رسوله والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار ، فقال تعالى : ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ أي جديد إنزاله ﴿ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ كما قال ابن عباس : ما لكم تسألون أهل الكتب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه ، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يشب. رواه البخاري بنحوه .

وقوله تعالى : ﴿ واسرّوا النجوى الذين ظلموا ﴾ اي قائلين فيما بينهم خفية

﴿ هل هذا إلاّ بشر مثلكم ﴾ يعنون رسول الله ﷺ ، يستبعدون ان يكون نبياً لأنه بشر مثلهم فكيف اختص بالوحي دونهم. ولهذا قال : ﴿ أفتأتون السحر وانتم تبصرون ﴾ أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر ويعلم أنه سحر ، فردّ عليهم الله عما افتروه من الكذب ﴿ قال ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية ، ويعلم السر في السموات والأرض . وقوله تعالى : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديد لهم ووعيد . وقوله تعالى : ﴿ بل قالوا اضغاث أحلام بل افتراه ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار والحادهم ، وحيرتهم فيما يصفون به القرآن ، وضلالهم عنه فتارةً يجعلونه سحراً ، وتارة شعراً ، وتارةً أضغاث أحلام ، وتارة مفترى. كما قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ يعنون : كناقة صالح وآيات موسى وعيسى وقد قال الله تعالى : ﴿ وما منعنا ان نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ الآية ولهذا قال تعالى : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ أي ما آتينا قريةً من القرى الذي بعث فيهم الرسل آيةً على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون اولئك كلاّ . ــ لأنهم شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما هو شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ❁ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ❁ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ❁ (٩) ﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر ﴿ وما أرسلنا قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم ﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾

ولهذا قال تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ أي اسألوا أهل العلم من اليهود والنصارى وسائر الطوائف : هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة ؟ وهذا من تمام النعمة على الخلق ليتمكنوا من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ بل كانوا أجساداً يأكلون الطعام، وبشراً من البشر يأكلون ويشربون ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، ولا يضيرهم هذا ولا ينتقص منهم شيء. كما توهمه المشركون في قولهم : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا انزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ الآية ...

وقوله تعالى : ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ أي في الدنيا بل كانوا يعيشون ثم يموتون ، ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ أي الذي وعدهم ربهم ليُهلكنَّ الظالمين، فصدقهم الله وعده وفعل ذلك ولهذا قال عز وجل : ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ أي أتباعهم من المؤمنين. ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أي المكذبين بما جاءت به الرسل .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ۝ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۝ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ ۝ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ۝ (١٥) ﴾

ينبّه تعالى على شرف القرآن ويحضّهم على معرفته ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ قال ابن عباس : شرفكم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي هذه النعمة وتتلقونها بالقبول كما قال تعالى : ﴿ وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ أي وانه الشرف لك ولقومك [1] لأنه نزل بلغتهم .

---

(١) القرآن لاشك أنه شرف للعرب إن هم تمسكوا بأحكامه ، وحملوا رايته إلى العالمين

وقوله تعالى : ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وكأيّن من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها ﴾ الآية ...

وقوله تعالى : ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ أي أمة أُخرى بعدهم ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ أي تيقنوا وقوع العذاب كما وعدهم نبيهم ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ أي يفرّون ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم ﴾ هذا تهكم بهم واستهزاء أي لا تفروا وارجعوا الى مساكنكم – وكيف يرجعون إليها وقد دمرها العذاب ﴿ لعلكم تسألون ﴾ عما كنتم فيه من أداء الشكر للمنعم ﴿ قالوا يا ويلنا إنّا كنا ظالمين ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك ﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ أي ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم حتى حصدناهم حصداً ، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۝ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ (١٩) يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝ (٢٠) ﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق ، أي بالعدل والقسط ، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، وانه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعبا كما قال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾

وقوله تعالى ﴿ لو أردنا ان نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ﴾ أي من عندنا واللهو المرأة بلسان أهل اليمن وقال عكرمة والسدي : والمراد باللهو ههنا الولد وهذا والذي قبله متلازمان . قال ابراهيم النخعي ﴿ لاتخذناه ﴾ من الحور العين والله تعالى منزه عن اتخاذ

الولد والزوجة مطلقاً ﴿ سبحان الله عما يقولون علواً كبيراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ قال قتادة والسدي وابراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم : أي ما كنا فاعلين وقال مجاهد : كل شيء في القرآن (إن) فهو إنكار وقوله تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ أي نبين الحق فيدحض الباطل ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ أي ذاهب مضمحل ﴿ ولكم الويل ﴾ أي ايها القائلون لله ولد ﴿ مما تصفون ﴾ أي مما تقولون وتفترون . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً فقال جل وعلا : ﴿ وله من في السموات والأرض ومن عنده ﴾ يعني الملائكة ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أي لا يستنكفون عنها ، كما قال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي لا يتعبون ولا يملّون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً مطيعون قصداً وعملاً كما قال تعالى : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾

أَمِ ٱتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۞ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ (٢٢) لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ۞ (٢٣)

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ أي أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض ، أي لا يقدرون على شيء من هذا ، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه ؟ ثم أخبر تعالى فقال عز وجل : ﴿ لو كان فيهما آلهة ﴾ أي في السموات والأرض ﴿ لفسدتا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ وقال تعالى هاهنا : ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ أي تنزه وتعالى وتقدس عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً . وقوله تعالى: ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، والحكيم الخبير الذي لا يماثله أحد في حكمته وعلمه وعدله ولطفه – فمن كانت هذه صفاته العليَ فلا يسأل عما يفعل إذ لا يفعل إلا خيراً ، والشر ليس إليه ولا يفعله ، فلا يسأل عن شيء لم يفعله . أما الخلق فالله تعالى سائلهم عما يعملون من خير أو شر وهنا يتضح معنى قوله تعالى : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون – [1]

(١) الكلام الذي بين المعترضتين من كلامي لا من كلام المفسر رحمه الله تعالى .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۞ (٢٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ام اتخذوا من دونه آلهة قل ﴾ يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿ وهذا ذكر من معي ﴾ يعني القرآن ﴿ وذكر من قبلي ﴾ يعني الكتب المتقدمة فهي على خلاف ما تقولونه وتزعمون . فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأن لا إله الا الله ، ويدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والفطرة شاهدة بذلك والمشركون لا برهان لهم ، وحجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .

﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۞ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۞ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۞ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٢٩) ﴾



قال بعض من العرب : إن الملائكة بنات الله فقال : ﴿ سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ أي هم عنده في منازل عالية وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلا ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ لا يتقدمون بين يديه بأمر بل يبادرون إلى فعل أوامره وعلمه محيط بهم فلا تخفى عليه منهم خافية ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقوله تعالى ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ من خوفه ورهبته ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾ أي من ادعى منهم أنه إلّه مع الله ﴿ فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ أي كل من قال ذلك وهذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه ، كقوله

تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۞ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۞ (٣١) وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۞ (٣٢) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۞ (٣٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ أو لم يرَ الذين كفروا ﴾ أي الجاحدون لإلٰهيته ، العابدون معه غيرَه ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق،المنفرد بالتدبير. ﴿ ان السموات والأرض كانتا رتقاً ﴾ أي كان من الجميع قطعةً واحدة ففتق هذه من هذه ، فجعل السموات سبعاً والأرض سبعاً ، وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ أي أصل لكل حي ، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال :١٧٨[قلت : يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأنبئني عن كل شيء قال : « كل شيء خلق من ماء » قال : قلت أنبئني عن أمر اذا عملت به دخلت الجنة ، قال : « أفشِ السلام ، وأطعم الطعامَ ، وصِلِ الأرحامَ ، وقمْ بالليل والناس نيام ثم ادخل الجنةَ بسلامٍ »] إسناده على شرط الصحيحين إلاّ أن أبا ميمونه من رجال السنن واسمه سليم ، والترمذي يصحح له . ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المطلق المختار الذي هو على كل شيء قدير .

ففي كل شيء له آية ... تدلُّ على أنه واحد

قال سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة قال : سئل ابن عباس : الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال : أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلاّ ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي ﴾ أي جبالاً أرسى الأرض بها وقرَّرها

وثقلها لئلا تميد بالناس أي تضطرب وتتحرك ، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع فإنه بادٍ للهواء والشمس ، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات . وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً ﴾ أي ثغراً في الجبال يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر وإقليم الى إقليم ولذلك قال تعالى : ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ أي جعلها سقفا كالقبة عليها كما قال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾ ﴿ محفوظاً ﴾ أي محروساً أن ينال . وقوله تعالى : ﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر ، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها ، ثم قال منبهاً على بعض آياته عز وجل ﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار ﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضيائه وأنسه ، يطوّل هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر ﴿ والشمس والقمر ﴾ هذه لها نور يخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص ، وهذا بنور آخر وسير آخر وتقدير آخر ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ أي يدورون قال ابن عباس : يدورون كما يدور المغزل في الفلكة .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَائِنْ مِتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ۞ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۞ (٣٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك ﴾ يا محمد ﴿ الخلد ﴾ في الدنيا ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى ان الخضر عليه السلام مات وليس بحي إلى الآن لأنه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً وقد قال تعالى : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أفإن مت ﴾ يا محمد ﴿ فهم الخالدون ﴾ أي يؤمّلون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كلٌ إلى الفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿ كل نفس ذائقةالموت ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنةً ﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقنط [1] ومن يطيع ومن يعصى

(١) قلت : ليس معنى هذا أن الله لا يعلم حتى ينظر ويختبر بل يعلم ما سيكون من العبد قبل أن يخلقه انما يكون هذا الاختبار لتقوم الحجة على العبد الفاعل لهذا الشر أو لذاك الخير ويقتنع بأنه فعل فعلا تستحق نتائجه ثواباً أو عقاباً .

وقوله تعالى : ﴿ والينا ترجعون ﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم .

﴿ وَإِذَا رَآكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ (٣٦) خُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ ۞ (٣٧) ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ واذا رآك الذين كفروا ﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل واشباهه ﴿ إن يتخذونك إلاّ هزوا ﴾ أي يستهزئون بك وينتقصونك بقولهم : ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ يعنون : أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم قال تعالى : ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ أي فعوضاً عن أن يؤمنوا بالله وبما جاء به رسول الله عن الله إذا بهم يستهزئون برسول الله ... !! ويكفرون بمن أرسله والعياذ بالله ، ويعتبرونه مضلاً لهم عن آلهتهم لولا صبرهم عليها فردَّ الله عليهم بقوله جل وعلا: ﴿ ... وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ كما قال تعالى الله : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ والحكمة من ذكر عجلة الإنسان ههنا : أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ولهذا قال عز من قائل : ﴿ سأريكم آياتي ﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿ فلا تستعجلون ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ۞ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ۞ (٤٠) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً ، فقال جل وعز : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾

قال الله تعالى : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوه ، ولكن العذاب محيط بهم من جميع جهاتهم كما قال تعالى : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا ناصر لهم وقوله تعالى : ﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ أي تأتيهم النار فجأة ﴿ فتبهتهم ﴾ أي تذعرهم ،فيستسلمون لها حائرين لا يدرون ما يصنعون ﴿فلا يستطيعون ردها ﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعةً واحدة .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۞ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِالَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ۞ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ۞ (٤٣) ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه ، كما قال تعالى : ﴿ لقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ ثم ذكر نعمته سبحانه على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار بعينه التي لا تنام فقال عز من قائل : ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ أي بدل الرحمن يعني غيره ، وقوله تعالى : ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم ، بل يعرضون عن آياته ، ثم قال سبحانه : ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ ، أي ألهم آلهة تحفظهم وتحرسهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما زعموا وتوهموا ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ أي هذه الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم . وقوله تعالى : ﴿ ولا هم منا يُصحبون ﴾ أي ولا هم منا يجارون ويمنعون .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ۞ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ۞ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ۞ (٤٧) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين : إنما غرَّهم وحملهم على ما هم عليه من الضلال ، أنهم طال عليهم العمر بالنعم ، فاعتقدوا أنهم على شيء ... ثم وعظهم : ﴿أفلا يرون أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ أي كما قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ قال الحسن البصري : يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر .

والمعنى : أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى وإنجائه لعباده المؤمنين ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ أفهم الغالبون ﴾ يعني بل هم المغلوبون والأسفلون الآخرون الأرذلون .

وقوله تعالى : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ﴾ أي ما أنذرتكم به إنما هو الوحي من الله تعالى ولكن لا يجدي الإنذار بالعذاب من أعمى الله بصيرته جزاء صدوده عن آيات الله ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ أي يعترفون بذنوبهم عندما يقع بهم أدنى شيء من العذاب ، وبما ظلموا أنفسهم في الدنيا. وقوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي نضع الموازين العدل ليوم القيامة ، والميزان واحد إنما جمع لتعدد الأعمال الموزونة فيه .

وقوله تعالى : ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ وقال سبحانه : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :١٧٩[كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم] . روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص يقول : قال رسول الله ﷺ : ١٨٠[ان الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون قال : لا يا رب قال : أفلك عذر أو حسنة قال : فبهت الرجل فيقول : لا يا رب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنةً واحدةً لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقةٌ فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد ان محمداً رسول الله فيقول أحضروه ، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تظلم ، قال فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، قال : ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم] [1] ورواه الترمذي وابن ماجة من حديث الليث بن سعد وقال الترمذي حسن غريب .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۞ (٤٨) ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۞ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۞ (٥٠) ﴾

قد تقدم التنبيه على ان الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وبين كتابيهما ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ يعني التوراة حلالها وحرامها وما فرّق الله بين الحق والباطل ، كما أن كل

(١) هكذا في الأصل . ورواية الترمذي : فلا يثقل مع اسم الله شيء . اهـ

الكتب السماوية مشتملة على هذا ، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب ، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين ﴾ أي تذكيراً لهم وعظة ثم وصفهم فقال : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾ كقوله : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ أي افتنكرونه وهو في غاية الجلاء؟

نصف الحزب

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۞(٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۞(٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۞ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّاعِبِينَ ۞(٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّاهِدِينَ ۞ (٥٦)

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنّه أتاه رشده من قبل،أي من صغره ،وألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ﴾ وهناك بعض أخبار إسرائيليّة قصها كثير من المفسرين ، عامتها مما حدّث به بنو اسرائيل فما وافق ما في شريعتنا قبلناه لذلك ، وما خالف رددناه وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقّه ولا نكذّبه بل نجعله وقفاً ... وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه وإلا لبيّنتْه هذه الشريعة الكاملة الشاملة . والذي نسلكه في هذا التفسير ، الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان ولما قد يكون فيها من الكذب المروّج عليهم فبنو إسرائيل لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرَّره الأئمة الحفّاظ المتقنون من هذه الأمة ، والمقصود ههنا ان الله تعالى أخبر أنه قد آتى ابراهيم رشده من قبل ، أي من قبل ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وكنا به عالمين ﴾ بأنه أهل لذلك ثم قال جل وعلا : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ [1] هذا هو الرشد الذي

(١) قلت :وهذا دليل على أن الأصنام التي يعبدونها إنما هي تماثيل لرجال صالحين مضوا،فصنعوا لهم هذه =

أوتيه من صغره وهو الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل ، والمعنى ما هذه التماثيل التي معتكفون على عبادتها . قال ابن أبي حاتم ، عن الأصبغ بن نباتة قال : مرّ علي رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون !!؟ لأن يمسّ أحدكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسّها . وقوله تعالى : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلاّل ، ولهذا قال لهم تعالى : ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ أي على غير الطريق المستقيم ، فلما سفه أحلامهم ، وضلل آباءهم ، واحتقر آلهتهم ﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ أي هذا الكلام الذي تقوله ، أهو عبث ولعب أم أنك جادٌّ فيه ...؟ ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴾ أي ربكم الذي لا معبود غيره هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۞ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۞ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۞ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ۞ (٦٣) ﴾

— التماثيل للذكرى في أول الأمر كما يفعل دعاة تقليد الكفار في زمننا الحاضر، إذ بدأنا نصنع تماثيل لأبطالنا بنية الذكرى بعد الموت ثم انتقل إلى التقدير والاحترام ليقتدي الأحياء بما يفعل الأموات من عمل عظيم، ثم يتطوّر هذا التقدير إلى أبعد من ذلك ، فيزين الشيطان للأحياء تعظيمهم ومخاطبتهم ثم دعاءهم ، كما صار تماماً بالتماثيل التي كانت لرجال صالحين مثل ود ، ويغوث، وسواع، ويعوق ونسر، الذين عُبدوا بعد قرون على أن الفتنة بالقبر أسرع وأوقع لأن الذي ينادى على بعد أشبار من المنادي. وهكذا تتضح حكمة الشارع الحكيم من تحريم صنع الصور والتماثيل ورفع القبور التي صارت أفتن من التماثيل .

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعضَ قومه ليكيدنَّ أصنامهم أي ليكسرها بعد إدبارهم إلى عيدهم وقد سمعه بعض قومه يقول ذلك ، فلما خرجوا إلى عيدهم مرُّوا عليه فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال : إني سقيم ، وقد كان بالأمس قال : ﴿ تالله لأكيدنَّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين ﴾ فلما جاز عامتُهم إلى عيدهم هرع إلى أصنامهم ﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ أي حطاماً ... إلاّ كبير أصنامهم . ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ أي يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه وأنف أن نعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها ، فلما رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة الدالّة على عدم أهليتها لأن تعبد ، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ أي في صنيعه هذا ... ﴿ قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له ابراهيم ﴾ أي قال الذين سمعوه بالأمس يهدد أصنامهم بالتكسير : سمعنا شاباً يذكرهم بسوء يقال له ابراهيم . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : ما بعث الله نبياً إلاَّ شاباً ولا أوتي القلم عالم إلاَّ وهو شاب وتلا هذه الآية : ﴿ قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له ابراهيم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ أي على ملأ منهم وكان هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرةَ جهلهم وقلةَ عقولهم في اتخاذ هذه الأصنام آلهة لم تستطع أن تدفع عن نفسها ضرّاً ، ولا تملك لها نصراً فكيف يطلب منها شيء من ذلك ...!!!؟ ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ يعني الذي تركه ولم يكسره ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وانما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون وان هذه الأصنام عاجزة عن حماية نفسها فكيف تستطيع حماية غيرها ...!!!؟

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال ١٨١[وان ابراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث ! اثنتين في ذات الله ، قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله : ﴿ إني سقيم ﴾ - قال - وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلاً فأتى الجبارَ رجلٌ فقال : إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس فأرسل إليه فجاء ، فقال : ما هذه المرأةُ منكَ ؟ قال أختي قال فاذهب فأرسل بها إليَّ فانطلق إلى سارة فقال : إن هذا الجبار قد سألني عنك ، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده فإنّك أختي في كتاب الله ، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك فانطلق بها ابراهيم ثم قام يصلي ، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأُخِذَ أخذاً شديداً فقال : ادعي الله لي ولا أضرُّك ، فدعت له ، فأرسل فأهوى إليها فتناولها ، فأخذ بمثلها

أشدّ ، ففعل ذلك الثالثة ، فأخذ فذكر مثل المرتين الأولَيَيْن ، فقال : ادعي الله فلا أضرُّكِ ، فدعت له فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابه فقال : إنّكَ لم تأتني بإنسان ، ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطها هاجرَ فأُخرجت وأُعطيت هاجر ، فأقبلت ، فلما أحسّ إبراهيم بمجيئها ، انفتل من صلاته وقال : مَهيَم[1] . قالت : كفَى الله كيدَ الفاجر وأخدمني هاجر] . قال محمد بن سيرين فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمّكم يا بني ماء السماء[2] .

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٧)

يخبر تعالى أن قوم ابراهيم حين قال لهم ما قال ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ بالملامة لعدم حراستهم آلهتهم فقالوا : ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ في إهمال حفظها ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ أي أطرقوا حيرةً وعجزاً عن الإجابة لمَّا قال لهم ابراهيم : ﴿ فسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وكيف يسألونهم ويعلمون أنما هم جماد ، ولهذا قالوا : ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فعندها قال لهم ابراهيم لما اعترفوا بذلك : ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ﴾ ثم وبخهم على ذلك وقال لهم : ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا تدركون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ ؟ فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها ولهذا قال تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ الآية ...

(١) مهيم : كلمة استفهام . أي ما حالك ، أو ما وراك ، أو : أحَدَثَ لك شيءٌ ؟

(٢) قلت : من هذا الحديث المتفق عليه دليل قاطع من جملة الأدلة القاطعة على عصمة أزواج الأنبياء من الزنا إطلاقاً تبعاً لعصمة أزواجهن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا يمكن لزوجة نبي قط أن تزني لا باختيارها ولا رغماً عنها فإن الله يربط على قلبها فلا يدعها أن تزني صوناً لعصمة الأنبياء من أن يلحق ببيوتهم الطاهرة عار أو دنس يعيق الدعوة إلى الله تعالى ، حتى إذا حاول جبار على أن يفجر بها تولى الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات حمايتها وحفظها من المعتدي ؛ وأخذه أخذاً شديداً إلى أن يدعها دون أن يمسها بسوء كما حصل مع سارة التي حماها الله من ذلك الجبار بفضله ومنّه وقوته التي لا تغلبها قوة في الأرض ولا في السماء وهو الغالب على أمره والقاهر فوق عباده .

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۞ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۞ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۞ (٧٠) ﴾

وهكذا ... فكل من يعدم قرع الحجة بالحجة يلجأ إلى استعمال القوة ، وهؤلاء قوم إبراهيم لما لم يحيروا جواباً ، ﴿ قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً ، وأضرموه ناراً فكان لها شرٌر عظيم ولهب مرتفع ، لم توقد نار قط مثلها ، وجعلوا إبراهيم في كفّة المنجنيق بإشارة رجل ، فخسف الله به الأرض ، فلما ألقوا ابراهيم في النار قال : حسبي الله ونعم الوكيل ؛ كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال ١٨٢[حسبي الله ونعم الوكيل ، قالها ابراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل] وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٨٣[لما ألقي ابراهيم عليه السلام في النار ، قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك] .

وقال سعيد بن جبير – ويروى عن ابن عباس أيضاً – قال : لما ألقي ابراهيم ، جعل خازن المطر يقول متى أومر بالمطر فأرسله ؟ قال فكان أمر الله أسرع من أمره قال الله : ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ﴾ قال ابن عباس : لولا ان الله عز وجل قال : ﴿ وسلاماً ﴾ لآذى إبراهيم بردها .

روى ابن أبي حاتم عن مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت ، [دخلت على عائشة ، فرأيت في بيتها رمحاً فقلت : يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت نقتل به هذه الأوزاغ ، ان رسول الله ﷺ قال : ١٨٤[ان ابراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلاّ تطفىء النار غير الوزغ فإنه كان ينفخ على ابراهيم » فأمرنا ﷺ بقتله] .

وقوله تعالى : ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الآخسرين ﴾ أي المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً فكادهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ ٱلْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ابراهيم أنه سلمه الله من نار قومه ، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً الى بلاد الشام إلى الأرض المقدسة منها وكان بأرض العراق فأنجاه الله وابن أخيه لوطاً الى الشام التي كان يقال لها أعقار دار الهجرة ومنها فلسطين وكان يقال : هي ارض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وبها يهلك المسيح الدجال . ثم تزوج ابراهيم ابنة عمه سارة وخرج بها مهاجراً من بلاده ﴿ الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة ﴾ قال ابن عباس وغيره : النافلة ولد الولد ، يعني ان يعقوب ولدُ اسحاق كما قال تعالى : ﴿ فبشرناه بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وكلاً جعلنا صالحين ﴾ أي الجميع أهل خير وصلاح ﴿ وجعلناهم أئمةً ﴾ أي يقتدى بهم ﴿ يهدون بأمرنا ﴾ أي يدعون الى الله بإذنه ولهذا قال عز وجل ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقامَ الصلاة وايتاءَ الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ أي فاعلين لما يأمرون الناس به ، ثم عطف بذكر لوط وهو بن هاران بن آذر كان قد آمن بابراهيم عليهما السلام واتّبعه وهاجر معه ، كما قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ فآتاه الله حكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً ، وبعثه إلى سدوم وأعمالها فخالفوه وكذبوه ، فأهلكهم الله ، ودمّر عليهم ولهذا قال عز من قائل : ﴿ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قومَ سوءٍ فاسقين وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴾

﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۞ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٧٧) ﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه : ﴿ رب لا تذرْ على الأرض من الكافرين دَيّاراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ ونوحاً إذْ نادى من قبل فاستجبناله فنجيناه وأهله ﴾ أي الذين آمنوا به ، وقوله تعالى : ﴿ من الكرب العظيم ﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم أُلف سنة إلاّ خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل ، فلم يؤمن به إلا القليل ، وكانوا يتصدّون لأذاه ، ويتواصَوْن قرناً بعد قرن على خلافه . وقوله تعالى : ﴿ ونصرناه من القوم ﴾ أي ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿ الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوءٍ فاغرقناهم أجمعين ﴾ ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد كما دعا عليهم نبيهم .

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۞ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۞ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ۞ (٨٠) وَلِسُلَيْمَنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ۞ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ۞ (٨٢) ﴾

النفش : الرعي ولا يكون إلاّ بالليل ، وقد كان ذلك الحرث كرماً قد تدلّت

عناقيده . قال ابن جرير عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ﴾ قال : كرم قد أنبتّتْ عناقيده فأفسدته قال : فقضىٰ داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان : غير هذا يا نبيَّ الله . قال : وما ذاك قال ، تدفع الكرم الى صاحب الغنم فيقوم عليه حتّى يعود كما كان ، وتدفع الغنم الى صاحب الكرم فيصيب منها حتّى اذا كان الكرم كما كان ، دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ ففهّمْنَا ها سليمانُ ﴾ وهكذا فقد أثنى الله على سليمان ولم يذم داود ، قاله الحسن البصري . ثم قال رحمه الله مجيباً لأياس بن معاوية لما استُقْضِيَ وأتاه باكياً .. فقال الحسن وما يبكيك ؟ قال يا أبا سعيد : بلغني ان القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم . قال الله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشتْ فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ثم قال – يعني الحسن – : ان الله اتخذ على الحكام ثلاثاً : لا يشتروا به ثمناً قليلاً ، ولا يتّبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحداً ثم تلا : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبعْ الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشوني ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ قلت : أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ، وأما مَنْ سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص انه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٨٥[إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر] فهذا الحديث يرُدّ ما توهمه إياس من ان القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار والله أعلم. وفي السنن ١٨٦ [القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار ، رجل علم الحق وقضي به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار] .

وقوله تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يُسبّحنَ والطير ﴾ الآية ... وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء ، فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويباً ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان صوته طيباً جداً فوقف واستمع لقراءته وقال : ١٨٧[« لقد أوتي هذا مزماراً من

مزامير آل داود » قال : يا رسول الله لو علمتُ أنك تستمع لحبرّته لك تحبيرا] وقوله تعالى :

﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتُحصنكم من بأسكم ﴾ يعني صنعة الدروع كما قال تعالى : ﴿ وألنّا له الحديد أن اعمل سابغات وقدّر في السرد ﴾ أي لا توسع الحلقة فتقلق المسمار ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لتحصنكم من بأسكم ﴾ يعني في القتال ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ أي نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود فعلّمه ذلك من أجلكم . وقوله تعالى : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿ تجري بأمره إلى الارض التي باركنا فيها ﴾ يعني ارض الشام ، ﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج من أمور المملكة ثم تحمله الريح وتظله الطير تقيه الحرَّ حيث يشاء من الأرض ، فينزل وتوضع آلاته وحشمه ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ﴾ وقال تعالى: ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ﴾ أي في الماء يستخرجون اللآلىء والجواهر وغير ذلك ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ من البناء والغوص ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أي يحرسه الله من أن يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل الكل في قبضته وتحت قهره ولا يتجاسر أحد أن يدنو منه ، وهو الذي يحكم فيهم بإذن الله إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ (٨٣) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝ (٨٤) ﴾

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ، ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضيّة ، فابتلي في ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلي في جسده بالجذام سوى قلبه ولسانه ، يذكر بهما الله عز وجل . قال النبي ﷺ: ١٨٨[أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل] وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر ، وبه

يضرب المثل في ذلك . وقال يزيد بن ميسرة : لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهلِ والمال والولد ، ولم يبق شيء له ، أحسن الذكر . ثم قال عليه السلام : أحمدك ربّ الأرباب الذي أحسنت إلي ، اعطيتني المال والولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا وقد دخله ذلك ، فأخذت ذلك كلّه منّي ، وفرّغت قلبي ، فليس يحول بيني وبينك شيء ، لو يعلم عدوّي إبليس بالذي صنعتَ حسدني .

روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب عليه السلام أخوان فجاآ يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال أحدهما للآخر : لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط ، فقال : اللهم ان كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدِّقني ، فصُدِّق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم ان كنت تعلم أنيَ لم يكن لي قميصان قط ، وأنا أعلم مكان عار ، فصَدِّقني فصُدِّق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم بعزتك ، ثم خر ساجداً فقال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتّى تكشف عني ، فما رفع رأسه حتّى كشف عنه [1] .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلّةً من الجنّة فتنحّى أيوب فجلس في ناحية ، وجاءت امرأته فلم تعرفه ؛ فقالت : يا عبدالله أين ذهب هذا المبتلَى الذي كان هنا لعلّ الكلاب ذهبت به أو الذئاب ، فجعلَتْ تكلمه ساعةً فقال ويحك أنا أيوب ... ! قالت : أتسخر مني يا عبدالله ، فقال : ويحك أنا أيوب قد ردّ الله عليّ جسدي .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ١٨٩[لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه ، قال : فقيل له يا أيوب أما تشبع ؟ قال : يا رب ومن يشبع من رحمتك] أصله في الصحيحين وسيأتي في موضع آخر . وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال مجاهد : ثم قيل له : يا أيوب إن أهلك لك في الجنّة ، فإن شئت أتيناك بهم ، وان شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم ؟ قال : لا بل اتركهم في الجنة ، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ رحمةً من عندنا ﴾ أي فعلنا به ذلك رحمةً من الله به ﴿ وذكرى

---

(١) قلت : فذاك قوله تعالى : « فكشفنا ما به من ضر »

للعابدين ﴾ أي وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم وليتأسّوا به في الصبر على مقدورات الله ، وابتلائه لعباده بما يشاء،له الحكمة البالغة في ذلك .

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ (٨٥) وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ (٨٦) ﴾

وأما اسماعيل فهو ابن ابراهيم الخليل عليهما السلام ، وقد تقدم ذكره في سورة مريم وكذا إدريس عليه السلام وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قُرِنَ مع الأنبياء إلا وهو نبي وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً ، وحكماً مُقسِطاً وتوقّف ابن جرير في ذلك والله أعلم .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ (٨٧) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٨٨) ﴾

هذه القصة مذكورة ههنا ، وفي سورة الصافات ، وفي سورة﴿ن﴾وذلك أن يونس ابن متّى عليه السلام ، بعثه الله إلى أهل قريته نينوى ، وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم الى الله تعالى ، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا منه ذلك ، وعلموا أن النبي لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه ، ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، ونغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتّعناهم إلى حين ﴾

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم ، وخافوا

أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً .

قال الله تعالى ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ أي وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ، ثم ألقى نفسه في البحر ، .

قال ابن مسعود : (وقد ارسل الله حوتاً من البحر الأخضر يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً ، وإنّما بطنك تكون له سجناً .

وقوله تعالى : ﴿ وذا النون إذْ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أي إنّ ذا النون أي صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام لما ذهب مغاضباً لقومه وتركهم لمّا لم يؤمنوا به ، وركب السفينة ، ووقعت عليه القرعة ورمىً بنفسه في البحر والتقمه الحوت، ظنّ ان الله تعالى لن يضيّق عليه في بطن الحوت – وهذا ظن بالله حسن – فلن يقضي عليه أي لن يقدِّر عليه الموت وسينجيه من بطن الحوت ، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير فإن العرب تقول : قَدَرَ ، وقَدَّر بمعنى واحد ، وقال الشاعر :

فـــلا عائد ذاك الزمـــان الذي مضى تباركت ما تَقْدِرْيكُنْ ذلك الأمر

ومنه قوله تعالى : ﴿ فالتقى الماء على أمر قد قُدِرَ ﴾ أي قد قُدِّرَ .

وقوله تعالى : ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل وكذا روى ابن عباس وغيره . وذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى الى أسفل البحر سمع يونس حسّاً فقال في نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر . وهنالك قال : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، قال : ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عملٌ صالح ؟ قال : نعم • فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله تعالى : ﴿ وهو سقيم ﴾ [١] .

(١) قلت : رويناه مشتقاً من حديث فيه مجهول رواه محمد بن اسحق عن أبي هريرة مرفوعاً والجهالة: قول محمد بن اسحق : عمن حدثه ولم يسمه ... ؟ عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة مرفوعاً .

وقوله : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء ، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء

روى الإمام أحمد عن سعد بن وقاص بعد أن ذكر قصة بينه وبين عثمان بن عفان ... إلى أن قال عنه ﷺ أنه قال :١٩٠[... دعوة ذي النون اذ هو في بطن الحوت : ﴿ لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فانه لم يدعُ بها مسلم ربّه في شيء قط إلا استجاب له] ورواه الترمذي والنسائي .

وهذا الدعاء وان كان ليونس خاصة عليه الصلاة والسلام إلاّ أنه لجماعة المؤمنين عامة فهو شرط من الله لمن دعاه به كما يستفاد ذلك من حديث رواه ابن جرير عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً وفيه١٩١[اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب واذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى ...]

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ ۞ (٨٩) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۞ (٩٠) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله زكريّا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً ، وقد تقدمت القصة مبسوطةً في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضاً وههنا أخصر منها ﴿ إذ نادى ربّه ﴾ أي خفية عن قومه : ﴿ رب لا تذرني فرداً ﴾ أي لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسئلة. وقوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ أي امرأته كانت عاقراً فولدت . وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ أي في عمل القربـات والطاعات ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ أي رغباً بما عند الله من الثواب ورهباً ممّا عنده من العذاب [1] ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً

(١) قلت : ولذا فلان دعاءُ(اللهم ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً بجنتك) ضلال .

وقيل : ﴿ خاشعين ﴾ أي متواضعين ومتذللين مؤمنين ومصدقين بما أنزل الله وكلُّ هذه الأحوال صحيحة قريبة المعنى .

﴿ وَٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر قصة زكريا ، وكيف يلد لشيخين طاعنين في السن ولد ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب ، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر فقال تعالى : ﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ أي من الدنس كما قال تعالى : في سورة التحريم : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ أي دلالة على ان الله تعالى على كل شيء قدير وانه يخلق ما يشاء،وإنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون . وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولنجعله آيةً للناس ﴾ .

وقوله : ﴿ للعالمين ﴾ أي الجن والإنس .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ان هذه أمتكم أمةً واحدةً ﴾ إنَّ هذه إنَّ واسمها ، وأمتكم خبر إنَّ . أي هذه شريعتكم التي بينت لكم شريعة واحدة . وقوله تعالى ﴿ أمة واحدة ﴾ نصب على الحال ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وان هذهِ أمتكم امةً واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ وقال رسول الله ﷺ [١٩٢] نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد] يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله .

وقوله تعالى : ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ أي اختلف الأمم على رسلهم ، فمن

مصدق ومكذب ولهذا قال تعالى : ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ أي يوم القيامة فكل بحسب عمله خيراً كان أو شرا . ولهذا قال سبحانه : ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مصدق وعمل صالحاً ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ أي فلا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال جل وعلا ﴿ وإنّا له كاتبون ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه شيء منه .

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ❁ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ❁ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ❁ (٩٧)

يقول تعالى : ﴿ وحرام على قرية ﴾ قال ابن عباس : وجب ، يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون الى الدنيا قبل يوم القيامة ، هكذا صرح ابن عباس وابو جعفر الباقر وقتادة وغيرهم وقوله تعالى : ﴿ حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ انهم من سلالة نوح من أولاد يافث أبي الترك﴿وهم من كل حدب ينسلون﴾أي يسرعون في المشي الى الفساد ، والحدب هو المرتفع من الأرض ، وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ وهذا إخبار عالم ما كان وما يكون الذي يعلم غيب السموات والأرض لا إله إلا هو .

روى الامام أحمد عن النواس بن سمعان الكلابي قال :١٩٣[ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في ناحية النخل ، فقال : « غير الدجال أخوفني عليكم . فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وان يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، وانه شاب جعد قطط عينه طافية ، وانه يخرج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وشمالاً . يا عباد الله أثبتوا ـ قلنا يا رسول الله ما لبثه في الأرض ؟ قال : « أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » قلنا : يا رسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة ، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة قال : « لا . اقدروا له قدره » قلنا : يا رسول الله فما اسراعه في الأرض ؟ قال : « كالغيث استدبرته الريح . قال : فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون

له . فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى ، وأمده خواصر ، واسبغه ضروعاً ، ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها ، كيعاسيب النحل قال : ويأمر برجل فيقتل ، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل إليه ، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عزوجل المسيح عيسى ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً يديه على أجنحة ملكين ، فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لد الشرقي – قال – فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عزّ وجل الى عيسى بن مريم عليه السلام أني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم ، فحرر عبادي إلى الطور ، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج كما قال : ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل ، فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم ، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً الا وقد ملأه زُهمهم[١] ونتنهم . فيرغب عيسى وأصحابه الى الله عز وجل فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله]

روى ابن جرير عن كعب وغيره قال : ١٩٤[فتطرحم بالمهيل؛ قال ابن جابر فقلت يا أبا يزيد وأين المهيل ؟ قال : مطلع الشمس . قال « ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة ، ويقال للأرض أنبتي ثمرك ودري بركتك قال : فيومئذ يأكل النفر من الرمانة فيستظلون بقحفها ويباركُ في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ، واللقحة من البقر تكفي الفخذ ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت ، قال : فبينما هم على ذلك اذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم – أو قال مؤمن – ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة »] انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري ورواه مع بقية أهل السنن من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقد ثبت في الحديث ١٩٥ [ان عيسى بن مريم يحج البيت العتيق]وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ :١٩٦[ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج

---

(١) الزهم : رائحة الدسم وريح لحم سمين منتن .

يأجوج ومأجوج] إنفرد به البخاري وقوله تعالى : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل ، أزفت الساعة واقتربت فإذا كانت ووقعت ، قال الكافرون : هذا يوم عسر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام : ﴿ يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ﴾ أي في الدنيا ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك . .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۞ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۞ (١٠٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۞ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۞ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۞ (١٠٣) ﴾

يقول تعالى ، مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ أي وقودها . وقوله تعالى : ﴿ أنتم لها واردون ﴾ أي داخلون ﴿ لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها ﴾ أي لو كانت الأصنام آلهةً حقاً ما دخلوا النار مع عابديها ﴿ وكل فيها خالدون ﴾ أي جميعاً مخلدون في النار ﴿ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ والزفير خروج النفس والشهيق دخوله .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ أي الرحمة والسعادة ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ أي عن النار وذلك بسبب إيمانهم بالله ورسوله وما أسلفوا من الأعمال الصالحة في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾ أي فكما احسنوا العمل في الدنيا أحسن الله لهم الثواب في الآخرة ونجاهم من العذاب فقال عز وجل :

﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ أي حريقها في الأجساد . وقوله تعالى : ﴿ وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ فسلمهم من المحذور والمرهوب ، وحصل لهم المطلوب والمحبوب فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثياً . وخرج بذلك من عُبد بغير رضاه كالملائكة والعزير وعيسى ومريم ، وغيرهم ممن عُبدوا وهم غير راضين ويبرأون إلى الله تعالى من ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قيل وقيل ... وقيل : حين تطبق النار على أهلها . وقوله تعالى : ﴿ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ اي تبشرهم الملائكة يوم معادهم : ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ أي فأملوا ما يسركم .

﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَاءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ۝ (١٠٤) ﴾

يقول تعالى : هذا كائن يوم القيامة : ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويّاتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾

وقد روى البخاري رحمه الله عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: ١٩٧ إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه] انفرد به من هذا الوجه البخاري رحمه الله . وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة ، يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة الخردلة .

وقوله تعالى : ﴿ كطيّ السجل للكتب ﴾ قال ابن عباس : ان السجل هي الصحيفة قاله علي بن طلحة والعوفي عنه . ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة ؛ فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب أي على الكتاب بمعنى المكتوب ، كقوله تعالى : ﴿ فلما أسلما وتلّه للجبين ﴾ أي على الجبين وله نظائر في اللغة والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنّا فاعلين ﴾ يعني هذا

كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق جميعاً خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم ، وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله تعالى الذي لا يخلف ولا يبدل ، وهو القادر على ذلك ، ولهذا قال عز من قائل : ﴿ إنّا كنّا فاعلين ﴾ روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال :١٩٨[قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال : « إنكم محشورون إلىّ الله عز وجل حفاةً عراةً غرلاً ، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين » ...] أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّالِحُونَ ❁ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ❁ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ❁ (١٠٧) ﴾

يخبر تعالى عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدارين ، ووراثة الأرض فيهما كقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدريّة ، وهو كائن لا محالة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ الزبور : الكتب التي أنزلت على الأنبياء وهو أيضاً اسم الكتاب الذي أُنزل على داود عليه السلام . والمراد من الذكر هاهنا : أم الكتاب الذي كتب الله فيه ما هو كائن الى يوم القيامة . والمعنى : ان الله تعالى كتب في التوراة والانجيل والقرآن وفي الصحف التي نزلت على الأنبياء جميعاً من بعد أمّ الكتاب ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ من كل الأمم المؤمنة بالله تعالى ، فإنه تعالى يكفل لهم السعادة والمجد والحكم والفتح ويولّيهم على أمم الأرض بالحق والعدل وذلك في الدنيا . أما في الآخرة فيورثهم أرض الجنة وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم .

وقوله تعالى : ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ أي في هذا القرآن لبلاغاً لمنفعة ، وكفايةً لقوم عابدين الله بما شرع لهم ، وآثروا طاعته على طاعة الشيطان وشهواتهم وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾ يخبر تعالى أنه جعل محمداً ﷺ رحمةً للعالمين ، أي أرسله رحمةً لهم جميعاً فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في

الدارين ، ومن جحدها خسر الدارَيْن كما قال تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾

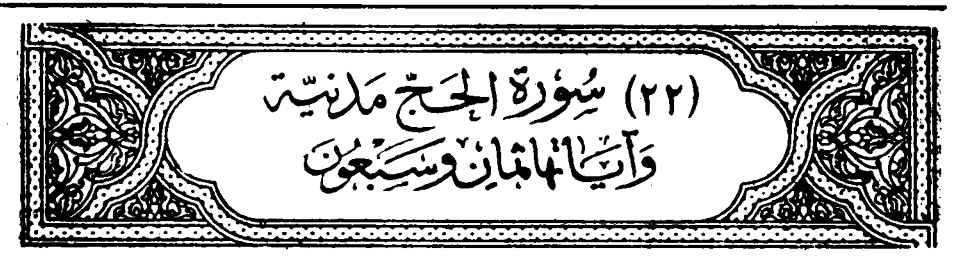
روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال :١٩٩[قيل يا رسول الله أدعُ على المشركين . قال : « إني لم أبعثْ لعاناً وإنما بعثت رحمةً »] روى الإمام أحمد عن سلمان قال : ان رسول الله خطب فقال :٢٠٠[أيما رجل سببته في غضبي ،أو لعنته لعنة فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون و إنما بعثني الله رحمةً للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة] فأي رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب ما رواه ابو جعفر بن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين ﴾ قال : من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ومن لم يؤمنْ بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۞ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ۞ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۞ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۞ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۞ (١١٢) ﴾

يأمر تعالى رسوله صلواته وسلامه عليه أن يبلغ المشركين : ﴿ إنما يوحي إليّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ أي متّبعون على ذلك مستسلمون منقادون له ﴿ فإن تولّوا ﴾ أي تركوا ما دعوتهم إليه ﴿ فقل آذنتكم على سواء ﴾ أي أعلمتكم أني حرب لكم كما أنكم حرب لي بريء منكم كما أنتم برآء مني ، كقوله تعالى : ﴿ وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء ، مما تعملون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإمّا تخافَنّ من قوم خيانةً فانبذ إليهم على سواء ﴾ أي ليكن عاملك وعلمهم بنبذ العهود على السواء وهكذا هاهنا : ﴿ فإن تولّوا فقل آذنتكم على سواء ﴾ أي أعلمتكم

ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ أي هو واقع لا محالة ، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ أي انه يعلم الغيب جميعه ويعلم ما يظهره عباده وما يسرون وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل وقوله تعالى : ﴿ وإن ادري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ قال ابن جرير : لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمّى ﴿ قال ربّ احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق والله المستعان عليكم على ما تقولون وتفترون من الكذب بجعل الأنداد لله تعالى وعبادتها من دونه والعياذ بالله لا إله غيره ولا رب سواه . آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام ولله الحمد والمنة .



إلاّ الآيات ٥٢ و٥٣ و٥٤ و٥٥ . فنزلتْ بيْن مكّة والمدينَة ونزلَتْ الحجْ بعدَ النّور

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حزب ٣٤

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۞ (٢)

يأمر تعالى عباده بتقواه ، ويخبرهم بما سيستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة ، هل هي بعد قيام الناس من أجداثهم ؟ يوم نشورهم إلى عرصات القيامة أو ذلك قبل قيام الناس من قبورهم ... ؟ فقال قائلون هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة وهذا ما روي عن علقمة ، وعبيد بن عمير ، وعامر الشعبي ، وقد أورد ابن جرير في ذلك حديث [1] عن أبي هريرة مرفوعاً ومفاده إن ذلك يكون قبل يوم القيامة وفيه .. ٢٠١[والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك] والغرض منه انه دلّ على ان هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة أضيفت إلى الساعة لقربها منه كما يقال : أشراط الساعة ونحو ذلك والله أعلم . وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور واختار ذلك ابن جرير واحتجوا بأحاديث رواها الإمام أحمد والترمذي وصححه وابن أبي حاتم عن عمران بن الحصين ومن هذه الأحاديث ما رواه البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ :٢٠٢[يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم فيقول: لبيك ربنا

(١) قلت : ولكنه حديث فيه مجهولان فلا يصح والله أعلم .

وسعديك فينادى بصوت : ان الله يأمرك ان تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل الف – أراه قال – تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الولد ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم . قال النبي ﷺ : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ، أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الاسود ، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة – فكبرنا ثم قال « ثلث أهل الجنة » فكبرنا ثم قال : « شطر أهل الجنة » فكبرنا] وقد رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع ، ومسلم ، والنسائي .

روى الإمام أحمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال : ٢٠٣ [إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً » قالت عائشة : يا رسول الله الرجال والنساء ينظرون بعضهم إلى بعض ... ؟ قال : « يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك »] أخرجاه والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً لها موضع آخر ولهذا قال تعالى ﴿ ان زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ أي أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفظع وحادث هائل وكائن عجيب ، والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع كما قال تعالى : ﴿ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يوم ترونها ﴾ هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسراً له ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ أي فتشتغل لهول ما ترى ، عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه تدهش عنه في حال إرضاعها له . ولهذا قال : ﴿ كل مرضعة ﴾ ولم يقل كل مرضع وقال ﴿ عما أرضعت ﴾ أي عن رضيعها فطامه وقوله تعالى : ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ أي من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سكارىٰ ﴿ وما هم بسكارىٰ ولكن عذاب الله شديد ﴾

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ (٤) ﴾

يذم تعالى من كذب بالبعث وبما أنزل على الأنبياء متبعاً في ذلك كل شيطان مريد

من الأنس والجنّ وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ما أنزل الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون البدع والأهواء والآراء ولهذا قال في شأنهم : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ أي علم صحيح ﴿ ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه ﴾ أي كتابة قدرية ﴿ أنه من تولاّه ﴾ أي اتبعه وقلده ﴿ فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ أي يضلّه في الدنيا ، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير الحار المؤلم. قال السدي عن أبي مالك : نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث ، وكذلك قال ابن جريج وقال ابن أبي حاتم عن أُبي كعب المكي قال : قال خبيث من خبثاء قريش اخبرنا عن ربكم من ذهب هو ، أو من فضة هو أو من نحاس هو ؟ فتقعقعت السماء قعقعةً ـ والقعقعة في كلام العرب الرعد ـ فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه . وقال مجاهد : جاء يهودي فقال : يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو من در أم من ياقوت ؟ قال فجاءت صاعقة فأخذته .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي ٱلْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (٦) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي ٱلْقُبُورِ ۞ (٧) ﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث ، المنكر للمعاد ، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه الخلق فقال : ﴿ يا أيها الناس ان كنتم في ريب ﴾ أي في شك ﴿ من البعث ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ أي أصل خلقه لكم من تراب وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام ﴿ ثم من نطفة ﴾ أي ثم

جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثم من علقة ثم من مضغة ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً يضاف إليه ما يجتمع اليها ، ثم تنقلب علقةً حمراء بإذن الله فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغةً من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن ، وفخذان ورجلان وسائر الاعضاء ، فتارةً تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ أي كما تشاهدونها : ﴿ لنبيّن لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى ﴾ أي وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها ، قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾ قال : هو السقط مخلوق وغير مخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة ، أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفخ فيها الروح وسوّاها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقيّ أو سعيد .

كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق ٢٠٤[إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلةً ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملَك فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح]

وقوله تعالى : ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ أي ضعيفا في بدنه وعقله وكل خلقه ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً ، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار ، ولهذا قال : ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ أي يتكامل الشباب عنفواناً ومنظراً ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أي في حال شبابه وقواه ﴿ ومنكم من يردّ الى أرذل العمر ﴾ وهو الشيخوخة والهرم والخرف ولهذا قال تعالى : ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ كما قال تعا لى : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوةً ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة ، اي القاحلة ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي فإذا أنزل الله عليها المطر تحركت بالنبات وارتفع الثرى ثم انبتت ما فيها من الألوان والفنون والثمار وشتى الزروع والنباتات ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿ وأنه يحيي الموتى ﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ وانه على كل شيء قدير ﴾ كما قال تعالى : ﴿ انما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وان

الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ أي كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿ وان الله يبعث من في القبور ﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمما ويوجدهم بعد العدم . كما قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ والآيات في هذه كثيرة .

روى الامام أحمد عن لقيط بن عامر انه قال ٢٠٥ [يا رسول الله أكلّنا يرىٰ ربه عز وجل يوم القيامة وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به ؟ » قلنا : بلى ، قال « فالله أعظم » قال قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : « أما مررت بواد أهلك ممحلاً » قال : بلى قال : « ثم مررت به يهتز خضراً » قال : بلى قال : « فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه »] ورواه أبو داود وابن ماجه قال ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال : من علم ان الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، دخل الجنة .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۞ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۞ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۞ (١٠) ﴾

لما ذكر تعالى حال الضُّلاَّل الجهّال المقلدين في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ ذكر في هذه الحال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ أي بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجزد الرأي والهوىٰ . وقوله تعالى : ﴿ ثاني عطفه ﴾ أي لاوي عطفه أي رقبتة معرضاً عما يدعى إليه من الحق ومستكبرا كقوله تعالى : ﴿ واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوْا رؤوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ أي ليصدهم عن سبيل الله.ثم قال تعالى : ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ لاستكباره عن آيات الله لقّاه المذلة في الدنيا ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ أي يقال له هذا

تقريعاً وتوبيخاً ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أي وذلك يعني إذاقته عذاب الحريق يوم القيامة،ليس ظلماً بل هو العدل من الله تعالى جزاءً ما قدمت يداه من الكفر والعناد والاستكبار، وحاشا الله من الظلم فقد حرمه على نفسه .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ ۝ (١٢) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۝ (١٣) ﴾

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن اصابه خير اطمأن به ﴾ قال كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ، ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وان لم تلد امرأته ولم تنتج خيله،قال هذا دين سوء . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ أنقلب على وجهه ﴾ أي ارتد كافراً . وقوله تعالى : ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء ، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة . وقوله تعالى : ﴿ يدعو لمن ضرُّه أقرب من نفعه ﴾ أي ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن . وقوله تعالى : ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ قال مجاهد : يعني الوثن ، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى ، يعني ولياً وناصراً ﴿ وبئس العشير ﴾ وهو المخالط والمعاشر .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝ (١٤) ﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء،عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم ، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات ، وتركوا المنكرات فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات • ولما ذكر تعالى أنه أضلّ

أولئك وهَدَى هؤلاء قال : ﴿ ان الله يفعل ما يريد ﴾ .

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قال ابن عباس وأصحابه : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة ﴿ فليمدد بسبب ﴾ أي بحبل ﴿ إلى السماء ﴾ أي إلى سماء بيته ﴿ ثم ليقطع ﴾ أي ثم ليختنق به ، وهذا القول أبلغ في التهكم فإن المعنى: من كان يظن ان الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه ، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة قال الله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ الآية ولهذا قال تعالى : ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ قال عطاء الخراساني : فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ ، من شأن محمد ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أي القرآن ﴿ آيات بيناتٍ ﴾ واضحات وهن حجة من الله على الناس ، ﴿ وأن الله يهدي من يريد ﴾ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وله الحكمة التامة والحجة القاطعة لا معقّب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئِينَ وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن أهل الأديان المختلفة مؤمنهم وكافرهم أنه تعالى يحكم بينهم بالعدل يوم القيامة فيدخل من آمن به الجنة ويدخل من كفر به النار فإنه تعالى شهيد على أفعالهم وأقوالهم وسرائرهم وما هو أخفى من ذلك .

سجدة

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨)﴾

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً وسجود كل شيء مما يختص به.فقال تعالى : ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض﴾ أي من الملائكة في أقطار السموات ، والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير . وقوله تعالى : ﴿والشمس والقمر والنجوم﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قد عبدت من دون الله فبيّن أنها تسجد لخالقها ، وأنها مربوبة مسخرة ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ الآية ، وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال لي رسول الله ﷺ : ٢٠٦[أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فانها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت »] وقوله تعالى : ﴿والجبال والشجر﴾ فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمال ، وقوله تعالى : ﴿والدواب﴾ أي الحيوانات كلها ، قد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ : نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر ، فرب مركوبة خير أو أكثر ذكراً لله تعالى من راكبها .

﴿وكثير من الناس﴾ أي يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر ، ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾ وقال ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن ابيه عن علي قال : قيل لعلي : إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة ، فقال له علي : يا عبدالله خلقك الله كما يشاء أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء . قال فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء قال فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء ؟ قال بل حيث شاء . قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف .

وعن أبي هريرة قال ٢٠٧ قال رسول الله ﷺ [إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان

يبكي، يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار] رواه مسلم وروى الإمام أحمدعن عقبة بن عامر قال٢٠٨ [قلت يا رسول الله ﷺ أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما] إنه وإن كان فيه ابنُ لهيعة إنما صرح فيه بالسماع كما أن له شواهد يشد بعضها بعضاً

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ (٢٢) ﴾

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية: ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر لفظ البخاري عند تفسيرها. ثم قال البخاري عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس بن عباد: وفيهم نزلت ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخاري.

ولا يمنع أن يكون هذا عاماً. وهذا ما قاله مجاهد وعطاء: هم المؤمنون والكافرون. وقول مجاهد وعطاء يشمل الأقوال كلها وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن، ولهذا قال تعالى: ﴿ فالذين كفروا قطّعت لهم ثياب من نار ﴾ أي فصلت لهم مقطعات من النار ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ۔ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾ روى ابن جرير عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:٢٠٩[ان الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر، ثم يعاد كما كان] ورواه الترمذي وحسّنه وصحّحه وهكذا رواه ابن أبي حاتم وقوله تعالى: ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾

قال ابن عباس : يضربون بها ، فيقع كل عضوٍ حياله فيدعون بالثبور .

وقوله تعالى : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍ أعيدوا فيها ﴾ يرفعهم لهبها وتردُّهم مقامعها وقوله تعالى : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قــولاً وفعلاً .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ❁ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ ٱلْحَمِيدِ ❁ (٢٤) ﴾

لما أخبر تعالى بما تقدم من حال أهل النار عياذاً بالله من حالهم ذكر أهل الجنة فقال عز من قائل : ﴿ ان الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها، الأنهار ﴾ أي تترقرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها يصرفونها حيث شاءوا ﴿ يحلَّوْن فيها ﴾ من الحِلية ﴿ من أساورَ من ذهب ولؤلؤاً ﴾ أي في أيديهم .كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه ٢١٠ [تبلغ الحِلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء] وقوله تعالى: ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار الــتي فصّلتْ تفصيلاً لهم ، لباس هؤلاء من الحرير استبرقه وسندسه كما قال تعالى : ﴿ عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق ﴾ وفي الصحيح :٢١٦ [لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة] وقوله تعالى : ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار ﴾ فهدوا إلى المكان الطيب الذي لا يسمعون فيه إلا الكلام الطيب .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ❁ (٢٥) ﴾

ينكر تعالى على الكفار صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه ودعواهم أنهم أولياؤه ﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلاّ المتقون ﴾

وفي هذا دليل على ان هذه الآية مدنية فقوله تعالى : ﴿ ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ أي مع كفرهم يصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر . وقوله تعالى : ﴿ الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾ أي يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام وقد جعله الله شرعاً سواءً لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها وقد اختُلِف في جواز التملك بمكة وتوريثها وتأجيرها فذهب الشافعي إلى جواز ذلك كله واحتج بحديث الزهري عن اسامة بن زيد قال :٢١٢ [قلت يا رسول الله أتنزل غداً في دارك بمكة ؟ فقال وهل ترك لنا عقيل من رباع ؟ ثم قال لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ، وبما ثبت ان عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أميه داراً بمكة ، فجعلها سجناً بأربعة آلاف درهم . وذهب اسحق بن راهويه إلى أنها لا تورَّث ولا تؤجرَّ ، وهو مذهب طائفة من السلف واحتج بما رواه ابن ماجه عن علقمة بن نضلة قال : توفي رسول الله ﷺ وابو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى اسكن . وتوسط الإمام أحمد فقال : تملك وتورَّث ولا تؤجر ، جمعاً بين الأدلّة والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يردْ فيه بإلحادٍ بظلم نذقْه من عذابٍ أليم ﴾ أي نذقه عذاباً أليماً والمعنى : أي من يهمُّ فيه بأمرٍ فظيع من المعاصي الكبار عامداً قاصداً وقال مجاهد من يعمل فيه عملاً سيئاً وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر اذا كان عازماً عليه وان لم يوقعه وحاصله إن فعل الإنسان سيئةً فيه بشكل عام يجازى على قدرها زيادة على ما لو فعله بغير الحرم لحرمته عندالله ، وذلك من أصغر ذنب إلى أعظمه كل ذلك داخل بقوله تعالى ﴿ بظلمٍ ﴾ فلوشتم خادماً فما فوقه كاحتكار الطعام – إلى القتل والشرك والارتداد ، فهو ظلم.فعمل سيءٌ في الحرم،ليس كعمله في أي مكانٍ دونه،والله تعالى يعاقب عليه بما يناسب حرمةَ الحرم –[1] .

(١) ما بين المعترضتين من قوله : وحاصله – إلى قوله – حرمة الحرم – من كلامي .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۞ (٢٦) وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۞ (٢٧) ﴾

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله واشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، فقال تعالى : ﴿ واذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ أي أرشدناه إليه وسلّمناه له وأذنّا له في بنائه وقد استدل به كثير ممن قال ان ابراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق وإنه لم يُبْنَ قبله ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر [قلت ١١٣ يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : «المسجد الحرام» قلت : ثم أيّ ؟ قال : « بيت المقدس » قلت كم بينهما ؟ قال « أربعون سنة »] وقد قدّمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح بما أغنى عن إعادته ههنا . وقال تعالى ههنا : ﴿ أن لا تشرك بي شيئاً ﴾ أي أبنه على اسمي وحدي ﴿ وطهّرْ بيتي ﴾ قال قتادة ومجاهد : من الشرك ﴿ للطائفين والقائمين والركّع السجود ﴾ أي اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به معروف وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿ والقائمين ﴾ أي في الصلاة ولهذا قال جل وعلا : ﴿ والركّع السجود ﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت فالطواف عنده والصلاة إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وأذّن في الناس بالحج ﴾ أي ناد في الناس داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه فذُكِرَ أنه قال : يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم ؟ فقال : نادِ وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل على الحجر وقيل على الصفا وقيل على أبي قبيس وقال:يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحُجّوه . فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك . هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ ﴾

الآية وقد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً لأنه قدّمهم في الذكر والذي عليه الأكثرون أن الحج راكباً أفضل . إقتداءً برسول الله ﷺ فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام . وقوله تعالى : ﴿ يأتين من كل فج ﴾ يعني طريق ﴿ عميق ﴾ بعيد وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن ابراهيم حين قال في دعائه : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ فليس أحد من أهل الإسلام إلاّ وهو يحنّ إلى رؤية الكعبة والطواف ، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار .

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۞ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۞ (٢٩) ﴾

قال ابن عباس : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ قال : منافع الدنيا والآخرة ، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات ، وكذا قال مجاهد وغير واحد انها منافع الدنيا والآخرة كقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الأيام المعلومات أيام العشر وعلقه البخاري بصيغة الجزم به وروي مثله عن أبي موسى الأشعري ومجاهد وعطاء وغيرهم . وروى البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال :٢١٤ [«ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء »] رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه بنحوه .

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ :٢١٥ [ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب اليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد .] قال البخاري : وكان ابن عمر وأبي هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر ، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما .

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعاً٢١٦[أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله : ﴿ والفجر وليالٍ عشر ﴾] وفي صحيح مسلم عن أبي قتادة قال : سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة ؛ فقال ٢١٧ [إحتسب على الله أن يكفرّ السنة الماضية والآتية] ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر . وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله . وبالجملة فهذا العشر قد قيل انه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث وفضله كثير على عشر رمضان الأخير ، وقيل بل عشر رمضان لاشتماله على ليلة القدر وتوسط آخرون فقالوا : أيام هذا أفضل وليالي ذاك أفضل وبهذا يجتمع شمل الأدلة والله أعلم .

والراجح : ان الأيام المعلومات كما صح ان ابن عباس وابن عمر والقول له : الأيام المعلومات والمعدودات هي جميعهن اربعة أيام فالأيام المعلومات : يوم النحر ويومان بعده والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر هذا إسناد صحيح إلى ابن عمر ويعضد هذا القول قوله تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ يعني به ذكر الله عند ذبحها ومن أدخل في الأيام المعلومات يوم عرفة ثم يوم النحر ويوماً آخر بعده وهذا قول مرجوح والله أعلم . وقولُه تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم كما فصلها تعالى في سورة الأنعام ﴿ ثمانية أزواج ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ والأكل من الأضاحي من باب الرخصة أو الاستحباب ، كما ثبت ، أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها . وعن مالك أنه قال أحب أن يأكل من أضحيته لقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها ﴾ قال سفيان الثوري عن منصور عن ابراهيم ﴿ فكلوا منها ﴾ قال كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل وروي عن مجاهد وعطاء نحو ذلك . وذلك على الاختيار . والأضحية تجزّأ ثلاثة أجزاء : ثلث له ، وثلث يهديه ، وثلث يتصدّق به لقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾ وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله وبه الثقة . وقوله تعالى : ﴿ البائس الفقير ﴾ هو المضطر البادي عليه البؤس وهو الفقير المتعفف فلا يبسط يده وقوله عز وجل : ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ التفث : وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر والشعر ونحو ذلك ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ قال مجاهد أي نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من نذر يكون في الحج ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ يعني الطواف الواجب – وهو طواف الإفاضة – وهكذا صنع رسول الله ﷺ فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمي الجمرة فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت . ويجب أن

يكون الطواف من وراء الحِجر ، لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت بهم النفقة . ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحِجر وأخبر ان الحِجرَ من البيت ولم يستلم الركنين الشاميين لأنهما لم يتمما على قواعد ابراهيم العتيقة ، ووصف بالعتيق لأنه أول بيت وضع للناس .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾

يقول تعالى : هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما يلقى عليها من الثواب الجزيل ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ أي ومن يجتنب معاصيَه ومحارمَه ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه ﴿ فهو خيرله عند ربه ﴾ أي فله على ذلك خير كثير وثواب جليل . فكما على فعل الطاعات ثواب كثير ، كذلك على ترك المحرمات ثواب كثير . وقوله تعالى : ﴿ وأحِلَّت لكم الأنعام إلاّ ما يتلى عليكم ﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . وقوله تعالى : ﴿ إلاّ ما يتلى عليكم ﴾ أي من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به .الآية ... ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ إن ﴿ من ﴾ ههنا لبيان الجنس ، أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ، وقرن الشرك بالله بقول الزور كقوله تعالى : ﴿ قل إنمَّا حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغيَ بغير الحق وأن تُشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ومنه شهادة الزور . وفي الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال :٢١٨[« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله قال : « الإشراك بالله وعقوق الوالدين – وكان متكئاً فجلس فقال – : ألا وقول الزُور ألا وشهادة الزُور » فما زال يكرّرها حتى قلنا : ليته سكتَ] روى الإمام أحمد عن خريم بن فاتك الأسدي قال : صلى ﷺ الصبح . فلما انصرف قام قائماً فقال : عدلت شهادة

الزور بالإشراك بالله عز وجل ثم تلا هذه الآية ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ حنفاء لله ﴾ أي مخلصين له الدين ، منحرفين عن الباطل إلى الحق ثم قال تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ﴾ فقد ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى كأنما سقط هاوياً من السماء ﴿ فتخطفه الطير ﴾ أي تقطعه الطيور في الهواء ﴿ أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ أي بعيد مهلك لمن هوى فيه . ولهذا جاء في حديث البراء : ٢١٩ [إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء فلا تفتح له أبواب السماء بل تطرح روحه طرحاً من هناك ثم قرأ هذه الآية] وقد تقدم هذا الحديث في سورة إبراهيم بحروفه ، وألفاظه وطرقه .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝ (٣٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ أي أوامره ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ ومن شعائر الله البُدْن أي الهدْي والأضاحي . وقال محمد بن أبي موسى : الوقوف ، ومزدلفة ، والجمار ، والرمي ، والحلْق ، والبدْن من شعائر الله وقال ابن عمر ، أعظم الشعائر البيت . ولما كان سوق الهدي والأضاحي وذبحها في محلها من شعائر الله لزم ان نستعظمها ، واستعظامها : استسمانها واستحسانها . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ قال : الاستسمان والاستحسان والاستعظام . روى أبو أمامة عن سهل : كنا نسمّن الأضحية بالمدينة وكان المسلمون يسمّنون رواه البخاري . وعن علي رضي الله عنه قال : ٢٢٠ [أمرنا رسول الله ﷺ ان نستشرف العين والأذن وان لا نضحي بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء .] رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي . وأما المقابلة فهي التي قطع مقدم أذنها ، والمدابرة من مؤخر أذنها ، والشرقاء هي التي قطعت أذنها طولاً ؛ قاله الشافعي والأصمعي . وأما الخرقاء فهي التي خرقت السمة أذنها خرقاً مدوّراً ، والله أعلم .

ولأحمد وأهل السنن والترمذي عنه أي عن عليّ رضي الله عنه قال : ٢٢١ [نهى رسول الله ﷺ أن نضحي بأعضب القرن والأذن ،] قال سعيد بن المسيب : العضب النصف

فأكثر أي كسر نصف القرن فأكثر . وعن البراء قال : ٢٢٢[قال رسول الله ﷺ أربع لا تجوز في الأضاحي : العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعرجاء البين ضلعها ، والكسيرة التي لا تنقى] رواه أحمد واهل السنن وصححه الترمذي . وهذه العيوب تنقص اللحم ولضعفها وعجزها عن استكمال الرعي لأن الشاء يسبقنها إلى المرعى . وروى أبو داود عن عتبة بن عبد السلمي : أن رسول الله ﷺ نهى عن المُصفِرة ، والمستأصلة والبخقاء والمشيعة والكسيرة . فالمصفرة قيل الهزيلة أو المستأصلة الأذن ، والمستأصلة مكسورة القرن والبخقاء : هي العوراء والمشيعة : هي التي لا تزال تشيع خلف الغنم ولا تتبع لضعفها ، والكسيرة : العرجاء فهذه العيوب كلها مانعة الإجزاء . فإن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر . فقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : ٧٥ [اشتريت كبشاً أضحيّ به . فعدا الذئب فأخذ الإلية فسألت النبي ﷺ فقال « ضحّ به »] ولهذا جاء في الحديث :٢٢٣[أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، أي أن تكون الهدية أو الأضحية سمينةً حسنةً ثمينةً »]

وقوله تعالى : ﴿ لكم فيها منافع ﴾ أي لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى كما ثبت في الصحيحين عن أنس ٢٢٤ أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنةً قال اركبها قال إنها بدنة قال « اركبها ويحك » في الثانية أو الثالثة] . وفي رواية لمسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ انه قال ٢٢٥ [اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها .]

وقوله تعالى : ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ أي محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق وهو الكعبة . كما قال الله تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۞ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ (٣٥) ﴾

يخبر تعالى : أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل .

﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : ٢٢٦ [أُتِي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمّى وكبّر ووضع رجله على صفاحهما.] روى أحمد عن زيد بن ارقم قال : ٢٢٧ [قلت يا رسول الله ما هذه الأضاحي ؟ قال « سنّة أبيكم إبراهيم » قالوا ما لنا منها ؟ قال : « بكل شعرة حسنة » . قال فالصوف قال « بكل شعرة من الصوف حسنة »] وأخرجه ابن ماجه.

وقوله تعالى : ﴿ فإلهكم آله واحد فله أسلموا ﴾ أي معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلاَّ أنا فاعبدون ﴾ ولهذا قال : ﴿ فله أسلموا ﴾ أي استسلموا لحكمه وطاعته.﴿ وبشر المخبتين ﴾ وأحسن ما يفسره ما بعده وهو قوله تعالى : ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أي خافت منه قلوبهم ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ أي من المصائب ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ أي المؤدّين حقها في أوقاتها وأركانها ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي ينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله .. وهذا كله تفسير المخبتين وهذه صفاتهم اللهم فاجعلنا منهم .

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ ٱللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإذَ وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذٰلِكَ سَخَّرْنَاها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ (٣٦) ﴾

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما خلق لهم من البُدن وجعلها من شعائر الله ، تهدى إلى بيته الحرام ، بل هي أفضل ما يهدى إليه ، كما قال تعالى : ﴿ لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهديَ ولا القلائدَ ولا آمّين البيت الحرام ﴾ الآية ... أما البُدْن فقد قال عطاء (البقرة والبعير) وإن كان فيه قولان إنما اصحهما البقرة والبعير كما صحّ الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبدالله قال : ٢٢٨ [أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة .]

وقوله تعالى : ﴿ لكم فيها خير ﴾ أي ثواب في الدار الآخرة وعن سليمان بن يزيد

الكعبي عن هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال :٢٢٩ [ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم ، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل ان يقع من الأرض فطيبوا بها نفساً] . رواه ابن ماجه والترمذي وحسّنه . وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : [٢٣٠ ما أنفقت الوَرِق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد] رواه الدار قطني في سننه .

وقوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ وعن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن جابر بن عبدالله قال : صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى ، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه فقال :٢٣١ [بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عني وعمن لم يضحِ من أمتي] ومعنى (صوافّ) أي قياماً على ثلاث قوائم ، معقولة يدها اليسرى ، يقول : بسم الله والله أكبر ولا ا له الا الله اللهم منك ولك] قاله ابن عباس وكذلك مجاهد وابن أبي طلحة والعوفي عنه ، وفي الصحيحين ٢٣٢ [عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها فقال : ابعثها قياماً مقيدة ، سنة أبي القاسم محمد ﷺ] .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ يعني سقطت إلى الأرض وماتت فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت ، حتى تموت وتبرد حركتها وقد جاء في حديث مرفوع :٢٣٣ [لا تعجلوا النفوس أن تزهق] ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك ويؤيده حديث شداد بن أوس في صحيح مسلم :٢٣٤ [إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدَّ أحدُكم شفرته وليُرح ذبيحته] وعن أبي واقد الليثي قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٣٥[ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة] رواه أحمد وابو داود والترمذي وصححه .

وقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأُطعموا القانع والمعترّ ﴾ قال بعض السلف : قوله تعالى : ﴿ فكلوا منها ﴾ أمر إباحة ، وقال مالك : يستحب ذلك . واختلفوا بالمراد بالقانع والمعترّ قال ابن عباس : القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته ، والمعترّ : الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل . وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزّأ ثلاثة أجزاء : فثلث لصاحبها يأكله،وثلث يهديه،وثلث يتصدق به على الفقراء .

وفي الحديث الصحيح ان رسول الله ﷺ قال للناس : ٢٣٦ [إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث ، فكلوا وادّخروا ما بدا لكم] وفي الحديث الآخر

٢٣٧ [فكلوا وادخروا وتصدقوا] أما الجلود ففي مسند أحمد عن النعمان في حديث الأضاحي ٢٣٨[فكلوا وتصدقوا واستمتعوا بجلودها ولا تبيعوها] .

وإن أولَ وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين . وعن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٣٩[ان أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ، ثم نرجعَ فننحرُ ، فمن فعل فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء] أخرجاه . وفي صحيح مسلم : ٢٤٠ [لا تذبحوا قبل أن يذبح الإمام] .

وقوله تعالى : ﴿ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ يقول تعالى : من أجل هذا ﴿ سخرْناها لكم ﴾ أي ذلّلناها لكم ، وجعلناها منقادةً لكم خاضعة إنْ شئتم ركبتم وإن شئتم حلبتم وإن شئتم ذبحتم .كما قال تعالى : ﴿ أو لم يرَوا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون – إلى قوله – أفلا يشكرون ﴾ .

﴿ لَنْ يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٣٧) ﴾

يقول تعالى : إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها ، فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها فإنه تعالى هو الغني عمّا سواه وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ونضحوا عليها من دمائها. فقال تعالى : ﴿ لن ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ أي يتقبل ذلك ويجزي عليه ، كما جاء في الصحيح : ٢٤١[إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] ولا يتقبّل الله إلاّ ممّن أخلص في عمله لوجهه الكريم . وقوله تعالى : ﴿ كذلك سخّرها لكم ﴾ أي من أجل ذلك سخّر لكم البدن ﴿ لتكبّروا الله على ما هداكم ﴾ أي لتعظّموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبّه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه.وقوله تعالى : ﴿ وبشر المحسنين ﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين في عملهم ، القائمين بحدود الله المتبعين ما شرع لهم ، المصدقين الرسول

فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل . .

مسألة : لقد اختلف في وجوب الأضحية فمنهم من أوجبها كأبي حنيفة ومالك والثوري على من ملك نصاباً واشترط أبو حنيفة الإقامة واحتُجّ لهم بحديث رواه أحمد واستنكره (١) ... وان فيه غرابة وقال الشافعي وأحمد بالاستحباب لما جاء في الحديث : ٢٤٢ [ليس في المال حق سوى الزكاة] وقد تقدم انه ﷺ ضحّى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم وقال ابو سريحة كنت جاراً لأبي بكر وعمر فكانا لا يضحيان خشية أن يقتديُ الناس بهما . وتجزي الأضحيةُ عن صاحبها وأهل بيته .

وعند الجمهور يجزي الثني من الإبل والبقر والمعز أو الجذع من الضأن . فأما التي من الإبل فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة ،ومن البقر ماله سنتان ودخل في الثالثة ، ومن المعز ماله سنتان،وأما الجذع من الضأن فقيل ماله سنة وقيل عشرة أشهر وقيل ثمانية وقيل ستة أشهر وهو أقل ما قيل في سنه ،وما دونه فهو حمل الفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم ، والجذع شعر ظهره نائم قد انفرق صدعين والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

نصف الحزب

يخبر تعالى انه يدافع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه ويحفظهم من شر الأشرار وكيد الفجّار بتأييده ونصره .كما قال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن اللهَ لا يحبُّ كل خوان كفور ﴾ أي لا يحب من اتصف بخيانة العهود والمواثيق والوعود.والكفر هو جَحْدُ النعم فلا يعترف بها .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ

---

(١) قلت : الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً : (من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا قال ابن كثير : (على أن فيه غرابة) قلت ولعلها من مفهوم الحديث أن النحر قبل الصلاة ، بينما الصلاة قبل النحر « فصل لربك وانحر » واستنكره أحمد .

صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ (٤٠)

قال ابن جرير عن ابن عباس قال : لما أُخرج النبي ﷺ من مكة ، قال أبو بكر : أخرجوا نبيّهم، إنّا لله وإنّا إليه راجعون ليهلكُنّ . قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل : ﴿ أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلِموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : فعرفت أنه سيكون قتال . ورواه أحمد وزاد : قال ابن عباس وهي أول آية نزلت في القتال . ورواه الترمذي وحسّنه . وهذا يدل على أن السورة مدنية . وقوله تعالى : ﴿ وان الله على نصرهم لقدير ﴾ أي قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكنه يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته . كما قال تعالى : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها . ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرّفها لهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوُ أخباركم ﴾ والآيات في هذا كثيرة . ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ وقد فعل وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به لأنّهم لما كانوا بمكة كان المشركون اكثرَ عدداً فلو أمِر المسلمون وهم أقل من العُشرْ بقتال الباقين لشقّ عليهم ، ولهذا ٢٤٣ [لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ ، وكانوا نيفاً وثمانين ، قالوا : يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي ، يعنون أهلَ منىً لياليَ منىً فنقتلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ « إني لم أومرْ بعدُ » فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهمّوا بقتله وشردوا أصحابه شذر مذر ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه ، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجأون إليه ، شرع الله جهاد الأعداء فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك فقال تعالى : ﴿ أُذِن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾] .

وقوله تعالى : ﴿ الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حق ﴾ يعني محمداً واصحابه أخرجوا من مكة بغير حق ﴿ إلاّ ان يقولوا ربنا الله ﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة ،

ولا كان لهم ذنب إلاّ أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له . وأما عند المشركين فإنه أكبرُ الذنوب. كما قال تعالى في قصّة أصحاب الأخدود : ﴿ وما نقموا منهم إلاّ ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ، ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب ، لفسدت الأرض ولأهلك القوي الضعيفَ ﴿ لهدمت صوامعُ وبيعٌ وصلوات ومساجدُ يذكَرُ فيها اسم الله كثيراً ﴾ أي لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود وهي كنائسهم ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً ، وقال بعض العلماء : هذا ترقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد وهي اكثر عمّاراً وأكثر عباداً وهم ذوو القصد الصحيح .

وقوله تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبت أقدامَكم والذين كفروا فتعساً لهم وأضلَّ أعمالهم ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزّة ، فبقوته خلق كل شيء فقدّره تقديراً وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب ، ومن كان القوي العزيز ناصرَه فهو المنصور وعدوّه هو المقهور . قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسُلي إن الله قوي عزيز ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝ (٤١) ﴾

هم أصحاب محمد ﷺ قاله أبو العالية : وقال ابن أبي حاتم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : فينا نزلت ﴿ الذين ان مكناهم في الأرض ... ﴾ الآية فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلاّ أن قلنا : ربُّنا الله ثم مُكِنّا في الأرض ، فاقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونُهينا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور فهي لي ولأصحابي .

وقال الصباح بن سوادة الكندي : سمعت عمرُ بنُ عبد العزيز يخطب وهو يقول : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ الآية ... ثم قال : ألا إنها ليست على الوالي وحده ، ولكنها على الوالي والمولىَّ عليه ، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم وبما للوالي عليكم منه ؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤخذكم بحقوق الله عليكم وأن يأخذ

لبعضكم من بعض وان يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع ، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكره بها،ولا المخالف سرها علانيتها . وقال زيد بن أسلم ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ و عند الله ثواب ما صنعوا .

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۞ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۞ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۞(٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ۞ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۞ (٤٦) ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبتْ قبلهم قوم نوح – إلى أن قال – وكذب موسى ﴾ أي مع ما جاءوا به من الآيات البينات والدلائل الواضحات ﴿ فأمليتُ للكافرين ﴾ أي أُخرتهم ﴿ ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم .

وذكر بعضُ السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه : أنا ربكم الأعلَى ، وبين إهلاك الله له أربعون سنة . وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال ٢٤٤ [إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذَه أليمٌ شديد ﴾] ثم قال تعالى : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ أي كم من قرية أهلكتها ﴿ وهي ظالمة ﴾ أي مكذبة لرُسُلها ﴿ فهي خاوية على عروشها ﴾ أي خربت منازلها وتعطلت حواضرها ﴿ وبئر معطلة ﴾ اي لا يُستقىَ منها بعد ازدحام الواردين ﴿ وقصر مَشيد ﴾ أي مرتفع منيع لم يمنع أهله من بأس الله تعالى.كما قال تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ أي بأبدانهم وفكرهم ، لينظروا آثار من مضوا ما فُعل بهم وما حلّ بديارهم من النقم والنكال : ﴿ فتكونَ لهم قلوب يعقلون بها

أو آذان يسمعون بها ﴾ أي فيعتبرون بها ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور ﴾ أي ليس العمىٰ عمىٰ البصر وانما العمىٰ عمىٰ البصيرة ، وما أحسن ما قاله في ذلك ابي محمد عبد الله بن محمد بن حيان الأندلسي الشنتريني ، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة و خمسمائة :

يا من يصيخ إلى داعي الشقاء وقد	نادىٰ به الناعيان : الشيب والكبرُ
إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم ترىٰ	في رأسك الواعيان : السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمىٰ سوى رجلٍ	لم يهده الهاديان : العين والأثر
لا الدهر يبقىٰ ، ولا الدنيا ولا الفلك	الأعلىٰ، ولا النيّرانِ : الشمس والقمر
ليرحلنّ عن الدنيا وإن كرها	فراقها الثاويان : البدو والحضر

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۞ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ۞ (٤٨) ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ أي هؤلاء الكفار المكذبون كما قال تعالى : ﴿ وقالوا ربنا عجّل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولن يُخلفَ الله وعدَه ﴾ أي الذي قد وعد من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه والإكرام لأوليائه .

وقوله تعالى : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ أي هو تعالى لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه ، لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء وإن أجّل ؛ ولهذا قال بعد هذا : ﴿ وكأين من قرية أمليتُ لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليَّ المصير ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٢٤٥ [يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام] وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ (٤٩) فَٱلَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۞ (٥٠) وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ ۞ (٥١)

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب الكفار منه وقوع العذاب واستعجلوه به : ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ أي إنما أنا رسول لكم أنذركم بين يدي عذاب شديد ، وليس إلي من أمره شيء فهو إلى الله تعالى إن شاء عجّل عذابكم وان شاء أخّره ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنتْ قلوبهم وصدقت أعمالهم ﴿ لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم ، ومجازاة حسنة عن القليل من حسناتهم والرزق الكريم هو الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ والذين سَعَوْا في آياتنا معاجزين ﴾ أي مثبطين الناسَ عن متابعة النبيّ ﷺ ﴿ أولئك أصحابُ الجحيم ﴾ وهي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها أجارنا الله منها . قال الله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يُفسدون ﴾ .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۞ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ (٥٤)

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم ان مشركي قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله اعلم . (*) (راجع التعليق في الصفحة التالية)

القصة المكذوبة [١] : نزلت سورة النجم فتلاها رسول الله ﷺ على المشركين وعند وصوله إلى قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ۝ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ ألقى الشيطان على لسانه كلمات : (وإنهن لهن الغرانيق العلى وان شفاعتهن لهي التي ترتجى) فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وزلت بها ألسنتهم وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر سورة النجم سجد ... وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك.فعجب الفريقان كلاهما ولم يكن سمع المسلمون الذي ألقى الشيطان ، ففشت تلك الكلمة في الناس ، وأظهرَها الشيطان حتّى بلغتْ أرضَ الحبشة ومن بها من المسلمين وحدّثوا أن المسلمين قد أمِنُوا بمكة فأقبلوا سراعاً إلى مكة ، وقد نسخَ الله ما ألقى الشيطان واحكم الله آياتِه ، وحفظ من الفِرية نبيّه فقال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا

---

(١) قلت : قصة الغرانيق هذه... من أخطر ما وضع الزنادقة... ليضربوا التوحيد والرسالةَ العظمى، وليردوا المسلمين عن دينهم الحق – زعموا – والله حافظ دينه وناصره ولو كره الكافرون على أن هذه القصة عدا عن أنها مكذوبة موضوعة فهي متهافتة ساقطة من وجوه :

١ – : منافية للعصمة التي هي للأنبياء جميعاً لأن فيها استطاعة تسلط الشيطان على النبي صلى الله عليه وسلم في أعظم ما تجب فيه العصمة وهو الوحي ، ومنافية لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقوله تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ».

٢ – : سياق سورة النجم وعدم احتماله لمسألة الغرانيق، لأن الله يذم فيها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى بقوله تعالى : « ... إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ...» فكيف يقول عنها : تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ... !!!؟ مادحاً إياها على زعمهم ثم يذمها ويقول : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » فهل يعقل أن يمتدح الله الآلهة التي أشركه بها الكفار ثم في آن واحد يذمها فحاشا لله أن ينزل ذلك أو أن يتقول رسوله عليه ما لم يقل ... هذا ما لا يسلم به عقل ولا يقول به إنسان .

٣ – : كلمة الغرانيق ... لم ترد في نظم شعراء العرب ولا في خطبهم من أنها وصف لآلهتهم ، ولا جرى ذلك على ألسنتهم وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنه اسم لطائر مائي أسود وأبيض والشباب الأبيض الجميل ، ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب – قاله الشيخ محمد عبده –.

٤ – الرسول الذي بعث لتحطيم هذه الآلهة الخبيثة الكاذبة وللدعوة لتوحيد الله وحده لا شريك له، والذي لم يكذب (ويعرف ذلك منه قومه) ولا في الجاهلية فالذيلم يكذب على الناس كيف يقول على الله ما لم يقله . فلا أصل اذاً لمسألة الغرانيق إلا الوضع والاختراع، قامت به طائفة الذين أخذوا بالكيد للأسلام. (بتصرف عن محمد حسين هيكل من كتابه « حياة محمد » صلى الله عليه وسلم . ومن شاء التوسع العلمي فليراجع كتاب «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) لأخينا الكبير الشيخ محمد ناصر الدين الألباني مد الله في عمره . وأجزل مثوبته

نبيّ إلاإذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم للمسلمين واشتدوا عليهم قلت (ابن كثير) وقد ذكرها محمد بن اسحق في السيرة بنحو من هذا ، وكل الطرق مرسلات ومتقطعات والله أعلم . وقد ساقها البغوي ثم سأل ها هنا سؤآلاً : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ثم حكى أجوبة عن الناس من ألطفها : أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ وليس كذلك في نفس الأمر ، بل انما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن ﷺ والله أعلم .

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين ، هذا على فرض صحة القصة ... !!! ولكنّها لم تصح ... وقوله تعالى : ﴿ إلاّ إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلاة الله وسلامه عليه أي لا يزعجك ولا يريبك هذا ... فقد أصاب الأنبياء والمرسلين قبلك مثله [1] ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ قال ابن عباس : أي فيبطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان ﴿ ثم يحكم الله آياته والله عليم ﴾ اي بما يكون من الأمور والحوادث ، لا تخفى عليه خافية ﴿ حكيم ﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة والحجة البالغة. ولهذا قال سبحانه : ﴿ ليجعل ما يُلقي الشيطان فتنةً للذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك وشرك كالمشركين ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ قال مقاتل بن حيان : هم اليهود ﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد عن الحق

(١) قلت : – والمعنى – : ان كل نبي قبلك تمنى ما تمنيتَ من ايمان قومكَ واستجابتهم، فكانوا يتحدثون إليهم كما تتحدث أنت إليهم،وتنوع لهم أسباب الهداية فيلقي الشيطان ما ألقى... مع حديثك اليهم حديثاً منه غير حديثك فيوهمهم أنه حديثك،وهم لا يعلمون إلا أنه حديثك ، فيوافقونك لا على ما تقول أنت في الحقيقة،إنما على ما سمعوه من الشيطان وهم يتوهمون أنه حديثك، فهذه الموافقة منهم تظنها أنت أيضاً مطابقة لما قلت لهم ، فتحصل أمنيتك التي تمنيت ، من ظاهر هدايتهم كسجودهم الذي سجدوه في آخر سورة النجم ، لأنك لا تعلم ما ألقى الشيطان في أسماعهم، أما الله تعالى المطلع على الحقيقة التي جرت يبطل ما يلقى الشيطان وينسخه ويحكم آياته التي أنزلها عليك وبلغتها كما نزلت تماماً، والله عليم بما سيكون لا تخفى عليه خافية،وحكيم في تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة والحجة البالغة . وقد علّل سبحانه لماذا قدّر ذلك فقال جلت حكمته : « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم » أي المشركون الذين نوع لهم رسولهم أسباب الهداية فلم يهتدوا ،فمكر الله بهم ليزيدَهم ضلالا على ضلالهم جزاء كفرهم وعنادهم وذلك كما قال تعالى : وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » أما المؤمنون الذين استجابوا للحسنى يسرهم الله لليسرى فزادهم إيمانا فأرشدَهم للحق وجعلهم من السعداء في الدارين .

والصواب ، ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به ﴾ أي وليعلمُ المؤمنون بالله ورسوله الذي يفرقون به بين الحق والباطل أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه ، وحرسه أن يختلط به غيره ﴿ فيؤمنوا به ﴾ أي يصَدقوه وينقادوا له ﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾ أي تخضع وتذل ﴿ وانّ الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ فيرشدهم في الدنيا إلى الحق ويوفّقهم لمخالفة الباطل ، وفي الآخرة يوصلهم إلى النعيم ، ويزحزحهم عن الجحيم .

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۞ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ ۞(٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۞(٥٧) ﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم لا يزالون في شك وريب من هذا القرآن ﴿ حتى تأتيهم الساعة بغتةً ﴾ أي فجأة عند غرّتهم بنعمتهم . وقوله تعالى : ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ أي يوم القيامة ، لا ليل له ولهذا قال تعالى : ﴿ الملكُ يَوْمئذٍ لله يحكم بينهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ مالكِ يوم الدين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنت قلوبُهم وعملوا بمقتضى ما علموا ﴿ في جنات النعيم ﴾ أي لهم النعيم الذي لا يبيد ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي كفرت قلوبهم بالحق وهجرته وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم ﴿ فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي مقابلة استكبارهم عن الحق كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين .

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ۞ (٥٨)



لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلباً لما عنده ، وفارق بلاده في الله ورسوله ، ونصرةً لدين الله ثم قتلوا أي في الجهاد ، أو حتف أنفهم فقد حصلوا على الأجر الجزيل كما قال تعالى : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴾ ليتفضل عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿ وان الله لهو خير الرازقين * ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴾ أي الجنة كما قال تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ فأخبر أنه يحصل على الراحة والرزق وجنة النعيم كما قال ها هنا : ﴿ ليرزقنّهم الله رزقاً حسناً ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ ليدخلنّهم مدخلاً يرضونه وان الله لعليم ﴾ بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك ﴿ حليم ﴾ أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ، ويكفّرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه .

قال ابن أبي حاتم عن أبي قبيل وربيعة بن سيف المعافري يقولان : كنا برودوس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ . فمر بجنازتين : إحداهما قتيل ، والأخرى متوفىً ، فمال الناس على القتيل في سبيل الله فقال : مالي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا القتيل في سبيل الله . فقال : والله ما أبالي من أي حفرتيهما بُعثتُ ؟ إسمعوا كتاب الله : ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ﴾ حتى بلغ آخر الآية . وقوله تعالى : ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ الآية إنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم ، فناشدهم المسلمون لئلاّ يقاتلوهم في الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلاّ قتالهم ، وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون ، فنصرهم الله عليهم ﴿ إن الله لعفوٌّ غفور ﴾ .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

ينبِّه تعالى على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء ومعنى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا،ومن هذا في هذا ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء ، وتارةً يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف . وقوله تعالى : ﴿ وان الله سميع بصير ﴾ أي سميع بأقوال عباده ، بصير بهم ، لا يخفى عليه منهم خافية في جميع أحوالهم ، ولما تبين أنه المتصرف في الوجود ، الحاكم الذي لا معقب لحكمه . قال تعالى : ﴿ ذلك بان الله هو الحق ﴾ أي الإلّه الذي لا تنبغي العبادة إلاّ له ، ﴿ وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ أي كل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل، لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً . وقوله تعالى : ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ كما قال سبحانه ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ وقال جل وعلا : ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه ، فهو العظيم الذي لا أعظم منه ، العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي لا أكبر منه ، تعالى وتقدس وتنزه عز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً..

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۞ (٦٣) لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۞ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞(٦٥) وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ۞ (٦٦) ﴾

وهذا أيضاً دليل على قدرته تعالى ، وإنه يمطر الأرض المحلة ماءً من السماء — ﴿ فتصبح الأرض مخضرة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ أي تصبح خضراء بعد يباسها ﴿ ان الله لطيف خبير ﴾ أي عليم بما في الأرض من الحب وان صغر لا يخفى عليه خافية فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به كما قال لقمان :

﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبةٍ من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيفٌ خبير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي كل شيء فيهما ملكه وحده لا شريك له ﴿ وان الله لهو الغني الحميد ﴾ الحميد أي المستغني عما سواه المستوجب الحمد من عباده في كل حال . وقوله تعالى : ﴿ ألم تر ان الله سخر لكم ما في الأرض ﴾ أي من حيوان وجماد وزروع ﴿ والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ أي بتسييره ولطفه في عرض البحار لتبادل التجارة والأرزاق بين البلدان . ﴿ ويمسك السماء ان تقع على الأرض إلاّ بإذنه ﴾ أي لو شاء لأذن للسماء أن تقع على الأرض فتهلك بمن فيها ولكنه تعالى من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء ان تسقط على الأرض ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ان الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ أي مع ظلمهم ، كما قال جل وعلا : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴾ أي كيف تجعلون لله أنداداً تعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ أي خلقكم من العدم ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ أي يبعثكم يوم يوم القيامة ولكن الإنسان كفور لنعم الله جحود لها .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۞ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ (٦٨) ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ (٦٩) ﴾

أصل المنسك هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه إمّا لخيرٍ أو شرٍ ، ولهذه سمّيتْ مناسك الحج بذلك لتردد الناس إليها فقوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوهُ ﴾ أي طريقاً سالكوه فالضمير عائد على هؤلاء المشركين الذين لهم مناسك وطرائق ، أي أن هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ أي فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفنْك ذلك عما أنت عليه من الحق ولهذا قال : ﴿ وادعُ إلى ربك إنك لعلى هدىً مستقيمٍ ﴾ أي طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود وهذا

كقوله تعالى : ﴿ ولا يصدنّك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادعُ إلى ربك ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وإن كذّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ الله أعلم بما تعملون ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله تعالى : ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ الآية .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه ، وإن علمه محيط بما في السموات والأرض فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٤٦ [إنّ الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . وكان عرشه على الماء] وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أنّ رسول الله ﷺ قال : ٢٤٧ [أول ما خلق الله القلم قال له اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال اكتب ما هو كائن . فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة] فذلك قوله تعالى للنبيّ ﷺ : ﴿ ألم تعلم ان الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾ وهذا من تمام علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه . فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره ، وهذا يعصي باختياره . وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علماً ، وهو سهل عليه يسير لديه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إنّ ذلك في كتاب إنّ ذلك على الله يسير ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ۞ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنْكَرَ يَكَادُونَ

يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۞ (٧٢)

يخبر تعالى عن المشركين الذين عبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً أي حجة وبرهاناً فقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ومن يدعُ مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ . وقولهُ تعالى : ﴿ وما ليس لهم به علم ﴾ إنما تلقوه عن آبائهم بلا دليل ولا حجة ، وأصله من تزيين الشيطان لهم ، ولهذا توعّدهم تعالى بقوله عز وجل : ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ أي ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب ، ثم قال تعالى : ﴿ وإذا تتلىٰ عليهم آياتنا بيّنات ﴾ أي ذكرت لهم آيات القرآن الدالة على **أنه** لا إله الا الله ، وأن رسله حقٌ وصدق ﴿ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ أي يكادون يبطشون بمن يذكّرهم بالحق ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿ أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا ﴾ أي النار وعذابها ونكالها أشد وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا من بسط أيديكم وألسنتكم إليهم ، فعذاب الآخرة على كفركم وأذيّتكم أولياء الله أعظم مما تنالون منهم . وقوله تعالى : ﴿ وبئس المصير ﴾ أي وبئس النار مقيلاً ومنزلاً ومرجعاً ومقاماً .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۞ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ (٧٤)

ينبّه تعالى على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿ فاستمعوا له ﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿ ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ أي لو اجتمعوا على أن يخلقوا ذباباً ما قدروا على ذلك كما أخرج الشيخان من طريق عمارة عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : ٢٤٨ [قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب

يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرةً ، فليخلقوا شعيرةً] ثم قال تعالى : ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أبلغ من ذلك ، عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك ، هذا، والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها [١] ولهذا قال تعالى : ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ أي ضعف هذا المعبود الزائف أن يستنقذ الذباب ما أخذه منه وسلبه من شيء كان في حوذته أجل فقد ضعف الطالب والمطلوب ﴿ ما قدروا الله حقّ قدره ﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا غيره الذي لم يستطع أن يقاوم الذباب أو يستنقذ ما سلبه منه ﴿ إنّ الله لقوي عزيز ﴾ الذي يقول للشيء كن فيكون فهو قوي على كل شيء ، وعزيز عزّ كلّ شيء فقهره وغلبه فلا يمانعُ ولا يغالب لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار .

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۞ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۞ (٧٦) ﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ، ويختار من الناس رسلاً لإبلاغ رسالته ﴿ ان الله سميع بصير ﴾ أي سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، عليم بمن يستحق منهم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ، كما قال سبحانه : ﴿ عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول – إلى قوله – وأحصى كل شيء عددا ﴾ فهو سبحانه رقيب عليهم شهيد على ما يقال لهم ، حافظ لهم ،

---

(١) قلت : وقد علم الله أن عبيده سيكتشفون مخاليقَ صغيرة/ ميكروبات / وقد يكون / الذباب / اسم جنس لها وإنها لاتُرى إلا بالمجاهر التي تكبر آلافَ المرّات تفتك في جسم من يُعْبَدُ من دون الله ولا يستطيع هذا المتأله أن يُنقذَ نفسه منها إلا إذا أراد الله تعالى. وقد تفتك به وهو لا يستطيع لها دفعاً. والذين يؤلهونَه يعلمون جزماً أن إلههم المزيف في هذا الدركِ الأسفلِ منَ الضعف... كما يعلمون أنه مربوب لله تعالى . ولكن مع كل هذا وذاك ... يبقى هؤلاء مؤلهين أولئك، بطاعتهم في معصية الله تعالى، بأن يعطوهم من الصفات التي لا تليق إلا لله تعالى وحده فيدعونهم في السراء والضراء، ويستغيثون بهم ، ويستعينون بهم ويتوجهون إليهم بأنواع العبادة أحياءً كانوا أو أمواتاً . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا .

ناصر لجنابهم . ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ .

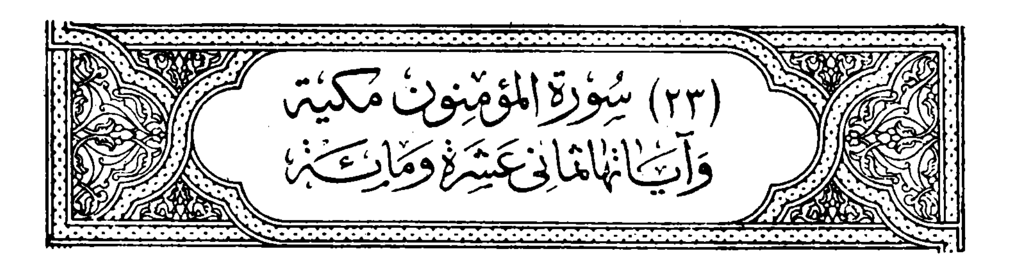
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۩ (٧٨) ﴾

اختلف الأئمة رحمهم الله في مشروعية هذه السجدة الثانية من سورة الحج والأصح أنها مشروعة لحديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ : ٢٤٩ [فضلت سورة الحج بسجدتين فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما] وقوله تعالى : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم . وقوله تعالى : ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي والله اختاركم على سائر الأمم ، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأشرف رسول وأكمل شرع ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ أي ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً ، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تصلى تماماً وقصراً وجمعاً ورجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها قياماً وجلوساً وعلى جنب إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات.ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ٢٥٠ [بعثت بالحنيفيّة السمحة] وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن : ٢٥١ [بشّرا ولا تنفرا ، ويسّرا ولا تعسرا] .

ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ يعني من ضيق . وقوله تعالى : ﴿ ملة أبيكم ابراهيم ﴾ وهذا المعنى في هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ وقوله

تعالى : ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ أي والله عز وجل سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة ﴿ وفي هذا ﴾ أي في القرآن . وروى النسائي عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال : ٢٥٢ [« من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثيّ جهنم » قال رجل : يا رسول الله وان صام وصلى ؟ قال : « وإن صام وصلّى فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله »] وقوله تعالى : ﴿ ليكون الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ أي إنما جعلكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً ، مشهوراً بعدالتكم عند جميع الأمم ، لتكونوا يوم القيامة ﴿ شهداء على الناس ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذٍ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلّغها ذلك وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ الآية بما أغنى عن اعادته . وقوله تعالى : ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض علكم ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي استعينوا به والتجئوا اليه وتأيدوا به ﴿ هو مولاكم ﴾ أي حافظكم وناصركم على أعدائكم ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ أي نعم الولي والناصر من الأعداء آخر اختصار تفسير سورة الحج ولله الحمد والمنة .

١٣٨٩/١٢/١٣


(٢٣) سورة المؤمنون مكية وآياتها ثماني عشرة ومائة

نزلت بعد : الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء ١٨

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ (١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَوٰتِهِمْ خَاشِعُونَ ۞ (٢) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ (٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ ۞ (٤) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ (٦) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۞ (٧) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۞ (٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ (٩) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَارِثُونَ ۞ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ (١١) ﴾

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب يقول : ٢٥٣[كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعةً فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، واكرمنا ولا تهنّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا » - ثم قال - « لقد أنزل الله عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر »] [1] .

---

(١) فيه يونس بن سليم قال الترمذي لا نعرفه .

روى النسائي في تفسيره عن يزيد بن بابنوس قال : ٢٥٤ (قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خُلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن فقرأت : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ – حتى انتهت إلى – والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ] .

وقوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ أي فازوا بالجنة ، وهم المتصفون بهذه الأوصاف : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ أي خاشعو القلوب ، فغضوا أبصارهم وخفضوا الجناح ولا تجاوزت أعينهم مصلاّهم . والخشوع في الصلاة يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها ، وحينئذٍ تكون راحة له وقرة عين ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ انه قال : ٢٥٥ [حبب إليّ الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة] .

روى الإمام أحمد عن محمد بن حنفية قال : ٢٥٦ [دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار فحضرت الصلاة ، فقال : يا جارية أتيني بوضوء لعليّ أصلي فاستريح فرآنا أنكرنا عليه ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قم يا بلال فأرحنا بالصلاة »]

وقوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ أي عن الباطل ، وهو يشمل الشرك والمعاصي وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال وقوله تعالى : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ أي زكاة الأموال قبل أن يفرض النصاب لأن الآية مكية وأصل الزكاة كان واجباً بمكة قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ انما فرضت بالمدينة الزكاة ذات النصب والمقادير الخاصة ، وقيل : زكاة النفس من الشرك والدنس ، كقوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها*وقد خاب من دساها ﴾ والمؤمن الكامل هو الذي يزكي نفسه مالاً ونفساً . وقوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون * إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ أي الذين حفظوا فروجهم من الحرام من زنا أو لواط لا يقربون إلاّ أزواجهم وسراريهم ، فمن تعاطىَ ما أحلّه الله له ، فلا لوم عليه ولا حرج ومن ابتغى غير الازواج والإماء فهم المعتدون .

وقد استدل الشافعي رحمه الله تعالى على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة .
وقوله تعالى : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ أي إذا أئتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك ، لا كالمنافقين الموصوفين بقوله

ﷺ : ٢٥٧ [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا أتمن خان]

وقوله تعالى : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها ، كما قال ابن مسعود : ٢٥٨ [سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ « الجهاد في سبيل الله »] أخرجاه في الصحيحين . وقد افتتح الله تعالى ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها ، ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة قال سبحانه : ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال ٢٥٩ [إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن] .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٦٠ [ما منكم من أحد إلاّ وله منزلان : منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله] فذلك قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة ، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له ، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل . وأبلغ من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ قال : ٢٦١ [يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال ، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى] وفي لفظ له : قال رسول الله ﷺ : ٢٦٢ [اذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً ، فيقال هذا فكاكك من النار] فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات ، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك ، قال فحلف له] .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۞ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ ۞ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ

ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۞ (١٦)

يخبر تعالى عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين ، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون.روى الإمام أحمد عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : ٢٦٣ [إنَّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك] وقد رواه ابو داود والترمذي من طرق عن عوف الأعرابي به نحوه وقال حسن صحيح .

﴿ ثم جعلناه نطفةً ﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان.كما قال تعالى : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ أي ضعيف من قوله تعالى : ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ أي ثم صيّرنا النطفة ، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره ، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة ، فصارت علقةً حمراء على شكل العلقة مستطيلة وهي دم ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ وهي قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿ فخلقنا المضغة عظاماً ﴾ يعني شكلناها ذات رأس ويدَيْن ورجلَيْن بعظامها وعصبها وعروقها ﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشدّه ويقوّيه ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرّك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ٢٦٤ [حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوماً نطفةً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقهوأجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد . فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنّة فيدخلها »] أخرجاه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال،وشكل إلى شكل،حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق . قال تعالى : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾ يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت

﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ يعني يوم المعاد وقيام الأرواح إلى الأجساد فيحاسب الخلائق ، ويوفّي كل عامل عمله إن خيراً فخيرا أو شراً فشر .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَافِلِينَ ۞ (١٧) ﴾

لما ذكر تعالى خلق الإنسان ، عطف بذكر خلق السموات السبع ، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الانسان • كما قال تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ سبع طرائق ﴾ يعني السموات السبع • وهذا كقوله تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزّل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ أي ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماءً ولا أرض أرضاً ، ولا جبل إلاّ يعلم ما في وعره ، ولا بحر إلاّ يعلم ما في قعره ، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار ﴿ وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين ﴾ .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۞ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ۞ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۞ (٢٢) ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر ،

أي بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع .

وقوله تعالى : ﴿ فأسكناه في الأرض ﴾ أي جعلنا المطر يخلد في الأرض ، وجعلنا فيها قابلية له وتشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى . وقوله تعالى : ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ أي لو شئنا ان لا تمطر لفعلنا ، ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري لفعلنا ، لو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب أو سقي لفعلنا ، ولو شئنا أن لا ينزل في الأرض ، أو يغور إلى مدى لا تصلون اليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه تعالى أنزله عذباً فراتاً وأسكنه وأسلكه في الأرض منه تسقون وتشربون وتغتسلون وتتطهرون فله الحمد والمنة .

وقوله تعالى : ﴿ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ﴾ وهذا ماكان يألفه أهـــل الحجاز ﴿ لكم فيها فواكه كثيرة ﴾ أي من جميع الثمار ﴿ ومنها تأكلون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ أي من جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام والشجرة هي شجرة الزيتون ﴿ تنبت بالدهن ﴾ أي تنبت الدهن أي الزيت ﴿ وصبغ للآكلين ﴾ أي أدم للآكلين أي فيها ما ينتفعون به من الدهن كما روى الإمام أحمد عن أبي أسيد واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٦٥ [كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة] .

وقوله تعالى : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ . يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع من شرب ألبانها،وأكل حملانها،ولبس صوفها وأوبارها وأشعارها،وركوب ظهورها ، وتحميلها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية ، كما قال تعالى : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ — وكما أنه امتنّ على عباده بما خلق لهم من الأنعام التي تحملهم إلى بلاد نائية في البر فكذلك ذكر رأفته ورحمته بهم أنه يسر لهم السفن البحرية كذلك تنقلهم في عرض البحار إلى بلاد نائية [1] * — .

* — : ما بين الخطين المعترضين من كلامي لا كلام المفسر رحمه الله فقد أهمل تفسير « وعلى الفلك تحملون »

(١) قلت : وكذلك فقد هيأ لعباده ويسر ركوب الهواء في الفلك الهوائية (الطيارات التي تقطع مسافات الأشهر العديدة بساعات قليلة،وذلك من منه وكرمه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلٰئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۞ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ۞ (٢٥) ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد وانتقامه ممن أشرك به وكذب رسله ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره أفلا تتقون ﴾ ألا تخافون من الله في إشراككم به فقال سادة قومه : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ أي يترفع عليكم بدعوى النبوّة وهو بشر مثلكم فكيف أوحي إليه من دونكم ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ أي لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أي ببعثة البشر ﴿في آبائنا الأولين • إن هو الا رجل به جِنّة ﴾ أي مجنون يزعم أن الله اختصه بالنبوة ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أصبروا عليه حتى يموت ، فتستريحوا منه .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۞ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ۞ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّانَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ ۞ (٢٩) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ۞ (٣٠) ﴾

استنصر نوح ربه تعالى كما قال تعالى : ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ وقال

ها هنا : ﴿ ربّ انصرني بما كذّبون ﴾ عندها أمره تعالى بصنع السفينة واتقانها وان يحمل فيها من كل زوجين اثنين أي ذكراً وأنثى من كلّ صنفٍ من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك وأن يحمل فيها أهله ﴿ إلاّ من سبق عليه القول منهم ﴾ أي وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته ، أما الذين آمنوا به فهم أهله .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ أي لا تأخذنك رأفة . بقومك الذين لم يؤمنوا بعدما بلّغوا فقد قضيتُ أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان وقد تقدمت القصة مبسوطةً في سورة هود بما أغنى عن إعادة ذلك هنا . وقوله تعالى : ﴿ فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ... وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ وقل رب أنزلني مُنزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾ ــ أي فكما أنه تعالى منّ عليه وقومه بالنجاة من الغرق وحمد الله أن نجاهم من قومه وأغرقهم كذلك علمه الله تعالى ان يدعو﴿ وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾ ــ وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي إن في هذا الصنيع من إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين لآياتٍ أي لحجَجاً ودلالات واضحاتٍ على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى ، وأنهً تعالى فاعل لما يشاء ، قادر على كل شيء عليم بكل شيء ، وقوله تعالى : ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ أي لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ۞ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞(٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۞ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ۞ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً



أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ۞ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۞ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۞ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ۞ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۞ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ۞ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٤١)

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين قيل هم عاد فانهم كانوا مستخلفين بعدهم وقيل : ثمود لقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق ﴾ وانه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم دعاهم إلى توحيده فكذبوه لأنه بشر مثلهم ، وأنكروا الآخرة والبعث الجثماني وقالوا : ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون ﴾ أي بعيداً جداً وقوع ذلك ﴿ ان هو إلاّ رجل افترى على الله كذباً ﴾ أي فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ﴿ وما نحن له بمؤمنين * قال رب انصرني بما كذبون ﴾ أي استنصر الرسول ربه عليهم ﴿ قال عما قليل ليُصبحنُ نادمين ﴾ بتكذيبهم لك ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق ﴾ أي استحقوا ذلك من الله بما كفروا وطغوا ، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة وريح صرصر عاصفة باردة ﴿ فجعلناهم غثاء ﴾ أي صرعَى هلكى كغثاء السيل ﴿ فبعداً للقوم الظالمين ﴾ أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسولهم ، فليحذر الذين نزل عليهم هذا القرآن وسمعوه أن يكذبوا رسولهم كيلا يحلّ بهم ما حل بأولئك ويتذكروا فتنفعهم الذكرى .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ ۞ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ۞ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ (٤٤)

يقول تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ أي أمماً وخلائق ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ بل يؤخذون حسب تقديره تعالى وعلمه خلفاً بعد سلف ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ أي تتتابع ﴿كلما جاء أمةً رسولُها كذبوه ﴾ يعني جمهورهم كقوله تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزئون ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ فأتبعنا بعضهم بعضاً ﴾ أي أهلكناهم ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ أي أخباراً وعبرة للناس. كقوله تعالى : ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ ۞ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ۞(٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۞ (٤٨) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۞ (٤٩) ﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون وقومه ، بالآيات الباهرات والحجج الدامغات فاستكبروا عن اتباعهما لأنهما بشران كما قال الأمم قبلهم فتشابهت قلوبهم ؛ فأهلك الله فرعون وملأه ، وأغرقهم أجمعين في يوم واحد وأنزل على موسى التوراة ، فيها أحكامه وأوامره ونواهيه ، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك الله أمةً بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمةً لعلهم يتذكرون ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۞ (٥٠) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله عيسى بن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء

من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من انثى بلا ذكر وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى ، وقوله تعالى : ﴿ وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ الربوة : المكان المرتفع من الأرض وهو أحسن ما يكون فيه النبات ، والمعين الماء الجاري وقيل أقوال شتى في تعيين هذا المكان ولكن بيت المقدس هو الأظهر والله أعلم .

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ * (٥٦) ﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل على ان الحلال عون على العمل الصالح فقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذا أتم قيام،فجزاهم الله عن العباد خيراً.قال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ قال : أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ، ولا حلوكم ولا حامضكم ، ولكن قال : انتهوا إلى الحلال منه.وفي الصحيح : ٢٦٦ [ان داود كان يأكل من كسب يده] وفي الصحيح : ٢٦٧ [« ما من نبي إلاّ رعى الغنم » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال « نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة »] .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٢٦٨ [يا أيها الناس إن الله طيّب لا يقبل إلاّ طيّباً ، وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، يمدّ يديه إلى السماء : يا رب يا رب فانيّ يستجاب لذلك] ورواه الإمام أحمد واللفظ له .

وقوله تعالى : ﴿ وان هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولهذا قال : ﴿ وأنا ربكم فاتقون ﴾ يعني أن المقصود عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله . وان قوله تعالى : ﴿ أمةً واحدةً ﴾ منصوب على الحال وقوله تعالى : ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُرا ﴾ أي الأمم التي بعثت اليهم الأنبياء ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون ، ولهذا قال متهدّداً ومتوعّداً : ﴿ فذرهم في غمرتهم ﴾ أي في غيّهم وضلالهم ﴿ حتى حين ﴾ أي حين هلاكهم كما قال تعالى : ﴿ فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدُّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ يعني أيظن هؤلاء المغرورون أن عطاءنا لهم،لكرامتهم علينا ؟ كلا ... فقد خاب رجاؤهم،بل هو استدراج وإملاء،ولهذا قال عزّ من قائل : ﴿ بل لا يشعرون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ... سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلاّ من آمن وعمل صالحاً ... ﴾ الآية .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۞ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۞ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۞ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتُوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۞ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۞ (٦١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ أي خائفون من الله مع ما أحسنوا وآمنوا وعملوا من الصالحات ، ووجلون من مكره بهم . قال الحسن البصري : ان المؤمن جمع إحساناً وشفقةً ، وان المنافق جمع إساءة وأمناً ﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ أي يصدقون فأيقنوا أن ما كان فعن قدره وقضائه،وما شرعه من أوامر فمما يحبها ويرضاها،وما كان من نواه فمِمّا يأباها ويكرهها ، وإن كان خيراً فهو حق . وقال سبحانه : ﴿ والذين هم بربهم لاَ يشركون ﴾ أي لا يعبدون معه غيره في جميع أنواع العبادة ويعلمون أن لا معبود إلاّ هو .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ أي يعطون وهم خائفون أن لا يتقبل منهم خوفاً من قيامهم بالعطاء على غير الشروط المطلوبة وهذا من باب الإشفاق والاحتياط. كما روى الإمام أحمد عن عائشة انها قالت :

٢٦٩ [يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة : هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : « لا يا بنت أبي بكر ، لا يا بنت الصديق ، ولكنه للذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل »] .

﴿ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ فجعلهم من السابقين — نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم وسائر المسلمين —

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۞ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ۞ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ۞ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ۞ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ۞ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ ۞ (٦٧) ﴾

يخبر تعالى عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا بما تطيق ويوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء ولهذا قال تعالى : ﴿ ولدينا كتاب ينطق بالحق ﴾ يعني كتاب الأعمال ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يبخسون من الخير شيئاً ، أما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير من عباده المؤمنين ثم أنكر على المشركين من قريش ﴿ بل قلوبهم في غمرة ﴾ أي في غفلة ﴿ من هذا ﴾ أي القرآن وقوله تعالى : ﴿ ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ﴾ أي لهم أعمال سيئة من دون شركهم لتحق عليهم كلمة العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾ يعني إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم إذا هم يصرخون ويستغيثون

﴿ لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ﴾ أي لا يجيركم أحد منا سَواء استغثتم أو سكتم فلقد وجب العذاب ؛ ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال عز من قائل : ﴿ قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ أي إذا دعيتم أبيتم ، واذا طُلبتم امتنعتم ، كما قال تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مستكبرين به سامراً تهجرون ﴾ أي مستكبرين بعمارة البيت وبكونه هم أهله ، يسمرون فيه بذكر القرآن بالهجر من الكلام : إنه سحر ، انه شعر ، إنه كهانة وبذكر النبي محمد ﷺ بالهجر من الكلام أيضاً : بأنه شاعر ، أوكاهن أو ساحرأوكذاب أومجنون فكل ذلك باطل . بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم ، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء ، فلا يعمر المشركون الحرم إلا بمثل هذا الكلام الخبيث وهذا ولا شك ليس إعماراً بل هدماً وهجراً له والعياذ بالله تعالى .

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۞ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۞ (٧٠) وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۞ (٧١) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ۞ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ (٧٣) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ۞ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ (٧٥) ﴾



ينكر تعالى على المشركين عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له ، وإعراضهم عنه ، رغم أنهم قد خُصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسله أكملَ منه ولا أشرف ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم ، بالقيام بشكرها وتفهمها

والعمل بمقتضاها دائماً ، كما فعله النجباء منهم ، ممن أسلم وأتبع رسول الله ﷺ ورضي عنهم ﴿أفلم يدّبروا القول﴾ إذا والله لوجدوا في القرآن زاجراً عن المعصية لو تدّبروه ولكنهم تركوه فهلكوا . ثم أنكر الله على كفار قريش : ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ أفهم لا يعرفون محمداً وصدقَه وأمانتَه وشهدوا له بذلك في الجاهلية والإسلام .

وقوله تعالى : ﴿أم يقولون به جنة﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقوّل القرآن وافتراه ، أو أن به جنوناً وهم يعلمون بطلان ما يقولونه وقد تحداهم الله وأهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولن يستطيعوا أبد الآبدين ، ولهذا قال تعالى : ﴿بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾ قال قتادة :

ذكر لنا ٢٧٠ [إن النبي ﷺ لقي رجلاً فقال له : « أسلم » فقال الرجل : إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره فقال نبي الله ﷺ « وان كنت كارها »] مرسل .

وقوله ﴿ولو اتبع الحق أهواءَهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ أي لو أجابهم الله تعالى إلى ما في أنفسهم من الهوى ، وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم في قولهم : ﴿لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ وإنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالىٰ وتقدس ولهذا قال تعالى : ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ أي القرآن ﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾ .

وقوله تعالى : ﴿أم تسألهم خرجاً﴾ أي أجراً وجعلاً ﴿فخراج ربك خير﴾ كقوله تعالى : ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاّ على رب العالمين﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وانك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ أي لمنحرفون زائغون . وقوله تعالى : ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرٍ للجّوا في طغيانهم يعمهون﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم وعنادهم وطغيانهم كما قال تعالى : ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون﴾ فهذا من باب علمه تعالىٰ بما لا يكون لو كان كيف يكون .

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ

إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَافُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد : ﴿ فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ أي فما ردّهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيّهم وضلالهم وما خشعوا وما دعوا متضرعين اليه تعالى كما قال سبحانه : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم ﴾ الآية . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال ٢٧١ [جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز — يعني الوبر والدم — فأنزل الله : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا ﴾ وأصله في الصحيحين: ٢٧٢ [ان رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال : « اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف »] .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴾ أي حتى إذا جاءهم أمر الله بقيام القيامة بغتة ، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أبلسوا من كل خير ويئسوا من كل راحة ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وهي العقول والفهوم التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى وانه الفاعل المختار لما يشاء .

وقوله تعالى : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ « أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين ﴾ ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في خلقه هذه الكائنات بما فيها من المخلوقات البشرية الذين أنشأهم الله في كافة أقطار الأرض ،على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة

يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم يعيدهم كما بدأهم. ولهذا قال : ﴿ وهو الذي يحي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾ أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي خضع له كل شيء. ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين : ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا ءإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ﴾ يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى ﴿ لقد وُعِدْنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ يعنون المعاد محال ، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين ، واختلافهم . وهذا إنكار وتكذيب منهم للبعث ، وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم : ﴿ أو لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾

﴿ قُلْ لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * (٩٠) ﴾

يقرر الله تعالى وحدانيته، وانفرادهُ بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلاّ هو ، ولا تنبغي العبادة إلاّ له وحده لا شريك له . ولهذا قال لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها ، إنما أشركوا معه في الإلهية فعبدوا معه غيره مع اعترافهم أن الذين عبدوهم عبادٌ له لا يملكون معه شيئاً ، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إلى الله زلفى كما أخبر تعالى . وقوله تعالى : ﴿ قل لمن الأرضُ ومن فيها إن كنتم تعلمون ﴾ أي من خلقها ومن عليها وسائر المخلوقات ﴿ سيقولون لله ﴾ أي يعترفون بأن الخلق كله لله ﴿ قل أفلا تذكرون ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلاّ للخالق الرازق لا لغيره ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾

أي من خالق العالم العلوي ومن هو رب العرش العظيم . والعرش هو سقف المخلوقات ، كما جاء في الحديث الذي رواه ابو داود عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٢٧٣ [... شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سمواته هكذا » وأشار بيده مثل القبة] وفي الحديث الاخر ٢٧٤ [ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وان الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة] . و ﴿ العظيم ﴾ أي الكبير . وقوله تعالى : ﴿ سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴾ وإذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات وربّ العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في إشراككم معه غيره ؟ وقوله تعالى : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ أي بيده الملك ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلاّ يفتات عليه ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ أي هو السيد العظيم الذي لا أعظم منه الذي له الخلق والأمر لا معقب لحكمه . الذي لا يمانع ولا يخالف وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وقال الله تعالى : ﴿ سيقولون لله ﴾ أي سيعترفون أنه تعالىٰ هو السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه لا شريك له . ﴿ قل فأنّىٰ تسحرون ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره،مع اعترافكم بكل ما له من صفات علىً .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله ، وأقمنا الأدلة القاطعة على ذلك ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال في آخر السورة ﴿ ومن يدعُ مع الله إلٰهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ فالمشركون لا يشركون عن حُجة ودليل إنّما تقليداً لآبائهم الجهال .كما قال الله عنهم ﴿ إنّا وجدنا آباءنا على أمة ونحن على آثارهم مقتدون ﴾ .

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ (٩١) عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (٩٢) ﴾

ينزّه الله تعالىٰ نفسه عن الولد والشريك في الربوبية والعبادة فقال عز من قائل : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلٰه إذاً لذهب كل إلٰه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ أي لو فرض تعدد الآلهة لانفرد كل إلٰه بما خلق فما كان ينتظم الوجود ،

والمشاهد أن الوجود في غاية الانتظام ، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر ومخالفته فيعلو بعض على بعض ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ أي عما يصفه الظالمون المعتدون بالولد أو الشريك علواً كبيراً ﴿ عالم الغيب والشهادة فتعالىٰ عما يشركون ﴾ أي تنزه وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون .

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾

يأمر الله نبيه محمداً ﷺ ان يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم : ﴿ رب إما تريني ما يوعدون ﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك ، فلا تجعلني فيهم كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وصححه : ٢٧٥ [واذا أردتَ بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون] وقوله تعالى : ﴿ وإنا على أن نُريك ما نعدهم لقادرون ﴾ أي لو شئنا لأريناك ما تحل بهم من النقم ثم قال تعالى مرشداً إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء اليه ليستجلبَ خاطره فتعودُ عداوتُه صداقةً فقال تعالى : ﴿ إدفع بالتي هي احسن السيئةَ ﴾ وهذا كما قال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ... » وقوله تعالى : ﴿ وقل ربِ أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ لما أمره بدفع الناس بالتي هي أحسن ، أمره تعالى أن يستعيذ به تعالىٰ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم وسيلة بالتي هي أحسن ولا ينقاد الشياطين بالمعروف فلا يدفع كيدهم إلا الله تعالىٰ : وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول : ٢٧٦ [أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه] وقوله تعالى : ﴿ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ أي في شيء من أمري ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور . ولهذا روى ابو داود : ٢٧٧ [إن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من الهدم ومن الغرق وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عندَ الموت] .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى ، وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ولهذا قال : ﴿ رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلاّ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوالنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ وسؤال الرجعة يسألونه في عدة مواطن : عند الاحتضار ، ويوم النشور ، ووقت العرض على الجبار ، وحين يعرضون على النار ، وهم في غمرات عذاب الجحيم ، كما تخبر بذلك الآيات الكريمة .

ولكن الله تعالىٰ يقول : ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ كلاّ حرف ردع وزجر أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه . وقوله تعالى : ﴿ إنها كلمة هو قائلها ﴾ كان يقول العلاء بن زياد يقول : لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله ، فليعمل بطاعة الله تعالى . وقال قتادة : والله ما تمنّىٰ إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله ، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ، ولا قوة إلا بالله .

وقال ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سوداءأُودهم ، حية عند رأسه ، وحية عند رجليه يقرصانه حتّى يلتقيا في وسطه فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ قال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة وفي قوله تعالى : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلىٰ يوم يبعثون ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ ، كما قال تعالى : ﴿ ومن ورائهم جهنم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن ورائهم عذاب غليظ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث ، كما جاء في الحديث ٢٧٨ [فلا يزال معذباً فيها] أي في الأرض (١) .

(١) قلت : إن قوله تعالى : « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » عدا عما يفهم منه أن وراء الكفار أو العاصين عذاب البرزخ ، فكذلك يفهم أيضاً ان البرزخ منحيث كون معناه (حاجزاً) بين الدنيا =

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۞ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۞ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۞ (١٠٤) ﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور من القبور ﴿ فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون ﴾ أي لا تنفع الأنساب يومئذ حتى ولا ينظر والد لولده وهو يبصره ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره وهو كان أعزّ الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة قال الله تعالى : ﴿ يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقّه قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وان كان صغيراً ومصداق ذلك في كتاب الله قال الله تعالىٰ : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ رواه ابن أبي حاتم . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : ٢٧٩ [سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر : « ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلى والله إن رَحمي موصولة في الدنيا والآخرة وإني أيها الناس فرط لكم إذا جئتم قال رجل : يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم : « أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقري »] وقوله تعالى : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ أي من رجحت حسناته على سيئآته ولو بواحدة قاله ابن عباس ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أي الذين فازوا فنجوا من النار وادخلوا الجنة ﴿ ومن خفت موازينه ﴾ أي رجحت سيئآته على حسناته ، ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة ﴿ في جهنم خالدون ﴾ أي دائمون فلا يظعنون ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين

= والآخرة هو حاجز بين أهل الدنيا وأهل القبور ولا يجوز أن يلتقي هؤلاء بهؤلاء إلى يوم القيامة بمعنى أنه لا رجعة للأموات إلى الدنيا فإذا فهم هذا من كلام الله تعالى ، فينتفي أن يستطيع أحد من الأموات أن يغيث أحداً استغاثه من أهل الدنيا كما يدعي المشعوذون وأهل الخرافات ، لأن الاستغاثة بغير الله تعالى شرك والعياذ بالله تعالى وان العودة مستحيلة بنص هذه الآية .

لا يُكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ روى ابن مردويه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ٢٨٠ [قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ قال : « تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم »] وقوله تعالى : ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ روى الامام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : [﴿ وهم فيها كالحون ﴾ ٢٨١ قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرّته] .

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ۞ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۞ (١٠٧)

هذا توبيخ من الله لأهل الكفر والمآثم فقال تعالى : ﴿ ألم تكن آياتي تتلىٰ عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ أي قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت إليكم الكتب ، وأزلت شبهكم،ولم يبق لكم حجة.كما قال تعالى : ﴿ لئلاّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ولهذا قالوا : ﴿ ربنا غلبتْ علينا شقوتنا وكنّا قوماً ضالّين ﴾ أي قد قامت علينا الحجة ، ولكن كنّا أشقىٰ من أن ننقاد لها ونتبعها ، فضللنا عنها ولم نُرزَقها ثم قالوا : ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدْنا فإنا ظالمون ﴾ أي أردُدْنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منّا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة . كما قال تعالى : ﴿ فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ــ إلى قوله تعالى ــ فالحكم لله العلي الكبير ﴾ أي لا سبيل إلى الخروج لأنكم قوم كنتم تشركون بالله إذا وحّده المؤمنون .

قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۞ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۞ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۞ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ۞ (١١١)

هذا جواب من الله تعالىٰ للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار. يقول تعالىٰ: ﴿ إخسأوا فيها ﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين اذلاء ﴿ ولا تكلمون ﴾ أي لا تعودوا إلى سؤآلكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي. قال عبد الله بن عمرو: فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق، رواه ابن أبي حاتم وروى أيضاً عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿ إخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال: ... فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد. ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه. فقال تعالى: ﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ۝ فاتخذتموهم سخرياً ﴾ أي فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إليَّ: ﴿ حتى أنسوكم ذكري ﴾ أي حملكم بغضهم على أن أنسيتم معاملتي ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾ أي من صنيعهم وعبادتهم. كما قال تعالى: ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مرّوا بهم يتغامزون ﴾ أي يلمزونهم استهزاءً ثم أخبر تعالىٰ عما جازىٰ به أولياءه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ أي جزيتهم الجنّة، ونجيتهم من النار بما صبروا على أذاكم لهم واستهزائكم بهم.

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَادِّينَ ۝ (١١٣) قَالَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ (١١٥) فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝ (١١٦) ﴾

ينبه تعالى هؤلاء على ما أضاعوه من طاعة الله تعالىٰ في عمرهم القصير في الدنيا وعبادته وحده لا شريك له، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿ قال كم لبثم في الأرض عدد سنين ﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين ﴾ أي الحاسبين ﴿ قال إن لبثم إلا قليلاً ﴾ أي مدةً يسيرةً على كل تقدير ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ لما آثرتم الفاني على الباقي ولما تصرفتم

هذا التصرّف السيء ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة . روى ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي يخطب الناس فقال : قال رسول الله ﷺ ٢٨٢ [إنّ الله إذا أدخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار ، قال : يا أهل الجنّة كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم – قال – لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي ورضواني وجنّتي امكثوا فيها خالدين مخلّدين ثم قال : يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فيقول بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ، ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين مخلّدين] وقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً ﴾ أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا . وقيل في تفسيرها : أي للعبث أي لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿ وأنكم إلينا لا تُرجعون ﴾ أي لا تعودون في الدار الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ أيحسب الانسان ان يترك سدى ﴾ يعني هملاً .

روى أبو نعيم عن إبراهيم بن الحارث قال : ٢٨٣ [بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا : ﴿ أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ قال : فقرأناها فغنمنا وسلمنا] .

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ أي تقدَّس وتنزه عن أن يخلق شيئاً عبثاً فإنه الملك الحق المنزّه عن العبث ﴿ لا إلَه إلا هو رب العرش الكريم ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهيّ الشكل .

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٨٤ [أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا السفينة باسم الله الملك الحق ، وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، باسم الله مجراها ومرساها ، إنّ ربّي لغفورٌ رحيم] .

۞ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً ءَاخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ ۞ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ ۞ (١١٨) ۞

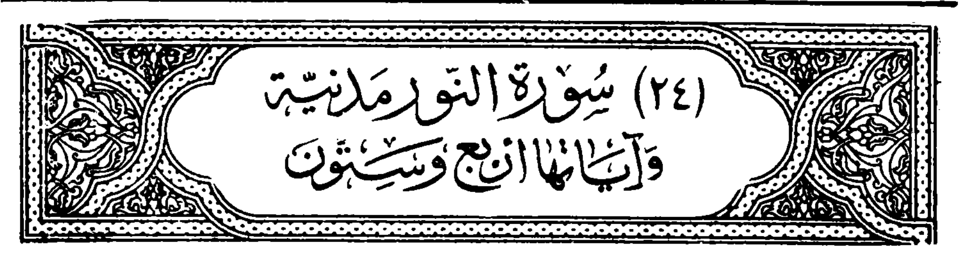
يتوعّد الله من أشرك به غيره ، وعبد معه سواه ويخبر ان من أشرك بالله بلا برهان له على قوله فقال عز من قائل : ﴿ ومن يدعُ مع الله إلٰها آخر لا برهان له به ﴾ وهذه جملة معترضة ، وجواب الشرط في قوله تعالى : ﴿ فإنما حسابه عند ربه ﴾ أي والله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر : ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ أي لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاح ولا نجاة .

قال قتادة : ٢٨٥ [ذكر لنا ان نبي الله ﷺ قال لرجل : ما تعبد قال : أعبد الله ، وكذا وكذا حتى عدّ أصناماً ؛ فقال رسول الله ﷺ : « فأيهم إذا أصابك ضرّ فدعوته كشفه عنك ؟ » قال : الله عز وجل . قال : « فأيهم إذا كانتْ لك حاجة فدعوتَه فأعطاكَها » قال : الله عز وجل ، قال : « فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه ؟ » قال : أردت أن أشكره بعبادة هؤلاء معه ؛ فقال رسول الله ﷺ : « تعلمون ولا يعلمون » فقال الرجل بعدما أسلم : لقيت رجلاً خصمني] هذا مرسل من هذا الوجه وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله ﷺ نحو ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خيرُ الراحمين ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس ، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال .

آخر اختصار تفسير سورة المؤمنون ولله الحمد والمنّة

١٣٩٠/١/٥ و ١٩٧٠/٣/١٢



(٢٤) سورة النور مدنية وآياتها أربع وستون

نزلت بعد الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ (٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ سورة أنزلناها ﴾ أي هذه السورة أنزلناها ؛ فيه تنبيه على الاعتناء بها ، ولا ينفي هذا الاعتناء عما عداها من السور ﴿ وفرضناها ﴾ أي بينّا الحلالَ والحرامَ والأمرَ والنهي والحدود . ﴿ وأنزلنا فيها آياتٍ بيناتٍ ﴾ أي مفسراتٍ واضحات ﴿لعلكم تذكرون ﴾ ثم قال : ﴿ الزانيةُ والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد . وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ؛ فإن الزاني إمّا أن يكون بكراً أي غير متزوج فحدُّه مائة جلدة كما في الآية ... وتغريب عام عن بلده عند جمهور العلماء خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله لأن التغريب أو عدمه متروك لرأي الإمام عند أبي حنيفة ، على أن حجة الجمهور وهو ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما :

٢٨٦ [يا رسول الله إنّ ابني هذا كان عسيفاً – يعني أجيراً – على هذا فزنى بامرأته فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلدمائة وتغريب عام وان على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده

لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى . الوليدة والغنم ردٌّ عليك ، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام ، واغدُ يا أنيس – لرجل بن أسلم – إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها] فغدا إليها فاعترفت فرجمها . وفي هذا أدلة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج . فأما إذا كان محصناً ، وهو الذي قد وطيء في نكاح صحيح وهو حرّ بالغ عاقل فإنه يرجم .كما روى مالك رحمه الله عن عمر بن الخطاب : ٢٨٧ [انه قام فحمد الله وأثنىٰ عليه ، ثم قال : أما بعد أيها الناس فإن الله تعالىٰ بعث محمد ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها ، ورجمَ رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشىٰ أن يطول بالناس زمان ان يقول قائل لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلّوا بترك فريضةٍ قد أنزلها الله فالرجم في كتاب الله حق على من زنىٰ إذا أحصن من الرجال ومن النساء إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف] أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً وقد اقتطفنا منه ما ثبت به مقصودنا ههنا .

روى الحافظ ابو يعلي الموصلي عن كثير بن الصلت قال : ٢٨٨ [كنا عند مروان وفينا زيد ، فقال زيد بن ثابت ، كنا نقرأ : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، قال مروان : ألا كتبتها في المصحف ؟ قال : ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب ، فقال : أنا أشفيكم من ذلك قال : قلنا فكيف ؟ قال جاء رجل إلى النبي ﷺ : قال فذكر كذا وكذا وذكر الرجم ، فقال يا رسول الله اكتب لي آية الرجم ، **قال** : « لا أستطيع الآن »] هذا أو نحو ذلك وقد رواه النسائي وقد روينا طرقاً متعددة متعاضدة ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة ، فنسخ تلاوتها ، وبقي حكمها معمولاً به ، والله أعلم .

وقد روي الجمع على الزاني المحصن بين الجلد مائة للآية والرجم للسنّة وذلك من رواية أهل السنن الأربعة ومسلم عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٨٩ [خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم] . على ان رسول الله ﷺ ، أمر برجم المرأة التي زنىٰ بها العسيف ورجم ماعزاً والغامدية ولم ينقل عنه ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم [1] .

---

(١) قلت : لعل حديث الجمع بين الجلد والرجم للمحصن منسوخ بدليل أنه صلى الله عليه وسلم لم يطبقه لأن قوله صلى الله عايه وسلم « لقد جعل الله لهن سبيلا » فهذه قالها لما كان جزاء الزانية الإمساك في البيوت حتى يتوفاهن الله أو يجعل الله لهن سبيلا كما في سورة النساء الآية /١٥/ وهكذا يتضح ان الحديث جاء بعد هذه الآية لقوله صلى الله عليه وسلم قد جعل الله لهن سبيلا «فظهر ان الحديث متقدم على تطبيقه الرجم بحق =

وانما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ ، بالاقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد . وقوله تعالى : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ أي في حكم الله أي لا ترأفوا بهما في شرع الله أي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد . وفي الحديث ٢٩٠ : [لحدٌّ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا اربعين صباحاً] وقال ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها ، قال نافع : أراه قال وظهرها قال قلت : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ قال : يا بنيَّ ورأيتَني أخذَتني بها رأفة ان الله لم يأمرني أن اقتلها ، ولا أن اجعل جلْدها في رأسها ، وقد أوجعت حين ضربتها . وقوله تعالى : ﴿ ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنىٰ وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرحاً ، ليرتدعَ هو ومن يصنع مثله ذلك . وقوله تعالىٰ : ﴿ وليشهد عذابُهما طائفة من المؤمنين ﴾ يعني علانيةً بحضرة الناس وذلك أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما وانّ في ذلك تقريعاً وتوبيخاً وفضيحةً إذا كان الناس حضوراً ، وقيل : ليس ذلك للفضيحة انما ذلك ليدعى اللهُ تعالى لهما بالتوبة والرحمة .[1]

﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۞ (٣) ﴾

هذا خبر الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة أي لا يطاوعه على مراده من الزنا إلاّ زانية عاصية ، أو مشركة لا ترى حرمة ذلك وكذلك ﴿ الزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك ﴾ أي زان عاص بزناه أو مشرك لا يعتقد تحريمه قال سفيان الثوري عن ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة ﴾ قال : ليس هذا بنكاح إنما هو الجماع ، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك ، وهذا اسناد صحيح عنه وكذلك روي عن جماعة من التابعين .

وقوله تعالى : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ أي تعاطيه والتزوج بالبغايا ، أو تزويج

= المرأة التي زنىٰ بها العسيف وبحق ما عز والغامدية وعلى قوله لأنيس « أغد إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» لهذا كله فمن المحتمل بل من الراجح أن يكون حديث الجمع بين الجلد والرجم للمحصن منسوخاً ولذلك كان هذا مذهب جمهور العلماء وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله ، أما أحمد فمذهبه الجمع ، للحديث المتقدم بالجمع .

(١) قلت : وللعظة والاعتبار لأن الحد أنفى للجرم ، وإظهاراً لحكم الله ، وإعزازاً للشرع وأهله .

العفائف بالرجال الفجار ، وهذه الآية كقوله تعالىٰ : ﴿ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾ وقوله ﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ الآية ، ولذا فعند أحمد لا يصح عقد الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتّى تستتاب ، فإن تابت صحّ العقد وإلاّ فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة العفيفة بالرجل الفاجر والمسافح حتّى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ٢٩١ [ان رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه ، قال فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها قال : فقرأ عليه رسول الله ﷺ : ﴿ الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين »] ورواه الترمذي والنسائي قال الترمذي حسن غريب ورواه أبو داود .

روى ابن حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٢٩٢ [لا ينكح الزاني المجلودُ إلا مثلَه] وهكذا أخرجه أبو داود في سننه .

روى الامام أحمد عن عبد الله بن عمر ان رسول الله ﷺ قال : ٢٩٣ [ثلاثة حرم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق لوالديه ، والذي يُقر في أهله الخبث] .

وأما إذا حصلت توبة فإنه يحلّ التزويج ، كما روى الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله عن شعبة مولى ابن عباس رضي الله عنه قال سمعت ابن عباس وسأله رجل فقال : ٢٩٤ [إني كنت ألمُّ بأمرأة آتي منها ما حرم الله عز وجل علي ح فرزق الله عز وجل من ذلك توبةً فأردت أن اتزوجها ، فقال أناس : إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، فقال ابن عباس : ليس هذا من هذا ، [إنكحها فما كان من أثم فعليَّ] .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ۞ (٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٥) ﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهي الحرة البالغة

العفيفة ، فإذا كان المقذوف رجلاً كذلك يجلد قاذفه أيضاً ، وليس فيه نزاع بين العلماء فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد . ولهذا قال تعالى: ﴿ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾ فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ، ثلاثة أحكام : « أحدها » أن يجلد ثمانين جلدة . « الثاني » أنه ترد شهادته أبداً . « الثالث » أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس .

ثم قال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ الآية واختلف العلماء في هذا الاستثناء هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط ، فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ وأما الجلد فقد ذهب وانقضى سواءً تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف ، فذهب الأئمة الثلاثة إلى أنه اذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق ، ونص عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً ، وقال الإمام أبو حنيفة إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً ، وممن ذهب إليه من السلف القاضي شريح وابراهيم النخعي وسعيد بن جبير وغيرهم ، قال الشعبي والضحاك لا تقبل شهادته وان تاب إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان فحينئذٍ تقبل شهادته [1] والله أعلم .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۝(٦) وَٱلْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ۝(٧) وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ۝(٨)

(١) قلت : فيما يبدو والله أعلم أن تقرير الجمهور في قبول شهادته لا شك أنه أقرب إلى الصواب من قول أبي حنيفة برد شهادته أبداً لأن الاستثناء جاء عاماً والتخصيص يحتاج إلى دليل ثم لا يبقى معنى لقوله تعالى ... (فإن الله غفور رحيم) فأين المغفرة والرحمة أن بقي مردود الشهادة أبداً ...؟!! وكيف يقر على نفسه بالبهتان وهو لم يبهت ولم يكذب وقد رأى الفعل عياناً فكيف يتهم نفسه بالبهتان وهو لم يبهت بل إذا أقر على نفسه بالبهتان يكون قد كذب بالفعل على نفسه لأنه صادق برؤيته ولكنه اخطأ فكان عليه أن لا يدلي بشهادته قبل أن يدلي بها ثلاثة قبله وإلا فالجلد جزاؤه على تفريطه وهو العدل .

وَٱلْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۞ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۞ (١٠)

في هذه الآية الكريمة فرج للأزواج ، وزيادة مخرج اذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة ، أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل ، فيحلّفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين أي فيما رماها به من الزنا ﴿ والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ﴾ عندها تبين منه بهذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء وتحرم عليه أبدا ، ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به ﴿ والخامسة ان غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ ويدرأ عنها العذاب ﴾ يعني الحد ، ﴿ ان تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ فخصها بالغضب ، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهي تعلم صدقه فيما رماها به ، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها ، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه . ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرَج والمخرَج ، من شدة ما يكون بهم من الضيق ، فقال تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ أي يشق عليكم كثير من أموركم ﴿ وأن الله توّاب ﴾ أي على عباده ، وان كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿ حكيم ﴾ فيما شرعه وأمر به ، ونهى عنه وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت **فيه من الصحابة**، نقتصر منها على ما جاء في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وما رواه البخاري عن ابن عبـــاس والنسائي في التفسير من حديث عبد الملك ابن أبي سليمان والامام أحمد عن سعيد بن جبير قال :

٢٩٥ [سئلت عن المتلاعنين أيفرق بينهما في إمارة ابن الزبير فما دريت ما أقول ، فقمت من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلت : يا أبا عبد الرحمن ، المتلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال : سبحان الله إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال : يا رسول الله أرأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تكلم تكلم بأمر عظيم ، وان سكت سكت على مثل ذلك فسكت فلم يجبه، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال: الذي سألتك عنه قد ابتليت به]

فأنزل الله تعالى هذه الآيات في سورة النور : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ حتى بلغ ﴿ أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ فبدأ بالرجل فوعظه وذكره ، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقال : والذي بعثك بالحق ما كذبت ، ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها ، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقالت المرأة : والذي بعثك بالحق إنه لكاذب . قال فبدأ بالرجل فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ثم ثنى بالمرأة ، فشهدت أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ثم فرق بينها] رواه النسائي وأخرجاه في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس .

روى البخاري عن ابن عباس : ٢٩٦ [ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء ، فقال النبي ﷺ : « البينة أو حدٌ في ظهرك » فقال يا رسول الله إذا أرى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي ﷺ يقول : « البينة أو حدٌ في ظهرك » فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد ، فنزل جبريل وأنزل عليه : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ ... ان كان من الصادقين ﴾ فانصرف النبي ﷺ ، فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد والنبي ﷺ يقول : « ان الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟ » ثم قامت فشهدت فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا : إنها موجبة ، قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت ، فقال النبي ﷺ : « أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء » فجاءت به كذلك ، فقال النبي ﷺ « لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن »] انفرد به البخاري من هذا الوجه وقد رواه من غير وجه عن ابن عباس وغيره .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١١)

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوهُ من الكذب البحت والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيّه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله براءتها صيانةً لعرض الرسول ﷺ فقال تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ وكان المقدّم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلّموا به وجوزه آخرون منهم ، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن ، وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة :

قال الإمام أحمد عن الزهري قال : أخبرني سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله تعالى ، وكلهم قد حدثني بطائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصاً ، وقد وعيت عن كل رجل فهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضاً ، ذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : ٢٩٧ [كان رسول الله ﷺ اذا أراد أن يخرج لسفر أقرعَ بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمُها ، خرج بها رسول الله ﷺ معه قالت عائشة رضي الله عنها : فأقرعَ بيننا في غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمي ، وخرجتُ مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعدما نزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتى اذا فرغ رسول لله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلةً بالرحيل فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري ، فاذا عقدلي من جذع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي ، فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعير الذي كنت أركب ، وهم يحسبون أني فيه ، قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن ولم يغشهن اللحم ، انما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جاريةً حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون لي ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان رآني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه

حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني كلمةً ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته ، فوطىء على يدها فركبتها فانطلق يقودني الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولىٰ كبره عبد الله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الأفك ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أني لا أرىٰ رسول الله ﷺ اللطف الذي أرىٰ منه حين اشتكي ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : « كيف تيكم » ؟ فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهتُ ، وخرجتْ معي أم مِسطَح قِبَلَ المناصع وهو متبرَّ زنا ، ولا نخرج إلاَّ ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية وكنا نتأذى بالكُنُفِ ان نتخذها في بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب ، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح ، قِبلَ بيتي حين فرغنا من شأننا ، فعثرتْ أم مُسْطِح في مرطها ، فقالت تعس مسطح ، فقلت لها : بئسما قلتِ تَسُبِّينَ رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت : أي هنتاه ألم تسمعي ما قال ؟ قلت وماذا قال ؟ قالت فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي دخل رسول الله ﷺ ، فسلّم ثم قال : « كيف تيكم ؟ » فقلت له : أتاذن لي أن آتي ابويّ ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي رسول الله ﷺ ، فجئت أبويّ فقلت لأمي : يا أمتاه لماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أي بنية هوّني عليكِ ، فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلاَّ أكثرنَ عليها . قالت : فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بها ، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي قالت : فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الودّ ؛ فقال أسامة : يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً . وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لمَ يضيق اللهُ عليك والنساءُ سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر . قالت : فدعا رسولُ الله ﷺ بريرة فقال : « أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ » فقالت له بريرة ، والذي بعثك بالحق ان رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة

السن ، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله . فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي » فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ان كان من الأوس ضربنا عنقه ، وان كان من أخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ : كذبتَ لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنّه ، فانك منافق تجادل عن المنافق ، فتثاور الحيان : الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، وسكت رسول الله ﷺ قالت : وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي ، قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنتْ عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي ، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ، فسلم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل... وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء قالت : فتشهد رسول الله حين جلس ، ثم قال : « أما بعد يا عائشة فانه قد بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فان العبد اذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه » قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته ، قلص دمعي حتى ما أحسّ منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب عني رسول الله فقال والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمي : أجيبي عني رسول الله ﷺ ، فقالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن والله لقد علمت ، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني ، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقنّي ؛ فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، قالت : وأنا والله أعلم حينئذٍ أني بريئة وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيٌ يتلى ، ولشأني كان أحقر في

نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلىٰ ، ولكن كنت أرجو أن يرىٰ رسول الله ﷺ ، في النوم رؤيا يبرئني الله بها ، قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه . قالت : فسّريَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها ان قال : « أبشري يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأكِ » قالت : فقالت لي أمي : قومي إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي ، وأنزل الله تعالىٰ عز وجل ﴿ ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ العشر الآيات كلها ، فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق علىٰ مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى ﴿ ولا يأتلِ أولو الفضل منكم والسعة أن يُؤتوا أولي القربىٰ ــ إلى قوله ــ ألا تُحبون أن يغفرَ الله لكم والله غفور رحيم ﴾ فقال أبو بكر : بلىٰ والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري فقال : « يا زينب ماذا علمت ورأيت ؟ » فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت إلا خيرا . قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع . وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك] أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث الزهري .

روى الامام أحمد عن عائشة قالت : لما نزل عذري ٢٩٨ [قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدّهم] ورواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي هذا حديث حسن ، ووقع عند أبي داود تسميتهم : حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش .

فقوله تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك ﴾ أي الكذب والبهت والافتراء ﴿ عصبة ﴾ أي جماعة منكم ﴿ لا تحسبوه شراً لكم ﴾ أي يا آل أبي بكر ﴿ بل هو خير لكم ﴾ أي في الدنيا والآخرة لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة واظهار شرفٍ لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم ﴿ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ الآية ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنها وهي في سياق الموت ، قال لها : أبشري فانك زوجة رسول الله

ﷺ ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرَك ، و نزلت براءتك من السماء وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما فقالت زينب أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة : انا التي نزل عذري في كتاب الله .

وقوله تعالى : ﴿ لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ﴾ أي لكلٍ من تكلم في هذه القضيّة ورمىٰ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة ، نصيب عظيم من العذاب ﴿ والذي تولىّ كبرَه منهم ﴾ قيل ابتدأ به ، وقيل الذي كان يجمعه ويستوشيه ، ويذيعه ويشيعه ﴿ له عذاب عظيم ﴾ أي على ذلك والمقصود بذلك هو عبد الله بن أبي بن سلول قبحه الله تعالىٰ ولعنه .

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ۞ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولٰئِكَ عِنْدَ ٱللهِ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ ۞ (١٣) ﴾

هذا تأديب من الله تعالىٰ للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء ، فقال تعالىٰ : ﴿ لولا ﴾ يعني هلاّ ﴿ إذ سمعتموه ﴾ أي كلام الإفك ﴿ ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى ، نزلت في أبي أيوب الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما فإن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها ؟ قال : نعم وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله ، قال : فعائشة والله خير منكِ فذلك قوله تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إفك مبين ﴾ كما قال أبو أيوب وصاحبته .

قال الله تعالى : ﴿ لولا ﴾ أي هلاّ ﴿ جاءوا عليه ﴾ أي على ما قالوه ﴿ بأربعة شهداء ﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به ﴿ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ أي في حكم الله كاذبون فاجرون .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ❁ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ❁ (١٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة ﴾ يا أيها الخائضون في شأن عائشة بأن قبل توبتكم وانابتكم اليه في الدنيا وعفاعنكم في الآخرة من أجل إيمانكم ، ولولا فضل الله عليكم بهذه التوبة وقبولها ﴿ لمسّكم فيما أفضتم فيه ﴾ من قضية الإفك ﴿ عذاب عظيم ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة ، كمسطح وحسان وحمنة . فأما من خاض من المنافقين كعبد الله بن أبي ابن سلول واضرابه فليس أولئك المقصودين من هذه الآية ، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا الفضل من الله تعالى على التائبين .

ثم قال تعالى : ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ﴾ أي يرويه بعضكم عن بعض وفي صحيح البخاري عن عائشة انها كانت تقرأها ﴿ إذ تَلِقُونَهُ بألسنتكم ﴾ وتقول : هو من ولق اللسان . يعني الكذب الذي يستمر صاحبه عليه ، تقول العرب : ولق فلان في السير إذا استمر فيه والقراءة الأولى : ﴿ إذْ تَلَقَّوْنَهُ ... ﴾ أشهر وعليها الجمهور ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة قال ابن أبي حاتم عن ابن عمر عن عائشة انها كانت تقرأ : ﴿ إذ تَلِقُونَهُ ﴾ قال ابن أبي مليكة : هي أعلم به من غيرها .

وقوله تعالى : ﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ﴾ أي تقولون ما لا تعلمون .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ أي تحسبون ذلك يسيراً سهلاً ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً ، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا ، وهو سبحانه وتعالى لا يقدر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء! ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ وفي الصحيحين : ٢٩٩ [إنَّ الرجل ليتكلم

بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ ، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض] وفي رواية : [لا يلقي لها بالاً] .

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۝(١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝(١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝(١٨) ﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير ، إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن المؤمنين فالأولى ينبغي الظن بهم خيراً ، وإن علق بنفسه شيء ، فلا ينبغي أن يتكلم به لقوله ﷺ : ٣٠٠ [ان الله تعالى لمجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل] أخرجاه في الصحيحين . وقال الله تعالى : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله .

ثم قال تعالى : ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ﴾ أي يتوعدكم الله أن يقع منكم مثل هذا في المستقبل ، ولهذا قال : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي ان كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله ﷺ ، فأما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ويبين الله لكم الآيات ﴾ أي يوضح لكم الأحكام الشرعية ، والحِكَم القدرية ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بما يصلح عباده ، حكيم في شرعه وقدره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝(١٩) ﴾

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيء ، فلا يشيعه ولا يذيعه فقد قال تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ﴾ أي يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ﴿ لهم عذاب أليم في الدنيا ﴾ أي بالحد ، وفي الآخرة بالعذاب ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أي فردوا الأمور إليه ترشدوا . روى الإمام أحمد عن

ثوبان عن النبي ﷺ قال : ٣٠١ [لا تؤذوا عباد الله ولا تعيّروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته] .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ (٢٠) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ (٢١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤوف رحيم ﴾ لولا ان قبل الله توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا لكان أمراً آخر ، ولكنه تعالىٰ رؤوف بعباده فتاب على من تاب إليه ، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم ، ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أي مسالكه وما يأمر به ﴿ ومن يتبعْ خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ هذا تنفير وتحذير بأفصح عبارة وأبلغها ﴿ خطوات الشيطان ﴾ كل معصية فهي من خطوات الشيطان .

ثم قال تعالى : ﴿ ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكىٰ منكم من أحد أبداً ﴾ أي لولا أن رزقكم التوبة وزكىٰ نفوسكم من شركها لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً ﴿ ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ من خلقه ، ويضلّ من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغيّ . وقوله تعالىٰ : ﴿ والله سميع ﴾ أي لأقوال عباده ﴿ عليم ﴾ بمن يستحق منهم الهدىٰ أو الضلال .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنْكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ (٢٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ولا يأتل﴾ أي لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم﴾ أي أهل الصدقة ﴿والسعة﴾ أي الغنى ﴿أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي لا تحلفوا أن لا تَصِلوا قراباتِكم المساكين والمهاجرين . وهذا في غاية الترفق ، والعطف على الأرحام ، ولهذا قال تعالىٰ ﴿وليعفوا وليصفحوا﴾ أي عمّا تقدّم منهم من الأساءة والأذى ، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم ، وهذه الآيات نزلت في الصدّيق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبداً بعدما قال عن عائشة ما قال ، كما تقدم في الحديث ، فلما نزلت براءة عائشة أم المؤمنين وطابت نفوس المؤمنين واستقرت ، وتاب الله على من تكلم من المؤمنين في ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه ، شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة ، يعطّف الصدّيقَ على قريبه وابنِ خالته مسطح بن أثاثة وكان مسكيناً لا مال له إلاّ ما ينفق عليه ابو بكر رضي الله عنه ، وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد زلق وتاب وضرب الحد عليها ومعروف أبو بكر بالمعروف والأيادي على الأقارب والأجانب وسمع قوله تعالى : ﴿ألا تحبون أن يغفِرَ الله لكم﴾ الآية فقال الصديق : بلى والله وإنا نحب أن تغفر لنا يا ربّنا، ثم أرجَعَ إلى مسطح صلتَه وقال: والله لا أنزِعُها منه أبداً. ولهذا كان صِدّيقاً رضي الله عنه وعن بنته ، - فهي البريئة المبرأة الطاهرة ، وزوجة اشرف مخلوق في السموات والأرض - عصمها الله وسائر زوجاته ﷺ بعصمته من الزنا وكذلك زوجات وأمهات سائر الأنبياء والمرسلين وهذا من تمام عصمتهم عليهم الصلاة والسلام -[١] .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝ (٢٥)﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات ، خرج مخرج الغالب المؤمنات ، فأمهات المؤمنين أولىٰ بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولا سيما التي كانت سبب النزول ، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما ، وقد أجمع العلماء

(١) هذا الكلام الذي بين الخطين - ... - من كلامي .

رحمهم الله قاطبة على أن من سبّها بعد هذا ورماها بما رماهـا به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن ، وبقية أمهات المؤمنين لهنّ حكمها وقوله تعالى ﴿ لعنوا في الدنيا والآخرة ﴾ الآية كقوله تعالى : ﴿ ان الذين يؤذون الله ورسوله ﴾ الآية وقيل أنها نزلت خاصة في عائشة رضي الله عنها والصحيح إنها وان نزلت خاصة بعائشة إنما لهاحكم العموم فهي عامة في تحريم قذف كل محصنة غافلة مؤمنة ، وليس في هذه الآية ان الحكم خاص بها رضي الله عنها وانما فيه أنها سبب النزول دون غيرها وان كان الحكم يعمها كغيرها .

ويعضد تعميم الحكم ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ : ٣٠٢ [« إجتنبوا السبع الموبقات » قيل وما هنّ يا رسول الله ؟ قال : « الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »] . أخرجاه في الصحيحين من حديث سلمان بن بلال به . روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن حذيفة عن النبي ﷺ قال : ٣٠٣ [قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة] .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : انهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا : تعالوا حتى نجحد فيجحدون ، فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً . وروى ابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : ٣٠٤ [اذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد ويخاصم ، فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول : كذبوا ، فيقال أهلك وعشيرتك ، فيقول كذبوا ، فيقال : إحلفوا ، ثم يصمهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ، ثم يدخلهم النار] . وفي رواية مسلم والنسائي ٣٠٥ [... فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكُنّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل] .

وقوله تعالى : ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ قال ابن عباس : ﴿ دينهم ﴾ أي حسابهم [١] .

---

(١) ومن ذلك « يوم الدين » أي يوم الحساب .

وقوله تعالى : ﴿ ويعلمون ان الله هو الحق المبين﴾ أي وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه .

﴿ ٱلْخَبِيثَـاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـاتِ وَٱلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۞ (٢٦) ﴾

نزلت في عائشة وأهل الإفك قاله ابن عباس وجماعة من التابعين والمعنى بأن الكلام القبيح أولىٰ بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولىٰ بالطيبين من الناس ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام ، هم أولىٰ به ، وهي أولىٰ بالبراءة والنزاهة منهم ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ أولئك مبرّأون مما يقولون ﴾ أي ما كان الله ليجعل عائشة زوجةً لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة لأنه أطيب من كل طيبٍ من البشر ، ولو كانت خبيثةً لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً.ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك مبرأون مما يقولون ﴾ أي هم بُعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿ لهم مغفرة ﴾ أي بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ ورزق كريم ﴾ أي عند الله في جنات النعيم ، وفيه وعد أن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنّة .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞(٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۞ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۞ (٢٩) ﴾

هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك في الاستئذان . أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا ، أي يستأذنوا قبل الدخول ، ويسلموا بعده ،

وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات فإن أذن له ، وإلا انصرف ، كما ثبت في الصحيح ٣٠٦ [ان أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ إئذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي ، وإني سمعت النبي ﷺ يقول : « اذا استأذن أحدكم فلم يؤذن له فلينصرف » فقال عمر : لتأتيني على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضرباً . فذهب إلى ملأ الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا لا يشهد لك إلا اصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك فقال ألهاني عنه الصفق بالأسواق] .

روى الإمام أحمد عن أنس أو غيره ٣٠٧ [ان النبي ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السلام عليك ورحمة الله » فقال سعد وعليك السلام ورحمة الله ، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً ، وردّ عليه سعد ثلاثاً ولم يسمعه فرجع النبي ﷺ فاتبعه سعد فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، ما سلّمت تسليمة إلا وهي بأذني ، ولقد رددتُ عليك ولم أُسمعْكَ وأردتُ أن استكثر من سلامك ومن البركة ، ثم أدخلهُ البيت فقرب اليه زبيباً فأكل نبي الله فلما فرغ قال : «أكل طعامكم الأبرار وصلّت عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون »] وروى أبو داود قال : حدثنا عثمان بن أبي شيبة بسنده إلى هذيل قال ٣٠٨ [جاء رجل ، قال عثمان سعد فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب قال عثمان: مستقبل الباب ، فقال له النبي ﷺ هكذا عنك – أو هكذا – فإنما الاستئذان من النظر »] فعلم من هذا انه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ان لا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره .

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: ٣٠٩ [لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذنٍ فخذفتهُ بحصاةٍ ففقأتَ عينَه ، ما كان عليكَ مِن جناح] . وأخرج الجماعة عن جابر قال : ٣١٠ [أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي فدققت الباب فقال : « من ذا ؟ » فقلت : أنا.قال : « أنا أنا ... !!! » كأنه كرهه] وانما كره ذلك لأنه لا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس وإلا فكل واحد يعبر عن نفسه بأنا فلا يعرف من الطارق إلا بالإفصاح عن الاسم حتى يحصل الإذن . وروى أبو داود عن ربعي قال : ٣١١ [أتى رجل من بني عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو في بيته ، فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له :

قل السلام عليكم أأدخل ؟ » فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن له النبي ﷺ ، فدخل] .

ويجب الاستئذان على الأمهات والأخوات ، فقد روى أشعث عن عدي بن ثابت ٣١٢ [أن امرأة من الأنصار قالت يا رسول الله : إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها لا والد ولا ولد ، وانه لا يزال يدخل عليَّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال ؛ قال فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً ﴾] الآية .

وقال قتادة: ﴿ حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ وهو الاستئذان ثلاثاً ، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع أما الأولىٰ فليسمع الحي ، وأما الثانية فليأخذوا حِذرهم ، وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا . ولا تقفن على باب قوم ردّوك عن بابهم ، فان للناس حاجاتٍ ولهم أشغال ، والله أولىٰ بالعذر .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ يعني الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذَنَ لكم ﴾ وذلك لما فيه من التصرف بملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذِنَ ، وإن شاء لم يأذَن ، ﴿ وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أي إذا ردّوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿ فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أي أطهر ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ وقال قتادة ، قال بعض المهاجرين : لقد طلبت عمري كله هذه الآية ، فما أدركتها ان استأذن على بعض اخواني فيقول لي ارجع وأنا مغتبط

وقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتاً غير مسكونة ﴾ الآية ... هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير إذن ، كالبيت المعد للضيف إذا اذن له فيه أول مرة كفىٰ . وقال آخرون : هي بيوت التجار كالخانات ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة وغير ذلك ، اختاره بن جرير وحكاه عن جماعته ولكن الأول أظهر . والله أعلم وقيل هي بيوت الشعر .

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ (٣٠) ﴾

هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين بغض البصر عما حرّم الله ، فلا ينظر إلاّ إذا وقع البصر فجأةً فإن حصل هذا فليصرِفْ بصرَه عنه سريعاً ، كما رواه مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد البجلي رضي الله عنه قال : ٣١٣ [سألت النبي ﷺ عن نظر الفجأة ، فأمرني أن اصرف بصري] وكذا رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي حسن صحيح.روى أبو داود عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ لعلي : ٣١٤ [يا علي لا تُتْبع النظرةَ النظرةَ ، فإنَّ لك الأولى ، وليس لك الآخرة] وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ ٣١٥ [« إيّاكم والجلوس على الطرقات » قالوا : يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ « إن أبيتم فأعطوا الطريق حقَّه » قالوا:وما حق الطريق يا رسول الله ؟قال« غضُّ البصر ، وكفّ الأذى ، وردُّ السلام والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر »] .

قال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب.ولذلك أمر الله بحفظ الفروج ، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك.فقال تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارِهم ويحفظوا فروجَهم ﴾ وحفظُ الفرج تارةً يكون بمنعِه من الزّنا كما قال تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ الآية ... وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن » ٣١٦ [إحفظْ عورتَك إلاّ منْ زوجتك أو ما ملكت يمينك] ﴿ ذلك أزكىٰ لهم ﴾ أي أطهر لقلوبهم وأنقىٰ لدينهم ، كما قيل : من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾

وفي الصحيح عن أبي هريرة : ٣١٧ [كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان النطق ، وزنا الأذنين الاستماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الخُطىٰ ، والنفس تمنّى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه] .

۞ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي

أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَت أَيْمَانُهُنَّ أَوِ ٱلتَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ ٱلنِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمْ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغيرةٌ منه لأزواجهن . وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا – والله أعلم – انّ جابر بنَ عبدِ الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ، ما أقبح هذا ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ الآية ... أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن ؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب إطلاقاً واحتج كثيرٌ منهم بما رواه أبو داود والترمذي ٣١٨ [عن أمّ سلمة أنّها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة ، قالت فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أُمِرْنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ « احتجبا منه » فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله ﷺ « أو عميوان أنتما ؟ ألستما تبصرانِه »] وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة كما ثبت في الصحيح : ٣١٩ [إن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملّت ورجعت] وقوله تعالى : ﴿ ويحفظن فروجهن ﴾ عن الفواحش كالزنا وما يؤول إليه من نظر أو غيره وقوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها ﴾ قيل : أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن اخفاؤه كالرداء الذي يجلل الثياب وما يبدو من أسافل الثياب . وعن ابن عباس ﴿ ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها ﴾ قال : وجهها وكفيْها والخاتم وروي نحوه عن ابن عمر وعطاء وغيره من التابعين ، وقال مالك ﴿ إلاّ ما ظهر منها ﴾ الخاتم والخلخال . ويحتمل ان ابن عباس ومن تابعه

أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله عنها : أن اسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: ٣٢٠ [« يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلحْ أن يُرى منها إلاّ هذا» وأشار إلى وجهه وكفيه لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي هو مرسل : خالد بن دريك لم يسمعْ من عائشة رضي الله عنها وقوله تعالى : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ أي على نحو رِهن وصدورِهن ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية اللائي كن مسفحات بصدورهن وأعناقهن وذوائبَ شعورهن فأمر الله المؤمنات أن يسترْنَ في هيئاتهن ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرَفْنَ فلا يؤذَيْنَ ﴾

والخُمُرُ جمع خمار.وهو ما يغطى به الرأس وما يسميها الناس بالمقانع وقال البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأُوَل لما أنزل الله ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققْنَ مروطهن فاختمرْنَ بها .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتَهن إلا لبعولتهن ﴾ أي أزواجهــنّ ﴿ أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرّج . وقد روى ابن المنذر عن عكرمة في هذه الآية وقال بعد أن فرغ من قراءتها : لم يذكر العم ولا الخال لأنهما ينعتان لأبنائهما ولا تضع خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره .

وقوله تعالى : ﴿ أو نسائهن ﴾ يعني تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلاّ تصفهن لرجالهن ، وذلك وان كان محظوراً في جميع النساء إلاّ أنه في نساء أهل الذمة أشد فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع فأما المسلمة فانها تعلم ان ذلك حرام فتنزجر عنه ، وقد قال رسول الله ﷺ : ٣٢١ [لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها] أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود . وروى سعيد بن منصور في سننه عن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة :

أما بعد فانه بلغني أن نساءً من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك فانه من قبلك فلا يحل لأمرة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلاّ أهل ملتها

وقال مجاهد في قوله : ﴿ أو نسائهن ﴾ قال : نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس للمرأة المسلمة ان تنكشف بين يدي مشركة . وأما ما رواه ابن أبي حاتم عن عطاء قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات ، فهذا محمول على حال الضرورة .

وقوله تعالى : ﴿ أو ما ملكت أيمانهن ﴾ قال ابن جرير يعني من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وان كانت مشركة لأنها أمتها . وقال الأكثرون : بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذي رواهابوداود عن أنس : ٣٢٢ [ان النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد وقد وهبه لها ، قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، واذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى ، قال : « إنه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك »][1] .

وقوله تعالى : ﴿ أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال ﴾ كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ولا همة لهم إلى النساء ، ولا يشتهونهن ، قال ابن عباس : هو المغفل الذي لا شهوة له وروى الامام أحمد عن أم سلمة أنها قالت : ٣٢٣ [دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث ، وعندها عبد الله بن أبي أمية يعني أخاها ، والمخنث يقول : يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان ، قال : فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة « لا يَدْخُلَنَّ هذا عليك »] أخرجاه في الصحيحين وقوله تعال : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك ؛ فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مراهقاً بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكَّنُ من الدخول على النساء . وقد ثبت في الصحيحَيْنِ عن رسول الله ﷺ انه قال : ٣٢٤ [إيّاكم والدخول على النساء » قيل : يا رسول الله أفرأيت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت »]

وقوله تعالى : ﴿ ولا يضربنَ بأرجلهن ﴾ الآية ؛ كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها ، ضربت برجلها الأرض

(١) إنما كان صغير السن فربتّه ثم اعتقته حينما كبر . كما أورده الحافظ ابن عساكر .

فيسمع الرجال طنينه ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ، وكذلك اذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي . من ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها . فقد روى الترمذي عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ٣٢٥ [كل عين زانية والمرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا] يعني زانية

وقوله تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ أي افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات والأخلاق الجليلة واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الصفات والأخلاق الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى الله ورسوله عنه والله تعالى المستعان .

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۞ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۞ (٣٤) ﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة ؛ فقوله تعالى : ﴿ وانكحوا الأيامىٰ منكم ﴾ إلىٰ آخره ، هذا أمر بالتزويج ،

فقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه ، واحتجوا بظاهر قوله ﷺ ٣٢٦ [يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء] أخرجاه في الصحيحين . وقد جاء في السنن من غير وجه . ان رسول الله قال ﷺ : ٣٢٧ [تزوجوا الولود تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة] وفي رواية : [حتى السقط] .

الأيامى جمع أيم ، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها وللرجل الذي لا زوجة له ، سواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما ، حكاه الجوهري عن أهل اللغة يقال رجل أيم وامرأة أيم .

وقوله تعالى : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ الآية قال ابن عباس : رغبهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى ، وعن الليث من أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ ٣٢٨ [ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف والكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله] .

وقوله تعالى : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام كما قال ﷺ في الحديث المتقدم « يا معشر الشباب ... » .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه ، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا أمر ارشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وايجاب ، بل السيد مخير أن شاء كاتب عبده أو لم يشأ لم يكاتبه وقال البخاري : وقال روح عن ابن جريج قلت لعطاء : أواجب علي إذا علمت له مالاً ان أكاتبه قال : ما أراه إلا واجباً . وقال عمر بن دينار : قلت لعطاء أتأثره عن أحد ؟ قال : لا ثم أخبرني ان موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتبة ، وكان كثير المال فأبى ، فانطلق إلى عمر رضي الله عنه ، فقال : كاتبه فأبي فضربه بالدرة ، ويتلو عمر رضي الله عنه ﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ فكاتبه هكذا ذكره البخاري معلقاً . وروى عن الضحاك انها عزمة وذهب الشافعي في الجديد إلى أنه لا يجب وعند مالك ليس بواجب واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية .

وقوله تعالى: ﴿إن علمتم فيهم خيراً﴾ فقد روى أبو داود في المراسيل عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ قال إن علمتم فيهم حرفة، ولا ترسلوهم كلاً على الناس» وقوله تعالى: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ أي اطرحوا لهم من الكتابة بعضها وقال آخرون بل المراد هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة، واختاره ابن جرير وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب – يعني ان يعينوهم في تحرير أنفسهم بأن يضعوا عنهم من مكاتبتهم وقال ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال ربع الكتابة وروي مرفوعاً والأشبه أنه موقوف على علي رضي الله عنه كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمي.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ الآية ...، كان أهل الجاهلية اذا كان لأحدهم أمةٌ أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبةً يأخذها منها كل وقت فلما جاء الاسلام نهى الله عنها المؤمنين، وكان سبب نزولها فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغاء طلباً، لخراجهن، ورغبة في أولادهن ورياسةً منه فيما يزعم. وقد تضافرت الآثار على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إن أردن تحصُّناً﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، وقوله تعالى: ﴿لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾ أي من خراجهن ومهورهن وأولادهن، وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام، ومهر البغي، وحلوان الكاهن، وفي رواية ٣٢٩ [مهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث، وثمن الكلب خبيث] وقوله تعالى: ﴿ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم وأثمهن على من أكرههن، كذا قال ابن عباس وجماعة من التابعين وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ انه قال ٣٣٠ [رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه].

ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى: ﴿ولقد أنزلنا اليكم آيات مبيِّنات﴾ يعني القرآن فيه آيات واضحات مفسرات ﴿ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾ أي خبراً عن الأمم الماضية، وما حلَّ بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ أي زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي لمن اتقى الله وخافه. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفته القرآن: فيه حكم ما بينكم وخبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله.



﴿ اللهُ نُورُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي ٱللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * (٣٥) ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ يقول : هادي أهل السموات والأرض . روى ابن جرير عن أنس بن مالك قال : ان الله يقول : (نوري هُدَى) اختار هذا القول ابن جرير ﴿ مثل نوره ﴾ أي مثل هدايته هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره وكان أُبيُّ بنُ كعب يقرأها ﴿ مثل نور من آمن به ﴾ فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره ، وهكذا رواه سعيد بن جبير وقيس بن سعد عن ابن عباس انه قرأها كذلك ﴿ مثل نور من آمن بالله ﴾ وقرأ بعضهم : ﴿ الله منوّر السموات والأرض ﴾ وعن الضحاك : ﴿ الله نوَّر السموات والأرض ﴾ . وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال : ٣٣١ [كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد ، انت نور السموات والأرض ومن فيهن [١] ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن »] .

وقوله تعالى : ﴿ مثل نوره ﴾ في هذا الضمير قولان : (أحدهما) أنه عائد إلى الله عز وجل أي مَثَلُ هداهُ في قلب المؤمن ، قاله ابن عباس (والثاني) ان الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه السياق ، تقديره مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه كما قال تعالى : ﴿ أفمن كان على بينةٍ من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ فشبه قلب المؤمن

---

(١) قلت : وهذا دليل على أن المراد من قوله تعالى : الله نور السموات والأرض « أي هادي أهلهما إذ ليس هذا النور هو نور ذاته الذي هو صفته انما هو النور الذي يقذفه في قلب المؤمن من الهداية . وإن القرآآت المتقدمة تشهد لهذا أيضاً وهي : « الله منور السموات والأرض » و « الله نوَّر السموات والأرض » لا سيما وقوله تعالى في آخر هذه الآية : « يهدي لنوره من يشاء » فاتضح ماتقدم صحة قول من فسر نور الله بهدايته والله الموفق للصواب .

في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري ، وما يستهديه من القرآن ، والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف ، فقوله تعالى ﴿ كمشكاة ﴾ قال ابن عباس وجماعة من التابعين : هو موضع الفتيلة من القنديل هذا هو المشهور ولهذا قال تعالى بعده: ﴿ فيها مصباح ﴾ وهو النور الذي في الزبالة. قال أبي بن كعب : المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذي في صدره ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ أي زجاجة صافية مشرقة وهو نظير قلب المؤمن ﴿ الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾ أي كأنها كوكب من در مضيء مبين ضخم ﴿ يوقد من شجرة مباركة ﴾ أي يستمد من شجرة زيتون مباركة ﴿ زيتونة ﴾ بدل ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ أي ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ، ولا في غربيها فيقلص عنها الفيء قبل الغروب بل هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره فيجيء زيتها صافيا معتدلاً مشرقاً وذلك أصفى ما يكون من الزيت . وقال نحو ذلك ابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي وقيل المراد انها وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب ، وقيل وقيل ... ولكن أولى هذه الأقوال القول الأول ، وهو أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس تقرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف كما قال غير واحد مما تقدم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ يعني لضوء إشراق الزيت .

وقوله تعالى : ﴿ نور على نور ﴾ قال ابن عباس يعني بذلك : ايمان العبد وعمله . وكذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا ، فلا يكون واحد منهما الا بصاحبه .

وقوله تعالى : ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ أي يرشد الله إلى هدايته من يختاره كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٣٢ [ان الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم القى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأ ضلّ فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عز وجل] .

وقوله تعالى : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله تعالى : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٣٣

﴿ القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد : فقلب المؤمن سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل المنافق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح ، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه] اسناده جيد ولم يخرجوه .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۞ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۞ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ (٣٨) ﴾

لما ضرب الله تعالى مثل القلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل مثلاً ، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحّد فقال تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ أي أمر الله بتعاهدها وتطهيرها من الدنس وكل ما لا يليق فيها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : قال نهى الله سبحانه عن اللغو فيها وكذا قال جماعة من العلماء المفسرين .

• وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٣٤ من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة] .

• وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ٣٣٥ [أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وان تنظف وتطيّب •] [1] وروى البخاري عن عمر بن الخطاب : ابنِ للناس ما

(•) رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي ، ولأحمد وأبي داود نحوه عن سمرة بن جندب .

(١) قلت : من حيث بناء المساجد في الدور فهذا خاص بالنساء لأن المرأة صلاتها في بيتها خير من صلاتها في المساجد أما من حيث تنظيفها وتطييبها فهذا معلوم انه عام في المساجد جميعها

يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس[(١)] وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٣٣٦ [لا تقوم الساعة حتّى يتباهى الناس في المساجد] رواه أحمد وأهل السنن والترمذي وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : ٣٣٧ [إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد ، فقولوا لا أربح الله تجارتك ، واذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا : لا ردها الله عليك] .

* وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٨ [صلاة الرجل في الجماعة ، تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً] وذلك أنه اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخـط خُطوة إلا رُفِعَ له بها درجة وحطّ عنه بها خطيئة فإذا صلّى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه : اللهم صلّ عليه ، اللهم ارحمه . ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة] .

* وفي السنن ٣٣٩ [بشر المشّائين إلى المساجد في الظُّلَم بالنور التام يوم القيامة] .

* وروى مسلم بسنده عن أبي حميد أو أبي أسيد قال : قال رسول الله ﷺ ٣٤٠ [إذا دخل أحدكم المسجد فليقل ، اللهم افتح أبواب رحمتك . واذا خرج فليقل : اللهم اني أسألك من فضلك] .

وقوله تعالى : ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ أي يتلى كتابه قاله ابن عباس وقوله تعالى : ﴿ يسبح له فيها بالغدو ﴾ أي في البكرات والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار وعن ابن عباس كل تسبيح في القرآن هو الصلاة . ومن قرأ بفتح الباء وقف على قوله تعالى : ﴿ والآصال ﴾ وقفاً تاماً ، وابتدأ بقوله تعالى : ﴿ رجال ... ﴾ وكأنه مفسر للفاعل المحذوف ، وكأنه قيل من يسبح له فيها ؟ قال رجال . وأما على قراءة من قرأ بالكسر فجعله فعلاً ، وفاعله ﴿ رجالٌ ﴾ فلا يحسن الوقف الا على الفاعل لأنه تمام الكلام .

فقوله تعالى : ﴿ رجال ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية ، التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه كما قال تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ الآية أما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن لما رواه الإمام أحمد عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت النبي ﷺ فقالت : ٣٤١ [يا رسول الله إني أحب الصلاة معك . قال : « قد علمت انك تحبين الصلاة معي ، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك

(١) قات هذه قاعدة جليلة في بناء المساجد وعدم زخرفتها ويا ليتنا نتعظ ... ولكننا نتسابق في الزخرفة ، تقليداً للكنائس فلا حول ولا قوة إلا بالله .

في حجرتك ، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي » قال : فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها فكانت والله تصلي فيه حتى لقيت الله تعالى] .

ويجوز لها شهود الجماعة في المساجد بشرط أن لا تؤذي أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر انه قال قال رسول الله ﷺ : ٣٤٢ [لا تمنعوا إماءَ الله ، مساجد الله] ولأحمد وأبي داود ٣٤٣ [وبيوتهن خير لهن] وفي رواية [وليخرجن وهن تفلات] أي لا ريح لهن. وفي الصحيحين عن عائشة أنها قالت : ٣٤٤ [لو أدرك رسول الله ﷺ، ما أحدث النساء لمَنَعَهُنَّ من المساجد كما منعت نساء بني اسرائيل .]

وقوله تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ الآية فمعنى قوله تعالى : ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ أي يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم . قال هشيم عن شيبان قال حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة فقال عبد الله بن مسعود : هؤلاء من الذين ذكر الله تعالى في كتابه ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ الآية وقال ابن عباس اي عن الصلاة المكتوبة وقال مقاتل بن حيان ... وأن يحافظوا على مواقيتها .

وقوله تعالى : ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ أي يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار ، أي من شدة الفزع وعظمة الأهوال ، كقوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً . وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ﴾ وقوله تعالى ههنا ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ﴾ أي هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله تعالى : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم كما قال تعالى: ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ وقال ها ههنا : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ۞ (٤٠) ﴾

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين : نارياً ومائياً [١] وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين : نارياً ومائياً وقد تكلمنا على كل منهما في موضعه ، بما أغنى عن إعادته ولله الحمد والمنة **فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة الى كفرهم الذين يحسبون** أنهم على شيء وهم ليسوا كذلك ، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يُرى في القيعان من الأرض ، من بُعد كأنه بحرٌ طامٍ ، والقيعة : جمع قاع ، كجار وجيرة ، والقاع أيضاً واحد القيعان ، كما يقال جارٌ وجيران . وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب ، وانما يكون ذلك بعد نصف النهار ، وأما الآل ، فإنما يكون أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، يحسبه ماءً ، قصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ فكذلك الكافر يحسب انه قد عمل عملاً وانه قد حصل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قُبل ، إما لعدم الإخلاص ، أو لعدم سلوك الشرع كما قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ وقال ههنا : ﴿ ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ وهكذا روي عن أُبيّ بن كعب وابن عباس وغيرهما. وفي الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود: ٣٤٥..[ما كنتم تعبدون؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن الله فيقال : كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون ؟

---

(١) عند قوله تعالى الآية رقم /١٣ – ٢٠/ من سورة البقرة . (٢) في الآية رقم / ١٧ / من سورة الرعد .

فيقولون : يا رب عطشنا فاسقنا ، فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سرَبٌ يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون ، فيتهافتون فيها ، وهذا المثال لذوي الجهل المركب ، فأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أو كظلمات في بحر لجيّ ﴾ أي عميق ﴿ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ، ولا يدري أين يذهب ، بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب ؟ قال معهم قيل : فإلى أين يذهبون قال : لا أدري .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يغشاه موج ﴾ الآية ... يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر ، وهي كقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلىأبصارهم غشاوة ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل ، حائل ، بائر ، كافر ، كقوله تعالى : ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾ وهذا في مقابلة ما قال تعالى في مثل المؤمنين : ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً ، وعن أيماننا نوراً ، وعن شمائلنا نوراً ، وأن يعظم لنا نوراً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ (٤٢) ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السموات والأرض اي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد ، كما قال تعالى : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ والطيرُ صافاتٍ ﴾ أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه ، وهو يعلم ما هي فاعلة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل . ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلاّ لَهُ ولا معقب لحكمه ﴿ والى الله المصير ﴾ أي يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ﴾ الآية ، فهو الخالق المالك ، ألا له الحكم في الدنيا ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ۞ (٤٣) يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَارِ ۞ (٤٤) ﴾

يخبر تعالى انه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة . وهو الازجاء ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي يجمعه ﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾ أي متراكماً ﴿ فترى الودق ﴾ أي المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي من خلله . وقوله تعالى : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ أي جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب . وقوله تعالى : ﴿ فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ﴾ أي بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرَد ، فيكون قوله تعالى : ﴿ فيصيب به من يشاء ﴾ رحمة لهم ﴿ ويصرفه عمن يشاء ﴾ أي يؤخر عنهم الغيث ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ فيصيب به ﴾ أي بالبرد نقمةً على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم ، ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم . وقوله تعالى : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ أي من شدته يخطف الأبصار وقوله تعالى : ﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ أي يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيراً ويقصر الذي كان طويلا . والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿ ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ أي لدليلاً على عظمته تعالى : ﴿ ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ وما بعدها من الآيات الكريمات .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)

يذكر تعالى قدرته التامة ، وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها من ماء واحد ، فمنهم من يمشي على بطنه كالحية وما شاكلها ، ﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾ كالإنسان والطير ﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ أي بقدرته لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ (٤٦)

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحُكْم والحِكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى ، ولهذا قال تعالى ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۞ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ۞ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ

ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ (٥١) وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝ (٥٢)

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، يقولون قولاً بألسنتهم ، : ﴿ آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ﴾ أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ واذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ﴾ الآية ، أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك – إلى قوله – رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ . وعن سمرة مرفوعاً : ٣٤٦ [من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له] وقوله تعالى : ﴿ وان يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ أي واذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ مذعنين ﴾ واذا كانت الحكومة عليهم أعرضوا ودعوا إلى غير الحق ، وأحبوا أن يتحاكموا إلى غير النبي ﷺ ، ليروجوا باطلهم ، ثم إذعانهم أولاً لم يكن عن اعتقادٍ منهم أنّ ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواهم ولهذا لما خالف قصدهم عدلوا عنه إلى غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ الآية ... يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم ، وأياً كان فهو كفر محض ، والله عليم بكل منهم وما هو منطوٍ عليه من هذه الصفات .

وقوله تعالى : ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ أي هم الظالمون والله ورسوله مبرّآن مما يظنون . ثم أخبر تعالى عن صفات المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقال تعالى : ﴿ إنما كان قول المؤمنين اذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ أي سمعاً وطاعةً ولهذا وصفهم الله بالفلاح . فقال تعالى : ﴿وأولئك هم المفلحون ﴾ وقال قتادة : ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا في جماعة [1] ، والنصيحة لله

(١) قلت : قوله : ولا خير الا في جماعة هذا محدود في الجماعة التي تكون مجتمعة على الحق وهو موافقة الكتاب والسنة في الظاهر والباطن وليس مجرد الجماعة فقط هو دليل الخير وإلا فإن فرداً واحداً متمسكاً بحكم الكتاب والسنة هو جماعة ومصداقه قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة ... » ولو خالفه الناس جميعهم .

ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامةً . وقوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ قال قتادة : يطيع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتّقه فيما يستقبل . وقوله تعالى : ﴿ فأولئك هم الفائزون ﴾ يعني الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة .

نصف الحزب

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ۞ (٥٤) ﴾

يخبر تعالى عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ لئن أمرتهم بالغزو ليخرجن فقال الله تعالى ﴿ قل لا تقسموا ﴾ أي لا تحلفوا . وقوله تعالى : ﴿ طاعة معروفة ﴾ أي طاعتكم معروفة انها لا فعل معها بل قول مجرد ، وحلفكم كاذب ، كما قال تعالى :

﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾

وقال تعالى : ﴿ اتخذوا ايمانهم جنةً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصى فلا فائدة من إظهار الطاعة والباطن بخلافه فإن الله لا يروج عليه شيء من التدليس فهو الخبير بسرائر عباده وإن أظهروا خلافها . ثم قال الله تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ أي اتبعوا الكتاب والسنة .

وقوله تعالى . ﴿ فإن تولوا ﴾ أي تركوا ما جاءهم به ﴿ فإنما عليه ما حمل ﴾ أي إبلاغ الرسالة ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ أي بقبولها وتنفيذها ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم وقوله تعالى : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ﴾ .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ۝ (٥٥)

هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته الولاة على الناس فتصلح بهم البلاد ، وتخضع لهم العباد وليبدلنّهم بعد خوفهم أمناً وحكماً وقد فعله وتبارك وتعالى وله الحمد والمنة ففتح رسول الله ﷺ مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها ، وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل والمقوقس وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملّك بعد النجاشي المسلم أصحمة رحمه الله وأكرمه .

ثم تولى أبو بكر الصديق فلمَّ شعْث ما وهيَ بعد موته عليه الصلاة والسلام فمهّد الجزيرة العربية ، وفتح طرفاً من فارس بقيادة خالد بن الوليد وفتح بصري ودمشق وحوران بقيادة أبي عبيدة ، وبلاد مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين ، وألهم الله الصديق ان يستخلف عمر الفاروق الذي قام بعده بالأمر قياماً تاماً فتم في أيامه فتحُ الشام ومصر وأكثر اقليم فارس وتقهقر كسرى إلى أقصى مملكته ، وفر قيصر إلى القسطنطينية وأنفق أموالهما في سبيل الله .

ثم امتدت دولة عثمان إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت المغرب إلى البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق مدائن العراق وخراسان والأهواز ، وقتل المسلمون الترك مقتلة عظيمة جداً ، وخذل الله ملكهم (خاقان) ولهذا ثبت في الصحيح ان رسول الله ﷺ : قال ٣٤٧ [ان الله زوي لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها] . فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ﷺ ، وصدق الله ورسوله ﷺ فنسأل الله الإيمان به وبرسوله ﷺ والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا [1] .

---

(١) قلت : نعم ... هذا لما كان المسلمون متمسكين بالكتاب والسنة فتح الله تعالى عليهم البلاد وأدان لهم العباد . ولكن يا للأسف فنحن المسلمين اليوم رغم ترامي أطراف بلادنا في الشرق والغرب ورغم عددنا وعديدنا محكومون في جميع بلادنا من قبل الكفار بشكل مباشر أو غير مباشر حتى اليهود المغضوب عليهم، =

قال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ... ﴾ ونحن في خوفٍ شديد . أي كانوا خائفين يمسون ويصبحون في السلاح .

وان رجلاً من الصحابة قال : ٣٤٨ [يا رسول الله : أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح فقال رسول الله ﷺ لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيه حديدة] . فأنزل الله هذه الآية الكريمة : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ... ﴾ كقوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ كما قال أحمد عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٤٩ [بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة ، والدين والنصر والتمكين في الأرض . فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب] .

وقوله تعالى : ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ يفسره ما جاء في الصحيحين من حديث قتادة عن أنس أن معاذ بن جبل حدّثه قال : ٣٥٠ ﴿ بينا أنا رديف النبيّ ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلاّ آخرة الرحل قال : « يا معاذ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » قلت،لبيك يا رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ، ثم قال « يا معاذ بن جبل » قلت:لبيك يا رسول الله وسعديك **قال « هل تدري ما حق الله على العباد ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال« حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً »قال : ثم سار ساعة، ثم قال « يا معاذ ابن جبل »قلت:لبيك يا رسول الله وسعديك قال « فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم قال « فإن حق العباد على الله ان لايعذبهم» أخرجاه .**

وقوله تعالى : ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً فالصحابة رضي الله

= اغتصبوا بيت المقدس وأسسوا دولتهم بفلسطين واستولوا على أطراف مصر والأردن وسوريا ... كل ذلك لأننا مسلمون إسماً فقط ...؟!!! نحكم بغير ما أنزل الله ، ولا نتبع كتاباً ولا سنة ونعصى الله جهرة ، وننقض عهد الله وميثاقه ... فأذاقنا الله لباس الجوع والخوف والذل وذلك بما كسبت أيدينا ويعفو عن كثير ... فإذا أردنا عودة الماضي العظيم فلنعد إلى شرع الله الكريم ودينه القويم ، وصراطه المستقيم .

عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم له ، كان نصرهم بحسبهم ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : ٣٥١ [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة – وفي رواية – حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك – وفي رواية – حتى يقاتلوا الدجال – وفي رواية – حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون] وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۞ (٥٧) ﴾

يأمر عباده سبحانه بإقامة الصلاة له وحده وايتاء الزكاة لوجهه وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم سالكين طريق ما أمرهم به رسول الله ﷺ ، وترك ما زجرهم عنه ابتغاء مرضاته تعالى ورحمته . وقوله تعالى : ﴿ لا تحسبن ﴾ أي لا تظن يا محمد أن ﴿ الذين كفروا ﴾ أي خالفوك وكذبوك ﴿ معجزين في الأرض ﴾ أي لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم ومعذبهم أشد العذاب ولهذا قال : ﴿ ومأواهم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ النار ولبئس المصير ﴾ أي بئس المآل مآل الكافرين ، وبئس القرار والمهاد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَاءِ ثَلَٰثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَالُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (٥٩) وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱللَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ (٦٠)

هذه الآيات الكريمات اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض ، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال . (الأول) من قبل صلاة [1] الغداة لأن الناس إذ ذاك نيام في فرشهم (الثاني) : ﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴾ أي وقت القيلولة ، لأن الانسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله (الثالث) : ﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ لأنه وقت النوم ، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال ، ولهذا قال تعالى ﴿ ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ أي إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم ، ولا عليهم إن رأوا شيئاً ، لأنه قد أُذنَ لهم في الهجوم ، ولأنهم طوافون عليكم في الخدمة وغير ذلك ، ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم ولما كانت هذه الآية محكمة ، وكان عمل الناس بها قليلاً ، أنكر عليهم عبد الله بن عباس روى أبو داود عن عبيد الله بن يزيد سمع ابن عباس يقول : لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن ، وإني لآمر جاريتي هذه أن تستأذن علي ، وقال الشعبي : لم تنسخ . والدليل على أنها لم تنسخ قوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ يعني اذا بلغ الاطفال الحلم وجب عليهم الاستئذان في كل حال وان لم تكن في الأحوال الثلاث وقوله تعالى : ﴿ كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ يعني مثلما كان الأطفال قبل أن يبلغو الحلم يستأذنون فليستأذن الذين بلغوا الحلم دائماً . وقوله تعالى : ﴿ والقواعد من النساء ﴾

---

(١) قلت : أي صلاة الصبح (والغداة) ما بين الفجر إلى طلوع الشمس والمراد عدم الدخول قبل صلاة الفجر

هن اللواتي انقطع حيضهن ويئسن من الولد ﴿ اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴾ أي لم يبق لهن تشوف إلى التزوج ﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ﴾ أي ليس عليها من الحجرْ في التستر كما على غيرها من النساء أي تضع الجلباب أو الرداء ، ولا يبرجن بوضع الجلباب ليرى عليهن من الزينة . وقوله تعال : ﴿ وإن يستعففن خير لهن ﴾ أي وإنَّ وضعهن لثيابهن وان كان جائزاً ولكن الخير لهن والأفضل أن لا يفعلن ﴿ والله سميع عليم ﴾ .

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٦١)

قيل ان المراد هنا : أنه كان الناس يتحرّجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك . ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه ، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره ، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم فانزل الله على هذه الآية رخصة في ذلك . كما أن الرجل كان يدخل بيت أبيه ، أو أخيه أو ابنه ، فتتحفه المرأة بشيء من الطعام . فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثمَّ ، فقال الله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ... ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ ، وليساوى به ما بعده في الحكم ، وتضمّن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ، ولهذا استدل من ذهب أن مال الولد بمنزلة مال أبيه وقد جاء في السنن من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٣٥٢ [أنت ومالك لأبيك]

وقوله تعالى : ﴿ أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ﴾ – إلى قوله – ﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾ هذا ظاهر ، وقد يستدل به من يوجب نفقه الأقارب بعضهم على بعض كما هو المشهور في مذهب أبي حنيفة وأحمد ، وأما قوله تعالى : ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾هوخادم الرجل من عبد وقهرمان فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف . وعن عائشة رضي الله عنها فيما معناه : كان المسلمون يدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم يحلون لهم أكل ما احتاجوا اليه في غيبتهم ولكن الضمناء كانوا يتحرجون لأن الإذن لهم ما كان عن طيب نفس فأنزل الله تعالى : ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أو صديقكم ﴾ أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك . وقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ كانوا يأنفون ويتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم في ذلك فقال تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ فهذه رخصة منه تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة ، وإن كان مع الجماعة أبرك .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ يعني فليسلم بعضكم على بعض . وعن جابر بن عبد الله قال : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركةً طيبة . قال أبو الزبير : ما رأيته إلاّ يوجبه .

وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله ،وإذادخلتعلىأهلك فسلّم عليهم واذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقال قتادة : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنه كان يؤمر بذلك . وحدثنا أن الملائكة ترد عليه . وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال : ٣٥٣ [أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال قال : « يا أنس اسبغ الوضوء يُزَد في عمرك ، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك واذا دخلت – يعني بيتك – فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك . يا أنس : إرحم الصغير ووقرّ الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة »] . وقوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ تنبيه منه تعالى لعباده وتبيين لهم الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقّلوها ، لعلهم يعقلون .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ (٦٢) ﴾

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ثم أمر الله رسوله ﷺ إذا أستأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء ولهذا قال سبحانه : ﴿ فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم ﴾ الآية . وقد روى أبو داود عن أبي هريرة عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٥٤] إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم وإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة] هكذا رواه النسائي والترمذي وقال : حديث حسن .

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٦٣) ﴾

عن ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد يا أبا القاسم ، فنهاهم عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ قال : فقولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون – إلى قوله – إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ۞ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ﴾ الآية فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده ، كما أُمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته .

وقوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ قال مقاتل بن حيان هم المنافقون كانت تثقل عليهم الخطبة يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحاب النبي ﷺ حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلاّ بإذن النبي ﷺ في يوم الجمعة بعدما يأخذ في الخطبة .

وقوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو منهاجه وسنته وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قُبل ، ومن خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان . كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ انه قال : ٣٥٥ [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد] أي فليخش من خالف سنة رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أي في الدنيا بقتل أو حدٍّ أو حبس أو نحو ذلك ، كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٣٥٦ [مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ـ قال ـ فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلمَّ عن النار ، فتغلبوني وتقتحمون فيها] أخرجاه من حديث عبد الرزاق .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ (٦٤) ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وعالم الغيب والشهادة ، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم ، فقال : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ وقد للتحقيق[1] كما قال قبلها : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك ... ﴾ فقوله تعالى : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أي هو عالم به مشاهِدٌ له لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم

(١) قلت : كل / قد / تدخل على المضارع وتتعلق بذات الله تعالى فهي للتحقيق قطعاً ، بخلاف ما إذا كانت تتعلق بالمخلوقين فهي للتقليل كما هو معلوم من قواعد اللغة العربية .

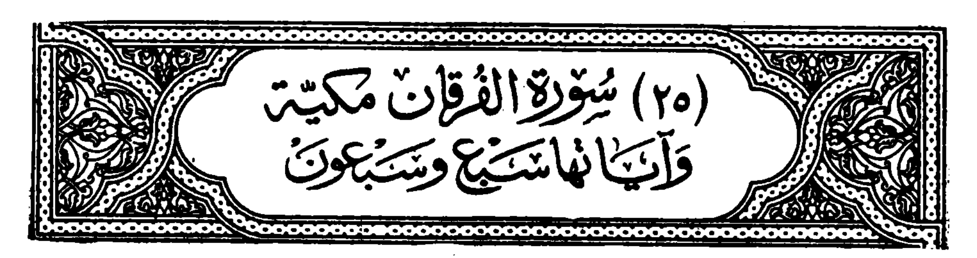
ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين ﴾ والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً .

وقوله تعالى : ﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ أي ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ أي يخبرهم بكل ما فعلوه في الدنيا صغيراً كان أو كبيراً كما قال تعالى : ﴿ ... ويقولون ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم ﴾ . آخر اختصار تفسير سورة النور نسأل الله التمام وله الحمد والمنة .

* * *

١٣٩٠/٢/٢٤
١٩٧٠/٤/٣٠

ندعو الله تعالى أن يوفقنا إلى اتمام هذا الاختصار على ما يرضيه سبحانه وأن يجنبنا الزلل والله الموفق أولا وآخرا والحمد لله رب العالمين .



إلاّ الآيات ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ فمدنيَّة
نزلت بعد يٰس

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً * (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً * (٢)

يحمد الله تعالى نفسه الكريمة على ما نزّل على رسوله الكريم من القرآن العظيم كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ﴾ وقال ههنا : ﴿ تبارك ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرَّة الثابتة الدائمة ﴿ الذي نزّل الفرقان ﴾ نزّل فعل من التكرر والتكثر لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملةً واحدة ، والقرآن نزل آيات بعد آيات وأحكاماً بعد أحكام وسوراً بعد سور وهذا أبلغ وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه ، كما قال تعالى في هذه السورة : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ ولهذا سماه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد والحلال والحرام .

وقوله تعالى : ﴿ على عبده ﴾ هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافة إلى عبوديته كقوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ . وقولُه تعالى : ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾

كما قال ﷺ ٣٥٧« [إني أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي فذكر منهن : « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »] .

وقوله تعالى : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ أي هو مالك السموات والأرض المنزه عن الولد والشريك ثم أخبر أنه تعالى : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ أي كل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُوراً ۞ (٣) ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين باتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء ، وعبدوا معه ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فكيف يملكون لعابديهم ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ أي ليس لهم من ذلك شيء بل مرجعه جميعاً إلى الله تعالى الذي هو يحيي ويميت وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلاَّ كنفس واحدة ﴾ فهو الذي لا إلَه غيره ولا رب سواه ولا تنبغي العبادة إلاَّ له لأنه هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ۞ (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ۞(٦) ﴾

يخبر تعالى عن سخافة عقول الكفار في قولهم عن القرآن : ﴿ إن هذا إلاَّ إفك ﴾ أي كذب ﴿ افتراه ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً

وزوراً ﴾ أي قالوا قولاً هم يعلمون أنهم يكذبون فيه ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ أي استنسخها ﴿ فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً ﴾ أي تقرأ عليه صباحاً ومساءً وهذا قول متهافت سخيف لأن الجميع يعلمون ما كان رسول الله يعلم شيئاً من الكتابة أبداً ويعرفون منه الصدق والأمانة وبُعده عن أي خُلق رذيل.بل وينادونه بالأمين لما يعلمون من صدقه وبره،فلما أكرمه الله بالرسالة والنبوة رموه بهذه الافتراآت،وحاروا فيما يقذفونه به، فيقولون تارةً ساحر،وتارة شاعر،وطوراً مجنون وكذاب.فأمر تعالى : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ﴾ أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين حقاً وصدقاً مطابقاً للواقع وقوله تعالى : ﴿ الذي يعلم السر ﴾ أي الله الذي يعلم غيب السموات ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ، وقوله تعالى : ﴿ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ دعوة لهم إلى التوبة والإنابة ، واخبار لهم بأن رحمته واسعة وحلمه عظيم مع من تاب وأناب إليه . كقوله تعالى : ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ قال الحسن البصري : انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُوراً ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا ٱلْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَٱدْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم وانما تعللوا بقولهم : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿ ويمشي في الأسواق ﴾ أي طلباً للتكسب والتجارة ﴿ لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ أي هلاّ أنزل اليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدقه فيما يدعيه كما قال فرعون : ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ولهذا قالوا : ﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ ينفق منه ﴿ أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ أي تسير معه حيث سار وهذا سهل يسير على الله ولكن له الحكمة والحجة البالغة في ترك ذلك ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً ﴾ أي يقذفونك بالكذب عليك، من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر، وكل ذلك باطل مخالف لسيرته عليه الصلاة والسلام ولهذا قال تعالى : ﴿ فضلّوا ﴾ عن طريق الهدى ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ وذلك أن كل من خرج عن طريق الحق والهدى ، فهو ضال حيثما توجه . ثم قال تعالى : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ روى سفيان الثوري عن خيثمة : ٣٥٨ [قيل للنبي ﷺ إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبياً من قبلك ، ولا نعطي أحداً من بعدك ولا ينقص ذلك ممّا لك عند الله فقال: « اجمعوها لي في الآخرة فأنزل الله عز وجل » ﴿ تبارك الذي ان شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ﴾]

وقوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ قالوا هكذا عناداً لا استرشاداً لأنهم كافرون بالبعث لذا قال تعالى : ﴿ واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ أي أرصدنا له عذاب الحريق .

وقوله تعالى : ﴿ إذا رأتهم ﴾ أي جهنم ﴿ من مكان بعيد ﴾ يعني في مقام المحشر ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ حنقاً عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور.تكاد تميز من الغيظ ﴾ أي تكاد تمزق من الغيظ على من كفر بالله.

وروى ابن أبي حاتم عن خالد بن دريك باسناده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : ٣٥٩ [« من يقل عليّ ما لم أقل، أوادعى إلى غيروالديه أو انتمىَ لغير مواليه فليتبوأ مقعده من النار — وفي رواية — فليتبوَّأ بين عيني جهنم مقعداً » قيل يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال : أما سمعتم الله يقول : ﴿ إذا رأتهم من مكان

بعيد ﴾ الآية »] وقوله تعالى ﴿ وإذا ألقوا منها مكانا ضيّقاً مقرنين ﴾ روى عبد الله بن وهب بن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ، ٣٦٠ [أنه سئل عن قول الله : ﴿ واذا القوا منها مكانا ضيقاً مقرنين ﴾ قال : « والذي نفسي بيده ، إنهم ليُستكرَهُون في النار كما يُستكرَهُ الوتد في الحائط »] وقوله تعالى : ﴿ مقرنين ﴾ أي مكتفين ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾ أي بالويل والحسرة والخيبة ﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ﴾ الآية قال ابن عباس أي لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً وادعوا ويلاً كثيراً . وقال الضحاك : الثبور الهلاك والأظهر : ان الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار .

﴿ قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً ۞ (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً ۞ (١٦) ﴾

يقول تعالى : يا محمد قل لهم : هذا الذى وصفه الله من حال الأشقياء في جهنم وما يلقون فيها ، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي أعدّها لهم وجعلها لهم جزاءَ ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا وجعل مآلهم إليها ، ﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ من الملاذ المنوعة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بلا انقطاع ولا انقضاء ، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ أي وعداً واجباً لا بد أن يقع

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ۞ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً ۞ (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ۞ (١٩) ﴾

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم ، فقال سبحانه : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل ﴾ أي ، أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني ، أم هم عبدوكم من غير دعوة منكم لهم ؟ كما قال تعالى : ﴿ واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كُنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به ﴾ الآية ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجيب به المعبودون يوم القيامة ﴿ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ أي ليس للخلائق أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولاهم فنحن ما دعوناهم إلى ذلك بل فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم هذا على تقدير فتح نون ﴿ نَتّخِذَ ﴾ أما على ضم النون وفتح الخاء ﴿ نُتّخَذَ ﴾ أي ما ينبغي لأحد أن يعبدنا ، فنحن عبيد لك فقراء إليك وهي قريبة المعنى من الأولى ﴿ ولكن متعتهم وآباءهم ﴾ أي طال عليهم العمر حتى نسوا ما أنزلته اليهم من الكتب الداعية إلى عبادتك وحدك لا شريك لك . ﴿ وكانوا قوماً بوراً ﴾ قال ابن عباس أيَ هلكيَ .

فقال تعالى : ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله ، وزعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى كقوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ۞ واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ﴾ أي لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ أي يشرك بالله ﴿ نذقه عذاباً كبيراً ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ۞ (٢٠) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسله المتقدمين انهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذي به ، ويمشون في الأسواق للتكسب ، وما ذلك بضائرهم فإن الله تعالى رزقهم من الصفات

الكاملة والأعمال الفاضلة والخوارق والمعجزات ما يستدل به كل ذي عقل سليم على صدق دعوتهم ولم يجعلهم الله إلا بشراً يأكلون ويشربون .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ أي اختبرنا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾ أي بمن يستحق أن يوحى اليه كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ : ٣٦١ [يقول الله تعالى إني مبتليك ومبتلى بك] .

الجزء ١٩

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً ۞ (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً ۞ (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنثُوراً ۞ (٢٣) أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ۞ (٢٤) ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار في كفرهم ، وعنادهم في قولهم : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ عياناً فيخبرونا أن محمداً رسول الله ، كقولهم : ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ ولهذا قالوا ﴿ أو نرى ربنا ﴾ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾ أي هم لا يرون الملائكة ... إلاّ في يوم لا بشرىً لهم فيه ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار وقال آخرون بل المراد بقوله تعالى : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى ﴾ يعني يوم القيامة ، قال مجاهد والضحاك وغيرهما : ولا منافاة بين هذا وما تقدم فإن الملائكة في هذين اليومين ، يوم الممات

ويوم المعاد ، تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران فلا بشرى يومئذ للمجرمين ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ أي وتقول الملائكة للكافرين : حرام محرم عليكم الفلاح اليوم.وأصل الحجر المنع ومنه سمي الحِجْر عند البيت الحرام ، لأنه يمنع الطوّاف ان يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه ، والغرض أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ ويقولون ﴾ عائد على الملائكة ، هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن وغيرهم واختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ﴾ أي عمدنا إلى ما عملوا من الأعمال التي ظنوا انها منجاة لهم ، لكنها فقدت الشرط الشرعي ، فكل عمل لا يكون خالصاً ، وعلى الشريعة المرضية فهو باطل فأعمال الكفار ليست خالصة ولا موافقة للشريعة المرضية فتكون أبعد من القبول حينئذ ولهذا قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ والهباء المنثور قال علي رضي الله عنه هو شعاع الشمس إذا دخل الكوة . وقال الحسن البصري : هو الشعاع في كوة أحدكم ، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع . وهكذا فإن الكفار عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم إذا بها لا شيء بالكلية، كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ أي يوم القيامة أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار فانهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة ، والنجاة من النار . فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء فقال تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ قال ابن عباس : إنما هي الساعة يقيل فيها أولياء الله على الأسرّة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرّنين .

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰئِكَةُ تَنْزِيلاً ۞(٢٥) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى ٱلْكَافِرِينَ عَسِيراً ۞ (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ۞ (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً ۞ (٢٨) لَقَدْ

أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام وهو ظُلَلُ النور العظيم الذي يبهر الأبصار ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء قال مجاهد : وهذا كما قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لمَن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ وفي الصحيح : ٣٦٢ [ان الله تعالى يطوي السموات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول : انا الملك أنا الديان ، أين ملوك الأرض ، أين الجبارون أين المتكبرون ؟] . وقوله تعالى : ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ أي شديداً صعباً ...فهذا حال الكافرين في هذا اليوم ، وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويوم يعضّ الظالم على يديه ﴾ الآية يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول،وما جاء به من عند الله من الحق البيّن الذي لا مرية فيه ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول.فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعض على يديه حسرةً وأسفاً ، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم . كما قال تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار ﴾ الآيتين فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ويعضّ على يديه قائلاً ﴿ يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ٭ يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبيّ بن خلف أو غيرهما ﴿ لقد أضلّني عن الذكر ﴾ وهو القرآن ﴿ بعد إذ جاءني ﴾ أي بعد بلوغه إليّ قال الله تعالى : ﴿ وكان الشيطان للانسان خذولاً ﴾ أي يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه .

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا هٰذَا ٱلْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴿٣٠﴾ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴿٣١﴾

يخبر تعالى عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال : ﴿ يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ وذلك أن المشركين إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعونه فهذا من هجرانه ، وترك الإيمان به ، وعدم تدبره ، وترك العمل به ، والعدول عنه إلى غيره .كل ذلك من هجرانه أيضاً ، نسأله تعالى ان يجنبنا ما يسخطه ، ويستعملنا في ما يرضيه من حفظ كتابه بفهمه والعمل بمقتضاه دائماً على الوجه الذي يرضاه انه سميع مجيب كريم وهاب . وقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً من المجرمين ﴾ أي كما أنَّ قومك عادوك لما دعوتَ إلى توحيدِ الله ، كذلك فعل الأمم الماضية مع رسلهم فكان منهم أعداء لهم يصدّون الناس عن الهدى،ولكن الله تعالى هو الهادي فلا يستطيع أحد أن يحول دون هدايته.ولذلك قال عز من قائل : ﴿ وكفى بربِّك هادياً ونصيراً ﴾ لمن اتبّع رسولَه وآمن بكتابه وصدّقه وأتبّعه فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة والله غالبٌ على أمره .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝ (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ۝ (٣٣) ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝ (٣٤) ﴾

يخبر تعالى عن كثرة اعتراض الكفار ، وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم فقالوا : ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملةً واحدةً ﴾ أي كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به ولهذا قال ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾ أي بيناه تبييناً ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ أي بشبهة ﴿ إلاَّ جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ أي ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلاَّ أجبناهم بما هو الحق ، وأبين وأفصح من مقالتهم .

وهذا اعتناء ، وكبير شرف للرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل بالقرآن صباحاً ومساءً ، وليلاً ونهاراً ، سفراً وحضراً ، لا كما أنزلت الكتب المتقدمة جملة واحدة ، وقد جمع الله للقرآن الصفتين معاً ، ففي الملأ الأعلى أنزل جملةً واحدة

من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض مفرقاً حسب الوقائع والحوادث .

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً ﴾ وفي الصحيح عن أنس أن رجلا قال : ٣٦٣ [يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة فقال : «ان الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة »] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيراً ۞ (٣٥) فَقُلْنَا ٱذْهَبَا إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ۞ (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَـةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً ۞ (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ ٱلرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً ۞ (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ۞ (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً ۞ (٤٠) ﴾

يتوعّد الله تعالى من كذب على رسوله ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه ، ويحذرهم من عقابه، وأليم عذابه، ممّا أحلّه بالأمم الماضية المكذبين لرسله عليهم الصلاة والسلام فيبدأ بذكر موسى عليه السلام وأنه بعث معه أخاه هارون نبياً مؤآزراً، فكذّبهما فرعون وجنوده ﴿ فدمرناهم تدميراً ﴾ وكذلك قوم نوح عليه السلام لما كذبوا نوحاً فكأنما كذبوا الرسل قبله إذ لا فرق بين رسول ورسول ﴿ فما آمن معه إلا قليلاً ﴾ ولهذا أغرقهم الله ولم يترك من بَنِي آدم على وجه الارض سوى أصحاب السفينة فقط ﴿ وجعلناهم للناس آيةً ﴾ أي عبرة يعتبرون بها . وقوله تعالى : ﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرس ﴾ أما عادٌ وثمود فقد تقدم الكلام عليهما في غير ما سورة كالأعراف بما أغنى عن الإعادة.

وأما أصحاب الرس فهم أصحاب الرس بفلج من قرى اليمامة بنجد ، والرس بئر رسّوا فيها نبيهم ، أي دفنوه فيها .

وقوله تعالى : ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ أي وأمما كثيرة أضعاف من ذكرنا فقد أهلكناهم بتكذيبهم رسلهم ﴿ وكلاً ضربنا له الأمثال ﴾ أي بيّنا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة كما قال قتادة : وأزحنا الأعذار عنهم ﴿ وكلاً تبّرنا تتبيراً ﴾ أي أهلكنا إهلاكاً ، كقوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من القرون مِن بعد نوح ﴾ والقرن هو الأمة من الناس متعاصرون في الزمن الواحد وإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهو قرن آخر وقد قدروا لهذا الزمن مائة سنة . وقوله تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ﴾ يعني قرية قوم لوط وهي سدوم التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر بالحجارة التي من سجيل ، كما قال تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذَرين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإنكم لتمرّون عليها مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾ أي فيعتبروا بما حلّ بأهلها من العذاب والنكال ، بتكذيبهم بالرسول . ﴿ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ يعني المارين بها من الكفار ، لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً أي معاداً يوم القيامة .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُواً أَهذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللهُ رَسُولاً * (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً * (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ اوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلَا * (٤٤) ﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ فقال تعالى : ﴿ وإذا رأوْك إن يتخذونك إلاّ هزواً ﴾ وقالوا : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ أي يتنقّصونه ويستخفون به ، فلعنهم الله وقبحهم . وقالوا : ﴿ إن كادَ ليضلنا عن آلهتنا ﴾ يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا واستمرّوا عليها . فقال الله متوعّداً لهم : ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ وهنا ينبه تعالى نبيه ﷺ إلى أنَّ من كتب الله عليه الشقاوة والضلال لا يستطيع أحد أن يهديَهُ إلاّ الله تعالى، فيستحسن كلّ ما استهوته نفسُه ويجعله ديناً له . كالذي أراد لنفسه اتباع هواه فإن الله تعالى يعاقبه من نوع عمله فيضلّه. ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ﴾ أي هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة لأنهم يعبدون غير الله ويشركون به مع قيام الحجّة عليهم، وارسال الرسل إليهم ، وإتمام التبليغ. ﴿ إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۞ (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ۞ (٤٦) وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاساً وَٱلنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً ۞ (٤٧) ﴾

بعد أن بيّن الله حال المشركين وإصرارهم على شركهم ، شرع ههنا سبحانه ببيان نعمه وقدرته. فقال عزّ من قائل: ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ﴾ قال ابن عباس وابن عمر وبعض التابعين : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ أي دائما لا يزول كما قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن جعل اللهُ عليكم الليل سرمداً ﴾ الآيات ... وقوله تعالى : ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ أي لولا ان الشمس تطلع عليه لما عرف إذ لا يتميز الضد إلا بضده . وقوله تعالى : ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ أي شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى في الأرض ظلٌّ إلاّ تحتَ سقفٍ أو شجرةٍ ، وقد أظلّت الشمس ما فوقه . وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ أي يلبس الوجود ويغشاه ﴿ والنوم سباتاً ﴾ أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان فبسكون الليل تسكن الحركات وتستريح فيحصل النوم المريح للروح والبدن ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ أي ينتشر الناس فيه لمعايشتهم ومكاسبهم. كما قال تعالى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ الآية .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا

مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ۞ (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ۞ (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ۞ (٥٠)

وهذا أيضاً من نعمته التامة وقدرته وسلطانه العظيمين وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشراتٍ أي بمجيء السحاب بعدها والرياح أنواع كثيرة ... ومنها ما يلقح السحاب ليمطر. ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً ﴾ أي آلة يتطهر بها .

وقوله تعالى : ﴿ لنحيي به بلدة ميتاً ﴾ أي أرضاً قد طال انتظارها للغيث فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء فلما جاء المطر ، عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان . كما قال تعالى : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسيَّ كثيراً ﴾ أي وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وثمارهم . كما قال تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها ﴾ الآية .

وقولُه تعالى : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب يمرُّ على الأرض ويتعدّاها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدَقاً ، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة . قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما : ليس عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ثم قرأ هذه الآية : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكّروا فأبى أكثر الناس إلاّ كفوراً ﴾ أي ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات أو ليذكر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه فليقلع عما هو فيه. قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ يعني الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، كما صح في الحديث الذي رواه مسلم عن رسول الله ﷺ ٣٦٤ [انه قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل ﴿ أتدرون ماذا قال ربّكم؟ ﴾ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب »] .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً ۞ (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ۞ (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً ۞ (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ۞ (٥٤) ﴾

ربع الحزب

يقول تعالى : ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل ولكنّا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وفي الصحيحين : ٣٦٥ [«بعثت إلى الأحمر والأسود » - وفيهما - « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »] ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به ﴾ يعني بالقرآن قاله ابن عباس ﴿ جهاداً كبيراً ﴾ أي غليظاً .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ﴾ أي خلق الماءين : الحلو والمالح. فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهو العذب الفرات، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس، فرّقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض ، بحسب حاجتهم لأنفسهم وأراضيهم .

وقوله تعالى : ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي مالح مرّ لا يستساغ وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب من البحار الساكنة التي لا تجري ولكن تموج وتضطرب في زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجزر ، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض ، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى فإذا استهل الشهر الجديد شرعت البحار في المدّ إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع في النقص فأجرى الله ذو القدرة التامة العادة بذلك ، وقد خلقها مالحةً لئلا يفسد الهواء فيفسد الوجود بذلك ،بل يكون هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة . ولهذا قال رسول الله ﷺ ٣٦٦ [وقد سئل عن ماء البحر : أنتوضأ به ؟ فقال « هو الطهور ماؤه الحل ميتته »] رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد .

وقوله تعالى : ﴿ وجعل بينهما برزخاً وحِجراً ﴾ أين بين العذب والمالح حاجزاً وهو اليبس من الأرض ﴿ محجوراً ﴾ أي ممنوعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر. كقوله تعالى : ﴿ أمّنْ جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً ﴾ أي خلق الانسان من نطفة ضعيفة فجعله كامل الخلقة ذكراً وأنثى ، كما يشاء ﴿ فجعله نسباً وصهراً ﴾ فهو في ابتداء أمره ولدٌ نسيبٌ ، ثم يتزوج فيصير صهراً ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات وكل ذلك من ماءٍ مهين ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ۝ (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝ (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ۝ (٥٨) ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ۝ (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ۝ (٦٠) ﴾

سجدة

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تضر ولا تنفع بمجرد الأهواء فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم. ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ أي عوناً للشيطان على حزب الله وحزب الله هم الغالبون • ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين ، ونذيراً للكافرين لمن خالف أمره. ﴿ قل ما اسألكم عليه من أجرٍ ﴾ أي على هذا البلاغ إنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى : ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ أي طريقاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به .

ثم قال تعالى : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ أي في أمورك كلّها كن متوكلاً على الحي القيوم رب كلِّ شيء ومليكه. واجعله ذخرك وملجأك فانه كافيك وناصرك ﴿ وسبح بحمده ﴾ أي اقرن بين حمده وتسبيحه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : ٣٦٧ [سبحانك اللهمّ ربّنا وبحمدك] أي أخلص له العبادة والتوكل. كقوله تعالى ﴿ فاعبده وتوكّل عليه ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ أي بعلمه التام الذي لا يخفىَ عليه خافية .

وقوله تعالى : ﴿ الذي خلق السموات والأرض ﴾ أي بقدرته وسلطانه وهو خالق كل شيء وربه ومليكه ﴿ في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمَنُ ﴾ أي علا عليه يدبر الأمر ويقضي الحق وهو خير الفاصلين . وقوله تعالى : ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أي استعلمْ عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتدِ به وقد علمَ أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، سيد ولد آدم وأفضل خلق الله على الإطلاق في الدنيا والآخرة . الذي لا ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى ، فما قاله هو الحق ، وما أخبر به هو الصدق ، وهو الإمام المحكم الذي اذا تنازع الناس في شيء وجب ردُّ نزاعهم إليه ، فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق ، وما خالفها فهو الباطل، ومردود على قائله وفاعله كائناً من كان. قال الله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ وقيل ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أي هذا القرآن خبير به – فلا منافاة فالرسول الأعظم صلوات الله عليه وسلامه هو الذي لا أحد أعلم بالله ولا بالقرآن منه ﷺ – [1] .

وقوله تعالى : ﴿ واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾ أي لا نعرف الرحمن ولا نُقِرُّ بِهِ ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أي لمجرد قولك ﴿ وزادهم نفوراً ﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويسجدون له . وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها، كما هو مقرر في موضعه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً ۝ (٦١) وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ۝ (٦٢) ﴾

(١) ما بين المعترضتين من كلامي لا من كلام المفسر رحمه الله تعالى .

يمجد تعالى نفسه ويعظمها على جميل ما خلق في السموات من البروج وهي الكواكب العظام التي قيل انها قصور للحرس ، ويروى هذا عن علي وابن عباس وغيرهما. فقال تعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً ﴾ وهي الشمس ﴿ وقمراً منيراً ﴾ أي مضيئاً وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خِلفةً ﴾ أي يخلف كل واحد منهما صاحبه ، يتعاقبان لا يفتران كما قال تعالى : ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبَيْن ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً ﴾ أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة الله عز وجل فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل ، وقد جاء في الحديث الصحيح : ٣٦٨ « [ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل] .

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ۞ (٦٣) وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ۞ (٦٤) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ۞ (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً ۞ (٦٦) وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً ۞ (٦٧) ﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين : ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ بتواضع ووقار وبلا تجبر واستكبار ولا أشر ولا بطر وليس المراد انهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءً فقد كان ﷺ إذا مشىٰ فكأنما ينحط من صبب ، والمراد بالهون هنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ ٣٦٩ [اذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم منها فصلوا ، وما فاتكم فأتموا] وقوله تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلاّ خيرا كما قال تعالى : ﴿ واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ الآية ... روى الإمام أحمد عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول الله

ﷺ ٣٧٠ [– وسبّ رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول عليك السلام فقال رسول الله ﷺ « أما إن ملكاً بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل انت وأنت أحق به واذا قلت له وعليك السلام ، قال : لا بل عليك وأنت أحق به »] اسناده حسن ولم يخرجوه .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ أي في طاعته وعبادته كقوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ خائفين من عذاب الله راجين رحمته ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ أي محرقاً دائماً ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ أي بئس المنزل منظراً ، وبئس المقيل مقاماً يهوي في النار فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له مكانك حتى تُتْحفَ ، فيسقىٰ كأساً من سم الأساود والعقارب ، فيتميز الجلد عن الشعر والعصب والعروق كل على حدة . كما هو مروي عن مالك بن الحارث .

وقوله تعالى : ﴿ والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ أي ليسوا بمبذرين ولا بخلاء ﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ روى أبو بكر عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ ٣٧١ [ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في الفقر ، وما أحسن القصد في العبادة] ثم قال : لا نعرفه يروى إلاّ من حديث حذيفة رضي الله عنه . وقال الحسن البصري : ليس في النفقة في سبيل الله سرف .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ❁ (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ❁ (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَٰلِحاً فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ❁ (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَاباً ❁ (٧١) ﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله هو ابن مسعود قال : **٣٧٢** [سئل رسول الله ﷺ ، أي الذنب أكبر ؟قال : « ان تجعل لله أنداداً وهو خلقك » قال : ثم أي ؟ قال : « ان تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قال : ثم أي ؟ قال « أن تزاني حليلة جارك » قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلٓهاً آخر ﴾ الآية] وهكذا رواه النسائي وقد أخرجه البخاري ومسلم . ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ...

روى النسائي عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : **٣٧٣**[« ألا إنما هي أربع » فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ « لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ، ولا تزنوا ولا تسرقوا »] روى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه **٣٧٤** [ما تقولون في الزنا » قالوا : حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره » قال « فما تقولون في السرقة ؟ » قالوا : حرمها الله ورسوله فهي حرام . قال « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره »] .

روى أبو بكر بن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال **٣٧٥** [ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له] .

روى ابن جريج عن ابن عباس يحدث **٣٧٦** [أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : ان الذي تدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفّارة فنزلت : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إله آخر ... ﴾ ونزلت : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية] .

وذكر لنا ان لقمان كان يقول : يا بُنيّ إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً ﴾ روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : واد في جهنم وقال عكرمة : ﴿ يلقَ أثاماً ﴾ أودية في جهنم يعذب فيها الزناة .

وقوله تعالى : ﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ﴾ أي يكرر عليه ويغلّظ ﴿ ويخلد فيه مهاناً ﴾ أي حقيراً ذليلاً . وقوله تعالى : ﴿ إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً .. ﴾

أي جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إلا من تاب ﴾ في الدنيا إلى الله ﴿وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾فان الله يتوب عليه وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ﴾ الآية فإن هذه وان كانت مدنية إلاّ أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب لأن هذه مقيدة بالتوبة ولقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئآتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ فيه قولان أصحهما : ان تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات وما ذاك إلاّ لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيوم القيامة وان وجده مكتوبا عليه فإنه لا يضره ، وينقلب حسنةً في صحيفته ، كما ثبت بالسنة وصحت به الآثار المروية عن السلف رضي الله عنهم . روى الامام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٧٧ [إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار ، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول نحّوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له عملت يوم كذا ،كذا وكذا ، وعملت يوم كذا ، كذا وكذا فيقول: نعم ، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً ، فيقال فإن لك بكل سيئة حسنة ؛ فيقول : يا رب عملت أشياء لا أراها ههنا» قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه] انفرد باخراجه مسلم .

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ ٣٧٨ [إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان: أعطني صحيفتك . فيعطيه إياها فما وجد في صحيفته من حسنة محابها عشر سيئآت من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات . فإذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثا وثلاثين تسبيحة فتلك مائة] .

روى الطبراني عن أبي فروة أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : ٣٧٩ [أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : « أسلمت ؟ » فقال : نعم قال « فافعل الخيرات واترك السيئات ، فيجعلها الله لك خيرات كلها » قال : وغدراتي وفجراتي ؟ قال : « نعم » فما زال يكبّر حتى توارى] .

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده ، وانه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً ، كبيراً أو صغيراً ؛ فقال تعالى : ﴿ ومن تاب وعمل

صا لحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ أي فإن الله يقبل توبته كقوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ الاية ، أى لمن تاب اليه

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ۞ (٧٢) وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً ۞ (٧٣) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ۞ (٧٤) ﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور وقد قيل في معنى الزور الشرك وعبادة الأصنام والكذب والفسق والكفر والغناء والخمر والباطل ومجالس السوء والخنا وأعياد المشركين وشهادة الزور ، فقوله تعالى : ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ أي لا يحضرون كل هذه المجالس ولهذا قال تعالى : ﴿ واذا مرّوا باللغو مرّوا كراما ﴾ أي لا يحضرون مجالس الزور واذا اتفق مرورهم به مرّوا ولم يتدنسوا منه بشيء ولهذا قال : ﴿ مرّوا كراماً ﴾ .

روى ابن أبي حاتم عن ابراهيم بن ميسر ٣٨٠ [ان ابن مسعود مرّ بلهوٍ فلم يقف فقال رسول الله ﷺ « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً »] ثم تلا ابراهيم بن ميسرة : ﴿ وإذا مرّوا باللغو مروا كراماً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمّاً وعميانا ﴾ وهذه أيضاً من صفات المؤمنين قال الحسن : كم من رجل يقرأها ويخرّ عليها أصم وأعمى قال ابن أبي حاتم عن عون قال : سألت الشعبي قلت : الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا ، أيسجد معهم ؟ فتلا هذه الآية ... يعني لا يسجد معهم ، لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمّعةً بل يكون على بصيرةٍ من أمره ويقين واضح بين .

وقال مجاهد : قوله تعالى : ﴿ لم يخرّوا عليها صُماً وعمياناً ﴾ قال لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً . وقوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا

وذرياتنا قرة أعين ﴾ . يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين . روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه – جبير – قال [جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً . فمرّ به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت ؛ فاستغضب المقداد ، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلاّ خيراً ، ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيّبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبّهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلاّ ربكم ، مصدقين بما جاء به نبيكم ، قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبيّ ﷺ على أشر حال بَعثَ عليها نبياً من الأنبياء في فترة جاهلية ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافراً وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه ، وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وأنها التي قال الله تعالى : ، ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ وهذا اسناد صحيح ولم يخرجوه .

وقوله تعالى : ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ أي أئمة يقتدى بنا في الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وان يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مآباً .

ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٣٨١ [اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث ، ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به ، أو صدقة جارية .]

﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۞ (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۞ (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۞ (٧٧) ﴾

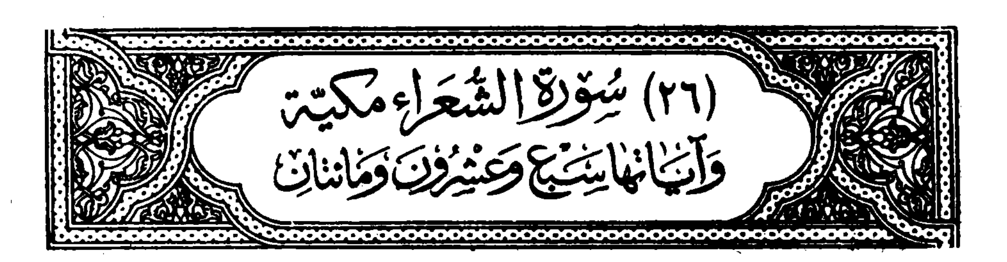
لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكره من الصفات الجليلة ، قال بعد ذلك كله ﴿ أولئك ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات ﴿ يجزون ﴾ يوم القيامة ﴿ الغرفة ﴾ وهي الجنة ﴿ بما صبروا ﴾ أي على القيام بذلك ﴿ ويلقّون فيها تحية وسلاماً ﴾ أي يبتدَرون فيها بالتحية والإكرام فلهم السلام وعليهم السلام كما قال تعالى : حاكياً عن الملائكة قولهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقيمين أبداً لا يزولون . وقوله تعالى : ﴿ حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ أي حسنت منظراً وطابت منزلاً ثم قال تعالى : ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ أي إنما خلقكم لعبادته ولا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ، إنما خلق الخلق لعبادته .

وقوله تعالى : ﴿ فقد كذبتم ﴾ أيها الكافرون ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم مقتضيا لتعذيبكم وإهلاككم في الدارين ويدخل في ذلك يوم بدر .

آخر اختصار تفسير سورة الفرقان
ولله الحمد والمنة

١٥ ربيع الأول سنة ١٣٩٠
٢٠ أيار سنة ١٩٧٠



إلاّ الآية ١٩٧ ثم من الآية ٢٢٤ إلى آخر السورة فمدنية. نزلت بعد الواقعة
(ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها سورة الجامعة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نصف الحزب

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة.

وقوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي الفاصل بين الحق والباطل ، وقوله تعالى : ﴿ لعلك باخع ﴾ أي مهلك ﴿ نفسك ﴾ أي

من شدة ما تحرص وتحزن عليهم ﴿ ألاّ يكونوا مؤمنين ﴾ وهذه تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ كما قال تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ لو نشاء لأنزلنا معجزة تضطرهم إلى الايمان قهراً ، ولكن لا نريد إلاّ الإيمان الاختياري . ثم قال تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين ﴾ أي كلّما جاءهم كتاب من السماء أعرض أكثر الناس عنه كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقال تعالى هنا : ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون ما سيحيق بهم ، ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه ، وجلالة قدره وقدرته فقال تعالى : ﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ أي هو القادر العظيم الذي أنبت في الأرض بما فيها من كل زوج من زروع وثمار وحيوان .

ثم قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي دلالة على قدرة الخالق ... ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا برسله وكتبه ؛ وقوله تعالى : ﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ الذي عزّ كل شيء وقهره وغلبه ﴿ الرحيم ﴾ بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . وقال سعيد بن جبير : ﴿ الرحيم ﴾ بمن تاب إليه وأناب .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا

إِذًا وَأَنَا مِنَ ٱلضَّالِّينَ ۞ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ۞ (٢٢)

قوله تعالى : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ﴾ يخبر تعالى عما أمر عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن واصطفاه وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه . ولهذا قال تعالى: ﴿ أن ائت القومَ الظالمين • قوم فرعون ألا يتقون • قال رب إني أخاف أن يكذبونِ • ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون • ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلونِ ﴾ هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه -كما قال في سورة طه : ﴿ قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري — إلى قوله — قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ أي بسبب قتل القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر ﴿ قال كلاّ ﴾ أي قال الله له : لا تخف من شيء من ذلك كقوله تعالى : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما أنتما ومن أتبعكما الغالبون ﴾ ﴿ فاذهبا بآياتنا إنّا معكم مستمعون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ أي يسمعهما ماذا يقولان لفرعون ويراهما وهما تحت حفظه وتأييده ﴿ فأتيا فرعون فقولا إنّا رسول رب العالمين ﴾ أي كل منا أُرسل إليك ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ أي أطلقهم من أسارك وتعذيبك فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون . فلما قال موسى ذلك ازدراه فرعون وامتنّ عليه قائلاً : ﴿ ألم نُربّك فينا وليداً ﴾ الآية في بيتنا وعلى فراشنا وأنعمنا عليك مدة من السنين ، ثم قابلت ذلك الإحسان بقتلك رجلاً منا ، وجحدت نعمتنا عليك . ولهذا قال : ﴿ وانت من الكافرين ﴾ أي الجاحدين ﴿ قال فعلتها إذاً وانا من الضالين ﴾ أي في تلك كنت من الجاهلين قبل أن ينعم الله عليَّ بالنبوة ﴿ ففررت منكم لما خفتكم ﴾ أما الآن فقد جاء أمر آخر ، فقد أرسلني الله إليك ، فإن أطعته سلمت وإن عصيته هلكت ثم قال موسى : ﴿ وتلك نعمة تمنّها عليَّ أن عبدتَ بني إسرائيل ﴾ أي ما أحسنت بتربيتي بقدر ما أسأت لبني اسرائيل فاستعبدتهم واستعملتهم في أعمالك الشاقة ، أحسنت إلى رجل واحد — واستعبدت أمة كاملة .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ۝ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۝ (٢٨) ﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحده في قوله تعالى : ﴿ وما رب العالمين ﴾ أي من هذا الذي تزعمُ أنّه رب العالمين غيري ؟ هكذا فسّره علماء السلف وأئمة الخلف أنه كان يقول لقومه : ﴿ ما علمت لكم من إلّه غيري ﴾ وهذا مما يدلّ على أنه كان جاحداً لله تعالى بالكلية. ولكن موسى عليه السلام أجابه على سؤآله : ﴿ وما رب العالمين ﴾ قال موسى : ﴿ قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلّهه لا شريك له، فالجميع عبيد له خاضعون ذليلون. ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة ﴿ قال ﴾ أي فرعون على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله : ﴿ ألا تستمعون ﴾ ؟! أي ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري ؟ فقال لهم موسى : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم ﴿ قال ﴾ أي فرعون لقومه : ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ أي ليس له عقل في دعواه أن ثمّ رباً غيري ﴿ قال ﴾ أي موسى لقوم فرعون مجيباً ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون ﴾ أي هو الذي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب فإن كان فرعون يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً ، فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً ، ولما انقطعت حجة فرعون وبهت ، عدل إلى استعمال قوته وسلطانه ، واعتقد أنّ ذلك نافع له ونافذ في موسى عليه السلام فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝(٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ۝ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۝ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ۝ (٣٢)

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل ، وكان فرعون خلواً من كل حجة يدحض بها حجة موسى لجأ إلى القوة والسلطان وهدّده بالسجن إن اتخذ آلهةً غيره فعند ذلك قال موسى : ﴿ أو لو جئتك بشيء مبين ﴾ أي ببرهان قاطع واضح ﴿ قال فأت به ان كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ أي ظاهر في غاية الجلاء والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مروّع ﴿ ونزع يده ﴾ أي من جيبه ﴿ فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ أي تتلألأ كقطعة من القمر ، فأصر فرعون على تكذيبه وعناده ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ﴾ أي بارع في السحر ، وفعله هذا سحر لا معجزة ثم حرّضهم على الكفر به فقال : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ أي يأخذ البلاد منكم فماذا ترونني صانعاً به ؟ ﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ﴾ أي أخّرهُ وأخاه حتى تجمعَ له من مملكتك كل سحّارٍ عليم يأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه وتكون لك النصرةُ عليه فأجابهم إلى ذلك ليجتمعَ الناسُ في صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾

قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُمْ مُلْقُونَ ۞ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ۞ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۞ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۞ (٤٨)

ذكر الله تعالى هذه المناظر الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط في سورة الأعراف وطه وهذه السورة ، وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وهذا شأن الكفر والإيمان ما تواجها ، وتقابلا إلاّ غلبه الإيمان ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ﴾ ولهذا لما جاء السحرة من مختلف بلاد مصر وكانوا أسحر الناس وأشدهم تخييلاً عليهم وكانوا كثيرين جداً ، قيل كانوا بين اثني عشر ألفاً إلى ثمانين ألفاً والله أعلم بعدتهم ، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم وقال قائلهم : ﴿ لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين﴾ ولم يقولوا نتبع الحق أياً كان بل الرعية على دين ملوكهم ﴿ فلما جاء السحرة ﴾ إلى مجلس فرعون وهو في أبهة في جمع من خدمه وحشمه ووزرائه ورؤساء دولته وجنوده فقال السحرة : ﴿ أإن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ٭ قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ﴾ أي وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي ، فعادوا إلى مقام المناظرة . ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ٭ قال بل ألقوا ﴾ فقال لهم موسى : ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ٭ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ وهكذا الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً هذا بثواب فلان ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ أي تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً . قال الله تعالى : ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ فكان هذا أمراً عظيماً جداً وبرهاناً قاطعاً للعذر ، وحجة دامغة ، وذلك ان الذين استنصر بهم غُلبوا وخضعوا ﴿ فألقي السحرة ساجدين﴾ لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة﴿ قالوا آمنا بربّ العالمين ٭ رب موسى وهارون ﴾ فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، ومن وقاحته وجرأته أن عدل إلى تهديد السحرة :

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۞ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ (٥١) ﴾

تهدد فرعونُ السحرة وتوعدهم ولكن ما زادهم ذلك إلاّ ايماناً وتسليماً ، كيف لا وقد ظهر لهم الحق بأن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلاّ أن يكون الله قد أيده ،فعلموا من ذلك ما جهله قومهم وتمكنوا من إيمانهم ولم يلتفتوا إلى فرعون بما لديه من وعد أو وعيد ودون اكتراث به ولهذا فإن فرعون : ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ أي كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وهذه مكابرة يعلم حتى فرعون بطلانها وكيف يعلمهم السحر ولم يجتمعوا به قبل ذلك ... ثم توعدهم فرعون بتقطيع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا : ﴿ لا ضير ﴾ أي لا نبالي بذلك ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي راجعون إلى الله الذي لا يضيع أجر المحسنين ﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ وهي ما أكرهتنا عليه من السحر ﴿ **إن** كنا أول المؤمنين ﴾ من القبط ، فقتلهم كلهم .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۞ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۞ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۞ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ۞ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ (٥٩) ﴾

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر ، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون

وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببني اسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضي بهم حيث يؤمر ، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل . خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، وكان خروجه بهم وقت طلوع القمر وان موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بني اسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذي حمله بنفسه عليهما السلام وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك ، إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم . وهناك حديث عن أبي موسى مرفوعاً في مآل ذلك والأقرب أنه موقوف والله أعلم . فلما أصبحوا ... غاظ فرعونَ خروجُهم فأرسلَ سريعاً من يحشد الجند ونادى فيهم : ﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني بني اسرائيل ﴿ لشرذمة قليلون ﴾ أي لطائفة قليلة ﴿ وانهم لنا لغائظون ﴾ أي مديمون الإغاظةَ لنا ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ أي نحذر من غائلتهم وإني أريد أن أستأصل شأفتهم فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم قال الله تعالى: ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم ﴾ أي فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين،والأنهار،والأموال،والأرزاق،والملك،والجاه الوافر في الدنيا.﴿ كذلك وأورثناها بني اسرائيل ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وأورثنا القومَ الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ ونريد أنْ نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ﴾ الآيتين .

﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَ ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ * (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ * (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ * (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * (٦٨) ﴾

لحق فرعون بني اسرائيل في جيش كبير فيه أولو الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ولم يعين القرآن عدتهم إذ لا فائدة تحته لأنهم خرجوا بأجمعهم ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ أي وصلوهم عند طلوع الشمس ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي رأى كل من الفريقين صاحبه ، عندها ﴿ قال أصحاب موسى إنّا لمدرَكون ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر وهو بحر القلزم فصار أمامَهم البحر وقد أدركهم فرعون بجنوده ، فلهذا قالوا : ﴿ إنّا لمدركون * قال كلاّ إن معي ربي سيهدين ﴾ أي لا تحذروا فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم ، وهو لا يخلف الميعاد وكان هارون عليه السلام في المقدمة ، ومعه يوشع بن نون . ومؤمن آل فرعون ، وموسى عليه السلام في الساقة . وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون ، وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون ، يقول لموسى عليه السلام : يا نبي الله ههنا أمرك ربك أن تسير ؟ فيقول : نعم ، فاقترب فرعون وجنوده ولم يبق إلا القليل ، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه وقال : انفلق بإذن الله ، فانفلقَ . فذلك قوله تعالى : ﴿ فأوحينا إلى موسى أنِ اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ أي كالجبل الكبير قاله ابن عباس وابن مسعود وغيرهما . قال ابن عباس صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق وزاد السدي : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض وقام الماء على حيله كالحيطان ، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته ، فصار يبساً كوجه الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ وقال تعالى ها هنا في هذه القصة : ﴿ وأزلفنا ثمَّ الآخرين ﴾ أي هنالك . قال ابن عباس وغيره : ﴿ وأزلفنا ... ﴾ أي قرّبنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أي أنجينا موسى وبني اسرائيل ومن اتبعهم على دينهم ، فلم يهلك منهم أحد ، واغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلاّ هلك . وعن عبد الله أي ابن مسعود قال : فلما خرج آخر أصحاب موسى ، وتكامل أصحاب فرعون ، إنْطمّ عليهم البحر ، فما رُؤي سواد أكثر من يومئذٍ ، وغرق فرعون لعنه الله [1] . ثم قال تعالى : ﴿ إنّ في ذلك لآية ﴾ أي في هذه القصة وما

(١) قلت : أجل ؛ لعن الله فرعون لكفره وعناده حتى آخر نفس ولا عبرة بقوله : آمنت بأن لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل » لأن هذا كان في الغرغرة التي لا يقبل الله عندها إيماناً ولكن ما يزال الشيطان يستحوذ على قلوب البعض فيقولون : فرعون ناج ويصرون على ذلك رغم ما تنبيء الآيات بكفره وان الله تعالى لم يقبل ايمانه إذ قال له : « الآن ...؟!!! وغيرها من الآيات ولكن «القوم ... » هم هم =

فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين ، لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربّك لهو العزيز الرحيم ﴾ وقد تقدم تفسيره .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرٰهِيمَ * (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ * (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * (٧٥) أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ * (٧٧) ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء ، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله ، فإنه عليه السلام منذ نشأته أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴾ أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴾ أي مقيمين على عبادتها ودعائها ﴿ قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعوكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فقال لهم إبراهيم : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدولي إلاّ رب العالمين ﴾ فإن كان لهذه الأصنام أي تأثير فلتنتقم مني فإني عدوٌّ لها لا أبالي بها .كما قال هود عليه السلام : ﴿ إني أشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم، فقال : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ﴾ الآية .

= اللهم العن فرعون وقومه في كل آن وزمان...؟واحشرهم معه طالما أحبــّوه وأشفقوا عليه إلى هذا الحد: «لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد اللهورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهمأو إخوانهم» ... الآية

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ (٧٨) وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۞ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۞ (٨٠) وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۞ (٨١) وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ۞ (٨٢) ﴾

يعني لا أعبد إلاّ الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ أي الذي خلقني قدّر هدايتي فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ والذي هو يطعمني ويسقين ﴾ أي هو رازقي بما سخّر ويسّر من الأسباب التي تؤدّي إلى رزق العباد طعاماً وشراباً ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وإذا قدّر الله مرضي فمرضت فهو الذي يقدر الشفاء فأشفى ولا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدره من الأسباب ﴿ والذي يميتني ثم يحيين ﴾ أي هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلاّ هو .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۞ (٨٣) وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ۞ (٨٤) وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۞ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۞ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۞ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞ (٨٩) ﴾

وهذا سؤآل من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكماً قال السدّي : النبوّة وقوله تعالى : ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ أي اجعلني معهم في الدنيا والآخرة كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار ٣٨٢ [اللهم في الرفيق الأعلى] قالها ثلاثاً . وفي الحديث : ٣٨٣ [اللهم أحينا مسلمين ، وأمتنا مسلمين ، والحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدلين] وقوله تعالى : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ أي واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به ويقتدى بي في الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ واجعلني من ورثة جنة النعيم ﴾ أي أنعم عليّ في الدنيا ببقـــاء الذكر الجميل بعدي وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم

وقوله تعالى : ﴿ واغفر لأبي ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي ﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرّأ منه إن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾ وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال تعالى : ﴿ قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه – إلى قوله – وما أملك لك من الله من شيء » [1] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ أي أجرني من الخزي يوم القيامة .

روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: ٣٨٤ [يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصيني ؛ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول : يا إبراهيم انظر تحت رجلك ، فينظر فإذا هو بذيخٍ متلطّخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار] تفرد به البخاري .

والذيخ هو الذكر من الضباع ، كأنه حوّل آزر إلى صورة ذيخٍ متلطخ بعذرته فيلقى في النار .

وقوله تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ أي لا يقي المرء من عذاب الله مالُه ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿ ولا بنون ﴾ أي ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً ، ولا ينفع يومئذ إلاّ الإيمان بالله واخلاص الدين له ، والتبرّي من الشرك وأهله ولهذا قال : ﴿ إلاّ من أتى الله بقلب سليم ﴾ أي سالم من الدنس والشرك .

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ (٩٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ ۝ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ (٩٦) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ (٩٧) إِذْ

(١) ٦٠ / ٤ /

نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ (١٠٤)

﴿ وأزلفت الجنة ﴾ أي قرّبت مزخرفة من أهلها المتقين الذين عملوا لها في الدنيا ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ أي أظهرت وبدت منها عنقها فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر : وقيل لأهلها تقريعاً : ﴿ أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ أي لا تغني عنكم اليوم شيئاً ولا تدفع عن أنفسها ، فإنكم وإياها حصب جهنم أنتم لها واردون . وقوله تعالى : ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون ﴾ أي ألقى فيها بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾ أي ألقوا فيها عن آخرهم ﴿ قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين ۝ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ أي نطيعكم كما يطاع أمر رب العالمين وعبدناكم معه ﴿ وما أضلّنا إلا المجرمون ۝ فما لنا من شافعين ﴾ يشفعون لنا من الملائكة وغيرهم ﴿ ولا صديق حميم ﴾ أي قريب إلاّ صالحاًفيشفع ﴿ فلو أن لنا كرةً فنكون من المؤمنين ﴾ والله يعلم أنهم لكاذبون إذ لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أي إن في ذلك لدليلاً واضحاً في محاجّة إبراهيم لقومه أنه لا إله إلاّ الله ﴿ و إن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ تقدم تفسيره في أول السورة .

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ (١٠٧) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝ (١٠٩) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ (١١٠)

حزب ٣٨

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الشرك ، ونزّل الله تكذيبهم لنوح منزلة تكذيبهم لجميع الرسل ، فلهذا قال تعالى : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي إني رسول من الله حقاً وأمين على رسالته لا أزيد فيها ولا أنقص منها ﴿ فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر ﴾ أي لا أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم، ﴿إن أجري إلاّ على رب العالمين﴾ أي أدخر ثواب ذلك عنده تعالى ﴿ فاتقوا الله وأطيعونِ ﴾ فقد وضح لكم صدقي ونصحي وأمانتي فأطيعوني فيما أدعوكم إليه من توحيد الله تعالى ونبذ الشرك .

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ * (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * (١١٥) ﴾

كأنهم سألوه أن يستبعد المستضعفين حتى يتابعوه وذلك استكباراً منهم ، ولهذا : ﴿ قالوا أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون ﴾ أي نستوي معهم في الحقوق والواجبات والمكانة ﴿ قال وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ أي وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه ، إنما علي أن أقبل إيمانهم والله يتولّى سرائرهم ﴿ إن حسابهم إلاّ على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ فأبى عليهم ذلك ، لأنه رسول ربه فمن أطاعه واتبعه وصدقه فيما نزل عليه قبله سواء كان شريفاً أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً . ﴿ إن أنا إلاّ نذير مبين ﴾ أي إنما بعثت نذيرا

﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ *(١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي

ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

لما طال مقام نبيّ الله بين أظهرهم، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً وسراً وجهراً، وكلما دعاهم ازدادوا كفراً وعناداً فيه وإصراراً عليه فقالوا أخيراً: ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكوننّ من المرجومين ﴾ أي لنرجمنك، عندها دعا عليهم دعوة استجابها الله منه فقال: ﴿ رب إن قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحاً ﴾ كقوله: ﴿ فدعا ربّه أني مغلوب فانتصر ﴾ إلى آخر الآيةَ ... وقال ههنا: ﴿ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعدُ الباقين ﴾ والمشحون هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، أي أنجينا نوحاً ومن اتبعه كلهم، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾. وقد تقدم تفسيره.

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام ، أنه دعا قومه عاداً وكان قومه يسكنون الأحقاف ، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت ، متاخمة بلاد اليمن وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ﴾ ذلك أنهم كانوا في غاية القوة والطول المديد والبطش الشديد ، والأبناء والجنات والأنهار والزروع والثمار وكانوا مع كل هذه النعم يشركون بموليها جل وعز . فبعث الله اليهم هوداً عليه السلام رسولاً منهم بشيراً ونذيرا ، فدعاهم إلى توحيد الله وحذرهم نقمته وعذابه إلى أن قال : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾ والريع المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة ، فيبنون بكل ريع بنياناً هائلاً ﴿ تعبثون ﴾ أي دون احتياج إليه إنما مجرد اللهو وإظهار القوة مما لا يجدي في الدنيا والآخرة وقال : ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ أي تتخذون بنياناً عظيماً زائلاً عنكم كما زال عمن قبلكم ، ــ لأن كفرهم سيسبب دمارهم واستئصالهم عقاباً على ما فرطوا وسيتركون أبنيتهم عبرة لمن بعدهم كان أبو الدرداء يقول لأهل دمشق فيما قاله : ... فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟ ... وقوله : ﴿ واذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أي اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ أي إنْ كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم .

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * (١٤٠) ﴾

يخبر تعالى عن جواب قوم هود عليه السلام له بعدما حذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم وبيّن لهم الحق ووضحه : ﴿ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾

أي لا نرجع عما نحن عليه ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾ وهكذا الأمر كما قال تعالى : ﴿ ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ وقولهم ﴿ إن هذا إلاَّ خُلُق الأولين ﴾ بضم الخاء واللام يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد ، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ، ولهذا قالوا: ﴿ وما نحن بمعذَّبين ﴾ وعن ابن عباس في قولهم : ﴿ إن هذا إلاَّ خُلق الأولين ﴾ يقول : دين الأولين وقاله عكرمة وعطاء الخراساني وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ فكذبوه فأهلكناهم ﴾ أي استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتيه شديدة الهبوب فكان هلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره ، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ، وعاد هذه قبيلة من نسل إرم بن سام بن نوح فقوله تعالى ﴿ إرم ذات العماد ﴾ أي القبيلة التي تسكن العمد ، ومن زعم أن إرم مدينة فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب وليس لذلك أصل أصيل ولهذا قال تعالى : ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ أي لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم ولو كان المراد بذلك مدينة ، لقال : التي لم يبنَ مثلها في البلاد . وعلى كل فقد أهلك الله عاداً لما عتتْ وتكبرت وتجبرت وأصرت على كفرها فأرسل عليها ريحاً عاتية فحصبت بلادهم ، وكل شيء لهم كما قال تعالى : ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ وقال تعالى : ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجازُ نخل خاوية ﴾ أي بقوا أبداناً بلا رؤوس ، وذلك أن الريح كانت تقتلع الرجل وترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه وتكسر رأسه وتلقيه كأنهم أعجاز نخل منقعر فلم تغنِ عنهم الجبال والكهوف التي تحصنوا فيها من أمر الله شيئاً .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ● (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ● (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ● (١٤٣) فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ● (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ● (١٤٥) ﴾

وهذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله صالح عليه السلام ، أنه بعثه إلى قومه ثمود ، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة وقد قدمنا في سورة الأعراف الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام وكانت ثمود بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام . فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه ، وأخبرهم أنه لا ينبغي بدعوتهم أجراً منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عزّ وجلّ ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم . فقال :

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ ۝ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۝ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ (١٥٢) ﴾

يقول لهم واعظاً ، ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارّة ، وجعلهم في أمن من المحذورات ، وأنبت لهم من الجنات وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات. ولهذا قال : ﴿ ونخل طلعها هضيم ﴾ أي هو الطلع الرطب اللين إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضاً فهو هضيم وقوله : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ أي يتخذون من الجبال بيوتاً منحوتة أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ولهذا قال : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم فتعبدوه وتوحدوه ، وتسبحوه بكرةً وأصيلاً ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ يعني رؤساءهم وكبراءهم ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا

بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۞ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۞ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ۞ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۞ (١٥٩)

يخبر تعالى عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل انهم : ﴿ قالوا إنما أنت من المسحّرين ﴾ أي المسحورين لا عقل لك ؛ ثم قالوا : ﴿ ما أنت إلاّ بشر مثلنا ﴾ يعني فكيف أوحي إليك دوننا ؟ كما قالوا في الآية الأخرى : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر ۞ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ ثم إنهم طلبوا منه تدليلا على صدقه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء ، فأخذ نبيهم عليهم المواثيقَ لئن أجابهم اللهُ إلى سؤآلهم أيؤمنون ... ؟ فأعطوه ذلك: فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله تعالى أن يستجيب إلى سؤآلهم فانفطرت الصخرة عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها ، فآمن بعضهم ، وكفر أكثرهم ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ يعني ترد ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم ﴿ ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ، ترد الماء وتأكل المرعى وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شُرباً وريّاً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تآمروا على قتلها وعقرها ﴿ فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ۞ وإن ربكّ لهو العزيز ﴾ الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿ الرحيم ﴾ بمن تاب إليه وأناب .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ (١٦٢) فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ

إِلَّا عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام وهو ابن هاران بن آزر ابنُ أخي إبراهيم الخليل عليه السلام وكان قد بعث إلى أمةٍ، كانوا يسكنون سدوم، وأعمالها، التي أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور متاخمةً لجبال البيت المقدس فدعاهم إلى توحيد الله وإطاعة رسوله ونهاهم عن معصيةِ إتيان الذكور دون الإناث فقال:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزاً فِي ٱلْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

لما نهاهم نبيّ الله عن ارتكاب الفواحش من غشيان الذكور دون النساء، فقالوا: ﴿لئن لم تنته يا لوط﴾ عما جئتنا به ﴿لتكونن من المخرجين﴾ أي نتفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى عن قومه ﴿قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم ...﴾ فلما رأى أنهم لا يرتدعون عن ضلالتهم تبرأ منهم وقال: ﴿إني لعملكم من القالين﴾ أي المبغضين وأتبرأ منكم ثم دعا الله عليهم فقال: ﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾ قال الله تعالى: ﴿فنجيناه وأهلَه أجمعين إلاَّ عجوزاً في الغابرين﴾ وهي امرأته، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود والحجر حين أمره الله أن يسري بأهله إلاَّ امرأته، فأنجى المؤمنين، وأهلك الكافرين وعمهم بعذاب أليم وأمطر عليهم حجارةً من سجّيل فساء مطر المنذَرين.

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝(١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ (١٧٨) فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝ (١٨٠) ﴾

أصحاب الأيكة هم أهل مدين على الصحيح وكان نبي الله شعيب من أنفسهم والأيكة شجرة ، وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها فأمرهم شعيب بترك عبادتها وعبادة الواحد الأحد ، قيل إن شعيباً بعث إلى أمتين أو ثلاث أمم والحقيقة ما بعثه الله إلاّ لأصحاب الأيكة الذين هم أنفسهم أصحاب مدين ولكن وصفوا في كل مقام بشيء ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء الكيل والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء فدل ذلك على أنهم أمة واحدة .



﴿ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝ (١٨١) وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ (١٨٣) وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝(١٨٤) ﴾

يأمرهم عليه السلام بإيفاء الكيل والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال : ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴾ أي اجعلوه تاما وافيا في البيع والشراء ، خذوا كما تعطون وأُعطوا كما تأخذون من غير تطفيف . ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ والقسطاس هو الميزان ، وقيل : القسطاس العدل وقوله : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أي لا تنقصوهم أموالهم ﴿ ولا تعثَوا في الأرض مفسدين ﴾ يعني قطع الطريق وقوله : ﴿ واتقوا الذي خلقكم والجبلّة الأولين ﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل كما قال موسى عليه السلام : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ۝ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِنْ كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۝ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ (١٩١) ﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما اجابت به ثمود لرسولها ، تشابهت قلوبهم فقالوا : ﴿ إنما أنت من المسحّرين ﴾ أي المسحورين ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ أي تتعمد الكذب وإنك لست مرسلاً ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ أي أسقط علينا قطعاً من السماء ، كما قالت قريش وأخبر عنهم الله تعالى في قوله عز وجل ﴿ وقالو لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً... ﴾ إلى أن قالوا ... ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة : ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ... ﴾ الآية ﴿ قال ربّي أعلم بما تعملون ﴾ أي الله أعلم بكم وما تستحقون من العذاب ، فوقع بهم ما سألوا جزاءً وفاقاً. ولهذا قال تعالى : ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلّة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ قال قتادة : قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : إن الله سلط عليهم الحرَّ سبعةَ أيامٍ حتى ما يظلهم منه شيء ، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابةً فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها فأصاب تحتها برداً وراحة ، فأعلم بذلك قومه فأتوها جميعاً فاستظلوا تحتها ، فأججت عليهم ناراً . وهكذا روي عن عكرمة ، وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم قال ابن عباس : ... فذلك يوم الظلة انه كان عذابَ يومٍ عظيم ﴿ إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ أي العزيز في انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ (١٩٤)

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ● (١٩٥)

يخبر تعالى عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ لتنزيل رب العالمين ﴾ الذي أوحاه إليك ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿ على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ أي نزل به على قلبك سالماً من من الزيادة والنقص لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتّبعين له ﴿ بلسان عربيّ مبين ﴾ أي أنزلنا القرآن باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ليكون واضحاً قاطعاً للعذر مقيماً للحجة دليلاً إلى المحجة .

روى ابن أبي حاتم عن ابراهيم التيمي عن أبيه قال : ٣٨٥ـ[بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دجن إذ قال لهم : « كيف ترون بواسقها ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها قال : « فكيف ترون قواعدها ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها ، قال « فكيف ترون جريها ؟ » قالوا ما أحسنه وأشد سواده قال : « فكيف ترون رحاها استدارت ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : « فكيف ترون برقها: أوميض أو خفق أم يشق شقاً ؟ » قالوا بل يشق شقاً . قال « الحياء الحياء ان شاء الله » قال: فقال رجل : يا رسول الله ، بأبي وأمي ما أفصحك ، ما رأيت الذي هو أعرب منك قال : فقال « حق لي وإنما أنزل القرآن بلساني والله يقول : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾] .

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ● (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ● (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ● (١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ● (١٩٩)

يقول تعالى : وان ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بُشروا به في قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملئه بالبشارة بأحمد : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ والزبر جمع زبور وهو الكتاب ، والزبور الكتاب الذي نزل على داود عليه السلام ومعنى زبر الأولين أي كتب الأولين. ثم قال تعالى :﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه

علماء بني اسرائيل ﴾ أي أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن علماء بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها ، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته كعبد الله بن سلام وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ ولو نزّلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ أي أن قريشاً من شدة عنادهم وكفرهم لهذا القرآن : أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به كما قال تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارُنا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن الذين حقّت عليهم كلمةُ ربّك لا يؤمنون ﴾ .

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۞ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ۞ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۞ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۞ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۞ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ۞ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۞ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ (٢٠٩) ﴾

يقول تعالى : ﴿ كذلك سلكناه في قلوب المجرمين ﴾ أي كذلك أدخلنا التكذيب والكفر والجحود والعناد في قلوب المجرمين جزاءً وفاقاً لما كذبوا به أول مرة فسلكناه في قلوبهم عقاباً لهم وجعلناهم ﴿ لا يؤمنون به ﴾ أي بالحق الذي كفروا به ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ حين لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴿ فيأتيهم بغتةً ﴾ أي عذاب الله ﴿ وهم لا يشعرون * فيقولوا هل نحن منظرون ﴾ أي يتمنون لو يؤجلون ليعملوا في زعمهم بطاعة الله ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً كما حصل لفرعون لعنه الله . ولكن ما ينفع الندم إذا أتى أمر الله .

وقوله تعالى : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ إنكار عليهم وتهديد لهم ، فقد كانوا

يكذبون بالعذاب ويستبعدون وقوعه ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ أي لو أخرناهم وأملينا لهم حيناً من الزمن ، فما يجدي ذلك إذا جاء أمر الله.كما قال تعالى : ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردّى ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلاّ لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ وهذا إخبار عن عدله تعالى انه لا يهلك أمةً إلاّ بعد الإنذار ببعثة الرسل وقيام الحجة عليهم.كقوله تعالى : ﴿ وما كنا معذّبين حتى نبعثَ رسولاً ﴾ .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَاطِينُ ۞ (٢١٠) وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۞ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۞ (٢١٢) ﴾

يخبر تعالى عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك لأنه ما ينبغي لهم أي ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم لأن من سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة.ولهذا قال تعالى : ﴿ وما ينبغي لهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما يستطيعون ﴾ أي ولو انبغى لهم،ما استطاعوا حمله وتأديته،لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله ﷺ فلم يخلص من الشياطين أحد إلى استماع حرف واحد منه لئلاّ يشتبه الأمر ، وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأييده لكتابه ورسوله ولهذا قال عز من قائل : ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ .

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۞(٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۞ (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۞ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۞ (٢١٧) ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۞(٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۞(٢١٩) إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٢٢٠) ﴾

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له ، ويخبر أن من أشرك به عذبه • ثم أمر رسوله ﷺ أن يُنذر عشيرتَه الأقربين ، وانه لا يخلص أحداً منهم إلاَ إيمانُه بربّه عز وجل، وأمره أن يُلين جانبه لمن اتبعه من المؤمنين وليتبرأ ممن عصاه كائناً من كان من خلقه، ولهذا قال تعالى : ﴿ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي جزء من أجزائها،كما قال تعالى : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ وفي صحيح مسلم ٣٨٦ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلاّ دخل النار] .

وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة فلنذكر ما تيسر منها :

. الحديث الأول : روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ٣٨٧ [لما أنزل الله عز وجل : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى ﴿ يا صباحاه ﴾ فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء اليه وبين رجل يبعث رسوله ؛ فقال رسول الله ﷺ : « يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني لؤي أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ » قالوا نعم قال « فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب ، تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلاّ لهذا؟ وأنزل الله : ﴿ تبتْ يدا أبي لهب وتب ... ﴾ ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الأعمش به .

. الحديث الثاني : قال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ٣٨٨ [لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمّ وخصّ فقال : « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلاّ أن لكم رحماً سأبلها ببلالها»] . ورواه مسلم والترمذي وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة .

. الحديث الثالث ـ : روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : ٣٨٩ [لما نزلت : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : ﴿ يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية ابنةَ عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي

ما شئتم] انفرد بإخراجه مسلم . وقوله تعالى : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ أي في جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومعلي كلمتك . وقوله تعالى : ﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ أي هو يراك ومعتنٍ بك حين تقوم إلى الصلاة . وقوله تعالى: ﴿ وتقلّبك في الساجدين ﴾ أي ويراك في الصلاة وحدك ويراك مع الجماعة من صحابتك وقوله تعالى : ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .كما قال تعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تَعملون من عمل إلاّ كنّا عليكم شهوداً إذ تُفيضون فيه ﴾ الآية ...

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ ۞ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ۞ (٢٢٣) وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ ۞ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۞ (٢٢٦) إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ۞ (٢٢٧) ﴾

يخاطب تعالى الذين زعموا من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ عن ربه ليس حقاً وإنّما افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رِئي من الجان فنزّه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله ﷺ عن قولهم وافترائهم ، ونبّه ان ما جاء به إنما هو من عند الله وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وانه ليس من قبل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما ينزلون على من يشاكلهم . ويشابههم من الكهان الكذبة . ولهذا قال تعالى : ﴿ هل أنبئكم ﴾ أي أخبركم ﴿ على من تنزّل الشياطين ۞ تنزّل على كل أفاك أثيم ﴾ أي كذوب في قوله وهو الأفاك ﴿ أثيم ﴾ وهو الفاجر في أفعاله . فهذا الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان ، وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة ﴿ يلقون السمع ﴾ من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت

من السماء كما صح بذلك الحديث كما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها : ٣٩٠ [سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : « إنهم ليسوا بشيء » قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدّثون بالشيء يكون حقاً فقال النبي ﷺ « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنيّ فيقرقرها في أذن وليّه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها اكثر من مائة كذبة]) وقوله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ يعني الشعراء الكفار يتبعهم ضلاّل الإنس والجن قاله ابن عباس وغيره وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فئام من الناس ، ولهذا فئام من الناس.فأنزل الله تعالى : ﴿ والشعراء يتّبعهم الغاوون ﴾

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ « ٣٩١ [خذوا الشيطان — أو أمسكوا الشيطان . لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً] .

وقوله تعالى : ﴿ ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون ﴾ أي في كل لغوٍ وكل فن من الكلام يخوضون ، مرةً في شتيمة هذا ومرة في مديحه ، فيمدح ويذم بباطل ، وأكثر قولهم يكذبون فيه ، ويتبجحون بأقوالٍ وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيتكثرون بما ليس لهم . ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حداً هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ... ، لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين والأصح أنه لا يقام عليه الحد إلاّ إذا قارف فعلاً يوجب حداً فإن عمر بن الخطاب بلغه أن عامله على ميسان من أرض البصرة أنه قال شعراً ذكر فيه معاقرة الخمرة والسماع من القيان فعزله ولم يُقِمْ عليه الحد،لأنه تأكّد أنه لم يفعل شيئاً مما ذكره بشعره ولما حضر عامله بين يديه قال : والله يا أمير المؤمنين ما شربتُها قط وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني فقال عمر أظن ذلك ولكن والله لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلتَ ما قلتَ .

والمراد : أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر لأن حاله منافٍ لحالهم كما قال تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروحُ الأمين * على قلبك لتكون من المنذِرين * بلسان عربيٍ مبين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴾ إلى أن قال : ﴿ ... والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إن هذا استثناء مما تقدم قاله ابن عبّاس وعكرمة ومجاهد وغيرهم ولا شك أن هذا الاستثناء يدخل فيه كل شاعرٍ مؤمن ولو كان سابقاً مشركاً آمن وتاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً في ما تقدم من الكلام السيء فإن الحسناتِ يذهبن السيئاتِ وامتدحَ الاسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه كما قال عبدالله بن الزبعري حين أسلم :

يا رسولَ المليكِ إنّ لساني * راتقٌ ما فتقتُ إذْ أنا بُورُ
إذ أجاري الشيطانَ في سَنَنِ * الغيِّ ومن مالَ ميلَهُ مثبورُ

وقوله تعالى : ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين ؛ وكذا قال مجاهد وقتادة . وهذا كما ثبت في الصحيح ٣٩٢[ان رسول الله ﷺ قال لحسان: اهجهم – أو قال – هاجهم وجبريل معك] روى الإمام أحمد عن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبيّ ﷺ : ٣٩٣[ان الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل فقال رسول الله ﷺ « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل »]

وقوله تعالى : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ ان هذه الآية عامة في كل ظالم من الشعراء وغيرهم . وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : ٣٩٤ [إياكم والظلم فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة] .

وإلى هنا آخر اختصار تفسير سورة الشعراء والحمد لله رب العالمين .

٣ ربيع الآخر سنة ١٣٩٠
الموافق ٧ حزيران سنة ١٩٧٠



نزلت بعد الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

نصف الحزب

طسٓ تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۞ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۞ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۞ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۞ (٦)

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور . وقوله تعالى : ﴿ تلك آيات ﴾ أي هذه آيات ﴿ القرآن وكتاب مبين ﴾ أي بين واضح ﴿ هُدًى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي هو بشارة وهدى لمن اتبعه وصدقه ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ أي يقيمون الصلاة المكتوبة ويؤتون الزكاة المفروضة وايقنوا بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها والجنة والنار. كما قال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ الآية ولهذا قال هاهنا: ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي يكذبون بها ﴿ زيّنّا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴾ أي حسنّا لهم ما هم فيه ومدَدْنا لهم في غيّهم فهم يتيهون في ضلالهم جزاء تكذيبهم بالآخرة . ﴿ أولئك لهم سوء العذاب ﴾ أي في الدارين ﴿ وهم في الآخرة

هم الآخسرون ﴾ أي لا يخسر سواهم . وقوله تعالى : ﴿ وانك لتُلقّى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أي إنك يا محمد لتأخذ القرآن من عند حكيم في أمره ونهيه عليم بالأمور جليلها وحقيرها فخبره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام .

﴿ إذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝(٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ۝ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ۝ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝ (١٤) ﴾

يذكر تعالى نبيّه محمداً ﷺ ما كان من أمر موسى عليه السلام ، كيف اصطفاه الله وكلّمه ، وأعطاه المعجزات الباهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه فكفروا بها ، واستكبروا عن اتّباعه فقال تعالى: ﴿ إذ قال موسى لأهله ﴾ حين سار بأهله فأضلّ الطريق في الليل ﴿ إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر ﴾ عن الطريق ﴿ أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ أي تستدفئون به وكان كما قال . فإنه رجع منها بخبرٍ عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً.ولهذا قال تعالى: ﴿ فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها ﴾ حيث رأى ناراً تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرةُ إلا خضرة ″

ونضرة ثم رفع رأسه ، فإذا نورها متصل بعنان السماء ، قال ابن عباس وغيره . لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج ، فوقف موسى متعجباً مما رأى فـ﴿ نودي أن بورك من في النار ﴾ أي تقدس ﴿ ومن حولها ﴾ أي من الملائكة قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير .

وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن مرة ، سمع أبا عبيدة يحدث عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ٣٩٥ [إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عملُ الليل قبل النهار وعمل النهار ، قبل الليل » زاد المسعودي «وحجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصرُه» . ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾] وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة . وقوله تعالى : ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ المنزه عن مماثلة المحدثات . وقوله تعالى : ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ أعلَمَهُ أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عزّ كل شيء وقهره ، الحكيم في أقواله وأفعاله.﴿ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدْبراً ولم يعقب ﴾ أي أمَرَه أن يُلقيَ عصاه فألقاها من يده ، انقلبتْ في الحال حيّةً عظيمة في غاية الكِبرَ وسرْعةِ الحركة ، والجانّ نوع من الحيّات أسرعها حركةً وأكثرها اضطراباً . وفي الحديث نهي عن قتل جنان البيوت فلما عاين موسى ذلك﴿ولّى مدْبراً ولم يعقّب ﴾من خوفه.فقال تعالى :﴿ يا موسى لا تخفْ إني لا يخاف لدي المرسلون ﴾ أي لا تخف مما ترى وإنني اصطفيتك رسولاً ونبياً وجيهاً، وقوله تعالى : ﴿ الا من ظلمَ ثم بدل حسناً بعد سوءٍ فإني غفورٌ رحيم ﴾ هذا استثناء منقطع،وفيه بشارة عظيمة للبشر ، فمن عمل عملاً ثم أقلع عنه وتاب فالله يتوب عليه كقوله تعالى : ﴿ وإني لغفارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وأدخِلْ يدَك في جيبكَ تخرجْ بيضاءَ من غير سوءٍ ﴾ هذه آية أخرى ودليلٌ باهر على قدرة الله وهي انه إذا أدخلَ يدَه في جيب درعه خرجتْ بيضاءَ كأنها قطعةُ قمر،لها لمعان تتلألأ كالبرقِ الخاطف . وقوله تعالى : ﴿ في تسع آيات ﴾ أي هاتان ثنتان من تسع آيات أؤَيدُكَ بهن وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ والتسعُ آيات هي التي قال الله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات ﴾ [١] كما تقدّم تقرير ذلك هنالك.وقوله تعالى : ﴿ فلما جاءتهم آياتُنا مبصرةً ﴾ أي

(١) أي في سورة الإسراء آية /١٠١/ فليرجع إليها .

واضحة ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا صاغرين ﴿وجحدوا بها﴾ ظاهراً ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾ أي علموها أنها حق من عند الله لكنهم عاندوها ﴿ظلماً وعلواً﴾ أي ظلماً من أنفسهم واستكباراً عن اتباع الحق ولهذا قال تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي انظر كيف كانت عاقبتهم من الهلاك والغرق عن آخرهم في صبيحة واحدة. وفحوى الخطاب: تحذير قريش والمشركين عامة وسائر الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم من تكذيبهم لمحمد ﷺ أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من باب أولى، لأن محمداً أعظم من موسى وبرهانه أدل وأقوى، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له، عليه من ربّه وعلى الأنبياء عامة أفضل الصلوات وأتم التحيات.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْماً وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّالِحِينَ ۝ (١٩) ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة ما جمع لهما بين سعادة الدارين. والملك والتمكين التمام والنبوة والرسالة. ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي

فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام . وقوله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود ﴾ أي في الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال،فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله [٣٩٦ نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ، ما تركناه فهو صدقة] . وقال : ﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ أي أخبر سليمان عليه السلام بنعم الله وما وهبه من الملك التام حتى أنه سخر له الأنس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً وهذا ما لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر به الله ورسوله ﴿ ان هذا لهو الفضل المبين ﴾ أي الظاهر البين علينا . ولما قبض ملك الموت روح داود عليه السلام أمر سليمان عليه السلام الطير أظلي داود فظلّلَتْ عليه الطير .

وقوله تعالى : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ أي وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس فالجن فالطير وكانت الطير تظله في الحر بأجنحتها وقوله : ﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا أتوا على وادي النمل ﴾ أي حتى إذا مرَّ سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنَّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ ففهم سليمان مقالتها ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليّ من تعليمي منطق الطير والحيوان ، وعلى والديّ بالإسلام لك والإيمان بك وان أعمل عملاً تحبه ويكون متقبلاً عندك ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ أي إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك .

والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسّم ضاحكاً من ذلك ، وهذا أمر عظيم جداً .

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ ۝ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ (٢١) ﴾

قال محمد بن اسحق : كان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير ، وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿ فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ أخطأه بصري من الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟.

وقوله تعالى : ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه ﴾ لأعذبنّه بنتف ريشه وتشميسه أو لأقتلنّه ﴿ أو ليأتينّي بسلطان مبين ﴾ أي بعذر واضح . ولما قدم الهدْهد قصد مجلس سليمان .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۞ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ ٱللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۞ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ (٢٥) ٱللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۞ (٢٦) ﴾

سجدة

يقول تعالى : ﴿ فمكث ﴾ الهدهد ﴿ غير بعيد ﴾ أي غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ أي بخبر صدق حق يقين ، وسبأهم حمير وهم ملوك اليمن ثم قال : ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم ﴾ قال الحسن البصري : وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ، وكانت بأرض يقال لها مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل والله أعلم .

وقوله : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ أي ما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلىء تجلس عليه ، ولها ستمائة امرأة

تلي الخدمة وقوله : ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ﴾ أي عن طريق الحق ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ وقوله ... ، ﴿ الا يسجدوا لله ﴾ أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي اخلاص السجود لله تعالى وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها. كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ولا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إنْ كنتم إياه تعبدون ﴾ والمعنى : ألا يا قوم اسجدوا لله .

وقوله : ﴿ الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ﴾ أي ما جعل فيهما من الأرزاق المطر من السماء ، والنبات من الأرض . وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاسية ما ذكره ابن عباس وغيره من أن الهدهد يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلهـــا .

وقوله ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال كقوله تعالى : ﴿ سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ وقوله : ﴿ الله لا إله إلاّ هو رب العرش العظيم ﴾ الذي ليس في المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير ، وعبادة الله وحده والسجود له نهي عن قتله ، كما رواه الإمام أحمد وابو داود وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :٣٩٧ [نهى النبي ﷺ عن قتل اربع دواب: النملةُ والنحلةُ والهدهدُ[1] والصُّرَدُ وإسناده صحيح .

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ۞ (٢٧) ٱذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۞ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۞(٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ (٣١) ﴾

يخبر تعالى عن سليمان وقوله للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم ﴿ قال سننظر

(١) الصرد : طائر ضخم الرأس أبيض البطن أخضر الظهر يصطاد صغار الطير .

أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ أي أصدقت في خبرك هذا أم وددتَ أن تتخلص بالكذب من العقاب ﴿ إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾ فقد كتب سليمان كتابه وأعطاه ذلك الهدهد فحمله إلى بلقيس وقومها فجاء قصرها الى الخلوة التي تختلي فيها بنفسها فألقاه إليها من كوّة هنالك بين يديها ثم تولّى ناحية أدباً فتحيّرت وهالها ما رأت ، ثم عمدت إلى الكتاب فقرأته فإذا فيه : ﴿ إنّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلُوا علي وأتوني مسلمين ﴾ فجمعت الأمراء والوزراء وأكابر مملكتها ، ثم قالت لهم: ﴿ يا أيها الملأ إني ألقيَ إليّ كتاب كريم ﴾ تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره كون طائر ذهب به فألقاه إليها ، ثم تولّى عنها أدباً وانه لا يقدر على مثل هذا أحد من الملوك ثم قرأته عليهم ... فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام ، وأنه لا قبل لهم به وانه يأمرهم ألاّ يتكبروا ويتجبروا عليه بل يأتوه مسلمين موحدين مخلصين طائعين . قال ميمون بن مهران كان رسول الله ﷺ يكتب : باسمك اللهم حتّى نزلت هذه الآية فكتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

قال العلماء : لم يكتب أحد ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ قبل سليمان عليه الصلاة والسلام . ﴿ أن لا تعلوا عليّ ﴾ لا تجبّروا ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ موحدين

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُو۟لُوا قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ (٣٥) ﴾

لمّا قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها ، ولهذا قالت : ﴿ يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتّى تشهدون ﴾ أي حتّى تحضروني وتشيروا عليَ ﴿ قالو نحن أولو قوةٍ وأولو بأسٍ شديد ﴾ أي نوهوا لها بعددهم وعدتهم وقوتهم ثم فوضوا الأمرَ إليها فقالوا : ﴿ والأمرُ إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ إن شئت

حاربناه أو هادنّاه فالأمر إليكِ نمتثله ونطيعه ، فلما علمت وعلموا بأنه لا قبل لهم بجنوده وما سُخِّرَ لَهُ من الأنس والجن والطير وما شاهدت من أمر الهدهد فقالت : إني أخشى أن يقصدنا بجنوده ويهلكنا ﴿ ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ أي إذا دخلوها عنوةً أفسدوها ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ أي أهانوهم قتلاً أو أسراً قال الرب عز وجل : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ ثم عدلت إلى المصالحة والمصانعة فقالت : ﴿ وإنّي مرسلة إليهم بهدية فناظرةٌ بم يرجع المرسلون ﴾ فإن قبلها أي قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه وان لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَانِيَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُمْ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝ (٣٦) ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝ (٣٧) ﴾

إن الهدية التي أُرسلتها بلقيس إلى سليمان عليه السلام لم ينظر إليها ولا اعتنى بها بل أعرض عنها وقال منكراً عليهم : ﴿ أتمدونن بمال ﴾ ؟ أي اتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملكِكم ؟ ﴿ فما آتاني اللهُ خير مما آتاكم ﴾ أي الذي اعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ بالهدايا والتحف أما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف . قال الأعمش عن ابن عباس : أمر سليمان الشياطين فموّهوا له ألف قصر من ذهب وفضة ، فلما رأت رسلها ذلك قالوا : ما يصنع هــذا بهديتنا ؟ وفي هذا جواز بتهيؤ الملوك واظهارهم الزينة للرسل والقصّاد ، قال سليمان : ﴿ إرجع إليهم ﴾ أي بهديتهم ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبلَ لهم بها ﴾ أي لا طاقة لهم بقتالهم ﴿ ولنخرجنهم منها أذلة ﴾ أي من بلدتهم ﴿ وهم صاغرون ﴾ أي مهانون مدحورون . فلما رجع وفد بلقيس بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها ، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة ، معظِّمةً لسليمان ناويةً متابعتَه على الاسلام ، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومُهم عليه ، ووفودَهم إليه فرحَ بذلك وسره .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي

مُسْلِمِينَ ❁ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ ٱلْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ❁ (٣٩) قَالَ ٱلَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ❁ (٤٠)

فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرته شيئاً وبعثت إليه: إني قادمة اليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه وكان من ذهب ولؤلؤ وزبرجد فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض وأوصت بحفظه ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر الف قيل من ملوك اليمن وكانت الجن تأتي لسليمان بأخبار بلقيس كل يوم وليلة حتى إذا قربت جمع من عنده من الجن والإنس فقال: ﴿ يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ فكره أن يأخذه بعد إسلامهم قبل أن تحرم عليه دماؤهم وأموالهم ﴿ قال عفريت من الجن ﴾ أي مارد منهم ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ أي من مجلسك أي من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿ واني عليه لقويٌّ أمين ﴾ أي قوي على حمله أمين على ما فيه من الجواهر فأراد سليمان أعجل من ذلك إظهاراً لعظمة ما وهب الله له من الملك وما سخّر له من الجنود الذي لم يعطَ أحد من قبله ولا يكون لأحد من بعد، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن الإتيان بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه أمر خارق عظيم لاسيما وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ قال ابن عباس: وهو اصف كاتبُ سليمان وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم [1] ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد

(١) قلت: وقيل جبريل عليه السلام، وقيل ملك أيّد الله به سليمان عليه السلام وقيل هو سليمان نفسه كأنه استبطأ العفريت فقال له أنا أريك ما هو أسرع مما تقول. وأرجح أنه سليمان عليه السلام نفسه لأنه نبي ورسول وملك فلا ينبغي أن يكون من حاشيته أعلم بالكتاب منه.فالذي عنده علم من الكتاب أيكون أحدَ حاشيتهِ أو كاتبَه ...؟ ويكون لديه من القوة أعظم مما لدى سليمان نفسه؟ وكيف يكون ذلك وقد استجاب الله دعوة سليمان «وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب» فكيف يكون لكاتبه قوة أقوى =

اليك طرفك ﴾ فلم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه ﴿ قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ﴾ أي هذا من نعم الله علي ليختبرني أأشكر نعمته أم أكفرها .

وقوله : ﴿ ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ أي هو غني عن العباد وعبادتهم . كريم في نفسه وان لم يعبدوه فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد وهذا كما قال موسى : ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۞ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۞ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ۞ (٤٣) قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٤٤) ﴾

لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به فغيرت بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته أتعرفه أم لا فقال : ﴿ نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ فزادوا فيه ونقصوا ﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ﴾ فكان فيها ثبات وعقل ولها دهاء وحزم فلم تقطع بأنه هو ﴿ قالت كأنه هو ﴾ أي يشبهه ويقاربه ، وهذا غاية في الذكاء والحزم . وقوله : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ أي كان مسلماً قبلها وما منعها من عبادة الله وحده إلا ان كانت من قوم كافرين . لذا قال سليمان ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم

= منه أو ليست القوة من أهم أسباب الملك ، لا سيما وإنه نبي مؤيد بالمعجزات ... فبدهي أن يكون عند سليمان علم من الكتاب وذلك من باب أولى من جميع أفراد مملكته ... وإلا فيكون في مملكته من هو أصلح للنبوة والملك منه ! ! ! يا سبحان الله ... آصف يكون عنده علم من الكتاب وسليمان يجهل هذا العلم ... ! ! ! ؟ فأما إذا لم يكن سليمان عليه السلام ، فلا بد من أن يكون جبريل عليه السلام أو يكون ملكاً آخر ... ويستبعد جداً أن يكون أحداً من حاشيته ... والله تعالى أعلم .

كافرين ﴾ وهذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، في قول مجاهد وسعيد بن جبير ويؤيد قول مجاهد أنها إنما اظهرت الاسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي ...

وقوله : ﴿ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجةً وكشفت عن ساقيها ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين ، فبنوا لها قصراً عظيماً من الزجاج وأجرى تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء لكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه . وذلك ليريها ملكاً هو أعز من ملكها فلما رأته حسبته لجةً من ماء وكشفت عن ساقيها لتخوضه ﴿ قال إنّه صرح ممرد من قوارير ﴾ فلما وقفت على سليمان دعاها الى عبادة الله تعالى ، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله فقالت بقول الزنادقة فوقع سليمان ساجداً لله إعظاماً لما قالت وسجد معه الناس فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ماذا قلت ؟ فقالت : ﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ فاسلمت وحسن إسلامها وأخلصت في عبادة الله وحده لا شريك له الذي خلقَ كل شيءٍ فقدره تقديراً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۞ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ۞ (٤٧) ﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيّها صالح عليه السلام حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ أي مؤمن وكافر كقوله تعالى : ﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ وهاهنا : ﴿ قال يا قوم لمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنةِ ﴾ أي لمَ تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته ولهذا قال : ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾ أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً وذلك أنهم — لشقائهم — كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلاّ قال هذا من قِبَل صالح

وأصحابه كما قال تعالى مخبراً عن قوم فرعون : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه ﴾ وقال هؤلاء : ﴿ اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله ﴾ أي يجازيكم على ذلك ﴿ بل أنتم تفتنون ﴾ أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۞ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۞ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ (٥٣) ﴾

يخبر تعالى : عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم الى الضلال والكفر وتكذيب صالح عليه السلام حتى آل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح عليه السلام بأن يُبيّتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلةً ، ثم يقولوا لأهله وأقربيه ، إنهم ماعلموا شيئاً من أمره وإنهم لصادقون.فقال تعالى : ﴿ وكان في المدينة ﴾ أي مدينة ثمود ﴿ تسعة رهط ﴾ أي تسعة نفرٍ ﴿ يفسدون في الأرض ولا يُصلحون ﴾ وهؤلاء هم الذين عقروا الناقةَ ، وكان أشقاهم اسمُه قدار بن سالف عاقر الناقة بيده وهو الذي ذكره الله بقوله : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ والغرض ان هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد بكل طريق يقدرون عليها .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنُبيّتنه وأهله ﴾ أي تحالفوا على اغتيال نبي الله صالح عليه السلام ، وبينما هم يتسلقون على صالح ليقتلوه ويفتكوا به إذ بعث عليهم صخرةً فاهمدتهم ، وأنجى الله صالحاً ومن معه ولهذا قال تعالى : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا

مكراً وهم لا يشعرون • فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين • فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنّ في ذلك لآيةً لقوم يعلمون • وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ ٱلنِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ ٱلْغَابِرِينَ ۝ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنْذَرِينَ ۝ (٥٨) ﴾



يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكور دون الإناث فاستغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء.فقال : ﴿ أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ أي يرى بعضكم بعضاً ، وتأتون في ناديكم المنكر ﴿ أإنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴾ أي لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً.﴿ فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ أي يتحرجون من فعل ما تفعلونه وإقراركم عليه فاخرجوهم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم فعزموا على ذلك ، فدمّر الله عليهم وللكافرين أمثالهم.قال الله تعالى : ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ﴾ أي من الهالكين مع قومها ، لأنها كانت رداءً لهم على دينهم وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله ﷺ لا كرامة لها [1] . وقوله تعالى :

(١) قلت : وهذا ما يؤيد رأينا بعصمة نساء الأنبياء من اقتراف الزنا حتى لو كانت كافرة فانه قد يقدرُ عليها الكفرُ والشركُ ولا يقدر عليها الزنا تنزيهاً لبيوتهم الطاهرة وأنسابهم الطيبة أن تلوثها الفاحشة فالأنبياء معصومون من أن يكونوا أزواجاً لزانيات فلزم أن يكن نساؤهم طاهرات من الزنا ومعصومات منه بعصمتهم أي تبعاً لعصمة الأنبياء من هذه الفواحش .

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ أي حجارةً من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد. ولهذا قال: ﴿ فساءَ مطر المنذرين ﴾ أي الذين قامت عليهم الحجة، ووصل اليهم الإنذار فخالفوا الرسول وكذّبوه وهمّوا بإخراجه من بينهم .

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول : ﴿ الحمد لله ﴾ أي على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يسلّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم الأنبياء والرسل الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام .

كقوله تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ والمراد أن الله تعالى بعدما أخبر ما فعل بأوليائه من التأييد والنصر وما أحلّ بأعدائه من الخِزي والنّكالِ والقهر، أمر رسوله ومن اتبعه أن يحمَدوه على جميع أفعاله وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار

وقوله تعالى : ﴿ الله خير أم ما يشركون ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى ثم قال تعالى : ﴿ أم من خلق السموات والأرض ﴾ أي خلق السموات وما فيها من الكواكب والأفلاك والشموس التي لا يعلمها ولا يحصيها إلاّ هو وخلق الأرض وما جعل فيها من الجبال والسهول والأوعار والفيافي والقفار والزروع والأثمار والبراري والبحار وما فيهن ومن فيهن ﴿ وأنزل لكم من السماء ماء ﴾ أي جعله رزقاً للعباد ﴿ فأنبتنا به حدائق ﴾ أي بساتين ﴿ ذات بهجة ﴾ أي منظر حسن بهي ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرُها ﴾ أي لم تكونوا تقدرون على ذلك فهو تعـالى المنفرد بالخلق المستقل بالرزق كما يعترف بذلك المشركون كما قال تعالى في الآية الأُخرى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُن الله ﴾ أي هم معترفون بأنه الفـاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره.فكما أنه خالق ورازق وحده لزم ان يكون معبوداً

وحده لا شريك له. ولهذا قال سبحانه : ﴿ أإله مع الله ﴾ أي أمعبود مع الله فالجواب أن لا أحد فيقال: كيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المنفرد بالخلق والرزق والتدبير ؟ كما قال تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يَخْلُق ﴾ الآية وقوله تعالى هاهنا ﴿ أم من خلق السموات والأرض ﴾ وكلمة ﴿ أمّن ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره أمّن يفعل هذه الاشياء كمن لا يقدر على شيء منها ، لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك وقد قال الله تعالى : ﴿ الله خير أم ما يشركون ﴾ ؟ . وقال في الآية الأُخرى : ﴿ بل هم قوم يعدلون﴾ أي يجعلون لله نظيراً ومثيلاً مما لا يسمع ولا يبصر ولا يقدر على شيء من هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله ؟ .

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦١)

يقول تعالى : ﴿ أمّن جعل الأرض قراراً ﴾ أي لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم فانها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ﴿ وجعل خلالها أنهاراً ﴾ أي جعل فيها الأنهار العذبة وسيرها في الأرض بحسب مصالح عباده ﴿ وجعل لها رواسي ﴾ اي جبالاً ترسيها وتثبتها لئلاّ تميد بكم ﴿ وجعل بين البحرين حاجزاً ﴾ أي بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً من الاختلاط لئلاّ يفسد هذا بهذا ، فان البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة العذبة تسقي النبات والثمار ، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء من كل جانب وجعل ماءها أجاجاً لئلا يفسد الهواء بريحها ﴿ أإله مع الله ﴾ يعبد ...!!؟ ﴿ بل اكثرهم لا يعلمون ﴾

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٦٢)

قوله تعالى: ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلاّ إليه والذي لا يكشف ضرّ المضرورين سواه . كقوله تعالى : ﴿ واذا مسّكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إياه﴾ روى الإمام أحمد عن رجل[١] من بلهجيم قال : ٣٩٨ [قلت

(١) هو جابر بن سليم المجيمي .

يا رسول الله إلامَ تدعو ؟ قال : « أدعو إلى الله وحده الذي إن مسّك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إذا أضللت بأرض قفر فدعوته ردَّ عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك » قال ؛ قلت أوصني ، قال : « لا تسبن أحداً ولا تزهدنَّ في المعروف ولو أن تلقى أخاك وانت منبسط اليه وجهك ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي وأتزر إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين ، وإياك واسبال الإزار فإن اسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة»] ومن وجهٍ آخرَ، زاد الصحابيُّ فقال: فما سببت بعده أحداً ولا شاةً ولا بعيراً .]

وحكي أن رجلاً رافق رجلاً آخر في سفر فغدر به وهمَّ بقتله فحاول التخلص منه بالتضرع وبتخويفه من الله فما كان يزداد إلا إصراراً على قتله فقال : إذاً دعني اصلّي ركعتين قال: فخفّف.فوقف يصلّي ولكن ارتج عليه من شدة الخوف ولم يحضره من القرآن ولا حرف واحد قال فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول : هيه افرغ فأجرى الله على لساني قوله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخرَّ صريعاً فتعلقت بالفارس وقلت : بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً .

وقوله تعالى : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أي يخلف قرن قرناً وخلف سلفاً كقوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفةً ﴾ أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدمنا تقريره [1] وهكذا هذه الآية : أي أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل ﴿ أإله مع الله ﴾ أي بعد هذا التفصيل وإقامة حجج الله البالغة على أولئك الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر وعلموا ان الله هو المتفرد بالخلق ويجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده لا شريك له ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (٦٣) ﴾

(١) راجع سورة البقرة الآية رقم /٣٠/ والتعليق عليها

يقول تعالى: ﴿ أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ﴾ أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية . كما قال تعالى : ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ أي بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين القنطين ﴿ أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ .

﴿ أَمَّنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٦٤) ﴾

أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أي بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض كما قال تعالى : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ فهو تبارك وتعالى ويُنزل من السماء ماء مباركاً فيسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزاهير ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أإله مع الله ﴾ الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى التي مرَّ ذكرها في الآيات المتقدمة ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على صحة عبادتكم لغير الله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ذلك وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى : ﴿ ومن يدعُ مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۞ (٦٥) بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ۞ (٦٦) ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلّماً لجميع الخلق انه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلاّ الله . وقوله تعالى : ﴿ إلاّ الله ﴾ استثناء منقطع ، أي لا يعلم أحد ذلك إلاّ الله عز وجل فانه المنفرد بذلك وحده لا شريك له . كما قال تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾

أي وما يشعر الخلائق جميعاً بوقت الساعة . كما قال تعالى : ﴿ ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلاّ بغتة﴾ روى ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها . قالت : ٣٩٩ [من زعم أنه يعلم – يعني النبي ﷺ – ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية لأن الله تعالى يقول : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله »] .

وقوله تعالى : ﴿ بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها ﴾ أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها . وان علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك

وقوله تعالى : ﴿ بل هم في شك منها ﴾ والمراد عائد على الكافرين فهم شاكّون في وجودها ووقوعها ﴿ بل هم منها عمون ﴾ أي في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً وَءَابَاؤُنَا أَءِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۞ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين المنكرين للبعث الذين قالوا : ﴿ لقد وُعدْنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ﴾ أي نسمع ولا نرى حقيقةً ﴿ إنْ هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ أي خرافاتهم . فرد الله عليهم : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهم ﴿ سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ أي المكذبين ، وكيف حلّ بهم العذاب والنكال ، ونجى الله رسله الكرام ومن معهم . فدل على صحة رسالاتهم ، ثم قال تعالى مسلّياً نبيّه ﷺ ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي لا تأسف على المكذبين ﴿ ولا تكنْ في ضيق ممّا يمكرون ﴾ في كيدك وتكذيبك فإني سأنصرك وأعلي دينك .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ۞ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۞ (٧٣)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

يخبر تعالى عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ فأجابهم تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ عسى أن يكون رَدِفَ لكم بعض الذي تستعجلون ﴾ قال ابن عباس : ان يكون قرب لكم بعض الذي تستعجلون كقوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وإن ربك لذو فضل على الناس ﴾ أي في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم وهم مع ذلك لايشكره إلاّ القليل منهم ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ أي يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر كقوله تعالى: ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما من غائبة في السماء والأرض ﴾ أي كل ما غاب عن العباد علمه في السماء والأرض إلا والله عالم به لا يعزب عن علمه ذرة ، وما من ذلك شيء ﴿ إلاّ في كتاب مبين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

يخبر تعالى عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بني اسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿ أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ كاختلافهم في عيسى فاليهود افتروا ، والنصارى غلوا ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل

أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام ، عليه أفضل الصلاة والسلام كما قال تعالى : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ بحكمه وهو العزيز ﴾ أي في انتقامه ﴿ العليم ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم ﴿ فتوكل على الله ﴾ أي في جميع أمورك وبلّغ رسالة ربك ﴿ انك على الحق المبين ﴾ وإن خالفك الكافرون الذين لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية . ولهذا قال تعالى : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ لأن حالهم في عدم سماع الحق يشبه حال الموتى الذين تعطل سمعهم بالموت ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولّوا مدبرين * وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم * إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أي إنما يستجيب لك من ينفعه سمعه وبصره الخاضع لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل الكرام على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأتم السلام .



﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝ (٨٢) ﴾

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابةً من الأرض ، قيل من مكه ، وقيل من غيرها كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى . فتكلّم الناس على ذلك وتخاطبهم مخاطبة ؛ وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان .

قال الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : ٤٠٠ [أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفته ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : ١ ــ طلوع الشمس من مغربها ، ٢ ــ الدخان ، ٣ ــ الدابة ، ٤ ــ خروج يأجوج ومأجوج ، ٥ ــ خروج عيسى ابن مريم عليه السلام ، ٦ ــ الدجال ، وثلاثة خسوف : ٧ ــ خسف بالمغرب ، ٨ ــ وخسف بالمشرق ، ٩ ــ وخسف بجزيرة العرب ، ١٠ ــ ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا] . وهكذا رواه مسلم وأهل السنن .

* حديث آخر : قال مسلم بن الحجاج عن عبدالله بن عمرو قال : ٤٠١ [حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابّة على الناس ضحى ، وأيتهما كانت

قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً »] .

* حديث آخر : روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : ٤٠٢ [بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان والدجال والدابة ، وخاصة أحدكم وأمر العامة] .

قال ابن جريج عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فيما وصف ... ثم تقول الدابة لهم : يا فلان ، أبشر أنت من أهل الجنة ، ويا فلان انت من أهل النار ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابةً من الأرض تكلمهم أنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * (٨٤) وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ * (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * (٨٦) ﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل يسألهم عما فعلوه في الدنيا توبيخاً وتحقيراً فقال تعالى : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ أي من كل قوم وقرن فوجاً أي جماعة ﴿ ممّن يكذب بآياتنا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يساقون ﴿ حتّى إذا جاءوا ﴾ ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم : ﴿ فلا صدَّق ولا صلَّى * ولكن كذب وتولىّ ﴾ فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به أمام مقام المساءلة المتمثل في قوله تعالى : ﴿ قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أمْ ماذا كنتم تعملون ﴾ فما كان واقعهم إلاَّ كما قال الله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذ ن لهم فيعتذرون ﴾ وهكذا قال هاهنا : ﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم جواب لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة ، الذي لا تخفى عليه خافية .

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته ، والانقياد لأوامره وتصديق أنبيائه فيما جاءوا به من الحق الذي لا محيد عنه فقال تعالى : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ﴾ أي في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه ويستريحون من التعب في نهارهم ﴿ والنهار مبصراً ﴾ أي منيراً مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون في المعايش والأسفار والتجارات وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها : ﴿ ان في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ ٱللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ۝ (٨٧) وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ (٩٠) ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه . وفي حديث الصور : إن اسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها وذلك في آخر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿ إلاّ من شاء الله ﴾ وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون . روى الإمام مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ : ٤٠٣[يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين ـ لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً[1] ـ فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحاً باردةً من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلاّ قبضته ، حتى لو أن أحداً دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه» قال : سمعتها من رسول الله ﷺ قال « فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع

(١) الشك من الراوي .

لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل الشيطان لهم فيقول : الا تستجيبون فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيامرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارَ رِزقهم وحُسنَ عَيْشُهم ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلاّ أصغى ليتاً ورفع ليتاً -قال- أو قال ينزل الله-مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم أنهم مسؤولون ، ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق] .

وقوله ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلاّ أصغى ليتاً ورفع ليتاً . الليت هو صفحة العنق ، أي أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً ، فهذه نفخة الفزع ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت،ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق . ولهذا قال تعالى : ﴿ وكل أتَوْه داخرين ﴾ أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره.كما قال تعالى : ﴿ ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ وفي حديث الصور انه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في ثقب في الصور ثم ينفخ اسرافيل فيه بعدما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نوراً ، وأرواح الكافرين ظلمةً ، فيقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لترجعَنَّ كل روح إلى جسدها ، فتجيء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السمُّ في اللديغ ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرَّ السحاب ﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه وهي تمر مرَّ السحاب ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿الذي أتقن كل شيء﴾ أي أتقن كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع : ﴿ انه خبير بما تفعلون ﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه أتم الجزاء .

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذٍ فقال : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ هي : لا إله الا الله ، ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبَّت وجوههم في النار ﴾ أي من لقي الله مسيئاً لا حسنة له ، أو قد رجحت سيئآته على حسناته كل بحسبه ، ولهذا قال

تعالى : ﴿ هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون ﴾ والسيئة التي جاءت في قوله تعالى : ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ قال جماعة من الصحابة والتابعين وغيرهم يعني الشرك .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ (٩٢) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ (٩٣) ﴾

يخبر تعالى رسوله ويأمره أن يقول : ﴿ انما أمرت أن أعبد ربَّ هذه البلدة الّذي حرّمها وله كل شيء ﴾ كما قال تعالى : ﴿ قلْ يَا أيّها النّاس إنْ كنتم في شكٍّ من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفّاكم ﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها . كما قال تعالى : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الذي حرّمها ﴾ أي هو الذي حرمها فصارت حراماً شرعاً وقدراً . كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : ٤٠٤ [ان هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفّر صيده ولا يُلتقَط لقطته إلاّ من عرفها ولا يختلى خلاها] وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع ، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام ، ولله الحمد والمنّة .

وقوله تعالى : ﴿ وله كل شيء ﴾ من باب عطف العام على الخاص ، أي هو رب هذه البلدة ورب كلِّ شيء ومليكه لا إلّه إلاّ هو ﴿ وأمرتُ أن أكون من المسلمين ﴾ أي الموحّدين المطيعين له . وقوله تعالى : ﴿ وأن أتلو القرآن ﴾ أي على الناس أبلغهم إيّاه ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ أي لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم وحساب أممهم على الله تعالى . كقوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ أي لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلاّ بعد قيام

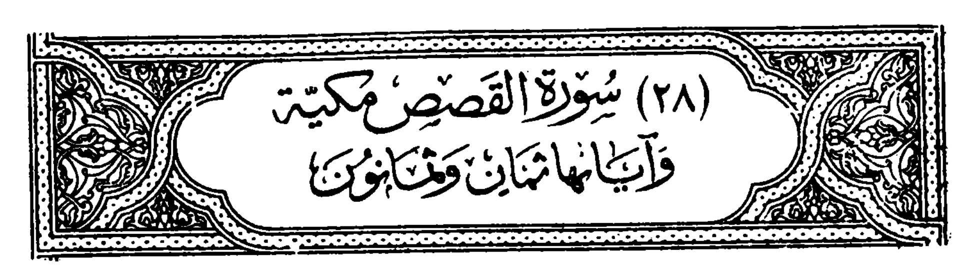
الحجة عليه ، والإنذار إليه. كقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق . ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وما ربّك بغافل عما تعملون ﴾ أي بل هو شهيد على كلّ شيء .
قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يقول : ٤٠٥ قال رسول الله ﷺ [يا أيها الناس لا يغترَّنَّ أحدُكم بالله ، فإن اللهَ لو كان غافلاً شيئاً لأغفلَ البعوضةَ والخردلة والذرة] وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين إمّالـه وإمّا لغيره .

اذا ما خلوت الدهرَ يوماً فلا تَقُلْ خلَوتُ ولكنْ قلْ عليَّ رقيبُ
وَلا تَحسبنَّ اللهُ يَغفــلُ سَاعةً وَلاَ أنَّ ما يَخْفَى عَلَيْهِ يَغيبُ

آخر اختصار تفسير سورة النمل ولله الحمد والمنة .

١٣٩٠/٤/٩
١٩٧٠/٦/١٣



إلاّ من الآية ٥٢ – ٥٥ فمدنية نزلت بعد النمل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ۞ (١) تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ۞ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ ۞ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۞ (٦)

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة ... وقوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات الكتاب الواضح الجلي ، الكاشف عن الحقائق ، وعلم ما قد كان وما هو كائن وقوله تعالى : ﴿ نتلو عليك من نبإِ موسى وفرعون بالحقّ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ أي نذكر لك أخبار الأوّلين كأنك تشاهدها . ﴿ إنّ فرعون علا في الأرض ﴾ أي تكبّر وتجبّر ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ أي أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يحب من أمور دولته .

وقوله تعالى : ﴿ يستضعف طائفةً منهم ﴾ يعني بني إسرائيل ، وكانوا في ذلك الوقت خيارَ أهل زمانهم ، وقد تسلّط فرعون عليهم واستعملهم في أخس الأعمال ، ليلاً ونهاراً وفوق ذلك يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم خشية أن يأتي منهم مولود يكون هلاك فرعون على يدَيْه بناءً على البشارة التي بشّر بها إبراهيم عليه السلام بعد إنقاذ

الله لزوجته سارة التي أراد أن يغتصبها جبار مصر في زمنه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فأمر بذبح كل مولود ذكر من بني اسرائيل ولكن لن ينفع حذر من قدر ولكل أجل كتاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استُضعِفوا في الأرض – إلى قوله – يحذَرون ﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى ﴿ كذلك وأورثناها بني اسرائيل ﴾ فما نفع فرعونَ حذرُه مع قدرة الملِكِ العظيم جل جلالُهُ بل نفذ حكمُه وقدَرُه وأهلكَ فرعونَ وجنودَه لأن ربَّ السموات العلىَ هو القاهرُ الغالبُ القويُّ العزيزُ .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ (٩) ﴾

أكثر فرعون من قتل ذكور بني اسرائيل حتى ان القبط خافوا أن يفنَى بنو إسرائيل فلا يقومُ بعدَهم من يقوم وقتئذ بالأعمال الشاقة فكلموا فرعون بذلك فأمر فرعون بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً ، فكان أن قدر الله ولادة هارون في سنة التَرك وولد موسى في سِنَةِ القَتل .

ومن لطف الله تعالى بأم موسى أنها لم يظهر عليها مخايل الحمل ولم تفطن لها الدايات اللائي كن يدرْن بين نساء بني إسرائيل لمعرفة الحاملات ، فلما وضعت أم موسى ابنها موسى ضاقت به ذرعا وخافت عليه وأحبته حباً شديداً وكان لا يرى أحدٌ موسى إلاّ وأحبّه.قال الله تعالى : ﴿ وألقيتُ عليك محبة ًمنيّ ﴾ وقد ألهمها الله تعالى ونفث في روعها ، كما قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه.فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ فلما ألقته في اليم أي في ساحل نهر النيل فذهب مع الماء واحتمله حتى مرَّ به على دار فرعون فالتقطه الجواري فاحتملنهُ فذهبن به إلى امرأةِ فرعونَ ولا يدرينَ ما فيه ، وخشين أن يفتحنَه

دونها فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه ، فأوقع الله محبّته في قلبها حين نظرت إليه وذلك لما أراد الله من كرامتها ، وشقاوة بعلها ولهذا قال تعالى : ﴿ فالتقطه آلُ فرعون ليكونَ لهم عدوّاً وحزَناً ﴾ فإن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعلَه عدوّاً لهم وحَزَناً . ولهذا قال تعالى : ﴿ إنّ فرعون وهامان وجنودَهما كانوا خاطئين ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وقالت امرأةُ فرعون قرّة عين لي ولك ﴾ يعني إن فرعون لما رآه همّ بقتله خوفاً من أن يكون من بني اسرائيل فشرعت آسية بنت مزاحم ، تخاصم عنه وتحببهُ إلى فرعونَ فقالت : ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ فقال فرعون أمّا لكِ فنعم ، وأمّا لي فلا ؛ فكان كذلك ، وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه .

وقوله تعالى : ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ فهداها الله به وأسكنها الجنة ، ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ أي أرادت أن تتَّخذَه ولداً وتتبنّاه إذ لم يكن لها ولد منه. وقوله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجّة القاطعة .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ (١٣) ﴾

نصف الحزب

يخبر تعالى عن فؤآد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً أي من كل شيء إلاّ من موسى [1] وقوله تعالى : ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ أي تظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن ثبّتها الله .

---

(١) قلت : ولكنني أفهم من قوله تعالى « وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً » أنه فرغ حتى من موسى نفسه لاطمئنانها وثقتها بالله الذي تولى حفظه وردّه إليها ، فإن كان هذا صواباً فمن الله أو خطأ فمن نفسي .

قال تعالى: ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها لتكونَ من المؤمنين * وقالت لأخته قصّيه ﴾ أي اتّبعي أثرَه وخذي خبرَه فخرجت لذلك ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ أي جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ، ولما أحبته امرأة فرعون ، واستنقذَته منه عرضوا عليه المراضع فلم يقبلْ منها ثدياً فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون مرضعةً تصلح له فلما رأته أخته ، بأيديهم عرفته،ولم تظهر ذلك.قال الله تعالى : ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ أي تحريماً قدَرّياً ، وذلك لكرامته عند الله وجعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعَه ، وهي آمنة بعدما كانت خائفةً ، فلما رأتْهم حائرين فيمن يرضعه ﴿ قالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفُلونَه لكمْ وهم له ناصحون ﴾ فوثقوا منها بعد أن شكّوا وذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا جداً وبشروا امرأة فرعون فاستدعت أم موسى وأحسنتْ إليها وأعطتْها عطاءً جزيلاً ، وتجهل أنها أمُّه حقيقةً ، وسألتها أن تقيم عندها فترضعَه ، فأبت عليها وقالت : إنَّ لي بعلاً وأولاداً فلا أستطيع المقام عندك ، وإن شئتِ أرضعتُه عندي فقبلتْ ... وأجرتْ عليها النفقةَ والصلاتِ والكساوي والإحسان الجزيل ، فرجعت أم موسى بولدها راضيةً مرضية قد أبدلهَا اللهَ بعد خوفها أمناً في عزٍ وجاه ورزقٍ كريم . ولهذا جاء في الحديث : ٤٠٦ [مثَل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخيرَ كمَثَل أُم موسى ترضعُ ولدَها وتأخذُ أجرَها] فسبحان من بيده الأمر ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الذي يجعل لمن أتقاه بعد كل همٍ فرَجاً ، وبعد كل ضيق مخرجاً ولهذا قال تعالى : ﴿ فردَدْناه إلى أمه كي تقرَّ عينُها ﴾ أي به ﴿ ولا تحزن ﴾ أي عليه ﴿ ولتعلمَ أن وعدَ الله حقٌ ﴾ أي فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين ، فحينئذ تحققت بردّه إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته في تربيته ما ينبغي لهَ شرعاً وطبعاً .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن أكثَرهم لا يعلمون ﴾ أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة ، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وعاقبتُه محمودةٌ في نفس الأمر .كما قال تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحِبُّوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (١٤) وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ

فَاسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ * (١٧)

ذكر تعالى أنه لما بلغ موسى أشده واستوى آتاه الله حكماً وعِلماً قال مجاهد : يعني النبوّة ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما قدّره له من النبوّة والتكليم في قضية قتله ذلك القِبْطي الذي تسبب في خروجه من الديار المصرية إلى بلادِ مدينَ فقال تعالى : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلةٍ من أهلها ﴾ وقيل كان ذلك بين المغرب والعشاء وقيل نصف النهار ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ﴾ أي إسرائيلي ﴿ وهذا من عدوّه ﴾ أي قبطي فاستغاث [١] الاسرائيلي موسى عليه السلام ، فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس فعمد إلى القبطي ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ أي طعنه بجمع كفّه فقتله ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت عليَّ ﴾ بما جعلت من الجاه والعز والنعمة ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ أي معيناً للكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * (١٨) فَلَمَّا

(١) استغاثة الاسرائيلي بموسى عليه السلام يحتج بها جهال زماننا على جواز الاستغاثة بغير الله مع علمهم بأن استغاثة الاسرائيلي بموسى عليه السلام هي استغاثة مخلوق بمخلوق في أمر يقدر عليه المستغاث به . أي اغاثته من القبطي ، وقد فعل ... فكيف يقيسونه على استغاثة مخلوق بمخلوق في أمر لا يقدر عليه ألا الله تعالى...؟ وشتان بين الاستغاثتين ... لأن الأولى عادة يمكن أن يفعلها من يستطيع من الناس أما الثانيــة كالمغفرة وتفريج الكروب والرزق وما إلى ذلك ... فهي عبادة لله تعالى ؛ فمن صرفها لغير الله تعالى فقد وجه عبادة لغيره وهذا هو الشرك الأكبر والعياذ بالله تعالى فإذا فهم هذا ... تبين الفارق بين الأستغاثتين ولا قياس مع الفارق كما هو معلوم والله الموفق للصواب .

أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۞ (١٩)

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام بعد أن قتل القبطي أصبح ﴿ في المدينة خائفاً يترقب » أي يتلفت خائفاً من فعلته وما يكون منها ، إذ يصادف الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس على القبطي يقاتل قبطياً آخر واستصرخه عليه فقال له موسى : ﴿ إنك لغويٌّ مبين ﴾ أي ظاهر الغواية شرير ، ثم عزم على البطش بالقبطي فظن الإسرائيلي من جبنه أن موسى يريد قتله فقال يدفع عن نفسه ﴿ يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ فلما سمع القبطي ذلك لقفها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده ، فعلم فرعون بذلك ، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى فطلبوه ، وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ ۞ (٢٠)

قال تعالى : ﴿ وجاء رجل ﴾ وسلك طريقاً أقرب من الطريق الذي بعثوا وراءه منه فسبق إلى موسى فقال له : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾ أي يتشاورون فيك ﴿ ليقتلوك فاخرج ﴾ أي من البلد ﴿ إني لك من الناصحين ﴾ .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ ۞ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ

ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۞ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۞ (٢٤)

لما أخبر موسى ذلك الرجل بمؤآمرة فرعون وجماعته عليه غادر مصر وحده ، ولم يألفْ ذلك قبلاً بل كان في نعمة ورياسة ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ أي يتلفت ﴿ قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ أي من فرعون وملئه ﴿ ولما توجه تلقاءَ مدين ﴾ أي أخذ طريقاً سالكاً فرح بذلك ﴿ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ أي الطريق الأقوم. فاستجاب الله دعوته فجعله هادياً مهديّاً ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ أي بئرها ﴿ وجد عليه أمةً من الناس يسقون ﴾ أي جماعة يسقون ﴿ ووجد من دونهم امرأتيْن تذودان ﴾ أي تكفكفان غنمَهما أن تردَ مع غنم أولئك الرعاء لئلا يُؤذَيا فرقّ لهما موسى. ﴿ قال ما خطبُكما ﴾ ما يمنعكما أن تردا مع هؤلاء ؟ ﴿ قالتا لا نسقي حتى يصدرَ الرِّعاء ﴾ أي إلاّ بعدَ فراغِهم ﴿ وأبونا شيخٌ كبير ﴾ قال تعالى : ﴿ فسقىَ لهما ﴾ قال ابو بكر ابن أبي شيبةَ عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه قال : ... فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرةُ رجال فأتى موسى الحجر فرفعه ثم لم يستقِ إلا ذنوباً واحداً حتى رُويتِ الغنم . إسناد صحيح . قال تعالى : ﴿ ثم تولى إلى الظلّ فقال ربِ إني لما أنزلت إلي من خيرٍ فقير ﴾ أي جلس إلى ظلّ شجرةٍ ، وكان قد خرج من مصر حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل وهو صفوةُ الله من خلقِه وإن بطنه للاصقٌ بظهره من الجوع وإنه محتاج إلى شِق تمرةٍ. ولما قال : ﴿ رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ أسمع المرأةَ.

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ۞ (٢٦) قَالَ

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما ، استغرب هذه السرعة على غير العادة فقصّتا عليه ما فعل موسى عليه السلام ، فبعث إحداهما إليه لتدعوَه إلى أبيها.فقال تعالى : ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴾ أي قائلة بثوبها على وجهها حييَّة متسترة ﴿ قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ هذا تأدب في العبارة أي ليثيبك على سقيك غنمنا ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص ﴾ أي ذكر له الأسباب التي أدت به إلى خروجه من مصر ﴿ قال لا تخف نجوتَ من القوم الظالمين ﴾ أي طبْ نفساً واطمئن فقد خرجت من حكمهم ونجوتَ من مظالمهم .

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو ... ؟ قيل إنه شعيب النبي عليه السلام وقيل هو ابن أخيه ثيرون والمشهور عند كثير من العلماء القول الأول فقد روَى الطبراني عن سلمة بن سعد الغزي أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له : ٤٠٧ [مرحباً بقوم شعيب وأختان موسى هديت] .

وقوله تعالى : ﴿ قالت إحداهما يا أبتِ استأجره إن خيرَ من استأجرتَ القوي الأمين ﴾ قال لها أبوها وما علمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلاّ عشرة رجال وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اختلف عليّ الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتديَ إليه. ﴿ قال إني أريد أنْ أنكحَك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ أي طلب هذا الرجل الشيخُ الكبيرُ أنْ يرعىَ غنمه ثماني سنين وجعل أجرَه تزويجَه إحدى ابنتيه فإن تبرّع بزيادة سنتين فهو إليك وإلاّ ففي الثمان كفاية . وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : بعتك أُحَدُ هذين العبدين بمئة ، فقال اشتريتُ ، صح البيع والله أعلم كما استدلّ أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ﴿ وما أريد أن أشقّ

عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ أي لا أشاقكك ولا أؤذيك ولا أماريك ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليَّ والله على ما نقول وكيل ﴾ أي الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين فإن اتممت عشراً فمن عندي فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئتُ من العهد وخرجت من الشرط ، ولهذا قال : ﴿ أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليَّ ﴾ .

روى البخاريُّ : عن سعيد بن جبير قال قال سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنه فسألته ، فقال : قضى أكثرُهما وأطيبُهما إنَّ رسول الله إذا قال فعل . وهناك أحاديث مراسيل عديدة وضعيفة مرفوعة مجمعة على أن موسى عليه السلام كان قضى أبرَّ الأجلين وأتمهما وأوفاهما ولا شك أنَّ هذا هو الأليقُ برسول من رسل الله تعالى وكما قال ابنُ عباس : إن رسول الله إذا قال فعل . ثم لما أتم موسى الأجلَين سألتْ زوجتُه أباها أن يعطيَها من غنمه ما يعيشون به . وقد روى ابن جرير عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما دعا نبي الله موسى عليه السلام صاحبَه إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها ، فلك ولدها .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ (٢٩) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝ (٣١) ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ (٣٢) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ أي الأكمل منهما ﴿وسار بأهله ﴾ وما وكان معه من الغنم التي وهبها له أبو زوجته فسلك الطريق في ليلة مظلمة مطيرة باردة فنزل منزلاً فجعل كلما أورَى زندَه لا يضيء شيئاً ، فتعجَّب من ذلك فبينما هو كذلك : ﴿ آنس من جانب الطور ناراً ﴾ تضيء على بعدٍ ﴿ فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً ﴾ أي حتى أذهب اليها ﴿ لعلّي آتيكم منها بخبر ﴾ لأنه قد ضل الطريق ﴿ أو جذوة من النار ﴾ أي قطعة منها ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ أي تستدفئون بها من البرد ﴿ فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن ﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب . كما قال تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ وجد النار تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي ، فوقف باهتاً في أمرها ، فناداه ربه ﴿ من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴾ وقوله تعالى : ﴿أن يا موسى إني أنا الله ربّ العالمين﴾ أي الذي يخاطبك هو ربُّ العالمين الفعال لما يشاء لا إله إلاّ هو ولا ربَّ سواه تعالى وتقدس عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله .

وقوله تعالى : ﴿ وأن ألقِ عصاك ﴾ أي التي في يدك ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ أي تضطرب ﴿ كأنها جان ولىَّ مدبراً ﴾ أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها ، واتساع فمها واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها ، تنحدر في فيها تتقعقع كأنها حادرة في وادٍ . فعند ذلك ﴿ ولى مدبراً ولم يعقّب ﴾ أي ولم يلتفتْ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك . فلما قال الله تعالى : ﴿ يا موسى أقبل ولا تخف إنَّك من الآمنين ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول ، ثم قال تعالى : ﴿ أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاءَ من غيرِ سوءٍ ﴾ أي إذا أدخلتَ يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فانها تخرج تتلألأ كأنها قطعةُ قمر ، في لمعان البرق . ولهذا قال تعالى : ﴿ من غير سوء ﴾ أي من غير برص ، فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون . وقوله تعالى : ﴿ واضمُمْ إليك جناحَك من الرهب ﴾ قال مجاهد : من الفزع والمراد أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف ، وربما فعل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤآده فإنه يزول ما يجده ، أو يخفُّ ان شاء الله تعالى وقد نزع تعالى ما كان في قلب موسى عليه السلام من الخوف من فرعون ، وجعله في قلب فرعون إذا رأى موسى . وقوله تعالى : ﴿ فذانِك برهانان من ربك ﴾ يعني إلقاء العصا وجعلها حيّة تسعى ، وإدخاله اليد

في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، دليلان قاطعان واضحان على قدرة الله تعالى ، وصحة نبوّة من جرى هذا الخارق على يديه . ولهذا قال تعالى : ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أي قومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۞ (٣٣) وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۞ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ۞ (٣٥) ﴾

تقدم أن موسى عليه السلام خرج من مصر فراراً من فرعون ، فلما أمره الله تعالى بالذهاب إليه ﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً ﴾ يعني القبطي ﴿ فأخاف أن يقتلونِ ﴾ أي إذا رأوني ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ﴾ إذ كان في لسان موسى لثغة بسبب تناوله الجمرة حين خُير بينها وبين التمرة أو الدرة فتناول الجمرة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدةٌ في التعبير ولهذا قال : ﴿ واحلل عقدةً من لساني يفقهوا قولي ۞ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾ للقيام بأعباء النبوّة والرسالة إلى هذا الملك المتجبر العنيد.ولهذا قال : ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رِدءً ﴾ أي وزيراً ومعيناً ومقوّياً لأمري وقال محمد بن اسحق : ﴿ ردءً يصدقني ﴾ أي يبين لهم عني ما أكلمهم به ﴿ إني أخاف أن يكذبونِ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ سنشد عضدَك بأخيكَ ﴾ أي سنقوّي أمرَك ونعز جانبك بأخيك وأجبنا سؤلك بأن جعلناه نبيّاً معك كما قال تعالى : ﴿ قد أوتيتَ سؤلك يا موسى ﴾ ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منةً على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام ، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه ولهذا قال تعالى في حق موسى : ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ ونجعل لكما سلطاناً ﴾ أي حجةً قاهرةً ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا ﴾

أي لا وصول لهم بأذا كما بسبب إبلاغكما آيات الله . كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربّك ــ إلى قوله ــ والله يعصمك من الناس ﴾ ولهذا أخبرهما ان العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة فقال تعالى : ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبنّ أنا ورُسُلي إن الله قوي عزيز ﴾ .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * (٣٧)

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضهما ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة ، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده واتّباع أوامره ، فلمّا أيقن فرعون وقومه بصدق ما جاآ به من عند الله تعالى عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمكابرة استكباراً عن اتباع الحق : ﴿ قالوا ما هذا إلاّ سحر مفترى ﴾ أي مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما استطاعوا .

وقوله تعالى اخباراً عنهم ﴿ وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ أي ما سمعوا بعبادة الله وحده لا شريك له،وما عبد آباؤهم إلاّ آلهةً أخرى فأجابهم موسى عليه السلام : ﴿ ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ يعني مني ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم ولهذا قال : ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ أي من النصر والظفر والتأييد ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي المشركون بالله عز وجل .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ

وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٤٠)
وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ۞ (٤١)
وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ۞ (٤٢)

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعوى الإلهية لنفسه القبيحة لعنه الله فاعترف قومه له بذلك لقلة عقولهم وسخافة أذهانهم . ولهذا قال : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيري ﴾ أيْ نادى فيهم بصوته العالي مصرحاً بذلك. فأجابوه : سامعين مطيعين ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرةً لغيره في الدنيا والآخرة وحتى أنه واجه موسى الكليم بذلك حينما قال له : ﴿لئن اتخذتَ إلٰهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأوقدْ لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي أطّلع إلى إله موسى ﴾ أي أمر هامان أن يتخذ له آجراً لبناء الصرح العالي فبناه فلم ير في الدنيا بناءً أعلى منه ، وإنما أراد أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إلٰه غير فرعون. ولهذا قال : ﴿ وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ في قوله إنّ هناك رباً غير فرعون . وقوله تعالى : ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ أي طغوا وأفسدوا وأنكروا القيامة ولهذا قال تعالى : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحةٍ واحدة فلم يبق منهم أحد ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ۰ وجعلناهم أئمة يدعونَ إلى النار ﴾ أي لمن أخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل، وتعطيل الصانع ۰ ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ أي فاجتمع عليهم خزيُ الدارَين ﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً ﴾ أي جعلهم ملعونين على ألسنة المؤمنين في الدنيا ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ أي أيضاً ملعونون يوم القيامة [1] .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ (٤٣)

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد إهلاك فرعون وملئه . وقوله تعالى : ﴿ من بعد ما

---

(١) راجع التعليق في آخر تفسير الآيه رقم /٦٨/ من سورة الشعراء .

أهلكنا القرون الأولى ﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامّة ، بل أمر المؤمنين ان يقاتلوا أعداء الله من المشركين . روى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري رفعه إلى النبي ﷺ قال : ٤٠٨ [ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى] ثم قرأ : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ الآية »
وقوله تعالى : ﴿ بصائر للناس وهدى ورحمةً ﴾ أي من العمى والغي ، وهدى إلى الحق ورحمة أي إرشاداً إلى العمل الصالح ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ ۞ (٤٤) وَلَٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۞ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٤٧) ﴾

ينبّه تعالى على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بغيوب الأخبار الماضية كأنه سامع وشاهد لما تقدم مع أنه رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب ، ونشأ بين قوم أميين أيضاً وكذلك لما أخبر عن كل من سلف من سيرة الأنبياء مع أقوامهم كما قال تعالى في سورة طه : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ وقال ها هنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقيّة على شاطىء الوادي ﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ لذلك . ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليكَ ذلك ، ليكون حجة

وبرهاناً على قرون تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين وقوله تعالى : ﴿ وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾ أي ما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما كان له مع قومه ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ ولكن نحن أوحينا اليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولاً . ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ قال ابو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قال : نودوا أن يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأجبتكم قبل أن تدعوني . وعن ابن عمرو بن جرير أنه قال ذلك من كلامه والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أي ما كنت شاهداً لشيء من ذلك ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمةً منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم ﴿ لتنذر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً ﴾ أي وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ، ولينقطع عذرُهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير . كما قال تعالى : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلاَّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ الآية ... والآيات في هذا كثيرة .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ۞ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ ٱللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ (٥١) ﴾

حزب ٤٠

يخبر تعالى عن القوم الذين لو عذَّبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم

يأتهم رسول ، ولما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنّت والعناد والكفر : ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ الآية ... من المعجزات مثل العصا واليد والطوفان والجراد وغير ذلك من معجزاته الباهرة وحججه القاهرة التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام حجةً وبرهاناً على فرعون وملئه ومع ذلك لم ينجع معهم شيء بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قال تعالى : ﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ أي أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿ قالوا سحران تظاهرا ﴾ يعنون التوراة والقرآن ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ أي بكل منهما كافرون أي بالتوراة والقرآن وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس – إلى أن قال – وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ وقد علم بالضرورة لذوي الألباب ان الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ وهو القرآن ، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله الله ﷺ على موسى بن عمران عليه السلام، أي التوراة ولهذا قال تعالى: فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل . قال الله تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أي إن لم يتبعوا الحق ، ﴿ فاعلم إنما يتبعون أهواءهم ﴾ بلا دليل ولا حجة ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ أي بغير حجة من كتاب الله ﴿ ان الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ أي أخبرنا قريشاً بمن مضى وكيف صنعنا بهم ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ .

۞ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۞ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۞ (٥٣) أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ

لَا نَبْتَغِي ٱلْجَاهِلِينَ ۞ (٥٥)

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولتجدنّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ــ إلى قوله ــ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قال سعيد بن جبير : نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم : ﴿ يسٓ والقرآن الحكيم ﴾ حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ۞ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنّا من قبله مسلمين ﴾ يعني من قبل هذا القرآن كنا مسلمين موحدين مخلصين لله مستجيبين له . قال تعالى : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ﴾ أي آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ولهذا قال عز من قائل : ﴿ بما صبروا ﴾ أي على اتباع الحق وقد ورد في الصحيح من حديث عامر الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٠٩ [ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة ، فأدبها فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها فتزوجها[1]

وقوله تعالى : ﴿ ويدرأون بالحسنة السيئة ﴾ أي لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي في الزكاة المفروضة ، والمستحبّة من الصدقات والقربات ، وقوله تعالى : ﴿ واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه ﴾ أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ﴿ وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغي الجاهلين ﴾ أي إذا سفه عليهم سفيه ، وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه ، أعرضوا عنه ، ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم الاّ كلامٌ طيب .

قال محمد بن اسحق بعد أن ذكر مجيء وفد النجاشي إلى رسول الله ﷺ وخبر إسلامهم قال : فلما قاموا ــ من مجلس الرسول ــ اعترضهم أبوجهل بن هشام في نفرمن قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل ... فلم تطمئن مجالسكم حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه لم نألُ أنفسنا خيراً .

---

(١) تمام الحديث : [... فله أجران] أخرجاه .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۞ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٥٧) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد ﴿ لا تهدي من أحببت ﴾ أي ليس لك ذلك إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ،كما قال تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وقال هنا : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية وقد ثبت في الصحيحين انها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ وكان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر . ولله الحكمة التامة . قال الزهري : حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه وهو المسيب ابن حزن المخزومي رضي الله عنه قال : ٤١٠ [لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله ﷺ « يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغبُ عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبىَ أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ « والله لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك] فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ وأنزل في أبي طالب ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أخرجاه من حديث الزهري وهكذا رواه مسلم في صحيحه .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتَخَطَّفْ من أرضنا ﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين ، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا فأجابهم تعالى : ﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً ﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل لأن الله تعالى قد جعلهم في بلد أمين وحرم معظم

آمن منذ أن وضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق . وقوله تعالى : ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ أي من سائر الثمار كذلك المتاجر والأمتعة ﴿ رزقاً من لدنا ﴾ أي من عندنا ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يعرّض الله بأهل مكة في قوله جل وعلا : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ أي طغت وكفرت نعمة الله فيما أنعم عليهم من الأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ـ إلى قوله ـ فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ﴾ أي دثرتْ ديارهم فلا ترى إلاّ مساكنهم : ﴿ وكنّا نحن الوارثين ﴾ أي رجعت خراباً ليس فيها أحد .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها ﴾ أي عاصمتها ﴿ رسولاً يتلو عليهم آياتنا ﴾ يقيم الحجةَ عليهم بما نزل عليه من الحق . وقيل في قوله تعالى : ﴿ ... حتى يبعث في أمها ﴾ أي في مكة وقوله تعالى : ﴿ رسولاً يتلو عليهم آياتنا ﴾ فيه دلالة على أن نبينا محمداً رسول إلى جميع القرى من عرب وعجم وتمام الدليل بقوله تعالى : ﴿ وإن من قرية إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً ﴾ فجعل بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى أي البلاد وفي الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : ٤١١ [بعثت إلى الأحمر والأسود] ولهذا ختم به النبوّة والرسالةَ فلا نبيَّ بعده ولا رسول ، بل شرعه باقٍ إلى يوم القيامة .

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝ (٦١) ﴾

يخبر تعالى عن حقارة الدنيا وما فيها من البهرج الزائف بالنسبة إلى ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم المقيم .كما قال تعالى : ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ وقال رسول الله ﷺ : ٤١٢ [والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ كما يغمس أحدكم أُصبعه في اليم ، فلينظر ماذا يرجع إليه] .

وقوله تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي ألا تعقلون فتقدمون الآخرة على الدنيا؟وقوله تعالى : ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ أي أفمن هو مؤمن مصدّق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب كمن هو كافر مكذّب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو ممتّع في الحياة الدنيا أياماً قلائل . ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ أي من المعذبين .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ (٦٢) قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝ (٦٣) وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ۝ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ۝ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝ (٦٧) ﴾

يخبر تعالى عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة يناديهم فيقول سبحانه : ﴿ **أين** شركائيَ الذين كنتم تزعمون ﴾ يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد. كما قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قال الذين حقّ عليهم القول ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ فشهدوا أنهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرأوا من عبادتهم ،كقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلاّ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم ﴾ أي ليخلّصوكم مما أنتم فيه،كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿ فدَعَوْهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب ﴾ أي تيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة .

وقوله تعالى : ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ أي تمنوا حين رأوا العذاب أنهم لو كانوا مهتدين.وقولُه تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ وهذا كما يسأل العبد في قبره : من ربّك ، ومن نبيك وما دينك فأما المؤمن فينطق بالشهادتين وأما الكافر فيجيب لا أدري ولهذا لا جواب له يوم القيامة إلا السكوت لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ولهذا قال تعالى : ﴿ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ قال مجاهد : فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب . وقوله تعالى : ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي في الدنيا ﴿ فعسى أن يكونَ من المفلحين ﴾ أي يوم القيامة ، وعسى من الله موجبة فإن هذا واقع بفضل الله ومنّته لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۞ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، لا منازع له ولا معقب . قال تعالى : ﴿ وربّك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ أي ما يشاء من الأمور خيرها وشرّها ومرجعها إليه.وقوله تعالى : ﴿ ما كان لهم الخِيَرَة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرَة من أمرهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ أي من الأصنام التي لا تخلق ولا تختار شيئاً .

ثم قال تعالى : ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ أي يعلم ما تُكِن الضمائر والسرائر وما تبديه الظواهر من سائر الخلق . وقوله تعالى : ﴿وهو الله لا إلّه إلا هو ﴾ المنفرد بالألوهيّة فلا معبود سواه ، كما لا رب غيره ﴿ له الحمد في الأولى والآخرة﴾ أي في جميع ما يفعل هو المحمود عليه بعدله وحكمته ﴿ وله الحكم ﴾ أي الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿ وإليه ترجعون ﴾ جميعاً يوم القيامة ، فيجزي كل عاملٍ بعمله من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۞ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ (٧٣) ﴾

يمتنّ الله على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذَيْن لا قوام لهم بدونهما ، وبيّن أنه لو جعل الليل دائماً لأضرَّهم وسئموه.ولهذا قال تعالى : ﴿ من إلّه غير الله يأتيكم بضياء ﴾ تبصرون به وتستأنسون ﴿ أفلا تسمعون ﴾ وكذلك لو جعل النهارَ دائماً لأضرّهم وتعبوا من الحركة والعمل ولهذا قال تعالى : ﴿ من إلّه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴾ أي تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿ أفلا تبصرون ومن رحمته ﴾ بكم ﴿ جعل لكم الليل والنهار ﴾ أي خلق هذا وهذا ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ أي في الليل ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في النهار ﴿ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون الله بأنواع العبادات والطاعات ليلاً ونهاراً ، ومن فاته شيء في أحدهما استدركه في الآخر . كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي

جعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً ﴾ والآيات في هذا كثيرة .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ (٧٥) ﴾

وهذا نداء ثان منه تعالى على سبيل التوبيخ لمن عبد مع الله غيره يناديهم سبحانه علناً فيقول جل وعلا : ﴿ اين شركائي الذي كنتم تزعمون ﴾ في الدنيا ﴿ ونزعنا من كل أمة شهيداً ﴾ أي رسولاً ﴿ فقلنا هاتوا برهانكم ﴾ على صحة دعواكم بالشرك ﴿ فعلموا أن الحق لله ﴾ أي لا إله غيره فلم ينطقوا ﴿ وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم .

ربع الحزب

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۝ (٧٧) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ أي ابن عمه وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ أي الأموال ﴿ ما إنَّ مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أولي القوة ﴾ لكثرتها وثقل حملهـا .

وقوله تعالى : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفَرِحين ﴾ أي الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. وقوله تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك اللهُ الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ﴾ أي مما أباحَ الله من المآكل والمشارب والملابس والمناكح والمساكن ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ، ولزَوْرك عليكَ حقاً فأتِ كل ذي حقٍ حقه ﴿ وأحسنْ كما أحسن الله إليك ﴾ أي أحسن

إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ ولا تبغِ الفساد في الأرض ﴾ أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض وتسيء الى خلق الله ﴿ إنّ الله لا يحبّ المفسدين ﴾

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ * (٧٨) ﴾

يخبر تعالى عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير : ﴿ إنّما أوتيته على علم عندي ﴾ أي أنا لا أفتقر إلى ما تقولون ، فإنّ الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ولمحبّته لي ، فتقديره إنما أعطيتُه لعلم الله فيَّ أني أهل له. وهذا كقوله تعالى: ﴿ واذا مسَّ الإنسان ضرٌ دعانا ثم إذا خوّلناه نعمةً منا قال إنما أوتيته على علم ﴾ أي على علم من الله بي ولقد ردَّ الله عليه فيما ادّعاه من اعتناء الله به فيما اعطاه من المال ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثر جمعاً ﴾ أي قد كان مَنْ هو أكثر منه مالاً وما كان ذلك عن محبة منّا لهُ . وقد أهلكهم مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ أي لكثرة ذنوبهم.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * (٧٩) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلصَّابِرُونَ * (٨٠) ﴾

خرج قارون يوماً في زينته ، وأبّهته الباهرة ، فلما رآه محبّو الدنيا ، تمنّوا لو كان لهم مثله ﴿ قالوا يا ليتَ لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظٍ عظيم ﴾ أي وافر . فأجابهم العالمون المتّقون ﴿ ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ أي الجنّة ، مما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلب بشرَ . وقوله تعالى : ﴿ وما يلقّاها إلاّ الصابرون ﴾ أي عن محبة الدنيا ، والراغبون في الآخرة .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنْتَصِرِينَ ۝ (٨١) وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ ۝ (٨٢) ﴾

لما ذكر تعالى اختيالَ قارون في زينتهِ وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأن خسف به الأرض وبدارِه كما ثبت في صحيح البخاري عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال ٤١٣ [بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به ... فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة] . وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبيّ الله عليه السلام واختلف في سببه فعن ابن عباس والسدي أن قارون أعطى بَغياً مالاً على أن تتهم موسى عليه السلام بنفسها ففعلت فأرعد موسى من الفرق ثم أقبل عليها بعد أن صلى ركعتين وناشدها الله أنْ تقول الحق فقالت إن قارون حملها على ذلك وقالت استغفر الله وأتوب إليه فخرَّ موسى ساجداً لله وسأل الله في قارون فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك ﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه ولاحشمه ولا دفعوا عنه نقمةَ الله وعذابَهَ ونكالَه ولا كان هو منتصراً لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانَه بالأمس ﴾ أي الذين رأوه في زينته يقولون ﴿ يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذ وحظ عظيم ﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون ﴿ ويكأنَّ اللهَ يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ أي ليس المال بدالٍّ على رضاء الله عن صاحبه ، هذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود ٤١٤ [إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم وإنَّ الله يُعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلاّ لمن يحب] وقوله تعالى : ﴿ لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ﴾ كما خسف بقارون لأنّا وَدِدنا أن نكون مثله ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ يعنون انه كان كافراً ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة واختلف النحاة في معنى قوله تعالى ﴿ ويكأن ﴾ ففيها أقوالٌ ، أقواها قول قتادة أي : (ألم تر أن) قاله ابن جرير .

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٨٤) ﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمُها المقيم جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً في الأرض،أي ترفّعاً على الخلق وتعاظماً وتجبّراً،ولا فساداً فيهم أي عملاً بالمعاصي . وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال : ٤١٥ [إنه أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد] وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمّل ، فهذا لا بأس به.فقد ثبت ٤١٦ [أن رجلاً قال:يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنةً أفمِنَ الكِبرُ ذلك ؟ فقال « لا ، إن الله جميل يحب الجمال »] وقال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فله خير منها ﴾ أي ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف والله يضاعفه اضعافاً كثيرةً، وهذا مقام الفضل ، ثم قال تعالى : ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئآت إلا ما كانوا يعملون ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ، هل تجزَوْن إلا ما كنتم تعملون ﴾ وهذا مقام الفضل والعدل .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ ٱلْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ۞ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (٨٨) ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله صلوات الله عليه وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوّة ولهذا قال تعالى : ﴿ إنَّ الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد ﴾ أي افترض عليك أداءَه إلى الناس ﴿ لرادّك الى معاد ﴾ أي إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فلنسألن الذين أُرسل إليهم ولنسألنَّ المرسلين ﴾

قال البخاري في التفسير من صحيحه عن ابن عباس ﴿ لرادُّك الى معاد ﴾ أي لرادُّك الى مكة وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه ، وابن جرير ، وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس : ﴿ لرادّك إلى معاد ﴾ أي لرادُّك إلى مكة كما أخرجك منها .

وقد روى ابن أبي حاتم عن نعيم القاري انه قال في قوله : ﴿ لرادّك الى معاد ﴾ قال إلى بيت المقدس . وهذا – والله أعلم – يرجع الى قول من فسّر ذلك بيوم القيامة لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر والله الموفق للصواب . ووجه الجمع بين الأقوال أن ابن عباس فسّر ذلك تارةً برجوعه الى مكة وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ ، كما فسّر ابن عباس سورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلى آخر السورة انه أجل رسول الله ﷺ نعي إليه وتارة فسرها ابن عباس بيوم القيامة وتارة بالجنة وكله متقارب ويلتقي بيوم القيامة الذي هو المعاد .

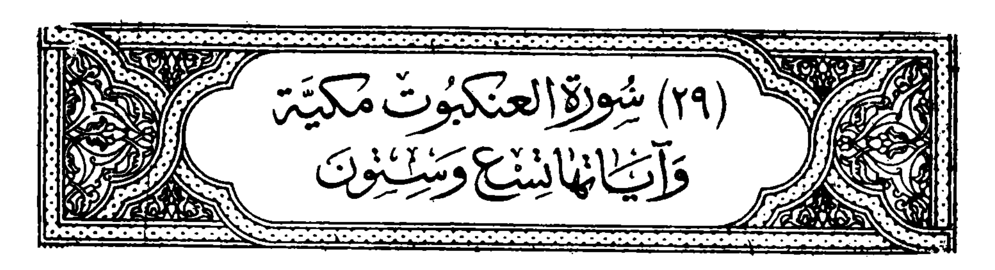
وقوله تعالى : ﴿ قل ربِّي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين ﴾ أي ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار . ثم قال تعالى مذكراً لنبيّه نعمتَه العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ﴾ أي ما كنت تظن قبل إنزال الوحي اليك أنه سينزل عليك ﴿ إلاّ رحمةً من ربِّك ﴾ أي إنّما كان إنزال الوحي عليك رحمةً من الله بك وبالعباد بسببك فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ، ﴿ فلا تكوننَّ ظهيراً ﴾ أي معيناً ﴿ للكافرين ﴾ ولكن فارقْهم ونابذهم وخالفهم ﴿ ولا يصدنّك عن آيات الله بعد إذْ أُنزلتْ إليك ﴾ أي لا تتأثر بصدِّهم الناس عن طريقك فلا تبال فإن الله معلٍ كلمتك ، ومؤيدٌ دينك ومظهرُه على سائر الأديان ولهذا قال تعالى : ﴿ وادعُ إلى ربّك ﴾ أي إلى عبادته وحده لا شريك له ﴿ ولا تكوننّ من المشركين ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ولا تدعُ مع الله إلهاً آخر لا إله إلاّ هو ﴾ أي لا تليق الألوهية إلاّ له وقوله تعالى : ﴿ كلُّ شيء هالك إلاّ وجهه ﴾ إخباراً بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي لا يموت فعبر بالوجه عن الذات أي كلُّ شيء هالك إلاّ إيّاه ، وكل الذوات فانية وزائلة

إلاّ ذاته تعالى وتقدس فإنه الأول والآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء وقوله تعالى: ﴿ له الحكم ﴾ أي الملك والتصرف ولا معقّب لحكمه ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر. آخر اختصار تفسير سورة القصص ولله الحمد والمنة.

١٥ / ٤ / ١٣٩٠

١٩ / ٦ / ١٩٧٠



إلاّ من الآية ١ ـ ١١ فمدنية نزلت بعد الروم

بسم الله الرحمن الرحيم



الٓمٓ ۞ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ ۞ (٣) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ (٤)

مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٦) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٧)

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة وقوله تعالى : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ استفهام انكار ومعناه : إن الله سبحانه وتعالى لا بدَّ وان يختبر عباده المؤمنين بحسب إيمانهم وقد صح الحديث : ٤١٧ [أشد الناس بلاءً الأنبياءُ ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء] وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم ان تتركوا ولمّا يعلم

الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين ﴾ أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة . وقوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ فإن من ورائهم عقوبةً ونكالاً أغلظ . أم حسبوا أنهم سيفلتون من ذلك ؟ بئس ما يظنون وقوله تعالى : ﴿ من كان يرجو لقاء الله ﴾ أي الدار الآخرة ورجاء ثواب الله فيحقق رجاءه ويوفيه عمله كاملاً فإن ذلك كائن لا محالة ولهذا قال : ﴿ فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾ سميع الدعاء عليم بما يكون .

وقوله تعالى : ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي يعود لها فإن الله غنيٌّ عن أفعال العباد ولو كانوا على أتقى قلب رجل منهم ما زاد في ملكه شيء ولهذا قال : ﴿ إن الله لغنيٌّ عن العالمين ﴾ قال الحسن البصري : إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف ثم قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنّ عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾ أي مع ان الله غني عن العالمين يجازي المؤمنين الصالحين أحسن الجزاء ويكفّر عنهم أسوأ ما عملوا بأحسن أعمالهم فيقبل القليل من الحسنات ويثيب عليها حتى الى سبعمائة ضعف ويجزي السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٨) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّالِحِينَ ۞ (٩) ﴾

يأمر تعالى عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ولهما عليه غاية الإحسان فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ومع هذه الوصيّة بالإحسان إليهما قال تعالى : ﴿ وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ أي وإن حرصا على متابعتك لهما على دينهما الشركي فلا تطعهما فإن

مرجعكم إليَّ يوم القيامة فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب أي حباً دينياً، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾

قال الترمذي عن سماك بن حرب يقول : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه قال : نزلت في أربع آيات فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ، قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها ، فنزلت : ﴿ ووصينا الانسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ الآية وهذا الحديث رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي فقال حسن صحيح .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِنْ جَآءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَالَمِينَ ‌﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ ‌﴿١١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت في قلوبهم ، بأنهم إذا أصابتهم مصيبة اعتقدوا أن هذا انتقام منه تعالى بهم فارتدّوا عن الإسلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأنّ به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ـ الى قوله ـ ذلك هو الضلال البعيد ثم قال تعالى : ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنّا كنا معكم ﴾ أي ولئن جاءك يا محمد فتح أو مغانم ليقولون نحن اخوانكم في الدين لتقاسموهم مغانمكم. ﴿ أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾ أي إنه يعلم ما يكنّه الناس أجمعين فكيف بهؤلاء ...؟

وقوله تعالى : ﴿ وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ أي ليبتليهُم بالسراء والضرّاء ليتميزَ هؤلاء من هؤلاءِ كما قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ وقد امتحن الله هؤلاء وهؤلاء فقال بعد وقعة أحد وما

كان فيها من الاختبار : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ الآية .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ (١٣) ﴾

يخبر تعالى عن كفار قريش قالوا لمن آمن منهم : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ، واتبعوا سبيلنا ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ أي كما يقول القائل : إفعل هذا وخطيئتك في رقبتي ، فقال تعالى تكذيباً لهم : ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ فانه لا يحمل أحد وزر أحد . وقوله تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ الآيــة .

وفي الصحيح ٤١٨ [من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير ان ينقص من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتّبعه إلى يوم القيامة من غير ان ينقص من آثامهم شيئاً] وفي الصحيح ٤١٩ [ما قتلت نفس ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل]. (١)

وقوله تعالى : ﴿ وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ أي يكذبون ويختلقون البهتان .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۞ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ ۞ (١٥) ﴾

---

(١) أي قابيل الذي قتل أخاه هابيل .

يسلّي الله تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ بأخبار نوح عليه السلام وأنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم الى الله تعالى دوماً فما زادهم إلاّ فراراً وإعراضاً عن الحق وما آمن معه إلاّ قليل ولهذا قال تعالى : ﴿ فلبث فيهم الف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار ، فلا تأسف يا محمد على من كفر من قومك ولا تحزن عليهم فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وسينصرك الله ويذل عدوك ويجعلهم في الأسفلين .

وقوله تعالى : ﴿ فانجيناه وأصحاب السفينة ﴾ أي الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وتقدم ذكر ذلك في سورة هود بما أغنى عن إعادته .[1] وقوله تعالى : ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ أي جعلناها باقيةً إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي أو نوعها جعله للناس تذكرةً لنعمة الله على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان كما قال تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ وهذا تدريج من عين سفينة نوح إلى نوع السفن عامةً .

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝ (١٨) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله ابراهيم إمام الحنفاء ، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، ﴿ إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ﴾ أي أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ﴾ أي إن فعلتم يحصل لكم خيرا الدنيا والآخرة ويندفع عنكم شرهما ، ثم قال تعالى : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً ﴾ أي أنتم الذين اختلقتم لها أسماء

---

(١) راجع الآية ٤٤ سورة هود .

فسيمتموها آلهة ، وإنما هي مخلوقة مثلكم فتصنعونها أصناماً وتعبدونها، وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ أي فاطلبوا عند الله الرزق، لا عند غيره الذي لا يملك شيئاً. ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ على ما أنعم به عليكم ﴿ إليه ترجعون ﴾ فيجازي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ وإن تُكذّبوا فقد كذّب أمم من قبلكم ﴾ أي فبلغكم ما حلّ بهم من العذاب في مخالفة الرسل ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ يعني إنما على الرسول أن يبلغكم أوامرَ الله تعالى وهو الهادي لمن يشاء والمضل لمن يشاء فاحرصوا أن تكونوا من السعداء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ (١٩) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۞ (٢١) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۞ (٢٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٢٣) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه الصلاة والسلام، أنه اثبت لهم المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، فالذي بدأ الخلق من العدم قادر على إعادته وهو يسير لديه ، وبالاعتبار من خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات وما بينهما الدالة على وجود الصانع الفاعل المطلق، يقول للشيء كن فيكون. ولهذا قال جل وعلا : ﴿ أولم يرَوا كيف يُبدِىءُ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىءُ النشأة الآخرة ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴾ ولا يشاء إلا العدل فلا يظلم مثقال ذرة ، لأن الظلم حرمه

على نفسه وجعله بيننا محرماً . ﴿ وإليه تقلبون ﴾ أي ترجعون يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ أي لا يعجزه أحد في السماء ولا في الأرض وكل شيء مقهور له ، خائف منه ، فقير إليه وهو الغني عما سواه . ﴿ ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه ﴾ أي جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿ اولئك يئسوا من رحمتي ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي موجع شديد في الدارين .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝ (٢٥)

يقول تعالى مخبراً عن قوم ابراهيم أنهم لم يكن جوابهم بعد مقالته المشتملة على الهدى والبيان : ﴿ إلاّ أن قالوا اقتلوه او حرّقوه ﴾ وذلك لتوجه الحجة عليهم.فعدلوا عنها إلى استعمالهم قوة الملك ، فحشدوا أحطاباً عظيمة وأوقدوها ، ولم توقد نار قط أعظمُ منها، ثم قذفوا ابراهيم فيها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً بعدما مكث فيها أياماً ، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً ، فانه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته أهل الأديان ، وقوله تعالى : ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ بأن جعلها برداً وسلاماً كما قال تعالى : ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين. وقولُه تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ﴾ يقول لقومه موبخاً لهم على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان، إنما اتخذتم هذه آلهةً لتجتمع إلفتكم بينكم عليها في الحياة الدنيا.﴿ ثم يوم القيامة ﴾ ترجع المودة بغضاً ثم ﴿ يكفر بعضكم ببعض ﴾ أي تتجاحدون ما كان بينكم ﴿ ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ أي يلعن الأتباع المتبوعين وبالعكس .كما قال تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلاّ المتقين ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ومأواكم النار ﴾ أي ومصيركم إلى النار

﴿ وما لكم من ناصرين ﴾ ينصرونكم أو ينقذونكم منها . هذا حال الكافرين وأما المؤمنون أهل التوحيد يعفو بعضهم عن بعض بعد أن يخاطبهم المنادي : يا أهل التوحيد ليعفُ بعضكم عن بعض ، وعلى الله الثواب . كما جاء في الحديث ...

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۞ (٢٧) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابراهيم أنه آمن له لوط ، ويقال أنه ابن أخي ابراهيم ، يقولون هو : لوط بن هاران بن آزر ، ولم يؤمن به من قومه سواه وسارة امرأة إبراهيم الخليل ، لكن يقال كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح إن ابراهيم حين مر على ذلك الجبار فسأل ابراهيم عن سارة ما هي منه ، فقال : أختي ، ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له إنك أختي فلا تكذبيني ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فأنت أختي في الدين . وكأن المراد من هذا ــ والله أعلم ــ أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك[1] ، فإن لوطاً عليه السلام آمن به من قومه وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أُرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم واقليمها وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي .

وقوله تعالى : ﴿ وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ أي من بين أظهر المشركين قومه وابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ولهذا قال : ﴿ إنه هو العزيز الحكيم ﴾ اي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ، الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية .

وقوله تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ﴾ أي انه لما فارق قومه ، أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبيّ ، وولدُ له ولدٌ صالح نبي في حياة جده ، ومما لا شك فيه أنه يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم قد نصَّ على ذلك القرآن والسنّة وقوله تعالى: ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً ،

(١) قلت : ولعلها أرض الجبار التي كانا فيها . والرواية التاريخية على أنها أرض مصر ، والجبار هو فرعون مصر الذي حال الله بينه وبين سارة زوجة ابراهيم .

وجعله للناس إماماً. وذلك أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلاّ وهو من سلالته، فجميع انبياء بني اسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم حتى كان آخرَهم عيسى عليه السلام الذي قام في بني إسرائيل مبشراً بالنبي العربيّ القرشيّ الهاشميّ خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ولم يوجد نبيٌّ من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني، والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاّه، مع القيام بكامل وتمام طاعته تعالى. كما قال عز وجل: ﴿ وإبراهيم الذي وفّى ﴾ أي قام بجميع الأوامر والطاعات. ولهذا قال تعالى: ﴿ وآتيناه أجرهُ في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾.

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۞ (٢٩) قَالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ (٣٠) ﴾

يخبر تعالى عن نبيّه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه صنيعهم وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من دون النساء، ولم يسبقهم الى هذه الفعلة أحدٌ من العالمين قبلهم. وكانوا مع هذا يكفرون بالله تعالى ويكذبون رسوله ويخالفونه ويقطعون الطريق على الناس، يقتلونهم ويسلبونهم أموالهم. ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ أي يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم، ولا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك: فقيل يفعلون فعلتهم القبيحة جهاراً وقيل يتضارطون ويتضاحكون، وقيل كانوا يناطحون بين الكباش أو يناقرون بين الديكة. روى الإمام أحمد عن أم هانيء قالت: ٤٢٠ [سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال « يحذفون أهل الطريق

ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه . »] ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وحسّنه الترمذي . وقوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ، ولهذا استنصر عليهم نبيُّ الله فقال : ﴿ ربّ انصرني على القوم المفسدين ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۞ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۞ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۞ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ (٣٥) ﴾

لما استنصر لوط ربّه عز وجل ، بعث لنصرته ملائكة فمرّوا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف فلما قدّم لهم ما ينبغي للأضياف لم يأكلوا ... أوجس منهم خيفة ، فآنسوه وبشروه بولادة ولد له صالح من امرأته سارة وكانت حاضرة ، فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه في سورتي هود والحجر ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط ، فاستمهل لعلّ الله يهديهم • ﴿ قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين • قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي من الهالكين ، لأنها كانت تمالئهم على كفرهم . وبغيهم ، ثم ساروا إلى لوط في صورة شبان حسان ، فلما رآهم كذلك : ﴿ سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾ أي خاف عليهم من قومه وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ، وما يدري من أمرهم شيئاً ﴿ وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلاّ امرأتك كانت من الغابرين • إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام

اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضودة مسوّمة عند ربك ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهمّ من أشد الناس عذاباً يوم المعاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة ﴾ أي واضحة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام ، أنه أمر قومه بعبادة الله وحده لا شريك له ، وخوّفهم نقمته في الدارين فقال: ﴿ يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر﴾ أي اخشوا اليوم الآخر أي عذاب الله في الآخرة ، وقوله: ﴿ ولا تعثوا في الأرض﴾ أي لا تفسدوا في الأرض وتبغوا على أهلها بإنقاص المكيال والميزان ، وقطع الطريق ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله فأهلكهم الله بالرجفة المروعة التي زلزلت بلادهم ، والصيحة التي أخرجت القلوب من حناجرها ، وعذاب يوم الظلة العظيم وتقدم ذكر ذلك في سورة الأعراف وهود والشعراء ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ ميتين .

وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

يخبر تعالى عن الأمم الغابرة المكذبة للرسل كيف أبادهم ونوّع عذابهم ، وانتقم منهم فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف بالقرب من حضرموت ، وثمود قوم صالح عليه السلام كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى ، وكانت العرب تعرف مساكنهم جداً وتمر عليها كثيراً ، وقارون صاحب الكنوز الجزيلة ، وفرعون ملك مصر زمن موسى عليه السلام ووزيره هامان القبطيان الكافران ﴿ فكلاً اخذ نـا بذنبه ﴾ أي كانت عقوبته تناسبه ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ﴾ وهم عاد فجاءتهم ريح صرصر تحمل حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض الى عنان السماء.ثم تنكسه على أم رأسه فيبقى بدناً بلا رأس ﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ وهم ثمود الذين عقروا ناقة الله بكفرهم.فجاءتهم الصيحة فأخمدت أنفاسهم.﴿ ومنهم من خسفنا بـه الأرض ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعصى الرب ، ومشى مرحاً ، وفرح وتـاه بنفسه واختال في مشيته، فخسف به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامـة . ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما فأغرقوا في صبيحة واحدة فلم ينجُ منهم مخبر.﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ أي فيما فعل بهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي إنما فعل بهم ذلك جزاءً مضافا بما كسبت أيديهم .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنْكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ‌۝ (٤١) إِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ (٤٢) وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ ۝ (٤٣) ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ويرجونهم في الرزق والنصر والشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت فمثل من يعتمد على غير الله كمن يتمسك ببيت العنكبوت الواهن الضعيف الذي لا يجدي عنه شيئاً وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع،والتمسك به لقوته وثباته . ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به ، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الشرك وما يشركون به من الأنداد وسيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم.ثم قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها

للناس وما يعقلها إلاّ العالمون ﴾ اي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منــــه .

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٤٤) ٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۞ (٤٥) ﴾

يخبر تعالى عن قدرته العظيمة أنه خلق السموات والأرض بالحق يعني لا على وجه العبث واللعب .

وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخاق والتدبير والإلهية ، ثم أمر رسوله ﷺ والمؤمنين بتلاوة القرآن أي قراءته وتبليغه للناس ﴿ وأقم الصلاة ﴾ إقامةً تامة في خشوعها وأركانها وتدبر ما تقرأ من القرآن فيها ، ﴿ إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ أي إن الصلاة ذات الوصف المتقدم من الخشية والخضوع واداء الأركان والتدبر بصدق واخلاص ، هذه الصلاة لها الأثر الفعال في الانتهاء عن الفواحش والمنكرات فالصلاة بهذا الحضور في كل ما ذكر ، هي ذكر خالص لله تعالى يشترك فيه القلب واللسان وتتأثر به الجوارح عامة ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أي إن ما ذكرت الله به في الصلاة باخلاص وحضور نية وقصد، يقابله من الله ذكر عبده في الملأ الأعلى .كما قال تعالى ﴿فاذكروني أذكركم ﴾ ولا شك أن ذكر الله وتذكّره دائماً في كل قول وعمل، سبب في ذكر الله لعبده الذي هو أعظم من ذكر العبد له.والمعنى أنه يجازيه على فعله بأعظم منه وأكبر ، فإذا ذكر العبدُ ربّه ذكر الربُّ عبدَه﴿ولذكر الله اكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم ونواياكم ويجزيكم عنها بما تستحقون .

روى الحافظ ابو بكر البزار عن جابر أو عن رجل قال للنبي ﷺ : ٤٢١ [ان فلانا يصلّي بالليل ، فإذا أصبح سرق . قال « سينهاه ما تقول »] روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال لها وجهان : قال ذكر الله عند مـــا حرمه ، قال وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم اياه .

٤١ ٢١ ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۞ (٤٦) ﴾

قال قتادة هذه الآية منسوخة بآية السيف ... وقال آخرون بل هي باقية محكمة لمن اراد الاستبصار منهم في الدين فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجعَ فيه، كما قال تعالى : ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ وهذا القول اختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ أي الذين لم ينفع معهم الجدل ، فيؤمَرون بالجزية وإلاّ فقد صاروا أهل حرب فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم ،كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد — إلى قوله— إن الله قوي عزيز ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل اليكم ﴾ أي إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا نقدم على تكذيبه فقد يكون حقاً ، ولا تصديقه فقد يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط ، وهو أن يكون منزلاً لامبدلاً ولا مؤولاً .

روى البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [٤٢٢ وكان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »]

وليُعلَم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدة كثير منه ، لو كان صحيحاً .

قال ابن جرير عن ابن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا إما ان تكذبوا بحق او تصدقوا بباطل . وقال ابن عباس : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث ، تقرأونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن

مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي انزل عليكم . رواه البخاري .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا ٱلْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا ٱلظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتب على مَنْ قبلَك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا هذا الكتاب . وهذا الذي قاله حسن جيد . وقوله تعالى : ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ﴾ أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما . وقوله تعالى : ﴿ ومن هؤلاء من يؤمن به ﴾ أي العرب من قريش وغيرهم ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ أي ما يكذب بها إلاّ من يستر الحق بالباطل ، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل وهيهات .

ثم قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن ينزل الله عليك هذا القرآن عمراً لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يخط ولا سطراً واحداً ولا حرفاً واحداً بل كان له كتّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ولا صحة لكل ما قيل من أنه تعلم آخر عمره فلا أصل له ألبتة . قال الله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو ﴾ أي تقرأ ﴿ من قبله من كتاب ﴾ لتأكيد النفي ﴿ ولا تخطه بيمينك ﴾ أي ما كتبت شيئاً ، لأنه تعالى لم يعلّمه لا القراءة ولا الكتابة . وقوله تعالى: ﴿ إذاً لا رتاب المبطلون ﴾ اي لو كنت تحسن القراءة والكتابة لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقولون ، إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم انه أميَ ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً ﴾ فرد الله تعالى عليهم ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ﴾ وقال هاهنا : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ أي هذا

القرآن آيات بينات واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبراً يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً . وقوله تعالى : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون ﴾ أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى : ﴿ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَاتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ❁ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ❁ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ❁ (٥٢)

يخبر تعالى عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات ، ترشدهم الى ان محمداً رسول الله كما أتى صالح بناقته . قال الله تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله تعالى ، ولو أنهم سيهتدون لأجابهم فهذا يسير عليه ، ولكنه يعلم منهم التعنت فلا يجيبهم إلى ذلك كقوله تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ وقوله : ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أي إنما بعثت نذيراً لكم فما عليّ إلاّ إبلاغكم رسالة الله تعالى و ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ ثم قال تعالى مبيناً جهلهم وسخافتهم لطلبهم آيات على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي هو أعظم معجزة ، فقد عجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل وعن معارضة سورة منه فقال تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ أي ألم تكفهم هذه المعجزة الكبرى وهي القرآن الذي أنزلناه عليك الذي فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم وأنت رجل أميّ لا تقرأ ولا تكتب فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب فيما اختلفوا فيه كما قال تعالى : ﴿ أو لم يكن لهم آية أنْ يعلمه علماء بني اسرائيل ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :٤٢٣ [ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه

البشر ، وإنّما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة] أخرجاه وقولُه تعالى : ﴿ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ أي بياناً للحقّ وإزاحةً للباطل وهذا هو الرحمة ، وفيه ذكرى ما حل من النقم بالأمم الخالية مما يُتّعظُ به ويزيد المؤمنين إيماناً .

ثم قال تعالى : ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ لما تكذبوني به من الأقوال التي أقولها لكم بأنني رسول الله إليكم فلو كنت كاذباً لانتقم منّي كما قال سبحانه : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ولهذا أيّدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات . ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ أي ولا تخفى عليه خافية ﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ أي سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم الرسل وكفرهم بالله وإيمانهم بالطواغيتِ وسيصلون سعيراً وساءت مصيراً .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم . كما قال تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أتنا بعذاب أليم ﴾ وقال هاهنا : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ أي لولا ما قدر الله من تأخير العذاب لجاءهم سريعاً ﴿ وليأتينّهم بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ وهم لا يشعرون. يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة .

ثم قال عز وجلّ ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ أي تغشاهم النار من سائر جهاتهم ﴿ ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوي - أي إخبارٌ به قبل وقوعه حسيّاً ، وتهديد به وسيلقونه فعلاً . ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر ۞ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾

﴿ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ❁(٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ❁(٥٧) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ ❁ (٥٨) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ❁ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ❁ (٦٠) ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى ارض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ولهذا قال عز وجل : ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴾ ولما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها،خرجوا مهاجرين الى الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك : أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى فآواهم وأيَّدهم بنصره ، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ ، والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة .

ثم قال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ أي أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا في طاعة الله خير لكم فإن الموت لا بد منه وإلى الله المرجع فمن أطاع الله جازاه أفضل الجزاء وأتم الثواب ولهذا قال سبحانه ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوِّئنّهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري الأنهار من تحتها ماءً وخمراً وعسلاً ولبناً على اختلاف أصنافها ﴿ خالدين فيها ﴾ ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً ﴿ نعم أجر العاملين ﴾أي نعمت هذه الغُرف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿ الذين صبروا ﴾ على دينهم وهاجروا الى الله ونابذوا الأعداء ابتغاء وجهه تعالى ورجاء ما عنده . روى ابن أبي حاتم عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ حدثه ٤٢٤[ان في الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام ، وقام بالليل والناس نيام] ﴿ وعلى ربهم يتوكّلون ﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم ، ثم أخبرهم تعالى ان الرزق لا يختص ببقعة بل عام ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا ، أكثر

وأوسع وأطيب فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار،ولهذا قال تعالى : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ أي لا تطيق جمعه وتحصيله ، ولا تدخر شيئاً لغد ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ أي الله يقيض لها رزقها على ضعفها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء ، والحيتان في الماء قال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۞ (٦١) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ (٦٣) ﴾

يقرر الله تعالى أن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وانه الرازق لعباده المقدر آجالهم ، العليم بما يُصلح كلاّ منهم ومقرّونَ بأنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها .

فإذا كان الأمر كذلك ، فلمَ يعبد غيره ولمَ يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، فالاعتراف بتوحيد الربوبية لا يكفي إذا لم يعترف ايضاً بتوحيد الألوهية ومن أجل ذلك أي الاعتراف بتوحيد الألوهية بالاضافة الى توحيدالربوبية بعث أفضل الخلق محمد ﷺ ، وبعث الرسل والأنبياء من قبله عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۞ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي

ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۞ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۞ (٦٦)

يخبر تعالى عن حقارة الدنيا ، وزوالها وانقضائها ، وغاية ما فيها لهو ولعب ، ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ أي الحياة الدائمة التي لا زوال لها وقوله تعالى : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لآثروا ما يبقى على ما يفنى ؛ ثم اخبر ان المشركين عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له ، فهلاّ يكون هذا منهم دائماً ﴿ فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ واذا مسّكم الضرّ في البحر ضل من تدعون إلاّ إياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم ﴾ وقال تعالى هاهنا ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ [(١)]

وقوله تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾ تهديد ما سيرونه وسيلقونه من العذاب الذي يكافىء ما قدموا في الدنيا من شرك وكفر والعياذ بالله تعالى .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۞ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ۞ (٦٨) وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٦٩)

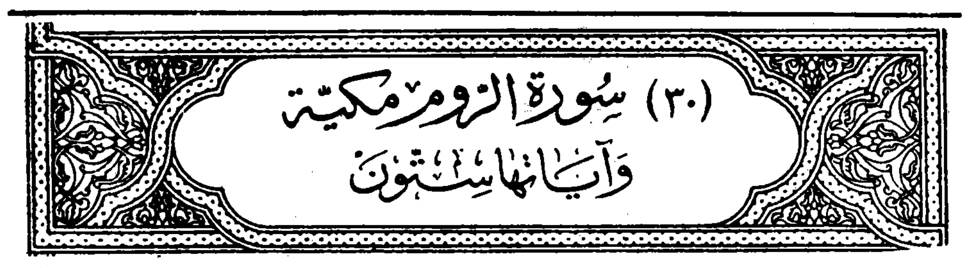
يمتنّ الله تعالى على قريش فيما أحلّهم من حرَمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم ، والأعراب حولهم ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً كما قال تعالى : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ إلى آخر السورة ...وقوله تعالى:

(١) قلت : كان مشركو العرب يشركون في الرخاء ويوحدون في الشدة أما مشركو زماننا فهم يشركون في الحالين وتشهد عليهم أقوالهم التي منها : / عند الضيق ناد عبد القادر .../ وعبد القادر بريء مما يشركون .

﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ فبدلاً من ان يشكروه تعالى على نعمة الأمن وغيرها بالاعتراف بألوهيته وافراده بالعبادة ... قابلوا شكر النعمة بالكفر بها وبموليها جل وعلا وعبدوا غيره . ولذا سلبهم ما أنعم عليهم به، وقتل من قتل ببدر: ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم ثم قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذبَ بالحق لما جاءه ﴾ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله ، فقال : ان الله أوحى إليه ولم يوح إليه بشيء . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبةً ممن كذّب بالحق لما جاءه . فالأول مفترٍ والثاني : مكذّب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه واتباعه الى يوم الدين ﴿ لنهدينّهم سبلنا ﴾ أي طرقنا في الدنيا والآخرة . قال ابن أبي حاتم عن عباس الهمداني أبي أحمد من أهل عكا في قوله تعالى : ﴿ والذينَ جاهدوا فينا لنهدينهم سبلناوإن الله لمع المحسنين ﴾ قال : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون . وقال ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام انما الاحسان ان تحسن الى من اساء اليك، ليس الاحسان ان تحسن لمن أحسن إليك والله أعلم .

آخر اختصار سورة العنكبوت ولله الحمد والمنة

٢١ / ٤ / ١٣٩٠
٢٥ / ٦ / ١٩٧٠



إلاّ الآية / ١٧/ فمدنية نزلت بعد سورة الانشقاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



الٓمٓ ❁ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ❁ (٢) فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ❁ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ❁ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ❁ (٥) وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ❁ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ❁ (٧)

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، فاضطرَّ هرقلَ ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدةً طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي، روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿آلم غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ قال: غُلبت وغَلبت، قال: ٤٢٥[كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب؛ فذكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ «أما إنهم سيغلبون» فذكره ابو بكر لهم فقالوا: إجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وان ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا،

فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : « ألا جعلتهاالى دون- أراه قال : العشر» قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد ، قال فذلك قوله تعالى : ﴿ آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون - الى قوله تعالى - وهو العزيز الرحيم ﴾]

وقد ورد في رواية ابن ابي حاتم عن البراء في جملة الحديث وبعد أن كسب ابو بكر الرهان من المشركين بغلبة الروم على فارس - ... ٤٢٦ [فلم تمض تلك السنين [1] حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن ... فجاء ابو بكر إلى النبي ﷺ فقال : هذا السحت ، قال : « تصدّق به »] كما ورد في رواية الترمذي... فقال الناس من قريش لأبي بكر فذاك بيننا وبينكم ، زعم صاحبكم ان الروم ستغلب فارس في بضع سنين ،أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال بلى ،- وذلك قبل تحريم الرهان ...- قيل ان انتصار الروم على فارس عام انتصار المسلمين على المشركين ببدر ، وقيل بل كان ذلك عام الحديبية . ووجّه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى أيلياء وهو بيت المقدس ، شكراً لله تعالى ففعل فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ الذي بعثه مع دحية بن خليفة ، فأعطاه دحية لعظيم بصري فدفعه عظيم بصري إلى قيصر فلما وصل إليه ، سأل : من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من قريش... فاستدلّوا بهذا على ان نصر الروم على فارس كان عام الحديبية لأن قيصر إنما وفى في نذره بعد الحديبية والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ أي من قبل ذلك ومن بعده ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ أي للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى وهم المجوس فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به ، وقوله تعالى : ﴿ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ العزيز في انتصاره وانتقامه من أعدائه، الرحيم بعباده المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنّا سننصر الروم على فارس وعدٌ من الله حق وخبر صدق لا يخلف، ولا بد من كونه ووقوعه ، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين الى الحق ويجعل لها

---

(١) لعلها السنون .

العاقبة ﴿ ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي بحكم الله في كونه ، وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وشؤونها ، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة كأن أحدهم لا ذهن له ولا فكرة . قال الحسن البصري : والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيُخبرُك بوزنه وما يحسن أن يُصلي . قال ابن عباس : يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ❁ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ❁ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا ٱلسُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ❁ (١٠) ﴾

ينبه تعالى على التفكير في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها وأنه لا إله إلا هو ولا ربَّ سواه فقال جل ثناؤه : ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ﴾ يعني ألم ينظروا ويتدبروا ويتأملوا في خلق الله للعوالم جميعاً وما فيها من المخلوقات فإنها ما خلقت سدى ولا باطلاً بل بالحق ، وأنها مؤجلة الى يوم القيامة . ولهذا قال سبحانه : ﴿ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربّهم لكافرون ﴾ ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، وما أيدهم به من المعجزات ، وأهلك من كفر بهم وأنجى من صدّقهم. فقال تعالى: ﴿ أولم يسيروا في الأرض ﴾ أي بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوة ﴾ أي انهم كانوا أقوى من العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ وأكثر أموالاً وأولاداً وأعماراً وإعماراً واستغلالاً ولما كفروا برسلهم

التي جاءتهم بالبينات أخذهم الله بعذابه الشديد ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم، ولا حالت بينهم وبين بأس الله وعذابه، وما كان الله ظالماً لهم.﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ وهم الذين اردوا مهالكها بذنوبهم وتكذيبهم للرسل ولهذا قال عز من قائل : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ أي كانت السوأى عاقبتهم لأنهم كذّبوا واستهزأوا بآيات الله .

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ❁ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ❁ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ❁ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ❁ (١٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ❁ (١٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ❁ (١٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أي كما هو قادر على بداءته فهو قادر كذلك على إعادته ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة فيجازي كلاً بعمله وقوله تعالى : ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ أي يبهت المجرمون وييأسون ويكتئبون ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ أي خانهم شفعاؤهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله وهم أحوج ما كانوا إليهم وتبرأ شفعاؤهم منهم ومن كفرهم.ثم قال جل وعلا﴿ **ويوم تقوم** الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ فيرتفع هذا إلى عليّين وينخفض هذا إلى أسفل سافلين **فتلك** الفرقة التي لا اجتماع بعدها ولهذا قال عز من قائل : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ﴾= أي ينعمون بما أفاء الله عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقوله تعالى : ﴿ وأما الذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾ لما وصف الله تعالى حال المؤمنين من الرضا والحبور في جنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين، جزاء ما أسلفوا من الطاعات والأعمال الصالحة، ذكر تعالى حال الكفار الذين كذّبوا بما نزّل الله تعالى من آيات هذا القرآن العظيم وبالبعث والجنة والنار ﴿ **فأولئك في العذاب محضرون** ﴾ أي مجموعون يوم القيامة في نار **جهنم مقيمون**

فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون .[١] =

﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ (١٧) وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۞ (١٨) يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۞ (١٩) ﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وارشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته ، ففي المساء وهو اقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه ، ثم اعترض بحمده مناسبة ـ للتسبيح فقال تعالى : ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ أي هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض ثم قال سبحانه : ﴿ وعشياً وحين تظهرون ﴾ فالعشاء وهو شدة الظلام ، والإظهار قوة الضياء فسبحان خالق هذا وهذا (وقيل المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس ، فقوله حين تمسون صلاة المغرب والعشاء وقوله حين تصبحون صلاة الفجر وقوله وعشياً صلاة العصر وقوله وحين تظهرون صلاة الظهر)[٢] وقوله تعالى : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة واضدادها ، ليدل على كمال قدرته فمن ذلك إخراج النبات من الحب والحب من النبات ، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقوله تعالى : ﴿ ويحيي الأرض بعد موتها ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ـ الى قوله ـ وان الله يبعث من في القبور ﴾ ولهذا قال هاهنا ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ أي تبعثون .

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۞ (٢٠) وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا

---

(١) الكلام الذي ما بين المساويين من هذه الصفحة هو من كلامي فإن المفسر رحمه الله تعالى لم يفسر الآيتين ١٥ و ١٦ فوضحت معناهما إتماماً للفائدة والله الموفق . (٢) ما بين القوسين قاله الضحاك وسعيد بن جبير ولم يذكره المفسر .

لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ (٢١)

يقول تعالى : ﴿ ومن آياته ﴾ الدالّة على عظمته وكمال قدرته أن خلق أباكم آدم من تراب ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ فأصلكم من تراب ثم من ماءٍ مهين ، ثم تسلسل : علقةً ثم مضغة ثم عظاما فكسيت لحماً ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج صغيراً ضعيفاً ثم تكاملت قواه إلى أن بنى المدائن والحصون وجال في أقطار الأرض براً وبحراً للكسب. وله مدارك ورأيٌ وعلم في أمور الدنيا والآخرة ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وصرّفهم في فنون المعايش، وفاوت بينهم في الخلق والعلم، واليسر والعسر، وقال الإمام أحمد عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ ٤٢٧[ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك،والخبيث والطيب ،والسهل والحزن وبين ذلك]ورواه ابو داود والترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ أي من جنسكم إناثاً أزواجاً ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ أي ليحصل الائتلاف بينهم إذ لو كان من غير جنسهم لحصلت النفرة ، فمن رحمته ان جعلهم جميعاً من جنس واحد ذكوراً وإناثاً فحصلت المودّة والرحمة والرأفة ولهذا قال : ﴿ وجعل بينكم مودةً ورحمةً ﴾ لتبقى أسباب الترابط قائمةً ، ويبقى التناسل مستمراً ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ۞ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۞ (٢٣)

يقول تعالى : ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ أي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من المخلوقات وكذلك الأرض بما فيها

ومن فيها وعليها ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ يعني اختلاف لغات البشر من عرب وعجم الى غير ذلك ﴿ وألوانكم ﴾ أي السمات الخاصة بكل انسان التي تختلف عن السمات في الإنسان الآخر وليس يشبه واحد منهم الآخر فلا بد من المقارنة في السمت والهيئة والكلام فلكل منهم أسلوب خاص يختلف عن الآخر ﴿ إن في ذلك لآيات للعالمين.ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ﴾ أي ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم الذي تحصل فيه الراحة والسكون ، وجعل لكم الأنتشار والسعي في أسباب الرزق والأسفار في النهار ﴿ إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون ﴾ أي يعون فينتفعون من معرفته هذه الآيات فتدلهم على موجدها .

روى الطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: ٤٢٨[أصابني أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قل اللهم غارت النجوم وهدأت العيون وانت حي قيوم يا حي يا قيوم أنم عيني وأهدىء ليلي » فقلتها فذهب عني]

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ (٢٤) وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۞ (٢٥) ﴾

يقول تعالى ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته أنه : ﴿ يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ أي تارةً تخافون صواعقه وتارة ترجون مطره وغيثه.ولهذا قال تعالى : ﴿ وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها ﴾ أي بعد أن كانت هامدة لا نبات فيها ولما جاءها الماء ﴿ اهتزّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعـاد .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ أي يوم تبدل الأرض غير الأرض وخرجت الأموات من قبورها أحياءً بأمره تعالى ودعائه إياهم ولهذا قال جل وعلا : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ أي من الأرض كما قال تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ۝ (٢٦) وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ (٢٧) ﴾

يقول تعالى ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ أي ملكه وعبيده ﴿ كل له قانتون ﴾ أي خاضعون خاشعون طوعاً وكرها . وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ أي كلٌّ عليه هيّن ، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٢٩ [يقول الله تعالى كذبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إيّاي فقوله : اتخذ الله ولداً وأنا الأحـــد الصمَد الذي لم يلِد ولم يولَد ولم يكن له كفُواً أحد]

وقوله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض ﴾ قال ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ قال قتادة : مثله:أنه لا إله إلا هو ولا ربَّ غيره ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي لا يغالب ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله شرعاً وقدراً .

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ (٢٨) بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝ (٢٩) ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به ، وهم مع ذلك معترفون بأن شركاءه من الأنداد عبيد له كما كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً من أنفسكم ﴾ أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ أي أيرضي أحدكم

ان يكون عبدهُ شريكاً له في ماله فهو والعبد سواء في المال ...؟ ﴿ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ أي تخافون أن يقاسموكم الأموال ، والمعنى أن أحدكم يأنف ان يكون شريكاً له فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟ وهذا كقوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أي ينسبون لله ما يكرهونه ولا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر . ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأحرى . قال تعالى : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ ثم قال تعالى مبيناً ان المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً ﴿ بل اتبع الذين ظلموا ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم باقترافهم جريمة الشرك اتبعوا ﴿ أهواءهم ﴾ في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿ فمن يهدي من أضلّ الله ﴾ أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ أي ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه ، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۞ (٣٢) ﴾

نصف الحزب

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمرَّ على دينك ملّة إبراهيم الحنيفية ، التي هداك الله لها ، وأكملها لك غاية الكمال ، وانت مع ذلك ، لازِمْ فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى ﴾ وفي الحديث : ٤٣٠ [إنّي خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم] . وسنذكر في الأحاديث أنه تعالى فطر خلقه على الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم اليهودية والنصرانية والمجوسية .

وقوله تعالى : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ أي لدين الله أي لا تبديل لدين الإسلام الذي فطر الناس عليه . روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ٤٣١ [ما من مولود يولد إلا على الفِطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل

لخلق الله ذلك الدين القيّم »] ورواه مسلم .

روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع التيمي قال: ٤٣٢ [أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه فأصبت ظفراً . فقاتل الناس يومئذ حتّى قتلوا الولدان ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال ؛ ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتّى قتلوا الذرية » فقال رجل يا رسول الله أما هم أبناء المشركين ؟ فقال : « لا إنما خياركم أبناء المشركين – ثم قال – لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية – وقال – كل نسمة تولد على الفطرة حتّى يعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها »] وقوله تعالى : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي لا يعرفونه ، كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ منيبين إليه ﴾ أي راجعين اليه ﴿ واتقوه ﴾ أي خافوه وراقبوه ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ وهي الطاعة العظيمة ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ بل وحدوه وأخلصوا العبادة له ولا تريدوا بها الاّ وجهه تعالى . قال ابن جرير عن يزيد بن أبي مريم قال : مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمعاذ ابن جبل فقال له عمر : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات : الإخلاص وهي الفطرة ، فطرة الله التي فطر الناس عليها . والصلاة هي الملة ، والطاعة وهي العصمة ، فقال عمر : صدقت .

وقوله تعالى : ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً أي بدّلوه وغيروه ، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض فكانوا فِرقاً وأحزاباً ... وهذه الأمة اختلفوا فيما بينهم كما اختلف أهل الأديان قبلهم هذا فقد اختلفت هذه الأمة على نحل كلها ضلالة إلاّ واحدة : وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين من قديم الدهر وحديثه كما رواه الحاكم في مستدركه أنه: ٤٣٣ [سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم . قال : من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي]

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۞ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ

بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن الناس انهم في حال الضراء يدعون الله وحده لا شريك له . وانه إذا أسبغ عليهم نعمة إذا فريق منهم يشركون بالله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ من النعم.ثم توعّدهم بقوله تعالى : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ قال بعضهم : والله لو توعّدني حارس درب لخفت منه ، فكيف والمتوعّد ههناهو الذي يقول للشيء كن فيكون ؟ ثم أنكر تعالى على المشركين عبادتهم غيره بلا حجة ولا برهان،فقال سبحانه : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ أي حجة ﴿ فهو يتكلم ﴾ أي ينطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ أي لم يكن لهم شيء من ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ هذا إنكار على النوع الإنساني إلا من عصمه الله ووفقه فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر. كما ثبت في الصحيح :٤٣٤[عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلاّ كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر،فكان خيراً له ، وان أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيراً له.] وقوله تعالى : ﴿ أولم يرَوا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسّع على قوم ، ويضيّق على قومٍ آخرين . ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون ﴾

فَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ ٱللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

يأمر تعالى أمراً بإعطاء ﴿ ذي القربى حقّه ﴾ أي من البر والصلة ﴿ والمسكين ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق منه ، ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المحتاج الى نفقة سفره ، ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾ أي الغاية القصوى من نعيم الجنة وهي النظر إليه تعالى ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ في الدنيا والآخرة ، ثم قال تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوَ في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ أي من أعطى عطيته يريد أن يرد الناس عليه اكثر مما أهدي لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله . قال ابن عباس وغيره وقال الضحاك : وهذا الصنيع مباح وان كان لا ثواب فيه ، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قال تعالى : ﴿ ولا تمنن تستكثرْ ﴾ أي لا تعطِ العطاء تريد أكثر منه .

وإنّما الثواب عند الله تعالى في الزكاة ولهذا قال سبحانه : ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعِفون ﴾ أي الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء كما جاء في الصحيح : ٤٣٥ [وما تصدق أحدٌ بعدل تمرةٍ من كسب طيب إلاّ أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبه كما يربّي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحدٍ]

وقوله عز وجل : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ أي هو الخالق الرازق روى الإمام أحمد عن حبّة وسواء ابنَي خالد،قالا : ٤٣٦[دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً فأعنّاه فقال « لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمرَ ليس عليه قشرةٌ ، ثم يرزقه الله عز وجل »] .

وقوله تعالى : ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ أي يميتكم بعد هذه الحياة ثم يحييكم يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ هل من شركائكم ﴾ أي الذين تعبدونهم من دون الله ﴿ من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ هل يفعلون كما يفعل الله من الخلق والرزق والحياة والموت والبعث ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أي تنزّه الله وتعالى وتقدس وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ،أو ولد أو والد،بل هو لأحد الفرد والصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

۞ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي

ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ۞ (٤٢)

قال تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾ أي بان النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي وقال أبو العالية : من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض . لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه ابو داود: ٤٣٧ [الحدّ يقام في الأرض أحبُّ إلي أهلها من أن يُمطروا أربعين صباحاً]

والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت إنكفّ الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت،من قتل الخنزير، وكسر الصليب،ووضع الجزية،وهو تركها. فلا يقبل إلاّ الإسلام أو السيف فإذا أهلك الله في زمانه الدجّال وأتباعه ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض أخرجي بركتك ، فيأكل من الرمانة الفئآم من الناس ويستظلون بقحفها ، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس ، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير . ولهذا ثبت في الصحيحين : ٤٣٨ [ان الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب] .

وقوله تعالى : ﴿ ليذيقهم بعضَ الذي عملوا ﴾ أي يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم ومجازاة على صنيعهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي عن المعاصي كما قال تعالى : ﴿ وبلونا هم بالحسنات والسيئآت لعلهم يرجعون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾ أي الذين من قبلكم ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ أي فانظر ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ۞ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۞ (٤٤) لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ ۞ (٤٥)

يأمر تعالى عبادَه بالاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ﴾ أي يوم القيامة إذا اراد كونه فلا راد له . ﴿ يومئذ يصدّعون﴾ أي يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير ولهذا قال تعالى : ﴿ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ أي يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشرة أمثالها الى سبعمأة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ ومع هذا ، فانه العادل فيهم الذي لا يجور .

وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَٱنْتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٤٧)

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها ، ولهذا قال : ﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾ أي المطر الذي ينزل فيحيي به العباد والبلاد ، ﴿ ولتجريَ الفلكُ بأمره ﴾ أي في البحر وإنما سيرها بالريح ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي بالتجارات والمعايش والسير من إقليم إلى إقليم ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون الله تعالى على نعمه الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى . ثم قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ بأنه وإن كذّبه قومه فقد كُذِّبَ المرسلون قبله مع ما معهم من الدلائل الواضحة ، فانتقم الله من المكذبين ، وأنجى المؤمنين برسله ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ أي حق أحقّهُ على نفسه الكريمة تكرماً منه وتفضلاً كقوله تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرَّحمة ﴾ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ

بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۞ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ۞ (٥١)

يبيّن الله تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء فقال تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ من تبخّرات البحر ومن تبخّرات ما يشاء سبحانه ﴿ فيبسطه في السماء كيف يشاء ﴾ أي يمدّه فيكثره وينمّيه حتى يملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالاً مملوءة ،كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ﴾– الى قوله– ﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكّرون ﴾ وكذلك قال هاهنا : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً ﴾ أي قطعاً سوداء ثقيلة قريبة من الأرض . وقوله تعالى : ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ أي فترى المطر ينهمر من السحاب ﴿ فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ أي لحاجتهم إليه وبنزوله ووصوله إليهم . وقوله تعالى : ﴿ وإن كانوا من قبل ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ أي كانوا قانطين فلما جاءهم المطر جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعاً عظيماً بعد أن انتظروه وقتاً بعد وقت ، فترقبوه في أثنائه ، فتأخر ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر ثم جاءهم فجأة بعد الإياس منه فربت ارضهم بعد الهمود وأنبتت من كل زوج بهيج ولهذا قال تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله ﴾ يعني المطر ﴿ كيف يحيي الأرض بعد موتها ﴾ ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرّقها فقال تعالى : ﴿إن ذلك لمحيي الموتى ﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادرٌ على إحياء الموتى﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوْه مصفرّاً لظلوا من بعده يكفرون﴾ يقول تعالى : ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ يابسةً على الزرع الذي زرعوه وشب واستوى على سوقه فرأوْه مصفرّاً وشرع في الفساد لظلوا من بعده يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، كقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ إلى قوله ﴿ بل نحن محرومون ﴾ .

والرياح ثمانية : أربعة منها رحمة ، وأربعة عذاب . فأما الرحمة : فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، وأما العذاب : فالعقيم والصرصر وهما في البر ، والعاصف والقاصف وهما في البحر ، فإن شاء الله جعلها رحمة وبشرى،أو شاء فجعلها عذاباً أليماً .

والرياح مختلفة في مهابّها : صبا ، ودبور ، وجنوب ، وشمال،وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تسيّره وتصلبه ، وأخرى توهنه وتُضعفه .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۞ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۞ (٥٣) ﴾

يقول تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها ، ولا تبلغ كلامك الصمّ الذي لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم بل ذلك إلى الله تعالى،فإنه عز وجل بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه.ولهذا قال تعالى : ﴿ إن تسمعُ إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أي خاضعونَ مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين كما قال تعالى : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون ﴾ وقد استدلّت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية : ﴿فإنك لا تسمع الموتى ﴾ على توهيم عبدالله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم حتى قال له عمر : [٤٣٩ يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيّفوا ، فقال « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » وتأولته عائشة على انه قال « انهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق »] وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعاً وتوبيخاً ونقمةً (١)

(١) قلت : لقد جاء في الطبعة البيروتية / طبعة دار الأندلس / لتفسير ابن كثير زيادات على نسخة تفسير ابن كثير الأميرية مثبتة في النسخة المكية ، وهذه الزيادات تشتمل على حديثين واهيين وعلىبعض روايات عن غير المعصوم. جاء فيها بعض الطامات، التي كانت وأمثالها من الخرافات.. سبباً فيتوهين جسمهذه الأمةالتي=

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝ (٥٤) ﴾

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار خلقه ، فأصله من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، ثم يصير عظاماً ثم تكسىَ لحماً ، ثم ينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه واهن القوى ، ثم يشبُّ قليلاً حتى يكون صغيراً ، ثم حدثاً ، ثم مراهقاً ثم شاباً ، وهو القوة بعد الضعف ثم يشرع في النقص فيكتهل ثم يشيخ فيهرم ، وهو الضعف بعد القوّة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمّة ، وتتغيّر الصفات الظاهـرة والباطنة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء ﴾ أي يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿ وهو العليم القدير ﴾

= شاءها الله أن تكون خيرَ أمةٍ أخرجت للناس ، شريطةَ أن تتخذَ الإسلامَ الصحيحَ منهجاً لها وصراطاً مستقيماً إنّما غلبت عصور التأخر، وما حملت في طياتها من كيدٍ للإسلام وأهله فدخلت مثل هذه الطامّات التي تعدل بالمسلمين عن منهجهم الهادي وطريقهم القويم .

لقد جاء في هذا التفسير (بل أُدخِل عليه ادخالا ودس عليه دُسا) أن الأموات يسمعون ويعقلون وتعرض عليهم أعمال الأحياء ! ثم قال أحد الرواة لهذه الطامات أنه رأى أهل القبور خارجين من قبورهم وجالسين عليها ويتكلمون مع هذا الراوي ونادوه بسمه ، ثم ذكرت بعض حكايات مستندة إلى منامات تؤيد سماع الأموات لكلام الأحياء ولسلاماتهم ، مما يخالف مخالفةً صريحةً لما جاء في الكتاب الكريم ، من ان الأموات لا يسمعون كقوله تعالى : «فإنك لا تسمع الموتى» وقوله تعالى : « وما أنت بمسمع من في القبور » وكقوله تعالى « و الذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير» وأمثال ذلك في القرآن كثير . واذا كان أهل القليب ببدر . خاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووبخهم وقرعهم فهذا خاص بهذه الواقعة فقط لأنه كان معجزة له صلى الله عليه وسلم لا سيما وإن أحد الرواة قال : [أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته توبيخاً وتقريعاً ونقمة .] فلما رد الله إليهم أسماعهم سمعوا مقالة النبي صلى الله عليه وسلم ليكون ذلك أبلغَ في عذابهم على أن أعداءَ الإسلام يحبون أن يدسوا سمومَهم هذه ، ليسهلَ عليهم أن يدسوا وراءها عقائدَ شركيةً ، تجيز دعوةَ غير الله ، والاستغاثةَ بهم ، والذبح والنذر لهم ، وأمثال هذه الشركيات التي دسها أعداء الاسلام ، حتى ينالوا مآربهم وما يبغونه من الكيد للاسلام والمسلمين ، وإننا نعتقد اعتقاداً جازماً ان أمثال هذه الطامات الخبيثات ؛ مدسوسة على تفسير ابن كثير رحمه الله الذي يُعد من أجل التفاسير بل هو أجلها وأهداها . . . ولذا فقد ضربنا صفحاً عن ادخال هذه المنكرات في هذا المختصر الذي نحرص على أن يكون منزهاً عن كل ما يشين سمعة هذا الدين الكريم ، وفقاً لعقيدتنا السلفية الهادية المهدية وسوف نفرد -إن شاء الله- ردّاً خاصاً على هذه الترّهات . والله الموفق .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۞ (٥٥) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۞ (٥٧) ﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا عبدوا الأوثان وفي الآخرة أقسموا بالله انهم ما لبثوا في الدنيا غير ساعة ، ومقصدهم عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم .قال الله تعالى : ﴿ كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثم في كتاب الله الى يوم البعث ﴾ أي فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا فيقولون لهم حين حلفوا أنهم ما لبثوا غير ساعة : ﴿ لقد لبثم في كتاب الله ﴾ أي في كتاب الأعمال : ﴿ إلى يوم البعث ﴾ أي من يوم خلقتم إلى يوم بعثتم ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فيومئذ ﴾ أي يوم القيامة : ﴿ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ وعمّا فعلوا ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي ولا هم يرجعون الى الدنيا.كما قال تعالى : ﴿ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۞ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۞ (٦٠) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولقد ضربْنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي قد بينا لهم الحق ووضّحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿ ولئن جئتهم بآيــة ليقولنّ الذين كفروا إن أنتم إلاّ مبطلون ﴾ أي مهما رأوا من آيات سواء كانت باقتراحهم أوْ

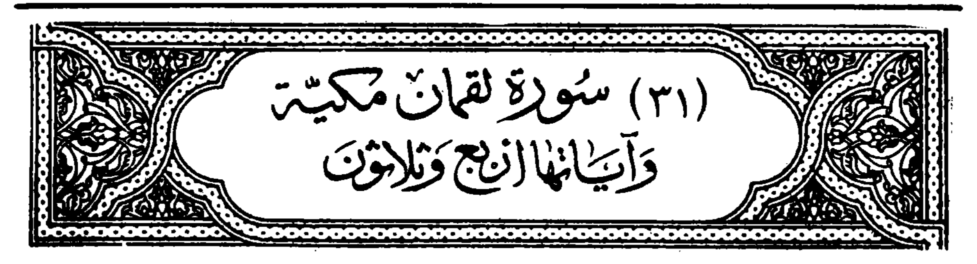
غيره لا يؤمنون بها .كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتّى يروا العذاب الأليم ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون. فاصبر إن وعد الله حق ﴾ أي اصبر على عنادهم ، ومخالفتهم فان الله وعدك بالنصر عليهم أنت ومن معك في الدنيا والآخرة ﴿ ولا يستخفنَّك الذين لا يوقنون ﴾ أي بل واثبت على ما بعثك الله به فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه، وليس فيما سواه هدي يتبع بل الحق كله منحصر فيه .

قال سعيد عن قتادة : نادى رجل من الخوارج علياً رضي الله عنه وهو في صلاة الغداة فقال : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكونَن من الخاسرين ﴾ فأنصت له عليّ حتّى فهم ما قال ، فأجابه وهو في الصلاة : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾

آخر اختصار تفسير سورة الروم ، ولله الحمد والمنة وندعوه تعالى

أن ييسر الاختصار الى نهايته انه سميع قريب مجيب الدعاء

وسيليها اختصار تفسير سورة لقمان والحمد لله رب العالمين ٢٦ / ٤ / ١٣٩٠
٣٠ / ٦ / ١٩٧٠



إلا الآيات : ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ فمدنية نزلت بعد الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم ۞ (١) تلك آيات الكتاب الحكيم ۞ (٢) هدى ورحمة للمحسنين ۞ (٣) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ۞ (٤) أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ۞ (٥) ﴾

تقدم في أول سورة البقرة ، عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاءً ورحمةً للمحسنين وهم الذين أحسنوا العمل في اتّباع الشريعة فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا أرحامهم ، وقرابتهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك فمن فعل فهو من الذين قال الله تعالى ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ أي على بصيرة وبيّنة ومنهج واضح جلي ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب

مُهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

لما ذكر حال السعداء وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه ،كما قال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب كما قال ابن مسعود: في قوله تعالى﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم﴾قال : هو والله الغناء وكذلك قال ابن عباس وجابر وعكرمة وغيرهم ... قال الضحاك يعني الشرك، واختاره ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله . وقوله تعالى : ﴿ليضل عن سبيل الله ﴾ أي إنما يصنع هذا للتخالف للاسلام وأهله . وقوله تعالى: ﴿ ويتخذها هزواً ﴾ أي يستهزىء بها.وقوله تعالى : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي كما استهانوا بآيات الله أهينوا يوم القيامة في العذاب المستمر . ثم قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعْها كأنّ في أذنيه وقراً ﴾ أي هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنيّة ولّى عنها وأعرض ، وتصامم وما به من صمم لأنه يتأذى بسماعها ولا أرب له فيها . ﴿ فبشّره بعذاب أليم ﴾ أي يوم القيامة ، يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته . ولا شك فإن هذا كان جزاءاً وفاقاً من نوع العمل ولا يظلم ربك أحداً .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

هذا ذكر خاتمة الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا الصالحات على مراد الله ﴿ لهم جنات النعيم ﴾ أي يتنعمون فيها بأنواع الملاذّ التي لا تخطر ببال أحد مقيمون فيها لا يبغون عنها حولاً . وقوله تعالى : ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي لا محالة كائن والله لا يخلف الميعاد لأنه الكريم المنان ، الفعّال لما يشاء القادر على كل شيء ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي قهر كل شيء ، ودان له. ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ (١٠) هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ (١١) ﴾

يبيّن سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، فقال تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ﴾ مرئية أو غير مرئية وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة الرعد بما أغنى عن إعادته [1] ﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾ يعني الجبال أرست الأرض لئلا تضطرب بأهلها ولهذا قال جل وعلا: ﴿ أن تميد بكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ أي بثّ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلاّ الذي خلقها ، وقد نبّه سبحانه على أنه الرازق بقوله جل وعلا : ﴿وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ أي من كل زوج من النبات وقوله تعالى﴿هذا خلق الله ﴾ أي صادر عن خلق الله وفعله وتقديره وحده لا شريك له في ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ أي مما تعبدونه وتدعونه من دون الله من الأصنام والأنداد؟! ﴿ بل الظالمون ﴾ يعني المشركين بالله، العابدين غيره معه ﴿ في ضلال ﴾ أي جهل وعمى ﴿ مبين ﴾ أي واضح ظاهر .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝ (١٢) ﴾

اختلف السلف في لقمان: هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة...؟ على قولَين، الأكثرون على الثاني . وعن ابن عباس أنه كان عبداً حبشياً نجاراً . وعن جابر بن عبدالله قال : كان قصيراً أفطس الأنف من النوبة . وعن سعيد بن المسيب قال كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوّة . وقال ابن جرير : كان لقمان عبداً

---

(١) سورة الرعد الآية رقم /٢/

حبشيّاً نجاراً فقال له مولاه اذبح لنا هذه الشاة فذبحها قال : أخرج أطيب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، ثم مكث ما شاء الله ثم قال : إذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها ، فقال أخرج أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما فقال لقمان : انه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا. ولا أخبث منهما إذا خبثا. وقد أتى رجل اليه وسأله : ما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث . والصمت عما لا يعنيني . ومما تقدم يتضح أنه كان عبداً قد مسّه الرق ، والرق ينافي كونه نبياً . لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها ولذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً . وسئل أيضاً عن أسباب ما وصل إليه فقال : يا ابن أخي إن صغيت إلى ما أقول لك . كنت كذلك قال لقمان : غَضّي بصري ، وكَفّي لساني . وعِفة طعمتي ، وحِفظي فرجي ، وقَولي بصدق ، ووَفائي بعهدي ، وتَكرمتي ضيفي . وحِفظي جاري . وتَركي ما لا يعنيني، فذاك الذي صيرني إلى ما ترى .

وقوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ أي الفهم والعلم والتعبير والفقه في الإسلام ولم يكن نبيّاً ولم يوحَ إليه . ﴿ ان اشكر لله ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ، ثم قال تعالى : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ أي إنما يعود النفع على الشاكرين ، لقوله تعالى : ﴿ومن كفر فإن الله غني حميد﴾ أي غني عن العباد لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض جميعاً فإنه الغني عما سواه ، فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن وصية لقمان لابنه . ولقمان هو ابن عنقاء بن سدون . واسم ابنه تاران في قول حكاه السهيلي . أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده لا شريك له ثم قال محذراً له ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ أي هو أظلم الظلم. روى البخاري عن عبدالله قال : ٤٤٠ [لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ : وقالوا أيّنا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « انه ليس بذلك ألا تسمع الى قول لقمان : ﴿ يا بني لا تشركْ بالله إن الشِّرك لظلم عظيم »] . ورواه مسلم من حديث الأعمش به.ثم قرن بوصية ابنه بعبادة الله وحده، البرّ بالوالدين وقال هنا : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ﴾ أي ضعفاً على ضعف ، وقوله : ﴿ وفصاله في عامين ﴾ أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين كما قال تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ ومن ههنا استنبط ابن عباس : أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأنه قال في الآية الأخرى : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ وإنّما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً ، ليذكّر الولد بإحسانها المتقدّم إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ أن اشكرْ لي ولوالديك إليّ المصير ﴾ أي فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء .

وقوله تعالى : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ أي في متابعتهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنع أن تحسن إليهما ﴿ واتبعْ سبيل من أنابَ إليّ ﴾ يعني المؤمنين ﴿ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾.

وروى الطبراني في كتاب العشرة بالسند الى سعد بن مالك قال : أنزلتْ فيّ هذه الآية : ﴿ وإن جاهداك... ﴾ الآية قال كنت رجلاً براً بأمي فلما أسلمتُ ، قالت : يا سعد ما هذا الذي أراك قدأحدثتَ ،لتدعَن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي ، فيقال : يا قاتل أمّه ، فقلت لا تفعلي يا أمّه ، فإني لا ادع ديني هذا لشيء ، فمكثتْ يوماً وليلة ولم تأكل فأصبحت وقد جهدت ، فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً وليلةً أخرى لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمّه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء فإن شئت فكلي وان شئت لا تأكلي ، فأكلَتْ .

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي

(١) راجع تفسير الآية / ١٥ / من سورة الأحقاف ففيه تفصيل مفيد .

صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم ليمتثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ﴾ أي إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل ﴿ يأت بها الله ﴾ أي يحضرها يوم القيامة ، ويجازي عليهما إن خيراً فخير أو شراً فشر . كقوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ومهما كانت الذرة خافية أي غائبة في أرجاء السموات والأرض، يأت بها من لا تخفى عليه خافية فيها.ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أي لطيف العلم بالأشياء مهما تضاءل أو دقَّ وخبير بكل شيء حتى بدبيب النمل في الليل البهيم ، وكل مخلوق يُرى وما لا يُرى .

﴿يا بنيّ أقم الصلاة﴾ أي بفروضها وحدودها وأركانها وأوقاتها ﴿وأمر بالمعروف وانهَ عن المنكر﴾ بحسب استطاعتك ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ أي لأن الداعي الى الله تعالى لا بد أن يناله الأذى ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ أي إن الصبر على أذى الناس من العزائم التي يوهبها الله لأهل دعوته . وقوله: ﴿ ولا تصعّر خدك للناس ﴾ وأصل الصَعَر : داء يأخذ الإبل في أعناقها حتى تفلت عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر الذي يعرض بوجهه عن الناس إذا كلمهم أو كلموه احتقاراً منه إليهم ، واستكباراً عليهم وإن الله ينهى عن ذلك، وقوله : ﴿ ولا تمشِ في الأرض مرحاً ﴾ أي خُيلاء متكبراً ، لا تفعل ذلك يبغضك الله ولهذا قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يحبُّ كل مختال فخور ﴾ أي معجب في نفسه ، فخور على غيره . كقوله تعالى : ﴿ ولا تمشِ في الأرض مرَحاً إنك لن تخرقَ الأرض ولن تبلغَ الجبالَ طولاً ﴾ روى الحافظ الطبراني بسنده إلى ثابت بن قيس بن شماس قال :١ ٤٤ ذكر الكِبْر عند رسول الله ﷺ فشدّد فيه فقال : ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾

فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها ، ويعجبني شراك نعلي ، وعلاقة سوطي ؛ فقال « ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تسفه الحق وتغمط الناس »]

وقوله تعالى : ﴿ واقصد في مشيك ﴾ أي لا بطيئاً ولا مسرعاً إنّما مقتصد بين بين وقوله تعالى : ﴿ واغضض من صوتك ﴾ أي لا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ولهذا قال: ﴿ إنَّ أنكر الأصواتِ لصوتُ الحمير ﴾ أي أقبح الأصوات أي غايته من رفع صوته أن يشبّه بالحمير في علوّه ورفعه ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى ، والتشبيه بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم لأن رسول الله ﷺ قال: ٤٤٢ [ليس لنا مثل السوء ... العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه] وروى النسائي عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٤٤٣ [إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، واذا سمعتم نهيق الحمير، فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً] وأخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجة .

فهذه وصايا نافعة من قصص القرآن الكريم عن لقمان الحكيم . وقد روي عنه من الحكم والمواعظ اشياء كثيرة . منها ما روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : اخبرنا رسول الله ﷺ قال: ٤٤٤ [إن لقمان الحكيم كان يقول : ان الله إذا استودع شيئاً حفظه]

وعن ابن أبي حاتم عن القاسم بن مخيمرة ان رسول الله ﷺ قال: ٤٤٥ [قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه: يا بني إياك والتقنع ، فإنه مخوفة بالليل مذمة بالنهار]

« من أقواله لابنه »

- يا بني ان الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .
- يا بني إذا أتيت نادي قوم ، فارمهم بسهم الإسلام يعني السلام ، ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا فإن أفاضوا في ذكر الله فأجِلْ سهمك معهم وإن أفاضوا في غير ذلك ، فتحول عنهم إلى غيرهم .

« في التواضع »

أحاديث تتعلق بوصية لقمـــــان الحكيم لابنه »

* عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: ٤٤٦ [رُبَّ اشعث ذي طمرين يصفع عن أبواب الناس إذا أقسم، على الله لأبرَّه]

• وعن أنس رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : ٤٤٧ [طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يُعرَفوا ، وإذا غابوا لم يُفتَقَدوا ، أولئك مصابيحُ مجرّدون من كل فتنة غبراء مشتّتة] .

• وعن معاذ بن جبل قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول : ٤٤٨ [ان اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، واذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة] .

« في الشهرة ... »

• عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٤٤٩ [حسب امرئٍ من الشر إلاّ من عصم الله ، أن يشيرَ الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه ، وان الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن الى قلوبكم وأعمالكم] فيه ابن لهيمة ضعيف لسوء حفظه بعد ان احترقت كتبه .

– قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ما صدق الله من احب الشهرة .

– قال سليم بن حنظلة : بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع وفتنة للمتبوع .

– قال إبراهيم النخعي : لا تلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ولا مـــا يزدريك السفهاء .

« في حسن الخلق »

• عن أنس رضي الله عنه : ٤٥٠ [كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلقاً]

• وعن ابن عمر رضي الله عنه : ٤٥١ [قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟« قال أحسنهم أخلاقاً »]

• وعن عائشة مرفوعاً ٤٥٢ [ان العبدَ ليبلغ بحسن خلُقه درجةَ قائمِ الليل صائم النهار]

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه : ٤٥٣ [سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنّة فقال : « تقوى الله وحسن الخلق »] ، وسئل عن اكثر ما يدخل الناس النار فقال : « الأجوفان : الفم والفرج »] وعن أنس مرفوعاً : ٤٥٤ [ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة]

* عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله ﷺ ٤٥٥ [ان الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه الأجر ويروح]

* وعن أبي هريرة مرفوعاً : ٤٥٦ [إنكم لا تسَعُون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسطُ وجوه وحسنُ خلق] .

« في ذم الكِبْر »

* عن ابن مسعود رفعه : ٤٥٧ [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كِبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان]

عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً : ٤٥٨ [من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر أكبّه الله على وجهه في النار]

قال محمد بن الحسين بن علي – من ولد علي رضي الله عنه – ما دخل قلب رجل من شيء من الكِبر إلاّ نقص من عقله بقدر ذلك .

* في الاختيال – : عن بريدة مرفوعاً : ٤٥٩ [من جرَّ ثوبَه خيلاء لم ينظرِ الله إليه]

* وعن أبي هريرة مرفوعاً ٤٦٠ [لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره وبينما رجل يتبختر في بردَيْه أعجبته نفسُه ،خسف اللهُ به الأرضَ فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة][1] .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ

(١) هو قارون الذي خسف الله به الأرض لكفره وكبره واختياله والعياذ بالله .

فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ❁ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ❁ (٢١)

ينبه تعالى خلقه على نعمه بأن سخر لهم كل ما في السموات والأرض ليستعينوا بها في معاشهم في الدنيا فتكون معينةً لهم على عبادتهم لله تعالى كما أمر ، وأفاض عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل.ومع كل هذا ماآمن من الناس إلا قليل ، واكثرهم يجادل في توحيد الله وارساله الرسل ولكن بغير علم ولا حُجة من كتاب من الله مبين مضيء.﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴾ على رسولِهِ من الشرائع المطهرة ﴿ قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي ليس لهم أي حجة سوى اتباع الآباء الأقدمين.فما ظنكم أيها المفتونون بآبائكم إذا كانوا على ضلالة وأنتم خلفهم في ذلك؟ ولهذا قال : ﴿ أوَلو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ — وهكذا حال من يهجر سبيلَ الله المستقيم ، ويتبع كل شيطان من الجِنَّة والناس ليقذفوا بهم في قرار الجحيم .

حزب ٤٢

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ❁ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ❁ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ❁ (٢٤)

يخبر تعالى عمّن أسلم وجهه لله أي أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ولهذا قال تعالى : ﴿ وهو محسن ﴾ أي في عمله باتباع ما أمر به وترك ما زجر عنه ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي فقد أخذ موثقاً متيناً من الله انه لا يعذبه ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ومن كفر فلا يحزنك كفره ﴾ أي لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وبما جئت به ، وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا أي فيجزيهم عليه ﴿ إن الله عليم بذات الصّدور ﴾ فلا تخفَى عليه خافية ثم قال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلاً ﴾ أي في الدنيا ﴿ ثم نضطرهم ﴾ أي نلجئهم ﴿ إلى عذاب غليظ ﴾ أي فظيع صعب مشقّ على النفوس .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۞ (٢٦) ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء المشركين أُنهم يعترفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ﴿ قل الحمد لله ﴾ إذْ قامت عليكم الحجة باعترافكم.﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لله ما في السموات والأرض ﴾ اي هو خلقه وملكه ﴿إن الله هو الغني الحميد﴾ أي الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه ، الحميد في جميع ما خلق ، له الحمد في السموات على ما خلق وما شرع وهو المحمود في الأمور كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۞ (٢٨) ﴾

يخبر سبحانه عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكلماته التامّة التي لا يحيط بها أحد ولا يحصيها كما قال سيد البشر : ٤٦١ [... لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك] فقال تعالى: ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مداداً وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله، لتكسّرت الأقلام ونفد ماءُ البحار ولو جاء أمثالها مدداً إن ربّنا كما يقول وفوق ما نقول . قال قتادة إنها نزلت لمّا قال المشركون : إنما هذا الكلام يوشك أن ينفد فقال الله تعالى : ﴿ ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام ...﴾ الآية .

وروي عن ابن عباس ٤٦٢ [أنها نزلت جواباً لليهود فإن أحبارهم قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يا محمد أرأيت قولك : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ إيّانا تريد أم

قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ « كلا كما » قالوا ألست تتلو فيما جاءك أنّا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنها في علم الله قليل وعندكم من ذلك ما يكفيكم ، وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ الآية] وهذا يقتضي أن الآية مدنيّة لامكية والمشهور أنها مكية والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز قد عز كل شيء وقهرَه وغلبه ، حكيم في جميع شؤونه.وقوله تعالى : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفسٍ واحدة ﴾ أي ما خلق جميع الناس وبعثُهم يومَ المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كخلق نفسٍ واحدة . وقوله تعالى : ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ أي سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفسٍ واحدة .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ * (٣٠) ﴾

يخبر تعالى أنه ﴿ يولج الليل في النهار ﴾ يعني يأخذ منه في النهار فيطول ذاك ويقصر هذا ، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار الى الغاية ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار وهذا يكون في الشتاء ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمّى ﴾ أي إلى غاية محدودة كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٤٦٣ [يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس » قلت : الله ورسوله أعلم قال : فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها فيوشِك أن يقال ارجعي من حيث جئت]

وقوله تعالى : ﴿ وان الله بما تعملون خبير ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾ أي إنما يُظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أي الموجود الحق ، الإله الحق وإن كل ما سواه باطل والجميع خلقه وعبيده ولو اجتمع كل المخلوقات لا يقدرون على تحريك ذرة إلاّ بإذنه ولعجزوا أن يخلقوا ذباباً.ولذا قال سبحانه : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العليُّ الكبير ﴾

أي العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ ءَايَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ❁ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ❁ (٣٢) ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ، ولهذا قال عز من قائل: ﴿ليريكم من آياته﴾ أي من قدرته ﴿إن في ذلك لآياتٍ لكل صبار شكور﴾ أي صبّار في الضراء شكور في الرخاء.ثم قال تعالى : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴾ اي كالجبال والغمام ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ [١] ثم قال جل وعلا : ﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ قال مجاهد : أي كافر كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ولهذا قال سبحانه : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلاّ كلّ ختار كفور﴾ فالختّار هو الغدار وهو الذي كلما عاهد نقض عهده . والخَتْرُ أتمّ الغدر وأبلغه ، قال عمر بن معد يكرب :

وإنك لـــو رأيت أبـــا عميرٍ ملأتَ يديْك مـــن غدرٍ وختْرِ

وقوله تعالى : ﴿ كفور ﴾ أي جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ ٱلْغَرُورُ ❁ (٣٣) ﴾

يُنذر الله الناسَ يومَ المعاد ، ويأمرهم بتقواه والخوفِ منه والخشيةِ من يوم القيامة حيث : ﴿ لا يجزي والد على ولده ﴾ أي لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه ، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه . ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله تعالى : ﴿ فلا

(١) أي موحدين تمام التوحيد لا يشركون به أحدا

تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ أي لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرورُ ﴾ الغرور هو الشيطان فانه يغر ابنَ آدم ويعدُه ويمنّيه وليس من ذلك من شيء بل كان كما قال تعالى : ﴿ يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غرُورا ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * (٣٤) ﴾

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بالعلم بها فلا يعلمها أحدٌ إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقتَ الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب. ﴿ لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلاّ الله ولكن إذا أمر به عامته الملائكة الموكلون بذلك ، ولا يعلم ما في الأرحام من ذكر أو أنثى أو شقياً أو سعيداً إلا الله ثم يعلم الله الملائكة الموكلين بذلك ، وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها وكذلك ما تدري نفس في أي بلد أو غيره من بلدان الله ستقبض ولا يدري أحد بذلك ولا يعلمه .

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾ وقد وردت السنّة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب .

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ٤٦٤ [مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلاّ الله ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير﴾] إنفرد بإخراجه البخاري .

روى الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ٤٦٥ [من حدثك أنه [١] يعلم ما في غدٍ فقد كذب ثم قرأت : ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غـداً ﴾] .

وقوله تعالى : ﴿ وما تدري نفس بأي أرضٍ تموت ﴾ قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن ، فلم يطلعْ عليهن ملَكاً مقرّباً ولا نبيّاً مرسلاً. ﴿ إنّ الله عنده علم الساعة ﴾ فلا

---

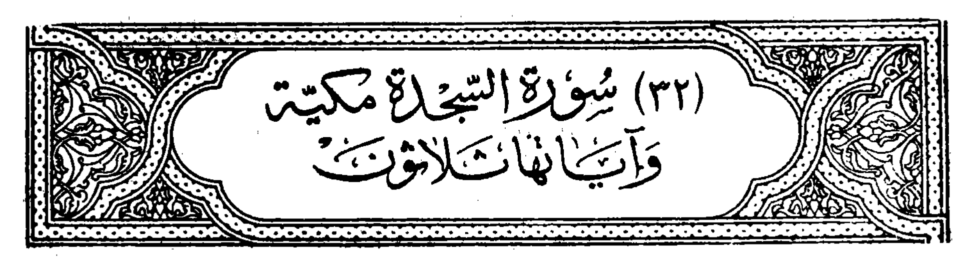
(١) أي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة أو في أي شهر أو ليل أو نهار ﴿ وينزّل الغيث ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً. ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام ذكراً أم أنثى ، أحمر أم أسود وما هو ... ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ أخير أم شر ، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غداً ، لعلك المصاب غدا ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ أي ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أو بر أو سهل أو جبل وقد جاء في الحديث: ٤٦٦ [اذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة .]

آخر اختصار تفسير سورة لقمان والحمد لله رب العـــالمين

٢٨ / ٤ / ١٣٩٠

٢ / ٧ / ١٩٧٠



إلاَّ الآيات ١٦ – ٢٠ فمدنيّة نزلت بعد المؤمنين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۞ (١) تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٢) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۞ (٣) ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن اعادته ههنا . وقوله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ من ربِّ العالمين ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أي اختلقه من عند نفسه ﴿ بل هو الحقُّ من ربك لتنذرَ قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ أي يتّبعون الحق الذي جاء به .

وقد روى البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة قال : ٤٦٧ [كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿ آلم . تنزيل ...﴾ السجدة و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾] ورواه مسلم من حديث سفيان الثوري به . روى الإمام أحمد عن جابر قال : ٤٦٨ [كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ: ﴿ آلم . تنزيل ﴾ السجدة، و ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ ، تفرد به أحمد .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ

أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾

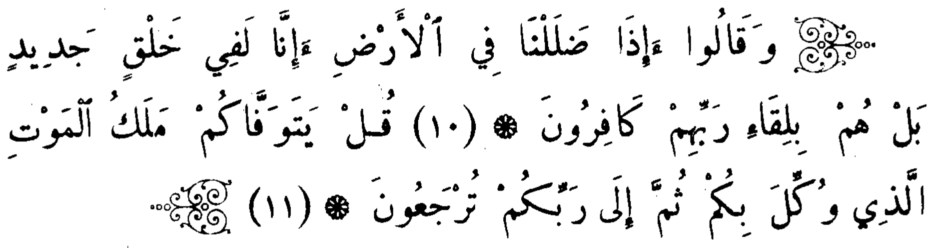
يخبر تعالى أنه خلق الأشياء فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ــ استواءً يليق بجلاله بلا تكييف ولا تشبيه ولا تجسيم ولا تأويل ولا تعطيل ــ ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ أي بل هو المالك لأزمَّة الأمور ، الخالق المدبر لكل شيء ، والقادر على كل شيء فلا وليّ لخلقه سواه ، ولا شفيع إلاّ من بعد إذنه ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ يعني أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه ، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير أو نديد أو عديل لا إله الاهو ولا رب سواه . وقوله تعالى : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ أي يتنزّل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ﴾ الآية وترفع الأعمال إليه تعالى ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون ﴾ ولكن الملَك يقطعها بطرفة عين ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ أي إن الله تعالى هو شهيد على أعمال عباده ترفع اليه جميعاً جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها . هو العزيز سبحانه الذي عزّ كل شيء فقهره وغلبه ، والرحيم بعباده المؤمنين ، فهو عزيز في رحمته ، رحيم في عزته وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة ، والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسنَ خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها. ثم لما ذكر خلق

السموات والأرض ، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال تعالى : ﴿ وبدأ خلق الانسان من طين ﴾ يعني خلق أبا البشر آدم عليه السلام من طين ﴿ ثم جعل نسلَهُ من سلالة من ماء مهين ﴾ أي يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ ثم سواه ﴾ يعني آدم لما خلقه من تراب ، خلقه سوياً مستقيماً ﴿ ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ يعني العقول ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل فالسعيد من استعملها في طاعته عز وجل .




وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿ (١١)

يخبر تعالى عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿ أإذا ضللنا في الأرض ﴾ أي تمزقت أجسادنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿ أئنّا لفي خلق جديد ﴾ أي أنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة،لا إلى الذي يقول للشيء كن فيكون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة كما هو المتبادر من حديث براء المتقدم ذكره في سورة ابراهيم ، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل[1] وهو المشهور قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان، وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت . قال مجاهد : حويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء ورواه زهير بن محمد عن النبي ﷺ بنحوه مرسلاً وقوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

(١) لم تصح تسمية ملك الموت بعزرائيل ، فنكتفي ونقف عند التسمية التي سماه الله تعالى : (ملك الموت)

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة ، وقالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عز وجل ، حقيرينَ ذليلين ناكسي رؤوسهم ، من الحياء والخجل يقولون : ﴿ ربّنا أبصرنا وسمعنا ﴾ أي الآن نسمع ونطيع أمرك وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ وهكذا هؤلاء يقولون ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا ﴾ إلى دار الدنيا ﴿ نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ أي قد أيقنا أن وعدك حق ولقاءك حق ، ويعلم الله أنه لو أعادهم الى الدنيا لكانوا كفاراً يكذّبون بآيات الله ويخالفون رسله ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنّة والناس أجمعين ﴾ = أي لو أردنا لأجبرنا كلّ نفسٍ على أن تهتدي بأمرنا إلى الخير إجباراً وإننا لقادرون على ذلك ولكن حق منا القول ان تختار النفوس طريقها إلى الخير أو الشر اختياراً منهم لأنه سبق أن علموا مني ما هي خاتمة الطائعين لأوامري وما هي خاتمة العاصين من الجنّ والإنس فلأملأن جهنم منهم أجمعين أما الذين أطاعوا واتبعوا سبل السلام فلأجعلنهم في دار السلام ، والنعيم المقيم [1] =

نعوذ بالله من حال أهل النار فإنه يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنّا نسيناكم ﴾ أي سنعاملكم معاملة الناسي من باب المقابلة وإلاّ فإن الله تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء كما قال تعالى : ﴿ فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ أي بسبب كفركم ، وتكذيبكم كقوله تعالى : ﴿ فلن نزيدكم إلاّ عذاباً ﴾

سجدة

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

(١) قلت : إن بين المساويين ليس من كلام المفسر رحمه الله إنّما هو من كلامي والله الموفق .

يقول تعالى: ﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾ أي يصدقها ﴿ الذين إذا ذُكّروا بها خرّوا سجّداً ﴾ أي استمعوا لها وأطاعوها قولاً وعملاً ﴿ وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾ أي عن اتباعها والانقياد لها كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة . قال الله تعالى : ﴿ ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعني بذلك قيامَ الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة. قال مجاهد والحسن في قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعني بذلك قيام الليل وقيل الصلاة بين العشاءَيْن وعن أنس : هو انتظار صلاة العتمة . ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ أي خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً في جزيل ثوابه.﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ كما قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه :

وفينـــــا رسول الله يتلو كتابَهُ ... إذا انشقَّ معروف من الصبح ساطعُ
أرانـــــا الهدى بعد العمى ، فقلوبنا ... به موقنات أنّ مـــا قال واقـــع
يبيت يجـــافي جنبـــه عـــن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : ٤٦٩ [عجب ربنا من رجلين رجل ثار من وطائه ولحافه من بين حبه وأهله الى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة ممـــا عندي ، ورجل غزا في سبيل الله تعالى فانهزموا ، فعلم ما عليه من الفرار وماله في الرجوع فرجع حتى أهريق دمه رغبة فيما عندي ، وشفقةً مما عندي فيقول الله عز وجل للملائكة **انظروا إلى عبدي رجع** رغبة فيما عندي ، ورهبة مما عندي. ـ حتى أهريق دمه »]

روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : ٤٧٠ [كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحتُ يوماً قريباً منه ونحن نسير فقلت : يا نبيّ الله أخبرني بعمل يدخلني الجنـــة ويباعدني من النار قال : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ــ ثم قال ــ ألا أدلّك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنّة ، والصدقة تطفىءُ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل ــ ثم قرأ ــ ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿...جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ فقلت : بلى يا رسولَ الله فقال : « رأس الأمر الإسلام ، وعمودُه الصلاة ، وذروةُ سنامه الجهاد في سبيل الله ــ ثم قال ــ : ألا اخبرك بملاك ذلك كله ؟ فقلت : بلى يا نبيّ الله ، فأخذ بلسانه ثم قال « كفَّ عليك هذا » فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤآخذون بما نتكلم به ؛

فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ وهل يُكَبُّ الناس في النار على وجوههم أو قال : على مناخرهم إلاّ حصائد ألسنتهم »] ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم من طرق عن معمر به وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ الآية أي فلا يعلم أحد عظمة ما اخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاءً وفاقاً فإن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصري : أخفى قوم عملهم ، فأخفى الله لهم ما لم ترَعين ولم يخطرْ على قلب بشر ؛ رواه ابن أبي حاتم .

روى البخاري عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ٤٧١ قال الله تعالى : أعدَدتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر أخرجاه في الصحيحين بدون زيادة قال أبو هريرة : إقرأوا إن شئتم ...

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ ۞ (١٨) أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (١٩) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۞ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ۞ (٢٢) ﴾

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أن لا يساويَ في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متّبعاً لرسله بمن كان فاسقاً.أي خارجاً عن طاعة ربه،مكذباً رسل الله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ أم حسِب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات

سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ أي عند الله يوم القيامة ، ذكر عطاء بن يسار السدّي وغيرهما أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط ولهذا فصل حكمهم فقال تعالى : ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها وهي الصالحات ﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ التي فيها المساكن والغرف العالية ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة وكرامة ﴿ بما كانوا يعملون•وأما الذين فسقوا ﴾ أي خرجوا عن طاعة الله ﴿ فمأواهم النار كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وان الأرجل لمقيدة ، وان اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً .

وقوله تعالى : ﴿ ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ قال ابن عباس : يعني مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى البخاري عن ابن مسعود : ما أصابهم من القتل أو السبي يوم بدر ، وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم قال السدي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرموا ، ومنهم من جمع له الأمران . وقوله تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ أي لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبيّنها له ووضّحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ،كأنه لا يعرفها .ولهذا قال تعالى متهدّداً لمن فعل ذلك﴿ إنّا من المجرمين منتقمون ﴾ أي سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ❁ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ❁ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ❁ (٢٥)

يخبر تعالى عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب وهو التوراة . وقوله تعالى : ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ أي من لقاء موسى ربه عز وجل ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب الذي آتيناه وهو التوراة ، ﴿ هدى لبني اسرائيل ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل أن لا تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ أي لما كانوا صابرين على أوامره تعالى وترك زواجره ، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمره ويدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ثم لما بدّلوا وحرفوا واوّلوا سُلبوا ذلك المقام وصارت قلوبهم قاسيةً يحرِّفون الكلم عن مواضعه فلا عمل صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً. ولهذا قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب ﴾ أي لما أخذوا برأس الأمر وصاروا رؤوساً وقوله تعالى : ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي من الاعتقـادات والأعمال .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ❁ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ❁ (٢٧) ﴾

يقول تعالى: أولم يهدِ لهؤلاء المكذبين بالرسل، ما أهلك قبلهم من الأمم المـاضية بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من قويم السبل فلم يبقَ منهم باقية ولا عين ولا أثر . ﴿ هل تحسّ منهم من أحدٍ أو تسمعُ لهم ركزا ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين ، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ، ذهبوا منها ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي عبرٌ ومواعظ ودلائل متناظرة بين من كذب وما آلت اليه حاله وبين من آمن وما آلت اليه حاله ﴿ أفلا يسمعون ﴾ أخبار من تقدم كيف كان أمرهم .

وقوله تعالى : ﴿ أولم يُروا أنا نسوق الماءَ إلى الأرض الجرز ﴾ يبيّن تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء إمّا من السماء أو من ما تحمله الأنهار ويتحدّر مـن الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته. ولهذا قال تعالى : ﴿ الى الأرض الجرز ﴾ وهي التي لا نبات فيها ﴿ فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ **وليس المراد أرض مصر فقط ، بل هي بعض المقصود فانها في نفسها أرض رخوة فيسوق الله تعالى إليها** النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من امطار الحبشة وفيه طين أحمر **فيغشي أرض**

مصر وهي أرض سبخة مرملة محتاجة الى ذلك الماء وذلك الطين ايضاً لينبت الزرع فيه فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور من غير بلادهم وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنّان المحمود أبداً . ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ أفلا يبصرون ﴾ ويدخل في ذلك كل أرض جرز وهي التي لا نبات فيها. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ الآيتين

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ (٢٨) قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۞ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۞ (٣٠) ﴾

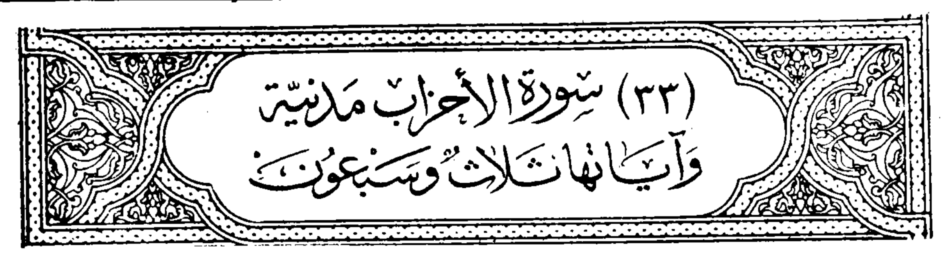
يخبر تعالى عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم وحلول غضبه ونقمته عليهم تكذيباً واستبعاداً وعناداً ﴿ ويقولون متى هذا الفتح ﴾ أي متى تُنْصَرُ علينا يا محمد ؟ كما تزعم، ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين . قال الله تعالى: ﴿ قل يوم الفتح ﴾ أي إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا والآخرة ﴿ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ ومن زعم ان المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة وأخطأ فأفحش ، فإن يوم فتح مكة من قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء وقد كانوا قريباً من ألفين ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى : ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ وانما المراد : الفتح يوم القضاء والفصل كقوله تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ أي أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل اليك من ربك وانتظر فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك وسينصرك على مخالفيك إنه لا يخلف الميعاد . وقوله تعالى : ﴿إنهم منتظرون ﴾ أي أنت منتظر وهم منتظرون ويتربصون

(١) قلت : ويوم الفتح هذا كما قال المفسر رحمه الله تعالى يوم الفصل والقضاء أي يوم القيامة يوم يفصل الله فيما بين الخلائق ويقضي بحكمه لهم أو عليهم وذلك بدليل قوله تعالى « قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق ... »

بكم الدوائر ، وسترى عاقبة صبرك عليهم وسيجدون مغبة كفرهم من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

آخر اختصار تفسير سورة السجدة ولله الحمد والمنة .

١ / ٥ / ١٣٩٠
٤ / ٧ / ١٩٧٠



نزلت بعد آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

نصف الحزب

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * (١) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا * (٣) ﴾

روى الإمام أحمد عن زر قال: ٤٧٢ [قال لي أُبَيُّ بنُ كعب : كأيٍ تقرأ سورة الأحزاب أو كأيٍّ تعدُّها ؟ قال : قلت ثلاثاً وسبعين آية فقال : قط لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم] ورواه النسائي من وجه آخر ، وهذا يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي اتقِ الله ﴾ هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى اذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن يأتمر مَنْ دونَهُ بذلك بطريق الأولى والأحرى. وقوله تعالى : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ أي لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ إن الله كان عليما حكيماً ﴾ أي فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله. ولهذا قال تعالى : ﴿ واتبع ما يوحىَ إليك من ربك ﴾ أي من قرآن وسنّة ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ أي لا تخفى عليه خافية ، ﴿ وتوكل على الله ﴾ في جميع أمورك وأحوالك. ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ ٱللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿٥﴾ ﴾

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسيّاً ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله : أنت عليَّ كظهر أمي أمّاً له ، كذلك لا يصير الدعيُّ ولداً للرجل إذا تبنّاه فدعاه إبناً له ، فقال تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ ما هنّ أمهاتهم إنْ امهاتهم إلاّ اللائي ولدنهم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ هذا هو المقصود بالنفي ، فإنها نزلت بشأن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد تبنّاه قبل النبوّة ، فكان يقال له زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ كما قال تعالى في أثناء السورة : ﴿ ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ وقال تعالى ههنا : ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ يعني تبنّيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً ، فانه مخلوق من صلب رجل آخر فكما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان كذلك لا يمكن أن يكون له أبان ﴿ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾ قال سعيد بن جبير ﴿ يقول الحق ﴾ أي العدل ، وقال قتادة ﴿ وهو يهدي السبيل ﴾ أي الصراط المستقيم .

وقال عبد الرزاق اخبرنا معمر عن الزهري في قوله تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضرب له مثل : يقول

ليس ابن رجل آخر ابنك . وقوله تعالى : ﴿ أُدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ هذا أمرٌ ناسخٌ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادّعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة وان هذا هو العدل والقسط والبر .

روى البخاري عن عبدالله بن عمر قال: ٤٧٣ [إن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنّا ندعوه إلاّ زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾] وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي من طرق عن موسى بن عقبة به. ولهذا لما نسخ هذا الحكم، أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش مطلّقة زيد بن حارثة رضي الله عنه وقال تبارك وتعالى في آية التحريم : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ احترازاً عن زوجة الدعيّ فإنه ليس من الصلب وقوله تعالى : ﴿ أُدعوهم لآبائهم ﴾ في شأن زيد بن حارثه رضي الله عنه ، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان .

وقوله عز وجل : ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عُرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أي عوضاً عما فاتهم من النسب . ثم قال تعالى : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ أي إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع اثمه كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى : ﴿ ربّنا لا تؤآخذنا إنْ نَسينا أو أخطأنا ﴾ وثبت في صحيح مسلم ان رسول الله ﷺ قال: ٤٧٤ [قال الله عز وجل: قد فعلتُ] وفي الحديث : ٤٧٥ [ليس من رجل ادّعىٰ إلى غير أبيه وهو يعلمه إلاّ كفر] وفي القرآن المنسوخ « فانه كفر بكم إن ترغبوا عن آبائكم »

روى الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه انه قال ٤٧٦ [ان الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل معه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ثم قال قد كنا نقرأ : « ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم . »]

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ

فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴿٦﴾

قد علم الله تعالى شفقة رسوله على أمته ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم كان مقدّماً على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً ﴾

وفي الصحيح ٤٧٧ [والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين] ولهذا قال تعالى : ﴿ النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ٤٧٨ [ما من مؤمن إلاّ وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرأوا إن شئتم : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيّما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، وإن ترك دَيْناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه] تفرد به البخاري .

وقوله تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أي في الحرمة والاحترام والإعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع .

وقوله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ أي في حكم الله ﴿ من المؤمنين والمهاجرين ﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار . وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحِلْفِ والمؤاخاة التي كانت بينهم . كما قال ابن عباس : كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ وكذا قال غير واحد من السلف والخلف . روى ابن أبي حاتم عن الزبير بن العوام فقال : أنزل الله عز وجل فينا خاصة معشر قريش والأنصار : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة ، قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الأخوان فواخيناهم ووارثناهم ، فآخى ابو بكر رضي الله عنه خارجة بن زيد ، وآخى عمر رضي الله عنه فلاناً ، وآخى عثمان رضي الله عنه رجلاً من بني زريق ابن سعد الزرقي ، ويقول بعض الناس غيره ، قال الزبير رضي الله عنه : وواخيت انا كعب بن مالك فجئته فابتعلته ، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى ، فوالله يا بُنَيَّ لو مات يومئذٍ عن الدنيا ما ورثه غيري حتّى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصّة فرجعنا إلى موارثينا .وقوله تعالى : ﴿ إلا أن تفعلوا إلى

أوليائكم معروفاً ﴾ أي ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية.
وقوله تعالى : ﴿ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ أي هذا الحكم مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدّل ولا يغير أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض ؛ وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت...لما له في ذلك من الحكمة البالغة. وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأوّل وقضائه القدري الشرعي ، والله أعلم.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ❁(٧) لِيَسْئَلَ ٱلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ❁ (٨) ﴾

يخبر تعالى عن أولي العزم الخمسة وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى ، وابلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق. كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنُنّ به ولتنصرُنّه قال أأقررْتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررْنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ فأخذ عليهم هذا الميثاق والعهد بعد إرسالهم ، وكذلك هذا ، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم وهو من باب عطف الخاص على العام وقد صرح بذكرهم في هذه الآية وفي محل آخر من القرآن فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه ، ثم رتّبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم وسلامه.

وقوله تعالى : ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ قال مجاهد : المبلغين المؤدّين عن الرسل وقوله تعالى : ﴿ وأعدّ للكافرين ﴾ أي من أممهم ﴿ عذاباً أليماً ﴾ أي موجعاً فنحن نشهد أن الرسل قد بلّغوا رسالاتِ ربّهم ، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلي وإن كذّبهم من كذّبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين فما جاءت به الرسل هو الحق ومن خالفهم فهو على الضلال ، كما يقول أهل الجنة : ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيراً ۞ (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۞ (١٠)

يخبر تعالى عن نعمته وفضله ، وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم عام تألبوا عليهم وتحزّبوا وذلك عام الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور . وسبب هذه الغزوة ان أشرافاً من يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة إلى خيبر منهم سلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم ، وكنانه بن الربيع اجتمعوا بأشراف قريش وألّبوهم على حرب النبي ﷺ فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان فاستجابوا لهم أيضاً . وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب . وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر الجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم . أمر المسلمين بحفر الخندق مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه فحفروه. ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر . وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريباً من أحد ، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة كما قال الله تعالى : ﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم ﴾ وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف ، وقيل سبعمائة فاسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم نحو العدو . والخندق حفير ليس فيه ماء يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذراري في آطام المدينة . وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة ، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة وهم قريب من ثمانماية مقاتل ، فذهب إليهم حُيَيّ بن أخطب النضري ، فلم يزلْ بهم حتى نقضوا العهد ، ومالأوا الأحزاب على رسول الله ﷺ فعظم الخطب ، واشتد الأمر وضاق الحال .كما قال تبارك وتعالى : ﴿ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ ومكث المسلمون محاصَرين قريباً من شهر .إلا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال، إلاّ أنّ عمرَ بنُ عبدِ وُدٍّ العامري ــ وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية ، ركب ومعه فوارس ، فاقتحموا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين ، فأمر رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه فخرج إليه فتجاولا ساعةً ثم قتله علي رضي الله عنه فكان علامة

النصر . ثم ارسل الله سبحانه على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ولم توقد لهم نار ولم يقر لهم قرار . حتى ارتحلوا خائبين خاسرين. كما قال الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً ﴾ وهي الصبا وفي الحديث : ٤٧٩ [نصرت بالصَّبا ، وأهلكت عاد بالدبور]

وقوله تعالى : ﴿ وجنوداً لم تروها ﴾ هم الملائكة زلزلتهم ، وألقت في قلوبهم الرعب والخوفَ. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : ٤٨٠ [كنّا عند حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقال له رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقَرّ . فقال رسول الله ﷺ « ألا رجل يأتي بخبرِ القوم يكون معي يوم القيامة » فلم يجبه منا أحد . ثم الثانية ثم الثالثة مثله ثم قال ﷺ : « يا حذيفة قم فأتنا بخبرٍ من القوم » فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال : « إئتني بخبر القوم ولا تذعَرهم علي » قال فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يُصْلي ظهره بالنار ، فوضعتُ سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ : لا تذعرهم علي ، ولو رميتُه لأصبتُه . قال فرجعت كأنّما أمشي في حمام ، فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت ، فأخبرت رسول الله ﷺ ، وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائماً حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ « قم يا نومان »] وجاء فيما رواه يونس بن بكير عن زيد بن أسلم فذكر نحوه إلى أنْ قال: ٤٨١ [.. وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرُهم شبراً ، فوالله اني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم ، الريح تضربهم بها ثم خرجت نحو النبي ﷺ فلما انتصفتِ الطريق أو نحواً من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين ، فقالوا : أخبر صاحبك ان الله تعالى كفاه القوم . فرجعت إلى رسول الله ﷺ ... فأخبرته خبرَ القوم واخبرته أني تركتهم يرتحلون ، وانزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾] وأخرج أبو داود في سننه منه: ٤٨٢ [كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلىّ .] من حديث عكرمة بن عمار به .

وقوله تعالى : « ﴿ إذا جاؤوكم من فوقكم ﴾ أي الأحزاب ﴿ ومن أسفل منكم ﴾ تقدم عن حذيفة رضي الله عنهَ أنهم بنو قريظة ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب

الحناجر ﴾ أي من شدة الخوف ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ ظنون مختلفة لكل ظن، وظهر النفاق وظنّ المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يُستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيُظهِرُه على الدين كله ولو كره المشركون .

وروى ابن أبي حاتم عن ابي سعيد رضي عنه قال : ٤٨٣[قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ : نعم : قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعتنا قال فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح] ، وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي عامر العقدي .

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ۞ (١١) وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ۞ (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ۞ (١٣) ﴾

يخبر تعالى عن حال المسلمين حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، وهم في غاية الجهد والضيق ورسول الله ﷺ بين أظهرهم أنهم اختبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً ، فظهر النفاق وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ فالمنافق نجم نفاقه والذي عنده شبهة أو حسكة ضعف حاله وضاق صدره لضعف إيمانه ، وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى : ﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب ﴾ يعني المدينة وقوله تعالى : ﴿ لا مقام لكم ﴾ أي المرابطة مع رسول الله ﷺ ﴿ فارجعوا ﴾ أي إلى بيوتكم ومنازلكم . ﴿ ويستأذن فريق منهم النبي ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق يعني اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة أي ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، ﴿ وما هي بعورة ﴾ أي ليست كما يزعمون ﴿ إن يريدون إلا فراراً ﴾ أي هرباً من الزحف

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا

وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين: ﴿يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلاّ فراراً﴾ انهم لو دخل عليهم الأعداء من جانب، ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً، وهم لا يستمسكون بالإيمان مع أدنى خوف، وهذا ذم لهم في غاية الذم. ثم قال تعالى يذكرهم بما عاهدوا الله من قبل هذا الخوف ان لا يولّوا الأدبار ﴿وكان عهد الله مسؤولاً﴾ أي وان الله سيسألهم عن ذلك العهد ولا بد، ثم أخبرهم أن فرارهم لا يؤخر آجالهم ولا يقدمها بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذاً لا تُمتّعون إلا قليلاً﴾ أي بعد فراركم ﴿قل متاع الدّنيا قليل والآخرة خير لمن اتقّى﴾ ثم قال تعالى: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله﴾ أي يمنعكم ﴿إن اراد بكم سوءً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي ليس لهم من دون الله مجير ولا مغيث.



قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوِّقين لغيرهم من شهود الحرب والقائلين لاخوانهم أي أصحابهم ﴿ هلم إلينا ﴾ أي إلى الظلال والثمار . وهم مع ذلك ﴿ولا يأتون البأس إلا قليلاً أشحة عليكم ﴾ أي بخلاء بالمودة ، والشفقة عليكم ﴿ فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت﴾ أي من شدة خوفه وجزعه وجبنه من القتال ﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾ أي استقبلوكم بكلام بليغ ، وادعوا لأنفسهم الشجاعة والنجدة ، وهم كاذبون ثم يطلبون من الغنيمة ، بدعوى أنهم شهدوا معكم وهم مع ذلك ﴿أشحّة على الخير﴾أي ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير. ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ أي سهلاً هيناً عنده .

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ۞ (٢٠) ﴾

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ أي قريبون منهم وسيعودون ﴿ وإن يأت الأحزاب يودُّوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ﴾ أي ويودّون إذا جاءت الأحزاب ألاّ يكونوا حاضرين معكم في المدينة بل في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدّوكم ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلاّ قليلاً ﴾ لكثرة جبنهم وضعف يقينهم والله سبحانه العالم بهم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللهَ كَثِيراً ۞ (٢١) وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ۞ (٢٢) ﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسّي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في مصابرته ومجاهدته وانتظار الفرج من الله عز وجل صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، ولهذا قال

للذين تزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب ﴿ لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ﴾ أي هلاّ اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدّقين بوعده : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴾ أي هذا ما وعدنا الله من الابتلاء والاختبار الذي يعقبه النصر القريب ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً ﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم ، كما قال جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص ، وقد قررنا ذلك في أول شرح البخاري ، ولله الحمد والمنة [1] ومعنى قوله جلت عظمته ﴿ وما زادهم ﴾ أي ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إلا إيماناً ﴾ بالله ﴿ وتسليماً ﴾ أي انقياداً لأوامره وطاعة له تعالى ولرسوله ﷺ .

﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۞ (٢٣) لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ۞ (٢٤) ﴾

لما ذكر تعالى المنافقين وكيف نقضوا العهد وولوا الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و ﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ﴾ أي أجله ﴿ ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ أي وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدّلوه .

روى البخاري عن زيد بن ثابت قال :٤٨٤'[لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأها لم أجدها مع أحد إلاّ مع خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾] تفرّد به البخاري دون مسلم وأخرجه أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حسن صحيح .

(١) قلت : أن للمفسر الحافظ ابن كثير رحمه الله شرحاً على البخاري ولكن لم يكمله كما جاء في ترجمته في المجلد الأول صفحة / ي / من هذا المختصر .

روى البخاري أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ٤٨٥ [نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ انفرد به البخاري] وروى أحمد عن أنس بن مالك قال : (عمي أنس ابن النضر رضي الله عنه سميت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشقّ عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ... لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ، ليرينّ الله عز وجل ما أصنع . قال فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحُد ، فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال له أنس رضي الله عنه : يا أبا عمرو أين واها لريح الجنة إني أجده دون أحُد قال : فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه ، قال فوجد في جسده بضع وثمانون بين طعنة وضربة ورمية ، فقالت أخته عمتي الربيّع بنت النضر فما عرفت أخي إلاّ ببنانه قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ من المؤمنين رجال... ﴾ إلى قوله - ﴿ وما بدلوا تبديلا ﴾ قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنهم] ورواه مسلم والترمذي والنسائي .

وروى ابن جرير عن موسى بن طلحة قال: ٤٨٦ [دخلت على معاوية رضي الله عنه، فلما خرجت دعاني فقال : ألا أضع عندك يا ابن أخي حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نحبه »]

وقوله تعالى : ﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ أي أجله على الصدق والوفاء ﴿ ومنهم من ينتظر ﴾ يوماً فيه القتال ، فيصدق في اللقاء ﴿ وما بدّلوا تبديلا ﴾ أي ما غيّروا بل استمروا على عهدهم لله وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إن بيوتنا عورة ... ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ﴾ أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه . ولكن لا يعذب الله الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم ﴾ فهذا علم بالشيء بعد كونه وان كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده . وقوله تعالى : ﴿ بصدقهم ﴾ أي بصبرهم على عهدهم وقيامهم به ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ وهم الناقضون لعهد الله فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه . وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل به . ولما كانت رحمته غالبة لغضبه فقال تعالى : ﴿ ان الله كان غفوراً رحيما ﴾

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۞ (٢٥) ﴾

وهكذا نصر الله المؤمنين بالريح والجنود الإلهية ، لقد سلط عليهم الهواء ففرق شملهم . فكما كان الهوى سبب اجتماعهم وهم أخلاط من قبائل شتى احزاب وآراء فناسب ان يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم وردّهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم ، لم ينالوا خيراً في الدنيا مما كان في ظنهم من الظفر والمغنم ، ولا في الآخرة ، بما تحمّلوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعداوة وهمّهم بقتله واستئصال جيشه ، ومن همّ بشيء وصدق همّه بفعله فهو في الحقيقة كفاعله .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده وأعز جنده ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : ٤٨٧ [لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده] أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : ٤٨٨ [دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، أهزم الأحزاب ، اللهم أهزمهم وزلزلهم »] روى محمد بن اسحق : لما انصرف أهل الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا : ٤٨٩ [لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم] روى الإمام احمد عن سليمان بن صرد قال قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : ٤٩٠ [الآن نغزوهم ولا يغزونا] وهكذا رواه البخاري في صحيحه .

وقوله تعالى : ﴿ وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ أي بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيراً وأعز الله الإسلام وأهله وصدَق وعدَه ونصرَ رسولَه وعبدَه فله الحمدُ والمنة .

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۞ (٢٦)

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴿٢٧﴾

تقدم أن بني قريظة نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ وكان ذلك بتأثير من حُيَيّ بن أخطب النضري لعنه الله ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جداً. فلما أيّده الله تعالى بنصره وردّهم خائبين ورجع رسول الله ﷺ مؤيداً منصوراً ٤٩١[فبينما هو يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها إذ تبدّى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله قال ﷺ « نعم » قال لكن الملائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعي من طلب القوم ، ثم قال : ان الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض الى بني قريظة فإن الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم فنهض رسول الله ﷺ من فوره وأمر الناس بالمسير الى بني قريظة ، وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر وقال ﷺ « لا يصلّينّ أحد منكم العصر إلاّ في بني قريظة » فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم في الطريق و قالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون : لا نصلّيها إلا في بني قريظة فلم يعنّف أحداً من الفريقين وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم رضي الله عنه ، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلةً ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيّد الأوس رضي الله عنه ، لأنّهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أن يحسب إليهم في ذلك كما فعل عبدالله بن أبيّ ابن سلول في مواليه بني قينقاع حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فعند ذلك استدعى رسول الله ﷺ سعداً من المدينة ليحكم فيهم وكان مريضاً فيها من أثر نبل أصيب به في أكحله أيّام الأحزاب ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه فجعل الأوس يرققونه عليهم ، فلما أكثروا عليه قال رضي الله عنه : لقد آن لسعد ان لا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » فأنزلوه قال رسول الله ﷺ « احكم فيهم » قال سعد رضي الله عنه : إني أحكم ‹ أن تقتلَ مقاتِلتُهم ، وتسبي ذراريهم ، وتقسَّم أموالُهم ؛ فقال رسول الله ﷺ « لقد حكمتَ فيهم بحكم الله تعالى وحكم رسولِهِ » وفي رواية : « لقد حكمتَ بحكم الله تعالى من فوق سبعةِ أرقعةٍ » ثم أمر رسول الله

ﷺ بالأخاديد فخدّت في الأرض، وجيء بهم مكتّفين ، فضرب اعناقهم وكانوا بين السبعمائة الى الثمانمائة وسبَي من لم يُنبِتْ منهم ، مع النساء ، وأموالهم .]

ولهذا قال تعالى: ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ أي عاونوهم يوم الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ من أهل الكتاب ﴾ يعني بني قريظة من بعض أسباط بني اسرائيل كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً طمعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ فعليهم لعنة الله .

وقوله تعالى : ﴿ من صياصيهم ﴾ يعني حصونهم ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ وهو الخوف لأنهم كانوا مالأوا المشركين على حرب النبي ﷺ وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم فانعكس عليهم الحال ، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا مع شقاوة الآخرة فصارت صفقتهم هي الخاسرة ولهذا قال تعالى : ﴿ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾ . فالذين قُتِلوا هم المقاتِلةُ ، والأسراءُ همُ الأصغر والنساءُ .

وقوله تعالى : ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴾ أي جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وأرضاً لم تطأوها ﴾ قيل خيبر وقيل مكة وقيل فارس والروم ويجوز ان يكون الجميع مراداً ﴿ وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا ۞ (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجراً عَظِيماً ۞ (٢٩) ﴾

هذا أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يخيّر نساءه بين أن يفارقهن إن كن يردْن الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله الثواب الجزيل فاخترْنَ رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

روى البخاري: ٤٩٢ [عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ ان رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخيّر أزواجه ، قالت : فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال : «إني

ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك » وقد علم أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت : ثم قال « إن الله تعالى قال: ﴿ يا أيها النبيُّ قل لأزواجك ﴾. إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففي أي هذا أستأمِرُ أبويَّ ، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة] .

وفي رواية لابن جرير زيادة : ٤٩٣ [ثم استقرأ الحُجَرَ[1] فقال : إن عائشة رضي الله عنها قالت : كذا وكذا » فقلن : ونحن نقول مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهن كلهن] .

وكان تحته وقتئذٍ تسع نسوة : خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهن ، وكانت تحته ﷺ : صفية بنت حيي النضيرية وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت (الحارث) المصطلقية رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين .

﴿ يَا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيراً ۝ (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ۝ (٣١) ﴾

يعظ تعالى نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأتِ منهن بفاحشةٍ مبينةٍ . قال ابن عباس رضي الله عنهما : وهي النشوز وسوء الخلق وعلى كل تقدير فهو شرط ، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى : ﴿ ولقد أوحي اليك وإلى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ﴾ فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب ان يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع ولهذا قال تعالى : ﴿من يأت منكن بفاحشة مبيِّنة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ يعني في الدنيا والآخرة قاله زيد بن اسلم ﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ أي سهلاً هيناً ، ثم ذكر عدله وفضله في قوله تعالى : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله ﴾ أي يطع الله ورسوله ويستجب ﴿ نؤتها أجرها

(١) قلت : أي حجر الزوجات رضي الله عنهن وأرضاهن ، أي سائر الزوجات .

مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾ أي في الجنة فانهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين ، فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة الى العرش .

﴿ يَا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً ❁ (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَى وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَآتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ❁ (٣٣) وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ❁ (٣٤) ﴾

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك ، فقال مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن فانه لا يشبههن احد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة ثم قال ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ يعني بذلك ترقيق الكلام اذا خاطبن الرجال ولهذا قال تعالى : ﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ أي خيانة وفساد ... ﴿ وقلن قولاً معروفاً ﴾ اي قولاً حسناً معروفاً في الخير ليس فيه ترخيم كما تخاطب زوجها .

وقوله تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ أي لا تخرجن لغير حاجة إلا حاجة شرعية كالذهاب الى المسجد بشرط كما قال رسول الله ﷺ : ٤٩٤ [لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات » وفي رواية : « وبيوتهن خيرٌ لهن »] وروى ابو داود عن النبي ﷺ قال: ٤٩٥ [صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها] وهذا اسناد جيد .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ أي إذا خرجن من بيوتهن كانت لهن مشية وتكسّر وتغنّج والتبرّج أنها تلقي الخمار على رأسها،ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها،وذلك هو التبرج . ثم عمت نساءَ المؤمنين في التبرّج .

والجاهلية الأولى هي ما بين إدريس ونوح عليهما السلام وكانت الف سنة وهي أول تبرج النساء للرجال والرجال للنساء يستمعون إلى إبليس الذي اتخذ شيئاً مثل الذي يزمر فيه الرعاة فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله وكان آبليس يتمثل في صورة غلام ويزمر في مزماره فكان سبباً لحضور النساء والرجال للاستماع إليه وسبباً في تبرج النساء والرجال لبعضهم حتى ظهرت فيهم الفاحشة فهو قول الله تعالى ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ مختصراً عن قولٍ لابن عباس .

وقوله تعالى : ﴿ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾ نهاهن أولاً عن الشر [١] ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان الى المخلوقين ﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ واطعن الله ورسوله وهذا من باب عطف العام على الخاص ـ أي عطف طاعة الله ورسوله وهي أمر عام على الأمر الذي هو الصلاة والزكاة ـ

وقوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح.

وروى ابن جرير عن عكرمة ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس انها نزلت خاصة في نساء النبي ﷺ خاصة وقال عكرمة : ومن شاء باهلته إنها نزلت في شأن نساء النبي ﷺ ، فان كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وان اريد انهن المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر ، فانه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

روى مسلم في صحيحه عن يزيد بن حيان قال : ٤٩٦[انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن سلمة الى زيد بن أرقم رضي الله عنه ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخي والله قد كبرت سني ، وقدم عهدي ، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا ، وما لا فلا تكلّفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ

---

(١) قلت : وهذه قاعدة جليلة في الدعوة إلى الله تعالى وهي ان النهي عن الشر مقدم على الأمر بالخير ومنه قوله تعالى : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » فقدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ، حتى ينتزع من القلب ما وقر فيه من مانع الإيمان .

يوماً خطيباً بماءٍ يدعى خماً - بين مكة والمدينة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه . ووعظ وذكر ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله تعالى ، فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ، ثم قال : « وأهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي ، اذكركم الله في أهل بيتي » ثلاثا فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم ، قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال : نعم]

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ٤٩٧ [ان رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : الصلاة يا أهل البيت ﴿ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾] ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن عفان به وقال : حسن غريب .

روى ابن جرير عن أبي هريرة عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ٤٩٨ [جاءت فاطمة رضي الله عنها الى رسول الله ببرمة لها قد صنعت فيها عصيدة تحملها على طبق ، فوضعتها بين يديه ﷺ فقال : أين ابن عمك وابناك ؟ » فقالت رضي الله عنها : في البيت فقال ﷺ : « ادعيهم » فجاءت إلى علي رضي الله عنه فقالت : أجب رسول الله ﷺ أنت وابناك ، قالت أم سلمة رضي الله عنها : فلما رآهم مقبلين. مد ﷺ يده إلى كساء كان على المنامة ، فمده وبسطه ، وأجلسهم عليه ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله ، فضمه فوق رؤوسهم ، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه فقال « اللهم هؤلاء أهل بيتي ، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً »]

والذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ فإن سياق الكلام معهن ، ولهذا قال تعالى : بعد هذا كله : ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ اي واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أولاهن وأحظاهن بهذه النعمة ، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأةٍ سواها كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه . قال بعض العلماء رحمهم الله : لأنه لم يتزوج بكراً سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ ورضي

الله عنها فناسب ان تخصص بهذه المزية ، وان تفرد بهذه المرتبة العليا ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته ، فقرابته أحق بهذه التسمية كما جاء في الحديث :٤٩٩[وأهل بيتي أحق] رضي الله عن أزواجه وقرابته فهم أهل بيته أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ ان الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ أي ذا لطف بكن ، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة وهي السنة ، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله ازواجاً وقيل يمتن عليهم بذلك . رواه ابن جرير .

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْقَانِتَاتِ وَٱلصَّادِقِينَ وَٱلصَّادِقَاتِ وَٱلصَّابِرِينَ وَٱلصَّابِرَاتِ وَٱلْخَاشِعِينَ وَٱلْخَاشِعَاتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَاتِ وَٱلصَّائِمِينَ وَٱلصَّائِمَاتِ وَٱلْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَافِظَاتِ وَٱلذَّاكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (٣٥)

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي شيبة قال : ٥٠٠ [سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول : قلت للنبي ﷺ مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟قالت فلم يرعني منه ذات يوم إلاّ ونداؤه على المنبر قالت : وأنا اسرح شعري ، فلففت شعري ثم خرجت الى حجرة بيتي ، فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول على المنبر : يا أيها الناس ان الله تعالى يقول : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ إلى آخر الآية] وهكذا رواه النسائي وابن جرير من حديث عبد الواحد بن زياد به مثله .

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ٥٠١ [قال النساء للنبي ﷺ : ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ فقوله تعالى : ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام ، وهو أخص منه في لقوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ وفي الصحيحين :٥٠٢ [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن] فيسلبه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين ، فدل على أن الإيمان أخص منه . وقوله تعالى : ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ القنوت هو الطاعة في سكون ، كما قال تعالى : ﴿ أمّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر

الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ فالاسلام بعده مرتبةٌ يرتقي إليها وهو الإيمان ، ثم القنوت ناشيء عنهما . ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ هذا في الأقوال ، فان الصدق خصلة محمودة وهو علامة الإيمان، كما أن الكذب أمارة النفاق ، ومن صدق نجا . وفي الحديث : ٥٠٣ [عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة . وإياكم والكذب . فإن الكذب يهدي الى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار . ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عنه الله كذّاباً] ﴿ والصابرين والصابرات ﴾ هذه سجية الأثبات ، وهي الصبر على المصائب ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أي أصعبه في أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه ﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ الخشوع : السكون والطمأنينة . والتؤدة والوقار والتواضع ، والحامل عليه خوف الله تعالى ومراقبته، كما في الحديث : ٥٠٤ [أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] .

﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ الصدقة هي الاحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، يعطوْن من فضول الأموال طاعةً لله تعالى وإحسانا إلى خلقه . وقد ثبت في الصحيحين : ٥٠٥ [سبعة يظلهُم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله — فذكر منهم — ورجل تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه] ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ في الحديثِ الذي رواه ابن ماجة : الصوم زكاة البدن أي يزكيه وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً.وقوله تعالى : ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ لأن الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة كما جاء في الحديث : ٥٠٦ [... ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء] فناسب ان يذكر بعده ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ أي عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كالزوجة وملكِ اليمين . وقوله تعالى : ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : ٥٠٧ [إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات] وقد رواه ابو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الأعمش .

روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٠٨ [ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله عز وجل] . وقوله تعالى : ﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم أي

أن الله تعالى قد أعدّلهم أي هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجراً عظيماً وهو الجنة . ــ اللهم أغفر لنا وادخلنا جنتك التي وعدت المتقين ــ (١)

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً ۞ (٣٦) ﴾

قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ الآية وذلك [٥٠٩ أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ؛ فقال رسول الله ﷺ « بلى فانكحيه » قالت يا رسول الله أؤمرُ في نفسي ؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالى هذه الآية على رسول الله ﷺ قالت قد رضيتَه لي يا رسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله ﷺ « نعم » قالت إذاً لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي] وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان أنها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه .

وقيل نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط رضي الله عنها وهي أول أمرأة هاجرت بعد صلح الحديبية ، فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقال قد قبلت ، فزوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه يعني ــ والله أعلم ــ بعد فراقه زينب .

وذكر الحافظ ابو عمر بن عبد البر في الاستيعاب ان الجارية التي خطبها رسول الله ﷺ من أبيها أبي برزة الأسلمي لجليبيب رضي الله عنه لما قالت في خدرها : أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ نزلت هذه الآية : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾

وقال ابن جريج عن طاووس إنه سأل : ابن عباس عن ركعتين بعد العصر ، فنهاه، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ... ﴾ الآية .

---

(١) و (٢) هذا من كلامي الذي بين المعترضتين .

فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك انه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأي ولا قول ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾ تشديداً على من خالف ذلك.وهو كقوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذابٌ أليم ﴾ – اللهم قنا عذابك واجعلنا طائعين لأمرك وأمر رسولك. ونعوذ بك من الخذلان وسوء المنقلب (١) –

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۞ (٣٧) ﴾

يخبر تعالى عن نبيه ﷺ انه قال لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه وهو الذي أنعم الله عليه بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ﴿ وأنعمتَ عليه ﴾ أي بالعتق من الرق ، وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر،حبيباً إلى رسول الله ﷺ يقال له الحِبُّ ويقال لابنه أسامة :الحِبُّ ابنُ الحِبِّ ، قالت عائشة رضي الله عنها : ما بعثه رسولُ الله ﷺ في سرية إلاّ أمّره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه ، رواه الامام أحمد .

وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها ، وأمها أميمة بنتُ عبد المطلب ، وأصدقَها عشرةَ دنانير وستين درهماً ، وخماراً ، وملحفةً ودِرعاً ، وخمسين مدّاً من طعام ، وعشرةَ أمدادٍ من تمر . قاله مقاتل بن حيان .

فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما... فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول له﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾قال الله تعالى : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾

(١) من كلامي ما بين المعترضتين .

روى ابن أبي حاتم عن علي بن زيد بن جدعان [سألني علي بن الحسين رضي الله عنهما ما يقول الحسن في قوله تعالى : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ فذكرت له فقال: لا « ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد رضي الله عنه ليشكوها إليه قال « اتق الله وأمسك عليك زوجك فقال : قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه) . وهكذا روي عن السدي .

قال ابن جرير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ﴾ الوطر : هو الحاجة والأرب أي لما فرغ منها وفارقها زوجناكها وكان الذي وُلِيَ تزويجَها منه هو الله عز وجل بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر .

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : ٥١٠ [لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة « اذهب فاذكرها عليّ » فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما استطيع أن أنظر اليها ، وأقول ان رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي ، وقلت : يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أُآمرَ ربي عز وجل ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلتُ على رسول الله ﷺ وأطعمنا عليها الخبز واللحم . فخرج الناس وبقي رجال يتحدّثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعتُه ، فجعل ﷺ يتتبَّع حُجَرَ نسائه يسلّم عليهن ويقلنَ : يا رسول الله كيف وجدتَ أهلك ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أُخبِرَ ، فانطلقَ حتى دخل البيت فذهبتُ ادخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ووَعظ القوم بما وُعِظوا به : ﴿ لا تدخلوا بيوتَ النبيّ إلاّ أن يؤذَنَ لكم ﴾ الآية كلها] . ورواه مسلم والنسائي من طرق عن سليمان بن المغيرة به . وقد سبق في سورة النور تفاخرُ عائشةَ وزينب [1] رضي الله عنهما

روى ابن جرير عن الشعبي قال : كانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي ﷺ إني لأدلُّ عليك بثلاث ، ما من نسائك إمرأة تدلُّ بهنَّ : إن جدي وجدك واحد ، وإني

---

(١) قلت : عند تفسير الآية رقم /١١/ من سورة النور عند قوله تعالى : « لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم » .

أنكحنيكَ الله عز وجل من السماء ، وإنَّ السفيرَ جبريلُ عليه الصلاة والسلام .

وقوله تعالى : ﴿ لكيلا يكونَ على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضَوْا منهنَّ وطراً ﴾ أي أبحنا لك تزويجها ، وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرجٌ على المؤمنين في تزوُّج مطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنّى زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فكان يقال له زيد بن محمد ، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءَكم أبناءَكم – إلى قوله تعالى – ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها لمّا طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه ، ولهذا قال تعالى في آية التحريم : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ ليُحترَزَ من الابنِ الدعيِّ فإن ذلك كان كثيراً فيهم وقوله تعالى : ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ أي وكان هذا الأمر الذي وقع كائناً لا محالة ، بأن زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواجه ﷺ .

﴿ مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ﴾ أي فيما أحل له وأمره به من تزوّج زينب رضي الله عنها التي طلّقها دعيُّه زيدُ بنُ حارثة رضي الله عنه وقوله تعالى : ﴿ سنّة الله في الذين خلَوا مِنْ قبلُ ﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرَهم بشيء وعليهم في ذلك حرج ، وهذا رد على من توهَّم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأةَ زيدٍ مولاه ودعيِّه الذي كان قد تبنّاه ﴿ وكان أمر الله قدَراً مقدوراً ﴾ أي وكان أمر الله الذي يقدّره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيدَ عنه ولا معدِلَ ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكنْ .

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

يمدح تبارك وتعالى : ﴿ الذين يبلغون رسالاتِ الله ﴾ أي إلى خلقه ، ويؤدّونها بأماناتها ﴿ ويخشونه ﴾ أي يخافونه ، ولا يخافون أحداً سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالاتِ الله تعالى ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أي ناصراً ومعينا ، وسيد الناس في هذا المقام وفي كل مقام محمد ﷺ فانه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب إلى جميع ابناء آدم وأظهر الله دينه على جميع الأديان فإنه قد كان النبيُّ قبله إنما يُبعثُ إلى قومِه خاصةً ، وأما هو ﷺ فإنه بُعث إلى جميع الخلق عربِهم وعجمِهم ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ ثم ورث مقام البلاغِ عنه ، أمتـُه من بعدِهِ فكان أعلى من قام بها بعده ، أصحابُه رضي الله عنهم ، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، في ليله ونهاره ، وحضره وسفره ، وسرِه وعلانيته ، فرضي الله عنهم وأرضاهم ، ثم ورِثهُ كل خلَف عن سلفِهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يقتدي المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون (١) ، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلَفهِم .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥١١ [لا يحقرن أحدُكم نفسَه أن يرى أمرَ الله فيه مقال ثم لا يقوله ، فيقول الله ما يمنعك أن تقول منه ؟ فيقول : ربِ خشيتُ الناسَ ، فيقول : فأنا أحق أن يُخشَى] ورواه أيضاً عبدُ الرزاق ، وابنُ ماجه .

وقوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ﴾ نهى أن يقال بعد هذا زيد بن محمد ، أي لم يكن أباه وإن كان قد تبنّاه فإنه ﷺ لم يَعشْ له ولد ذكرحتى بلغ الحلم فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجةٍ رضي الله عنها فماتوا صغاراً ، وولد له ﷺ ابراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضاً رضيعاً ، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات زينبُ ورقيةُ وأم كلثوم ، وفاطمةُ رضي الله عنهم أجمعين ، فمات في حياته ﷺ ثلاث وتأخرت فاطمة رضي الله عنها حتى أصيبت به ﷺ ثم ماتت بعده بستة أشهر .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ فهذه تنص في أنه لا نبي بعده ، ومن باب أولى ألاّ يكون رسول بعده لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا عكس ، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديثِ جماعة من الصحابة رضي الله عنهم نثبت منها ما يلي :

---

(١) قلت : لكن في عصرنا هذا . . هجر حكام المسلمين هذا المنهج وسلكوا نهج الكفرة ! اللهم ردهم إلى دينك رداً جميلا . ووحد شملهم واجمع كلمتهم على الحق في دولة واحدة تحكم بما أنزلت من قرآنك وسنة نبيك .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥١٢ [« إن الرسالة والنبوّة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبيّ » قال : فشقّ ذلك على الناس ، فقال : « ولكن المبشّرات » قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : « رؤيا الرجل المسلم ، وهي جزء من أجزاء النبوّة . »] وهكذا رواه الترمذي وقال : صحيح غريب من حديث المختار بن فلفل .

روى أبو داود الطيالسي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥١٣ [مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنىَ داراً فأكملها وأحسنها إلاّ موضع لبِنة ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبِنة ؛ فأنا موضع اللبِنة ختِمَ بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام] . ورواه البخاري ومسلم والترمذي .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٥١٤ [فضلت على الأنبياء بستٍ : أعطيت جوامعَ الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلّت لي الغنائم ، وجعلتْ لي الأرض مسجداً وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كـافة ، وختم بي النبيون] ورواه الترمذي وابن ماجة .

روى الزهري عن جبـير بن مطعم عن ابيه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [٥١٥ إن لي أسماءَ : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنـا العاقب الذي ليس بعده نبيّ] أخرجاه في الصحيحين .

وهكذا فلقد أخبر تعالى في كتابه،ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده ليعلم الثقلان أن كل من ادّعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ،ولو تخرّق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم فكلها محال وضلال عند أولي الألباب ، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة مـن الأحوال الفاسدة ، والأقوال الباردة ما علِمَ كل ذي لب وفهم وحجىً أنهما كذابان ضالاّن لعنهما الله ، وكذلك كل مدعٍ لذلك الى يوم القيامة (١) حتى يختموا بالمسيح الدجال

(١) قلت : ومن هؤلاء الكذابين الأفاكين رجل زنديق كافر مشرك ادعى النبوة بالهند في قرية / قاديان / اسمه : مرزا غلام أحمد القادياني لعنه الله لعنات متتابعات إلى يوم القيامة ، فقد زعم النبوة وان له قرآناً يزعم ان الله قد أنزله عليه ومن جملة أقواله فيه : (يا أحمد أنت بمنزلة ولدي أنت بمنزلة توحيدي وتفريدي) وقد هلك هذا الكافر الخبيث ،فخلفه ابنه. ولهذه الدعوة الضالة جماعات في بعض البلدان، وهي صنيعة الأنكليز في الهند. ومن جملة وصاياهذا الخبيث الكافر /مرزا غلام أحمد/أنه إذا وقعت الواقعة بين المسلمين والأنكليز =

قال الله تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة ، والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به ، وينهون عنه مع ما يؤيّدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ❁(٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ❁(٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ❁ (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ❁ (٤٤) ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بذكره تعالى لنعمه الجزيلة ومننه العظيمة ولهم في ذلك جزيل الثواب وجميل المآب .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الحمصي قال : سمعت أبا هريرة يقول : دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه :٥١٦ [اللهم اجعلني أُعظِمْ شكرك ، وأتبعُ نصيحتك ، وأكثر ذكرك[1] ، وأحفظ وصيتك] ورواه الترمذي .

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : [ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه إلاّ رأوه حسرةً يوم القيامة

وقال تعالى : ﴿ وسبحوه بكرةً وأصيلا ﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته

= فعلى أتباعه القاديانيين ان يكونوا من أنصار الأنكليز ... ! ! ولهم جماعة في دمشق قليلون جداً ؛ وحاولوا أن ينفثوا سمومهم بحلب فأرسلوا أحد دعاتهم :/غلام أحمد/فنشطت دعوتنا السلفية له واستطاعت بفضل الله وحده ، ثم بمعونة بعض طلاب العلم ومعونة الحكومة عام ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م أن تقف الدعوة السلفية تجاه هذا الداعية الخبيث الكافر ، وقفة صامدة . فلاحقته في كل مكان وسدت عليه كل منافذ دعوته الكافرة الفاجرة. حتى قيض الله لنا النصر فطردته من حلب طردة لا رجعة له بعدها إن شاء الله وطهرت الشهباء من رجس دعوته القاديانية الخبيثة الكافرة . اللهم تقبل عملنا لوجهك الكريم وأثب من أعاننا من عبادك .

(١) قلت : وليس الذكر هو الرقص والتواجد وما يفعله بعض أهل الطرق والتصوف إنما الذكر هو الموسوم بالسكينة والخشوع ووجل القلوب وفيض الدموع من خشية الله .

أي سبحوه عند الصباح والمساء ، كقوله عز وجل : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾ وهذا تهييج إلى الذكر ، أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم .كقوله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ . وقال النبي ﷺ : ٥١٧ [يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ،ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرٍ منه] .

والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة ، حكاه البخاري عن أبي العالية ، وقال غيره : الصلاة من الله عز وجل الرحمة . وقد يقال : لا منافاة بين القولين والله أعلـــم .

وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الاستغفار والدعاء للناس ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربّنا وسعتَ كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذابُ الجحيم . ربّنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتّهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقِهم السيئآت ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أي يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصّرهم الطريق الذي ضل وحاد عنـــه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة ، وأتباعهم من الطغام ؛ وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وما ذاك إلاّ لمحبته لهم ورأفته بهم .

وفي صحيح البخاري عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ٥١٨ [ان رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أترون هذه تلقي ولدَها في النار وهي تقدر على ذلك » ؟ قالوا : لا. قال رسول الله ﷺ : «فوالله لَلّه أرحمُ بعباده من هذه بولدها»] وقوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ الظاهر أن المراد – والله أعلم – تحيتهم أي من الله تعالى يوم يلقونه سلام أي يوم يسلم عليهم ، كما قال عز وجل : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ وأعدّ لهم أجراً كريماً ﴾ يعني الجنة وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۞ (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ۞ (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً ۞ (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ۞ (٤٨) ﴾

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وحرزاً للإميّين ، انت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظٍ ولا غليظٍ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئةَ بالسيئةِ ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر . ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إلّه إلا الله ، فيفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ؛ وقد رواه البخاري ، ورواه ابن أبي حاتم .

قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿ يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وقد كان أمر علياً ومعاذاً رضي الله عنهما أن يسيرا إلى اليمن فقال: ٥١٩ [انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، إنه قد أنزل علي ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾] فقوله تعالى : ﴿ شاهداً ﴾ أي لله بالوحدانية وأنه لا إلّه غيره ، وشاهداً على الناس بأعمالهم يوم القيامة وقوله عز وجل : ﴿ ومبشّراً ونذيراً ﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجزيل الثواب ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب . وقوله جلّت عظمته : ﴿ وداعياً الى الله بإذنه ﴾ أي داعياً للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ أي وأمرك ظاهر فيما جئت بـه من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلاّ معاند . وقوله جل وعلا ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودَعْ أذاهم ﴾ أي لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه ﴿ ودع أذاهم ﴾ أي اصفح وتجاوزْ عنهم ، وكِلْ أمرَهم إلى الله تعالى ، فإن فيه كفايةً لهم . ولهذا قال تعالى جل جلاله: ﴿ وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا * (٤٩) ﴾

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها . وقد اختلفوا في النكاح ، هل هو حقيقة في العقد وحده ، أو في الوطءِ أو فيهما ؟ واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلاّ في هذه الآية . فإنه استعمل في العقد وحده . لقوله تبارك وتعالى : ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن ﴾ وفيها إباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها . وقوله تعالى : ﴿ المؤمنات ﴾ خرج مخرج الغالب إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابيّة في ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من السلف على أن الطلاق لا يقع إلاّ إذا تقدمه نكاح ، لأن الله تعالى قال : ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ فعقّب النكاح بالطلاق ، فدلّ على أنه لا يصح ولا يقع قبله وهذا مذهب الشافعي وأحمد ، وطائفة من السلف والخلف كثيرة . وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى الى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال : إن تزوجتُ فلانة فهي طالق . واختلفا فيما إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق فقال مالك : لا تطلق حتى يعين المرأة ، وقال ابو حنيفة رحمه الله : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه. والجمهور على عدم وقوع الطلاق مستدلّين بهذه الآية ... وبالحديث الذي رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٢٠ [لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك] رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه.وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب. وهكذا روى ابن ماجه عن علي والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٥٢١ [لا طلاق قبل النكاح] .

وقوله عز وجل : ﴿ فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عِدة عليها ، فتذهب فتتزوج من فورها مَنْ شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفىَّ عنها زوجُها فإنها تعتدُّ منه أربعةَ أشهر وعشراً وإنْ لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ فمتعوهن وسرّحوهن سراحاً جميلاً ﴾ المتعة هٰهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمَّى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمّي لها . قال الله تعالى : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهنّ فريضةً فنصف

ما فرضتم ﴾ وقال عز وجل : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾ وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد وأبي أسيد رضي الله عنهما قالا : ٥٢٢ [ان رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبيْن رازقيين] ، قال علي بن طلحة طلحة رضي الله عنهما ، إن كان سمّى لها صَداقاً فليس لها إلا النصف وإن لم يكن سمى لها صَداقاً أمْتَعَها على قدر عسرِه ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ٱللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ ٱللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ۞ (٥٠) ﴾

يخاطب تعالى نبيّه ﷺ بأنه قد أحلّ له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن أجورهن أي مهورهن وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشز . وهو نصف أوقية ، فالجميع خمسمائة درهم إلاّ أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فانه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار وإلاّ صفيّة بنت حُيَيّ فإنه اصطفاها من سبي خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صَداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها رضي الله عنهن أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ﴾ أي وأباح لك التسرّي مماأخذت من المغانم وكما تقدم فقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام وكانتا من السراري رضي الله عنهمــا .

وقوله تعالى : ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾ هذا عدل وسط بين إفراط النصارى الذين لايتزوجون المرأة إلاّ بينهوبينها سبعة أجداد فصاعداً وتفريط اليهود يتزوج أحدهم بنتَ أخيه أو بنتَ أخته وهذا شنيعٌ فظيع .. وقوله تعالى : ﴿ اللاتي هاجرنَ معك ﴾ أي إلى المدينة . وقوله تعالى : ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبيّ إن أراد النبيُّ أن يستنكحَها خالصة لك ﴾ أي ويحل لك أيها النبي المرأةَ المؤمنة إن وهبتْ نفسها لك أن تتزوّجَها بغير مهر إن شئت ذلك . قال ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم بن الأوقص من بني سليم ، وكانت امرأةٌ صالحة . وقد قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس : لم يكن عند النبي ﷺ امرأة وهبت نفسها بينما اللائي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير أي انه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له وان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به لأنه مردود إلى مشيئته كما قال تعالى : ﴿ إن أراد النبيُّ أن يستنكحها ﴾ أي إن اختار ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ قال عكرمة أي لا تحل الموهوبة لغيرك ولو ان امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها الى رجل فانه متى دخل بها وجب عليه لها مهرمثلها، كما حكم بهرسول الله ﷺ في تزويج بنت واشق لما فوضت ، بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها . والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ ، فأما هو عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود ، كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنهـا.

وقوله تعالى : ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم ﴾ أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر ، وما شاءوا من الإماء واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم ، وهم الأمة وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿ لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيما ﴾



۞ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ

وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً ۞ (٥١)

قوله تعالى ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ اختار ابن جرير ان هذه الآية عامة في الواهبات أنفسهن له ﷺ وفي أزواجه ﷺ اي النساء واللائي عنده انه مخير فيهن إن شاء قسم وان شاء لم يقسم، وهو جمع بين الأحاديث الواردة عن عائشة تارة في الواهبات أي من شئت قبلتها ومن شئت رددتها. ومن رددتها فأنت فيها بالخيار بعد ذلك،إن شئت عدتَ فيها فآويتها.ولهذا قال : ﴿ ومن ابتغيتَ ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ تارة أخرى يرد الحديث عن معاذ عن عائشة أيضاً : ٥٢٣ [ان رسول الله ﷺ كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت الآية : ﴿ ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ فقلت لها ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : ان كان ذلك إلي فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً] . فهذا الحديث عنها يدل على ان المراد من ذلك عدم وجود القسم ، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات ومن ههنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم ، وهذا الذي اختاره ابن جرير جيد وقوي وقد جمع بين الأحاديث . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنَّ ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ أي إذا علمن أن الله تعالى قد وضع عنك الحرج في القسم فإن شئت قسمت وان شئت لم تقسم ، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختياراً منك ، فَرِحْنَ بذلك واستبشرْنَ به واعترفْن بجميلك ومنّتك عليهن في قسمتك ، وتسويتك بينهن . وإنصافك لهنَّ وعدلك فيهنَّ .

وقوله تعالى : ﴿ والله يعلم ما في قلوبكم ﴾ أي من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه كما روى الإمام أحمد عن عائشة قالت . ٥٢٤ [كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »]يعني القلب ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى ﴿وكان الله عليماً﴾ أي بضمائر السرائر ﴿حليماً﴾ أي يحلم ويغفر

لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً ۞ (٥٢)

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس وغيره أن هذه الآية نزلت مكافأة لأزواجه ﷺ على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية فكان جزاؤهن أن قصره الله تعالى عليهن وحرم عليه ان يتزوج بغيرهن أو يستبدلَ بهن أزواجاً غيرَهن ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حرج عليه فيهن ثم إنه رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية وأباح له التزوج ، ولكن لم يقعْ منه بعد ذلك تزوّج ، لتكون المنّة لرسول الله ﷺ عليهن .

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : ٥٢٥ [ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له النساء] ورواه الترمذي والنسائي .

روى ابن أبي حاتم عن أم سلمة أنها قالت : ٥٢٦ [لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلاّ ذات محرم] ؛ وذلك قول الله تعالى : ﴿ ترجي من تشاء منهن ﴾ الآية .. فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة ، الأولى ناسخة للتي بعدها ، والله أعلم .

وروى ابن جرير ان رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها ، وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة ، ثم قال بأن هذا كان قبل نزول قوله تعالى : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ﴾ الآية ، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح ، ولكن لا يحتاج إلى ذلك فإن الآية إنما دلّت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته وأنه لا يستبدل بهن غيرهن ، ولا يدل على انه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ﴾ فنهاه عن الزيادة عليهنّ إن طلق واحدة منهن واستبدال غيرها بها ، إلاّ ما ملكت يمينه [1] .

(١) قلت : هذا هو التفسير اللفظي للآية إنما إذا صح تفسير المفسر رحمه الله من أن آية «ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء» انها ناسخة لما بعدها : «لا يحل لك النساء من بعد» فيكون للرسول الخيرة في التزوج أو عدمه لا سيما إذا صح أيضاً الحديثان حديثا عائشة وأم سلمة فيكون النسخ واقعاً حتماً ، فيتغير حكم تفسير الآية المتأخرة من المنع إلى الإباحة وإن كان لم يقع فعل الإباحة منه صلى الله عليه وسلم أي لم يتزوج بعد ذلك أبداً لتكون له صلى الله عليه وسلم المنة على أزواجه «ذلك أدنى ان تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ...»

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً ۞ (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ۞ (٥٤) ﴾

هذه آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه انه قال : ٥٢٧ [وافقت ربي عز وجل في ثلاث ، قلت : يا رسول الله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلىً ﴾ وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن ، فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأنَ عليه في الغيرة : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ﴾ فنزلت كذلك] وفي رواية لمسلم ذكر اسارى بدر وهي قضية رابعة . وقد روى البخاري عن أنس بن مالك قال٥٢٨ [قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب] وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش التي تولّى الله تعالى تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة والله أعلم .

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ٥٢٩ [لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ، قام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم أنهم قاموا فانطلقوا ، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخلُ فألقى الحجابَ بيني وبينه، فأنزل الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذنَ لكم إلى طعام غيرنا ظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ﴾] ورواه مسلم والنسائي .

فقوله تعالى : ﴿ لا تدخلوا بيوت النبيّ ﴾ حظر على المؤمنين ان يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في الجاهلية وابتداء الإسلام في بيوتهم . حتى غار الله تعالى لهذه الأمة فأمرهم بذلك ، إكراماً لهم . ولهذا قال رسول الله ﷺ : ٥٣٠ [إياكم والدخول على النساء] ثم إن الله تعالى استثنى من ذلك فقال عز وجل : ﴿ الا أن يؤذنَ لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ قال مجاهد وغيره : أي غير متحينين نضجه واستواءَه حتى اذا قارب ذلك تعرضتم للدخول ، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفيل وهو الذي تسميه العرب الضيفن . ثم قال تعالى : ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ : ٥٣١ [لو دعيت إلى ذراع الأجبت ، ولو أهدي إلى كراع لقبلت . فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا في الأرض] ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا مستأنسين لحديث ﴾ أي كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين نسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ . كما قال تعالى : ﴿ إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم ﴾ وقيل إن الدخول بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذّى به ولكن كان يكره ان ينهاهم لشدة حيائه عليه الصلاة والسلام حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ والله لا يستحيي من الحق ﴾ أي ولهذا نهاكم وزجركم عنه .

ثم قال تعالى : ﴿ واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهنّ من وراء حجاب ﴾ أي لا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب . ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ أي هذا الذي شرعته لكم وأمرتكم به من الحجاب أطهر وأطيب . وقوله تعالى : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ لهذا أجمع العلماء قاطبةً على أنه يحرم على أي كان أن يتزوّج أياً من أزواج النبي ﷺ من بعده لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وهن أمهاتُ المؤمنين كما تقدم . وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدّد فيه وتوّعد عليه بقوله تعالى : ﴿ إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً ﴾ أي يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلَا أَبْنَآئِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَآءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَآءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ۝ (٥٥) ﴾

لقد استثنى الله تعالى هؤلاء الأقارب فلا يجب الاحتجاب منهم كما ورد ذلك في سورة النور عند قوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن ـ إلى قوله تعالى ـ على عورات النساء ﴾ الآية / ٣١ / وقد سأل بعضُ السلف فقال : لمَ لمْ يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يذكرا لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما . وقوله تعالى : ﴿ ولا نسائهن ﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات ، وقوله تعالى : ﴿ وما ملكت أيمانهن ﴾ يعني به أرقّاءهنّ من الذكور والإناث، كما تقدم التنبيه عليه وايراد الحديث فيه [1] وقوله تعالى : ﴿ واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً ﴾ أي واخشينه في الخلوة والعلانية ، فانه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية فراقبْنَ الرقيب سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ۝ (٥٦) ﴾

قال البخاري : قال أبو العالية : صلاة الله تعالى : ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون يبرّكون ، وقال أبو عيسى الترمذي : وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم ، قالوا : صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار . وقوله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ أي ان الله تعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقرّبين وان الملائكة تصلّي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمَيْنِ : العلوي والسفلي جميعاً .

---

(١) قلت : عند قوله تعالى : « أو ما ملكت ايمانهن » في سورة النور : الآية رقم ٣١ / وقوله (ص) لفاطمة (انه ليس عليك بأس ، انما هو أبوك وغلامك)

وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ ... هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ وفي قوله تعالى : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم﴾ الآية... وفي الحديث : ٥٣٢ [إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف] وقال : ٥٣٣ [اللهم صلّ على آلِ أبي أوفى] وقد سألته أمرأة جابر أن يصلي عليها وعلى زوجها فقال : ٥٣٤ [صلّى الله عليكِ وعلى زوجك] وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها أن شاء الله تعالى ما تيسر والله المستعان .

* روى البخاري عن كعب بن عجرة قال : قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ قال : ٥٣٥ [قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل ابراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم ، انك حميد مجيد]

* روى ابن أبي حاتم عن كعب بن عجرة قال : لما نزلت : ٥٣٦ [﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليماً﴾] قال : [قلنا يا رسول الله قد علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد »] ومعنى قولهم أما السلام عليك فقد عرفناه هو الذي في التشهد الذي كان يعلمهم إياه كما يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

* روى مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال : ٥٣٧ [أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله ان نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلّي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم »] وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير من حديث مالك به وقال الترمذي : حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود البدري أنهم قالوا : ٥٣٨ [يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه ، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا ؟ فقال : قولوا « اللهم صل على

محمد وعلى آل محمد »] وذكره ورواه الشافعي رحمه الله في مسنده عن أبي هريرة بمثله ؛ ومن ههنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلّي ان يصلّي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير فإن تركه لم تصح صلاته . والقول بالوجوب مؤيد بظاهر الآية ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود ، وابو مسعود البدري وجابر بن عبدالله ومن التابعين : الشعبي ، وابو جعفر الباقر ومقاتل بن حيان وإليه ذهب الشافعي لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه ايضاً وإليه ذهب أحمد أخيراً . والصحيح أنه وجه على ان الجمهور على خلافه والقول بوجوبه ، ظواهر الحديث والله أعلم وان الشافعي رحمه الله يقول بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة سلفاً وخلفاً ولله الحمد والمنة فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً * ومما يؤيِّد ذلك ، الحديثُ الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصحّحه والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما من رواية حيوة بن شريح بسنده عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : ٥٣٩[سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجّد الله ولم يصلّ على النبي فقال رسول الله ﷺ عجل هذا ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صلّى أحدكم فليبدأ بتمجيدِ الله عز وجل والثناءِ عليه ، ثم ليصلِّ على النبيّ ثم ليدعُ بعد بما شاء . »]

* روى ابن جرير عن يونس بن خباب قال: ٥٤٠[خطبنا بفارس فقال: أنبأني من سمع ابن عباس يقول : هكذا أنزل ، فقلنا : أو قالوا يا رسول الله علـمْنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد . وارحم محمداً وآل محمد كما رحمت آل ابراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على ابراهيم ، انك حميد مجيد »] فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ كما هو قول الجمهور ؛ ويعضده حديث الأعرابي الذي قال : ٥٤١ [اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحداً ؛ فقال رسول الله ﷺ « لقد حجرْت واسعاً »]

* روى أبو عيسى الترمذي عن عبد الله بن مسعود ان رسول الله ﷺ قال : ٥٤٢ [أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاةً] تفرد به الترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب .

روى اسماعيل القاضي عن أُبيّ بن كعب عن أبيه قال: ٥٤٣ [كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول : « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه فقال أُبيّ : يا رسول الله إني أصلي من الليل ، أفأجعل لك ثلثَ صلاتي قال رسول الله ﷺ « الشطر »

قال : أفأجعل لك شطر صلاتي ؟ قال رسول الله ﷺ « الثلثان » قال : أفأجعل لك صلاتي كلّها ؟ قال : « اذن يغفرلك الله ذنبك كله »]

* روى الإمام أحمد عن الطفيل بن أبيّ عن ابيه : ٥٤٤ [قال رجل يا رسول الله أرأيت ان جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال : « إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك »]

* روى مسلم وابو داود والترمذي والنسائي عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٤٥ [من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشراً .] وقال الترمذي حسن صحيح .

* روى الإمام أحمد عن أبي طلحة الأنصاري قال : ٥٤٦ [أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس يُرى في وجهه البِشرُ ، قالوا : يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البِشرُ ؛ قال : [« أجل أتاني آتٍ من ربي عز وجل فقال : من صلّى عليك من أمتك صلاةً ، كتب الله له بها عشرَ حسناتٍ ، ومحا عنه عشرَ سيئاتٍ ، ورفع له عشرَ درجات ، وردَّ عليه مثلها »] وهذا إسناد جيد ولم يخرجوه .

* روى الإمام أحمد عن علي بن الحسين عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : ٥٤٧ [البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصلِّ عليَّ] ورواه الترمذي .

* روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ٥٤٨ [قال رسول الله ﷺ «رغم أنفُ رجلٍ ذُكرتُ عندَه فلم يصلِّ علي ، ورغمَ أنفُ رجلٍ دخلَ عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفرَ له ، ورغم أنفُ رجلٍ أدرك عنده أبواه الكِبرَ فلم يدخلاه الجنة»] ثم قال حسن غريب ورواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه . وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ كلما ذُكِرَ ، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي . وذهب آخرون إلى وجوب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة ، وتستحب في بقيةِ ذلك المجلس . ويتأيد هذا القول بالحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٥٤٩ [ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرةً يوم القيامة ، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم] وحكى عن بعضهم أنه انما تجب الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - في العمر مرة واحدة امتثالاً لأمر الآية ثم هي مستحبة في كل حال (قلت) وهذا قول غريب فانه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة .

* فمنه بعد النداء للصلاة الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص

يقول : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ٥٥٠ [إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا لي الله الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة] وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث كعب بن علقمة .

* ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه للحديث الذي رواه الإمام أحمد عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : ٥٥١ [كان رسول الله ﷺ اذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال : اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي ابواب رحمتك ، واذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك .]

ومن ذلك الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة فإن السنّة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحةَ الكتاب ، وفي الثانية أن يصليَ على النبي ﷺ وفي الثالثة يدعو للميت ، وفي الرابعة يقول اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده .

ومن ذلك الصلاة على النبي ﷺ بين تكبيرات العيد في صلاة العيد ، وختم الدعاء ودعاء القنوت كما رواه النسائي في سننه ، ومن ذلك الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة ومن ذلك حين زيارة قبره ﷺ . وان الصلاة والسلام عليه يُبلغهُا لقوله ﷺ : ٥٥٢ [ان لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام] رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود وهكذا رواه النسائي وقالوا : ويستحب الصلاةَ على النبي ﷺ مع ذكر الله عند الذبح ، واستأنسوا بقوله تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى : لا أذكَر إلا وذُكرتَ معي ، وخالفهم في ذلك الجمهور وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى كما عند الأكل والدخول والوقاع وغير ذلك مما لم ترد به السنة بالصلاة على النبي ﷺ .

ويجوز الصلاة على غير الأنبياء بالتبعية كما جاء في الحديث : ٥٥٣ [اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته] ويؤيّده قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم ﴾ وقوله ﷺ : [٥٥٤ اللّهم صل على آل أبي أوفَى] أخرجاه في الصحيحين.

قال الجمهور من العلماء لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا فلا يلحق بهم غير ؛ فلا يقال : قال أبو بكر صلى الله عليه ، أو ، قال علي صلى الله عليه وان كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزاً وجليلاً لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل وحملوا ما ورد في الكتاب والسنة

على الدعاء لهم ولهذا لم يثبت شعاراً لآلِ أبي أوفى ولا لجابر وامرأته . وهذا مسلك حسن .

وأما إفراد السلام على غير الأنبياء قال : الشيخ محمد الجويني من أصحابنا هو في معنى الصلاة فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به لغير الأنبياء فلا يقال عليّ عليه السلام وسواء في هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به فيقال : سلام عليك وسلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم وهذا مجمع عليه . (قلت) وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علياً رضي الله عنه يقال عليه السلام من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه وهذا وان كان معناه صحيحاً ، لكن ينبغي أن يسوّي بين الصحابة في ذلك فإن هذا من باب التعظيم والتكريم فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه رضي الله عنهم أجمعين .

قال النووي : إذا صليَ على النبيّ ﷺ فليُجمَع بين الصلاة والتسليم فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : صلى الله عليه فقط ولا عليه السلام فقط وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ فالأولى أن يقال : صلى الله عليه وسلم تسليماً .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ (٥٧) وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝ (٥٨) ﴾

يقول تعالى متهدداً متوعداً من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وإيذاء رسوله ﷺ بعيب أو بنقص - عياذاً بالله من ذلك - قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إن الذين يُؤذون الله ورسولَه ﴾ نزلت في المصوّرين . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٥٥ [يقول الله عزّ وجلّ : يؤذيني ابن آدم، يسبّ الدهر وأنا الدهر أقلب ليلَه ونهارَه] أي إن الجاهلية كانوا يقولون يا خيبةَ الدهر فعل بنا كذا وكذا فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه ، وانما الفاعل لذلك هو الله عز وجل فنهىَ عن ذلك هكذا قرره الشافعي وابو عبيدة وغيرهما وقيل أنها نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حُييّ بنِ أخطب والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ومن آذاه فقد آذى الله ،كما أن من أطاعه فقد أطاع الله .كما روى الإمام أحمد

عن عبد الله بن المغفل المزني قال : قال رسول الله ﷺ ٥٥٦ الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه] وقد رواه الترمذي .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ﴾ ينسبون إليهم ما هم براء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ وهذا هو البُهت الكبير ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد ، الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برّأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله تعالى عنهم فإن الله عز وجل قد أخبر أنه قد رضي عنهم وهم المهاجرون والأنصار ومدحهم . وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقّصونهم ويتهمونهم بما لم يفعلوا ، فهم في الحقيقة منكّسو القلوب يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين. وروى أبو داود عن أبي هريرة ٥٥٧ [انه قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال « ذكرك أخاك بما يكره » قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »] وهكذا رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

وقد روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه ٥٥٨ [أي الربا أربى عند الله ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : « أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم » ثم قرأ : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾]

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ۞ (٥٩) لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً ۞ (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ۞ (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ۞ (٦٢) ﴾

نصف الحزب

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ تسليماً ، أن يأمر النساء المؤمنات ـ خاصةً أزواجه وبناته لشرفهن ـ بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليتميّزْن عن سِمات نساءِ الجاهلية وسمات الإماء ، والجلباب هو الرّداء فوق الخِمار ؛ قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة وغيرهم وهو بمنزلة الإزار اليوم قال الجوهري الجلباب الملحفة . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههنّ من فوق رؤوسهنّ بالجلابيب ويبدين عينا واحدة ، وقال محمد بن سيرين سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل ﴿ يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ﴾ فغطى وجهَه ورأسَه وأبرزَ عينه اليسرى وقال عكرمة : تغطّي ثغرة نحرِها بجلبابها تدنيه عليها وقال ابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت لما نزلت هذه الآيةِ ... خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهنّ الغربان من السكينة،وعليهن أكسية سود يلبسنها . وسئل الزهري عن الوليدة قال عليها الخمار دون الجلباب وقوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين ﴾ قال مجاهد يتجلببن فيعلم أنهن حرائر فـلا يتعرض لهن فاسق بأذىً أو ريبة . وقوله تعالى : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك . ثم توعّد الله المنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر : ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ هم الزناة ﴿ والمرجفون في المدينة ﴾ أي الذين يقولون جاء الأعداء وجاءت الحروب وهو كذب وافتراء لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لنغرينّك بهم ﴾ أي لنسلطنّك عليهم ﴿ ثم لا يجاورونك فيها ﴾ أي في المدينة ﴿ إلاّ قليلاً ملعونين ﴾ مطرودين مبعدين ﴿ أينما ثقفوا ﴾ أي وجدوا ﴿ أُخِذوا ﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿ وقتّـِلوا تقتيلاً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أي هذه سنته في المنافقين إذا تمرّدوا على نفاقهم وكفرهم فإن أهل الإيمان يسلَّطون عليهم ويقهرونهم ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي وسنة الله قهر المنافقين لا تبدّل ولا تغيّر .

۞ يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ❁ (٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ❁ (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً ❁ (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ❁ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا

وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۞ (٦٧) رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۞ (٦٨)

يخبر تعالى رسوله ﷺ أنه إن سأله الناس عن الساعة ، أرشده تعالى ان يرد علمها إلى الله عز وجل. كما قال تعالى في سورة الأعراف وهي مكية ، وهذه مدنية فاستمرّ الحال في ردّ علمها إلى الذي يقيمها لكن أخبره أنها قريبة.بقوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشقّ القمر ﴾ .

ثم قال تعالى ﴿ ان الله لعن الكافرين ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وأعدّ لهم سعيراً ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ أي ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ﴿ لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ أي ليس لهم من ينقذهم مما هم فيه ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ أي يسحبون في النار على وجوههم وتلوى على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، ليتنا كنا في الدنيا ممن اطاعوا الله والرسول ، كقوله تعالى : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه يتمنون لو كانوا من المؤمنين ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ قال طاووس : سادتنا يعني الأشراف ، وكبراءنا يعني العلماء رواه ابن ابي حاتم اي اتبعنا أمراءنا ، واتبعنا علماء السوء وخالفنا الرسل، فإذا هم ليسوا على شيء ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ أي بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿ والعنهم لعناً كبيراً ﴾ قرأ بعض القراء : ﴿ كبيراً ﴾ وقرأ البعض الآخر ﴿ كثيراً ﴾ وكلاهما بمعنى صحيح ، والأَوْلى أن القارىء مخير بين القراءتين ، لا أن يجمع بينهما أي أن يقول مثلاً : كبيراً كثيراً .

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۞ (٦٩)

روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ٥٥٩ [ان موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه فآذاه من آذاه من بني اسرائيل فقالوا ما يتستر هذا التستر إلاّ من عيبٍ في جلده إما برص وأما أدرة وإما آفة وان الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على

حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإنّ الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني اسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً – قال – فذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾] وهذا الحديث من افراد البخاري دون مسلم .

روى الإمام أحمد عن عبدالله – ابن مسعود – قال ٥٦٠ [قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ، قال : فقلت يا عدو الله أما لأخبرنّ رسول الله ﷺ بما قلت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فاحمرّ وجهه ثم قال « رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر »] أخرجاه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ أي له وجاهةٌ وجاه عند الله عز وجل وقال جماعة من السلف : لم يسأل اللهَ شيئاً إلاّ أعطاه ولكن مُنع من الرؤية لما يشاء عز وجل ، وقال بعضهم من وجاهته العظيمة عند الله تعالى انه شفع في أخيه هارون ان يرسله معه فأجاب الله سؤله فقال تعالى : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ۞ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ۞ (٧١) ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه وأن يقولوا ﴿ قولاً سديداً ﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ووعدهم أنهم اذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم أي يوفقهم للأعمال الصالحة وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ثم قال تعالى: ﴿ ومن يطعِ الله ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ وذلك أنه يجارُ من نار جهنم ويصيرُ إلى النعيم المقيم . روى ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال: ٥٦١ [صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا فقال « إن الله تعالى أمرني ان آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً » ثم أتى النساء فقال : « ان الله أمرني أن آمركن ان تتقين الله وتقلن قولاً سديداً »] .

قال عكرمة : القول السديد : لا إلّه الا الله ، وقال غيره : السديد الصدق ، وقال غيره : هو الصدق ، والكلّ حقٌ .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولَا ۝ (٧٢) لِيُعَذِّبَ ٱللهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً ۝ (٧٣) ﴾

روى العوفي عن ابن عباس : يعني بالأمانة الطاعة ؛ عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنَها ، فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت وان أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ يعني غراً بأمر الله .

روى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ... فما كان إلا مقدار ما بين العصر الى الليل من ذلك اليوم حتّى أصاب الخطيئة . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصري وغير واحد : ان الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون : هي الطاعة . وقيل : هي الدين والفرائض والحدود ،وقيل الغسل من الجنابة ، وقيل الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة ، وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ... وهو أنه ان قام بذلك أثيب وان تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله إلاّ من وفق الله ، والله المستعان .

روى ابن جرير عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ٥٦٢ [القتل في سبيل الله يكفر الذنوبَ كلها ـ أو قال ـ يكفر كل شيء إلاّ الأمانة ، يؤتى بصاحب الأمانة ، فيقال له : أدّ أمانتك ، فيقول أنّى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أدّ أمانتك ، فيقول أنّى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أدّ أمانتك ، فيقول أنّى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول اذهبوا به إلى أمه الهاوية ، فيذهب به إلى الهاوية ، فيهوي فيها حتى ينتهي إلى قعرها فيجدها هنالك كهيئتها ، فيحملها فيضعها على عاتقه ،

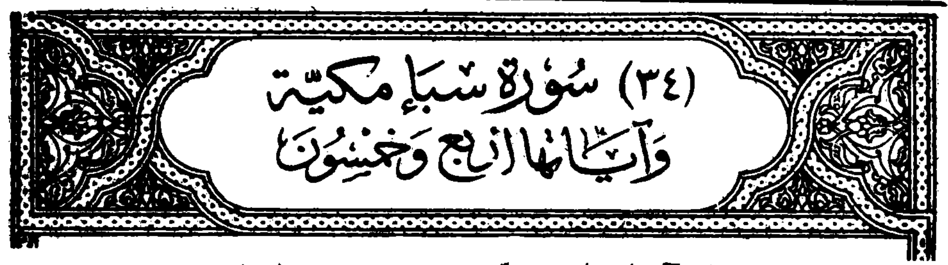
فيصعد بها إلى شفير جهنم ، حتى إذا رأى أنه خرج ، زلّت قدمه فهوى في أثرها أبد الآبدين » قال : والأمانة في الصلاة ، والأمانة في الصوم ، والأمانة في الوضوء ، والأمانة في الحديث ، وأشد ذلك الودائع ، فلقيت البراء فقلت : ألا تسمع ما يقول أخوك عبدالله فقال صدق]

ومما يتعلق بالأمانة ، الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه قال : ٥٦٣ [حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدَهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا ان الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنّة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل [1] كجمر دحرجته على رجلك، تراه منتبراً وليس فيه شيء – قال : ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله قال – فيصبح الناس يتبايعون[2] لا يكاد أحد يؤدّي الأمانة. حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله وما في قلبه حبة خردل من إيمان ، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت، ان كان مسلماً ليردّنه عليَّ دينه ، وان كان نصرانياً أو يهودياً ليردّنه عليَّ ساعيه فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلانا»] وأخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش به وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة حديث مرفوع . روى أبو داود عن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ٥٦٤ [من حلَف بالأمانة فليس منّا] تفرد به. وقوله تعالى: ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ أي إنما حمل بني آدم وهي التكاليف ، ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله . ﴿ والمشركون والمشركات ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسُلِهِ ﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ آخر اختصار تفسير سورة الأحزاب ولله الحمد والمنّة

٢٣ / ٥ / ١٣٩٠
٢٦ / ٧ / ١٩٧٠

---

(١) المجل : أن يكون بين الجلد واللحم ماء من كثرة العمل أو النار . (٢) من البيع .



إلا الآية / ٦ / فمدنيّة نزلت بعد سورة لقمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۞ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۞ (٢) ﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة وهو المنعم على أهلهما فهو الحاكم المتصرف وحده لا شريك له ، والجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره، فلا ربّ غيره ولا معبود سواه . وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، والخبير بخلقه لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء . ولهذا قال سبحانه ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض من الحب والبذور الكامن فيها ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ من قطر أو رزق وما يعرج فيها من الأعمال الصالحة ﴿ وهو الرحيم ﴾ بعباده ﴿ الغفور ﴾ عن ذنوب التائبين إليه المتوكّلين عليه .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ ۞ (٣) لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۞ (٤) وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ۞ (٥) وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۞ (٦)

هذه إحدى الآيات الثلاث التي أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، لما أنكره من أنكره فإحداهن في سورة يونس ، وهي : ﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق ... ﴾ والثانية هذه : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قلْ بلى وربي لتأتينَّكم ﴾ والثالثة في سورة التغابن وهي : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثُنَّ ... ﴾ ولما قال تعالى هاهنا ﴿ قل بلى وربي لتأتينَّكم ﴾ عقّب بما يؤكد ذلك ويقرره فقال عزّ من قائل : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ أي لا يغيب عنه وجميع مخلوقاته تحت علمه لا يخفى عليه شيء . فالعظام وإن تلاشت ، فهو جل جلاله عالم اين استقرت ذراتها ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم ، ثم بيّن حكمته من البعث فقال تعالى : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ أي صدّوا عن سبيله تعالى وكذبوا رسله ﴿ أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ وهذه حكمة أخرى مضافة إلى ما قبلها . وهي أن المؤمنين لما يشاهدون قيام الساعة وإثابةَ الأبرار وعقوبةَ الفجّار . كما وعد الله تماماً ، يرَوْن ذلك عينَ اليقين . كما قال تعالى : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾ أي إن هذا القرآن هو الحق في كافّة ما أخبر ويهدي إلى طريق ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يغالب ﴿ الحميد ﴾ في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره والمحمود في ذلك كله جل جلاله .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَالِ ٱلْبَعِيدِ ۞ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۞ (٩) ﴾

يستبعد المشركون قيام الساعة ويستهزئون بالرسول ﷺ في إخباره بذلك : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزّق ﴾ أي تفتّتتْ ذرّات أجسادكم ﴿ إنكم ﴾ أي بعد هذه الحال ﴿ لفي خلقٍ جديدٍ ﴾ أي تعودون أحياء ترزقون! ولا يخلو هذا الإخبار من قسمين : إما أن يكون قد تعوّد الافتراء على الله بأنه أوحى إليه ذلك ، أو أن الرجل به جنون.ولهذا قالوا : ﴿ افترى على الله كذباً أم به جنّة ﴾ فردّ تعالى عليهم : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الأمين ، الذي جاء بالحق ، وهم الكذَبةُ الأغبياء ﴿ في العذاب ﴾ أي في الكفر المفضي إلى العذاب ﴿ والضلال البعيد ﴾ من الحق في الدنيا.ثم قال تعالى : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ أي ألا يرون قدرةَ الله تعالى بإيجاد هذه المخلوقات العظيمة فما الذي يوجب أن يستبعدوا بعث الأجساد مرة ثانية وأرسل لهم رسولاً ينقذهم ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ﴿إن نشأ نخسفْ بهم الأرض أو نسقطْ عليهم كسفاً من السماء ﴾ أي لو شئنا لعاقبناهم على تكذيبهم بأن نخسفَ بهم الأرض أو نرجمَهم من السماء بعذاب غليظ،ولكن نؤخّر ذلك لحلمنا وعفونا ﴿ إنّ في ذلك لآيةً لكل عبدٍ منيب ﴾ أي إن في هذا الحلم والعفو عند القدرة العظيمة لدلالة على أن ما يقوله الله ورسوله هو الحق ، ودافع إلى الرجوع عن الباطل الى الحق والتوبة النصوح ، وهذا حضٌّ على التوبة والإيمان والتصديق والتسليم .



﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * (١١) ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين وجمع له النبوة والملك المتمكّن ، والجنود ذوي العُدَد والعَدَد ، وما أعطاه من الصوت الرخيم العظيم الذي كان إذا سبّح به ، تسبّح معه الجبال،وتقف له الطير السارحات، وتجاوبه بأنواع اللغات .

وفي الصحيح: ٥٦٥[أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته ثم قال ﷺ : « لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود »]

وقوله تعالى.﴿ أوِّبي ﴾ أي رجِّعي مسبحةً معه فأُمرتِ الجبال والطيرُ أنْ تُرجِّعَ معه بأصواتهـا .

وقوله تعالى : ﴿ وألنّا له الحديد ﴾ قال الحسن البصري وغيره : كان لا يحتاج أن يدخل الحديد النار ولا يضربه بمطرقة بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ولهذا قال تعالى : ﴿ أن اعملْ سابغات ﴾ وهي الدروع ، وهو أول من عملها من الخلق وإنما كانت قبل ذلك صفائح ﴿ وقَدّرْ في السَّردِ ﴾ أي لا تدق المسمار فيقلق في الحلقة ، ولا تغلظه فيقصمها واجعله بقدر . والسرد حِلق الحديد يقال : درع مسرودة اذا كانت مسمورة الحِلَق ، وكان يستغني بثمن الدروع التي يصنعها عن الراتب من بيت مال المسلمين.فقيل أنه كان يبيع الدرع بأربعة آلاف درهم ، يتصدق بثلثها ويشتري بثلثها ما يكفيه وعياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يومياً إلى أن يعمل غيرها . وان الله تعالى أعطاه شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت فكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما أُعطي سبعين مزماراً في حلقه .

وقوله تعالى : ﴿ واعملوا صالحاً ﴾ أي في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿ إني بما تعملون بصير ﴾ أي مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم لا يخفى عليَّ من ذلك شيء .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ

عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۞ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۞ (١٣)

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له ، تحمل بساطه غدوُّها شهر ، ورواحها شهر . وقوله تعالى : ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من التابعين : القطر : النحاس . وقال قتادة وكانت باليمن فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ أي سخّر له الجن فدانوا له يسخرّهم بإذن الله لما يشاء من عمل البنايات . والجن ولد إبليس ، كما أن الإنس من ولد آدم ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون ، وهم شركاء في الثواب والعقاب ، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله تعالى ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان . وقوله تعالى : ﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا ﴾ أي ومن يعدل من الجن عن أمرنا له ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ نذقه من عذاب السعير ﴾ وهو الحريق . ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴾ أما المحاريب قال الضحاك: هي المساجد[1] وأما التماثيل فهي الصور وكانت من نحاس وقيل من طين وزجاج وقوله تعالى : ﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ الجواب هي الأحواض، والقدور الراسيات أي الثابتات لا تتحرك لعظمها وأثافيها منها . وقوله تعالى : ﴿ إعملوا آل داود شكراً ﴾ قال ابو عبد الرحمن السلمي : الصلاة شكر والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر وأفضل الشكر الحمد قال : الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وكان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكره تعالى قولاً وعملاً . قال ابن أبي حاتم عن ثابت البناني قال : كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل أو النهار إلا وانسان من آل داود قائم يصلي فغمرتهم هذه الآية : ﴿ إعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ﴾ وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال :

(١) نعم .. المحراب هو المسجد كله ، وليس هو الفجوة التي يقف فيها الإمام فإنها مأخوذة عن مذابح النصارى في كنائسهم ولم تكن أيام السلف الصالح !!

٥٦٦ [إن أحب الصلاة إلى الله تعالى : صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه، وينام سدسه ، وأحب الصيام الى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً ، ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى] .

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ❁ (١٤)﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمّى اللهُ موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئاً على عصاه وهي منسأته مدةً طويلة نحواً من سنة[1] فلما أكلتها دابة الأرض،وهي الأرضة ، ضعفت وسقط إلى الأرض وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة وتبينت الجن والإنس أيضاً أنّ الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهّمون ويوهمون الناس ذلك . فذلك قوله تعالى : ﴿ فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ فأيقن الناس عند ذلك ان الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم يطلعون على الغيب ، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له وذلك قول الله تعالى: ﴿ ما دلّهم على موته إلاّ دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبيّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ قال أصبغ : بلغني انها قامت سنه تأكل منها قبل ان يخرّ ، وذكر غير واحد من السلف نحو هذا ، والله أعلم .

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ❁ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ❁ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا ٱلْكَفُورَ ❁ (١٧)﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه السلام من جملتهم وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم

(١) وهذا دليل حسيٌّ على أن أجسادَ الأنبياء لا تبلىَ .

وثمارهم وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه ، بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيـــل والتفرّق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر . كما سيأتي إن شاء الله تفصيله وبيانه قريباً وبه الثقة.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس يقول : [إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ... أرجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال ﷺ : « بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة ، والشام منهم اربعة. فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير. وأما الشامية : فلخم وجذام وعاملة وغسان »] وهو حديث حسن لما له من الشواهد فَقَوُيَ وحُسِّنَ قال علماء النسب – منهم محمد بن اسحق – إسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وإنمـــا سمّي سبأ لأنه أول من سبأ [1] – فقد ذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم ، وقال في ذلك شعراً جاء فيه :

... ويملك بعدَ قحطـــان نبيٌّ تقيٌّ مخبت خيرُ الأنـــــامِ
يسمّى أحمداً يـــا ليتَ أني أعَمّر بعدَ مَبعثِــــه بعام
فأعضدهُ وأحبوه بنصري بكل مدجّجٍ وبكـــــلّ رامِ
متى يظهرْ فكونـــوا ناصريه ومن يلقاه يُبلغُـــــه سلامي

ذكر ذلك الهمداني في كتاب – الأكليل – وهكذا فسبأ هذا كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم مَنْ بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر .

فجاءتهم الرسل تأمرهم بتوحيد الله تعالى فكانوا لذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال سيل العرم ، فمنهم من أقام ببلادهم ومنهم من نزح إلى غيرها . وكان من أمر السد ان الماء كان يأتيهم من بين جبلين ، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم . فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً . حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلّوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة ان المرأة كانت تمشي تحت الأشجار ، وعلى رأسها مكتل أو زنبيل وهو الذي تغترف فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه . وكان

---

(١) قلت : وأسبأ في القاموس يعني خبت الى الله ولعله رجع عن وثنيته الى عبادة الله وحده كما هو ظاهر من شعره أعلاه .

هذا السد بمأرب ، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ويعرف بسد مأرب . وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شيء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وهذا كله فضل من الله وعنايته بهم ليوحّدوه ويعبدوه . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ﴾ ثم فسرها بقوله عز وجل : ﴿ جنتان عن يمين وشمال ﴾ أي من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾ أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد .

وقوله تعالى : ﴿ فأعرضوا ﴾ أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان عليه السلام : ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إني وجدت امرأةً تملكهم وأوتيتْ من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ المراد بالعرم : المياه . قال قتادة وغيره : ضعف السد ووهى وجاءت أيام السيول فصدم الماء البناء فسقط ... فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال فيبست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة كما قال تعالى : ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط ﴾ قال ابن عباس وهو الأراك وأكلة البربر ﴿ وأثل ﴾ قال ابن عباس : هو الطرفاء وقيل هو السمر والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وشيء من سدرٍ قليل ﴾ وهو أجود هذه الأشجار المبدّل بها . فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة ، والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة ، والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله تعالى . وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاّ الكفور ﴾ قال مجاهد : ولا يعاقَب إلاّ الكفور وقال ابن أبي حاتم عن ابن خيره وكان من أصحاب علي رضي الله عنه قال : جزاء المعصية : الوهن في العبادة ، والضيق في المعيشة ، والتعسّر في اللذّة ، قيل : وما التعسّر في اللذّة قال : لا يصادف لذة حلال إلاّ جاءه من ينغصنه إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ * (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * (١٩) ﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماءً وثمراً ، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون اليه في سيرهم. ولهذا قال سبحانه : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها ﴾ أي كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة ، وقيل هي قرى بصنعاء ﴿ قرى ظاهرة ﴾ أي واضحة يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى : ﴿ وقدرنا فيها السير ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿ سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ﴾ أي كان أمنهم دائماً ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ وذلك انهم بطروا هذه النعمة ، وأحبوا مفاوز وصحارى يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل، والسير في الحرور والمخاوف. كما قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ وقال هؤلاء : ﴿ ربّنا باعد بين أسفارنا ... ﴾ ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كل ممزق ﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس وسمَراً يتحدثون به من خبرهم وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والإلفة والعيش الهنيء. تفرقوا في البلاد ههنا وههنا حتى صاروا مضربَ المثل ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : تفرقوا أيدي سبأ ... وهكذا فقد تفرقوا ... فمنهم من خرج إلى عُمان ، وخرجت غسّان إلى بصرى ، وخرجت الأوس والخزرج إلى يثرب ذات نخل، فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح لا نبغي به بدلاً فأقاموا فيه فسموا لذلك خزاعة لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، ونزلت ازد السراة السراة . ونزلت ازد عمان عمان، ثم ارسل الله تعالى على السد فهدمه. وفي ذلك أنزل الله تعالى هذه الآيات .

قال الأعشى أعشى بني قيس بن ثعلبة واسمه ميمون بن قيس :

وفي ذاك للمؤتسي اسوةٌ ومأرب قفّى عليها العرِمْ
رجام بنته لهم حمير إذا جاء ماؤهم لم يرمْ
فأروى الزروع وأعنابَها على سعةٍ ماؤهم إذ قُسمْ
فصاروا أيادي ما يقدرون منه على شُرب طفل فُطِمْ

وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور ﴾ أي أن في هذا الذي حلّ بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ، لعبرة ودلالة لكل عبد صبّار على المصائب ،شكور على النعم . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً ٥٦٧ [عجبا للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاءً إلا كان خيراً له ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ؛ وان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن] كان مطرف يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ❁ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ❁ (٢١) ﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى . فقال تعالى : ﴿ ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه ﴾ كقوله : ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلاً ﴾ وقال ﴿ ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أي من حجة ، قال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه.وقوله عز وجل : ﴿ إلاّ لنعلمَ من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك ﴾ أي إنما سلّطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيحسن عبادة ربه عز وجل في الدنيا ، ممن هو منها في شك (وربك على كل شيء حفيظ) أي ومع حفظه ضل من ضل وسلم من سلم

﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۞ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۞ (٢٣) ﴾

بيّن تبارك وتعالى أنه لا إلّه إلاّ هو الأحد الفرد الصمد ، الذي لا نظير له ولا شريك له ، بل هو مستقلّ بالأمر وحده فقال جل وعلا : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ أي من الآلهة التي عبدت من دونه : ﴿ لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ كما قال سبحانه ؛ ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما لهم فيهما من شرك ﴾ أي لا يملكون شيئاً استقلالا ولا على سبيل الشركة ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ أي وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور أي يساعده ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه ثم قال تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ أي لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترىء أحد أن يشفع عنده إلاّ بإذنه .كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين قال : (... فأسجد لله تعالى فيدَعُني ما شاء الله أن يدعَني ، ويفتح عليّ بمحامدَ لا أحصيها الآن،ثم يقال : يا محمد:إرفعْ رأسك ، وقلْ تُسمعْ ، وسلْ تُعطهْ ، واشفعْ تشفَّعْ ...) (١) وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق ﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة ، وهو انه تعالى اذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي ، قال ابن عباس وغيره في تفسير هذه الآية : ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ...﴾ أي خُلّي عن قلوبهم وزال الفزع عنها سأل بعضهم بعضاً : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا ولهذا قال تعالى : ﴿ قالوا الحق ﴾ أي أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وهو العلي الكبير ﴾ .

روى البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله

(١) راجع آية الكرسي رقم /٢٥٥/ من سورة البقرة عند قوله تعالى : « من ذا الذي يشفع ... »

عنه يقول: إنَّ نبي الله ﷺ قال ٥٦٨ [إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع. ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض – ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه – فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء] انفرد باخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه، وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة به والله أعلم.



﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ (٢٤) قُلْ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ (٢٧) ﴾

يقرر تعالى أنه منفرد بالخلق والرزق والألوهية فكما أنهم أقروا بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض إلاّ الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إلّه إلاّ هو وحده لا شريك له أي لا معبود سواه. وقوله تعالى: ﴿ وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ أي واحد من الفريقين مبطل، والآخر محقّ، لا بدّ من ذلك. ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد فدلّ على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى وقوله تعالى: ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ أي لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وان كذّبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا. كما قال تعالى: ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ﴾ أي يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ﴿ ثم يفتح بيننا بالحق ﴾ أي يحكم بيننا بالعدل فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وان شراً فشر ﴿ وهو الفتاح العليم ﴾ أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور. وقوله

تبارك وتعالى : ﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء ﴾ أي أين الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيرتموها له عدلاً ﴿ كلاّ ﴾ أي ليس له شريك ولا عديل. ولهذا قال تعالى: ﴿ بل هو الله ﴾ أي الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿ العزيز الحكيم ﴾ أي ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء وغلبت كل شيء الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، تبارك وتعالى وتقدّس عما يقولون علوّاً كبيراً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۞ (٣٠) ﴾

يقول الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً : ﴿ وما أرسلناك إلاّ كافةً للناس بشيراً ونذيراً ﴾ أي إلى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تبارك وتعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ كقوله عز وجل ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقد ثبت في الصحيحين رفعهُ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ٥٦٩ [أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ . وأحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي وأعطيتُ الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس عامة] وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال ٥٧٠ [بعثت إلى الأسود والأحمر] قال مجاهد : يعني الجن والانس . ثم أخبر تعالى عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾ الآية ثم قال تعالى : ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ أي لكم ميعاد مؤجل محدود لا يؤخر ولا يقدم ،كما قال تعالى : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۞ (٣١) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۞ (٣٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٣٣) ﴾

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم وما أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال عز من قائل: ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ فتوعّدهم الله تعالى، وأخبر عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجّهم ﴿ يرجع بعضُهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم ﴿ لولا أنتم لكنّا مؤمنين ﴾ أي لولا أنتم تصدونا لكنا اتّبعنا الرسل وآمنّا بما جاؤونا به. فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا: ﴿ أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ﴾ أي نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل وتركتم حجج الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك ... ولهذا قالوا: ﴿ بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار ﴾ بل كنتم تغرونا وتمنونا وتمكرون ليلاً ونهاراً وتقنعونا أنّا على هدى، فإذا كل ذلك باطل وكذب. ﴿ إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾ أي نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شبهاً وأشياء تضلونا بها ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ أي كل من التابعين والمتبوعين ندموا على ما سلف منهم ﴿ وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون ﴾ أي إنما نجازيكم بأعمالكم كلٌّ بحسبه وبقدر ما يستحقّ. كقوله

تعالى : ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٧١ [إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقّاهم لهبها ، ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۞ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۞ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ۞ (٣٧) وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۞ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ۞ (٣٩) ﴾

يسلّي الله نبيه ورسوله محمداً ﷺ : بأن ما أنت فيه من تكذيب المترفين من قومك لك ، إنما هذا حصل مع كل نبيّ قبلك ، فما من نبيّ إلاّ كذبه المترفون واتّبعه الضعفاء ، كما قال قوم نوحٍ عليه الصلاة والسلام : ﴿ أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون ﴾ وقال جل وعلا ها هنا : ﴿ وما أرسلنا في قريةٍ من نذير ﴾ أي رسول ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة ، قال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوس الشرّ فيهم : ﴿ إنّا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أي لا نؤمن به ولا نتبعه .

روى ابن أبي حاتم عن أبي رزين قال ٥٧٢ [كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر ، فلما بُعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله : ما فَعَلَ ... ؟ فكتب إليه : أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنّما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم . قال فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلّني عليه ، قال : وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب ،

قال فأتى النبي ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى كذا وكذا ... » قال : أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ « وما علمك بذلك » ؟ قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم ، قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنّا بما أرسلتم به كافرون ﴾ الآية قال فأرسل اليه النبي ﷺ : « إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت »]

ويخبر تعالى عن المترفين المكذبين : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم ، وانه ما كان ليعطيهم هذه الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة ، ولكن هيهات لهم ذلك . قال الله تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وقال ها هنا : ﴿ قل إنّ ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة القاطعة الدامغة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ﴾ أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم .

قال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال **٥٧٣** [إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] ورواه مسلم وابن ماجه ولهذا قال تعالى : ﴿ إلاّ من آمن وعمل صالحاً ﴾ أي إنّما يقرّبكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح : ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ أي تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ أي في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى. ﴿ والذين يسعون في آياتنا معاجزين ﴾ أي يسعَوْن في الصدّ عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته ﴿ أولئك في العذاب محضرون ﴾ أي جميعهم مجزيّون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله تعالى : ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ أي بحسب ما له في ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا ، ويقتر على هذا وحكمته لا يدركها غيره وكما هم متفاوتون في الدنيا فكذلك هم في الآخرة، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات ، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات . وأطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ : **٥٧٤** [قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه] رواه مسلم . وقوله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ أي مهما انفقتم مما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم

في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب وفي الحديث ٥٧٥ [ان ملَكين يُصبحان كل يوم يقول أحدُهما : اللهم أعط ممسكاً تلفاً.ويقول الآخر : اللهم أعط منفقاً خلفاً] قال سفيان الثوري : عن مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ إن كان عند أحدكم ما يقيمه ، فليقصد فيه فإن الرزق مقسوم.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلٰئِكَةِ أَهٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤْمِنُونَ ۞ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ (٤٢) ﴾

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أهؤلاءِ إياكم كانوا يعبدون ﴾ أي أنتم أمرتموهم بذلك؟ كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل ﴾ ﴿ قالوا سبحانك ﴾ أي تنزهت وتقدست عن ان يكون معك إله ﴿ أنت ولينا من دونهم ﴾ أي نبرأ إليك من هؤلاء ونحن عبيدك ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ يعنون الشياطين لأنهم هم الذين أضلوهم وزينوا لهم عبادة الأوثان ﴿ أكثر هم بهم مؤمنون ﴾ أي تبرأ الملائكة من عابديهم بغير حق . قال الله عز وجل : ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ﴾ أي لا ينفعكم ما كنتم ترجون نفعه ، وادخرتم عبادتهم لمثل هذا اليوم.﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ أي أنفسَهم بعبادة غير الله ﴿ ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ أي هذا جزاء من عبد غير الله تعالى وكذّب بعذابه ولقائه .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ

مُبِينٌ ❁ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ❁ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ❁ (٤٥)

يخبر تعالى عن استحقاق الكفار للعذاب عندما يسمعون آيات الله من لسان رسوله ﷺ ﴿ قالوا ما هذا إلاّ رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، ودين محمد هو الباطل عليهم وعلى من كفر من آبائهم لعائن الله تعالى ﴿ وقالوا ما هذا إلاّ إفك مفترى ﴾ يعنون القرآن ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلاّ سحر مبين ﴾ – أي إنهم وصفوا القرآن بأنه سحر واضح.﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ (١) . وقد كانوا يودون أن يبعث فيهم نبيٌّ فلما منّ الله عليهم به كذبوه .

ثم قال تعالى : ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ أي من القوة في الدنيافجحدوا بآيات الله فدمرهم الله وزلزل بلادهم ولهذا قال

(١) قلت : أي ما أنزل الله على العرب بعد إبراهيم صحفاً إلا القرآن ولا نبياً بعد اسماعيل إلا محمداً عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام فقد كان العرب منذ زمن اسماعيل عليه السلام إلى زمن عمرو بن لحي ملك العرب على التوحيد وعلى دين إبراهيم واسماعيل وما دخل الشرك وعبادة الأوثان إلا في زمن عمرو بن لحي وقد رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهنم يتعثر في أقتابه جزاء إدخاله الشركَ على جزيرة العرب وعبادة الأوثان فيهاوبناء على هذا فإن العرب كانوا مكلفين بدين إبراهيم الذي بدّلوه وغيروه كما فعل اليهود والنصارى بدين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، ولم يكن بين عمرو بن لحي وبين محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من أربعماية سنة تقريباً تدرّج خلالها الشرك شيئاً فشيئاً في أحياء العرب ، إنما لم يخلُ زمان خلال هذه المدة ممن يلهمه الله تعالى فيذكــّر بدين ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلاموكان العرب يزعمونانهم ما يزالون على دين أبيهم ابراهيم صلى الله عليه وسلم ولكن كان أولئك الذين ألهموا بتذكير الناس لا يفوتهم موسم ولا سوق من أسواق العرب الا ويقفون خطباء يبينون للناس أنهم على دين غير دين ابراهيم أمثال : قس بن ساعدة الأيادي ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل وغيرهم كثيرون... وكانوا يسمّون بالحنفاء . فهؤلاء ولا شك قامت بهم الحجّة على كل من سمعهم من أهل زمانهم ... حتى أن امية بن أبي الصلت كان يبشر ويدعو إلى نبي سيأتي قريباً ، وكان يظن أنه سيكون ذلك النبي فلما منّ الله على الثقلين ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم كفّر أمية به لأن النبوة لم تأته !!!؟ والخلاصة ان العرب كانوا مكلفين بدين ابراهيم فكل من اتبعه فهو موحد ناج ، وكل من تركه فهو مشرك في النار والأحاديث الصحيحة تنطق بذلك فليعد اليها من شاء وصلى الله على محمد وآله وصحبه والحمد لله رب العالمين .

تعالى : ﴿ فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾ أي فانظروا واتعظوا كيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ (٤٦) ﴾

يقول تبارك وتعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين بأنك مجنون ﴿ إنما أعظكم بواحدة ﴾ وهي ﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ أي قفوا موقفاً خالصاً لوجه الله تعالى من غير هوى ولا عصبية ، واسألوا بعضكم بعضاً ثم اجيبوا بإخلاص : هل محمد به جنون ؟ ثم انصحوا بعضكم بعضاً بالحق اي بالاعتراف بأن محمداً عاقل ما به قط من جنة ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال ٥٧٦ [صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني » قالوا : بلى قال ﷺ « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب ، تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾] وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[1]

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝ (٥٠) ﴾

يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول للمشركين ﴿ ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ أي لا أريد منكم أجراً على أداء رسالة الله عز وجل إليكم وأمركم بعبادة الله ﴿ ان

---

(١) سورة الشعراء / ٢١٤ /

أجري إلاّ على الله وهو على كل شيء شهيد ﴾أي عالم بجميع الأمور وما أنا عليه من تبليغ دينه إليكم ، وما أنتم عليه من العمل . وقوله عز وجل : ﴿ قل إنّ ربي يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ من أهل الأرض بالرسالة وهو علام الغيوب فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء . وقوله تعالى : ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ أي جاء الحق والشرع العظيم من الله تعالى واضمحل الباطل . ولهذا : ٥٧٧ [لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبةً حول الكعبة ، جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقرأ : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ﴾ ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾] رواه البخاري ومسلم والترمذي .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربّي ﴾ أي الخير كله من عند الله وما أنزل الله فيه من الهدى والبيان والرشاد ومن ضلّ فإنما يضلّ من تلقاء نفسه ، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، لما سئل عن تلك المسألة في « المفوّضة » أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه . وقوله تعالى : ﴿ انه سميع قريب ﴾ أي سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۞ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۞ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۞ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ۞ (٥٤) ﴾

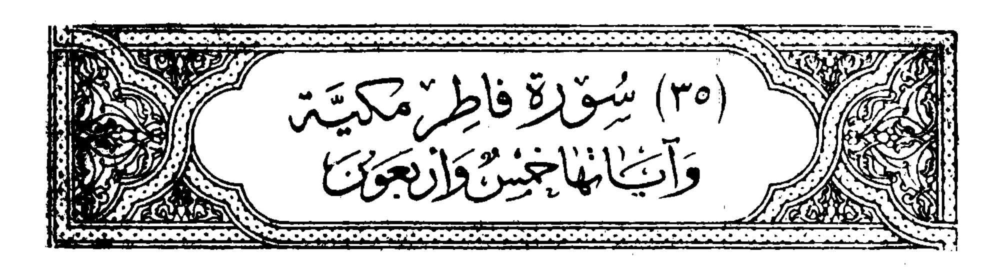
يقول تعالى : ﴿ ولو ترى ﴾ يا محمد ﴿ إذ فزعوا ﴾ أي هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿ فلا فوت ﴾ أي فلا مفر لهم ولا ملجأ ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ أي أخذوا من أول وهلة حين خرجوا من قبورهم يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ﴿ وقالوا آمنّا به ﴾ أي يوم القيامة يقولون آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله . كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحاً إنّا موقنون ﴾ ولهذا

قال تعالى ﴿ وأنّى لهم التناوش من مكانٍ بعيد ﴾ أي لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد . وقوله تعالى : ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ كما قال تعالى : ﴿ رجماً بالغيب ﴾ فتارة يقولون شاعر وتارة يقولون كاهن ، وتارة يقولون ساحر ، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ويكذّبون بالبعث والنشور والمعاد ﴿ إن نظن إلاّ ظنّاً وما نحن بمستيقنين ﴾ أي بالبعث ولا بالجنة ولا بالنار . وقوله تعالى : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من الإيمان والتوبة . ولكن أنّى لهم ذلك وليس وقتهم ذلك بوقت إيمانٍ أو توبة إن لم يكونوا قد آمنوا من قبل . وقوله تعالى : ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أيَ كما جرى للأمم الماضية المكذبة من قبل بالرسل لما جاءهم بأسنا ، تمنوا لو أنّهم آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنّة الله التي قد خلتْ في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا في شكٍ مريب ﴾ فلهذا لم يتقبل إيمانهم عند معاينة العذاب ؛ قال قتادة :

إياكم والشك والريبة ، فإن من مات على شكٍ بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

آخر اختصار تفسير سورة سبأ والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

١٣٩٠/٥/٣٠



نزلت بعد الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلٰئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلٰثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما من العدم ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ أي بينه وبين أنبيائه ﴿ أولي أجنحة ﴾ أي يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي منهم من له جناحان ، ومنهم له ثلاثة ، ومنهم من له اربعة ومنهم من له اكثر من ذلك ، كما جاء في الحديث : ٥٧٨ [أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الاسراء وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب] ولهذا قال جل وعلا : ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير ﴾ قال السدي ـ يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء .

﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * (٢) ﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وانه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، روى الإمام أحمد عن ورّاد مولي المغيرة بن شعبة قال : ٥٧٩ [إن معاوية كتب إلى

المغيرة بن شعبة ، أكتب لي بما سمعت من رسول الله ﷺ فدعاني المغيرة فكتبت إليه : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة : لا إله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد وسمعته ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات] . وأخرجاه **وقال الإمام مالك رحمة الله عليه : كان ابو هريرة رضي الله عنه إذا مطروا يقول : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم)**

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ(٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ (٤) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللهِ ٱلْغَرُورُ ۝ (٥) إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ (٦) ﴾

ينبّهُ تعالى عباده ، ويرشدُهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق ، فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ، ولهذا قال تعالى ﴿ لا إلَه إلاّ هو فأنّى تؤفكون ﴾ أي فكيف تُكذّبون بعد هذا البيان ووضوح هذا البرهان وانتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان والله أعلم .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وان يكذّبوك ﴾ يا محمد ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد فلك أسوة بمن سلفك من الرسل ، فكذلك كذبهم أقوامهم بما جاءوا به من البينات ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ وسوف يجازيهم بما يستحقون . ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق ﴾ أي المعاد كائن لا محالة ﴿ فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ﴾ أي فلا تتلهوا بزهـــرة

الدنيا الفانية، عن الحياة الخالدة الهانئة الباقية. ﴿ ولا يغرنكم بالله الغَرورُ ﴾ أي لايفتننكم الشيطان بغروره ، ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته ، والغَرورُ هو الشيطان . ثم بيّن تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال جل وعلا : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ أي عادوه أشد العداوة وخالفوه وكذّبوه فيما يغركم به . ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه عذاب جهنم نسأله تعالى ان يجعلنا أعداء الشيطان ، وان يرزقنا اتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ انه سميع مجيب .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۞ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ (٨) ﴾

لما ذكر تعالى أن اتباع إبليس مصيرُهم الى السعير ، ذكر بعد ذلك أن للكافرين عذاباً شديداً لإطاعتهم الشيطان وعصيانهم الرحمن . وان الذين آمنوا بالله ورسله ﴿ وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ على أعمالهم الصالحة . ثم قال عز من قائل : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ كالكفار الذين يسيئون ، ويعتقدون أنّهم يحسنون صنعاً فمثل هؤلاء ليس لك حيلة فيه ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي بقدره كان ذلك ﴿ فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات ﴾ أي لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره إنما يضل ويهدي من يشاء لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ولهذا قال تعالى : ﴿ ان الله عليم بما يصنعون ﴾ له أي علم بذلك وما سيكون منهم قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام .

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۞ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ

ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ۞ (١٠) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ (١١)

كثيراً ما يَدُلُّ عبادهُ على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، كما في سورة الحج ينبّه عبادهَ أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فان الأرض تكون ميتةً هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل اليها السحاب تحمل الماء ، وأنزله عليها ﴿ اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ كذلك الأجساد إذا أراد الله بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً ، ونبتت الأجساد من قبورها كما تنبت الحبّة في الأرض ، ولهذا جاء في الصحيح : ٥٨٠ [كل ابن آدم يبلى إلاّ عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب] ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك النشور ﴾ وتقدم في سورة الحج حديث أبي رزين ٥٨١ [قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال ﷺ : « يا أبا رزين أما مررتَ بوادي قومك ممحلاً ثم مررت به يهتز خضراً » قلت : بلى قال : ﷺ : «فكذلك يحيي الله الموتى »]

وقوله تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ أي من يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى ، فإنه يحصل له مقصوده . لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعاً. كما قال تعالى : ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ وقال جل جلاله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ فليتعززِ المؤمنُ بطاعة الله عز وجل .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء قاله غير واحد من السلف ، وقوله تعالى : ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وقال ، إياس القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام ، وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول بلا عمل .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ هم المراءون بأعمالهم أي يوهمون أنهم

في طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله عز وجل يراءون بأعمالهم . ويدخل في ذلك المشركون وغيرهم ... والمشركون داخلون بطريق الأولى.ولهذا قال تعالى : ﴿ لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ أي يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهى ، فإنه ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وكساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير أو شراً فشر . فالمرائي لا يروج أمرُه ولايستمر إلاعلى غبي أما المؤمنون المتفرِّسون فلا يروَّج ذلك عليهم ، بل ينكشف لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ﴾ أي ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهين ﴿ ثم جعلكم أزواجاً ﴾ أي ذكراً وأنثى ، لطفاً منه ورحمةً أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها ، وقوله عز وجل : ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلاّ بعلمه ﴾ أي هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل : ﴿ ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلاّ في كتاب ﴾ أي ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول ﴿ وما ينقص من عمره ﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس.وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وما يعمر من معمّر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إنّ ذلك على الله يسير ﴾ يقول : ليس أحد قضيتُ له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرتُ له من العمر وقد قضيت ذلك له فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله تعالى : ﴿ ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إنّ ذلك على الله يسير ﴾ يقول كل ذلك في كتاب عنده وهكذا قال الضحاك . وقال النسائي عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٨٢ [« من سرّه أن يبسط له في رزقه وينسأله في أثره فليصل رحمه »] وقد رواه البخاريّ ومسلم وأبو داود . روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ٥٨٣ض [ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يُرزَقُها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر »] وقوله عز وجل : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك

وبتفصيله في جميع مخلوقاته فان علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ (١٢) ﴾

ينبه تعالى على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة ، خلق البحرين العذب الزلال وهو الأنهار السارحة العذبة السائغة الشراب ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي مرّ وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار وانما تكون مالحة مرّة ثم قال تعالى : ﴿ ومن كل تأكلون لحماً طرياً ﴾ يعني السمك ﴿ وتستخرجون حليةً تلبسونها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾ أي تمخره وتشقه بمقدمها المسنم.وقوله جل وعلا : ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قطر الى آخر ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم وتتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم . ولا يمتنع عليكم شيء منه بل بقدرته تعالى قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، الجميع من فضله ورحمته .

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۞ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۞ (١٤) ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، ويطول كل منهما ويقصر بحسب الفصول ﴿ وسخر الشمسَ والقمرُ ﴾ والنجوم السيارات والثوابت الثاقبات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم ﴿ كل يجري لأجل مسمّى ﴾ أي إلى يوم القيامة ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾

أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم لا إلٓه غيره ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أي من الملائكة والصالحين الذين صورتْ أصنامهم على صورهم أي ﴿ما يملكون من قطمير ﴾ هؤلاء الذين تدعونهم من الملائكة المقربين والأولياء والصالحين ما يملكون من السموات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير – وهو اللفافة الرقيقة التي تكون على نواة التمرة – ثم قال تعالى : ﴿ ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ يعني هذه الآلهة التي اتخذتموها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنهم ميتون وتماثيلهم كذلك جماد لا أرواح فيها ﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ أي وعلى افتراض المستحيل انه وقع وسمعوا ... فإنهم لا يستطيعون الإجابة على ما تطلبون منهم إذ لا يقدر على ذلك أحد الا الله تعالى وحده لا شريك له. كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ ولا يخبرك بحقائق الأمور وظواهرها وخفاياها ، وعواقبها ومآلها ، مثل ما يخبرك بها خبير بصير ، وهل هو إلاَّ الله تبارك وتعالى ، فانه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ يا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ * (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ * (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ * (١٨) ﴾

يخبر تعالى بقوله عز من قائل : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ أي أنتم المحتاجون اليه في جميع الحركات وهو تعالى الغني عنكم بالذات ، ولهذا قال عز وجل ﴿ والله هو الغني الحميد ﴾ أي المنفرد بالغنى وحده لا شريك له وهو الحميد في جميع أقواله وافعاله قدراً وشرعاً وقوله تعالى : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ أي لو شاء لأذهبكم وأتى بغيركم وما ذلك عليه صعب أو ممتنع.ولهذا قال تعالى : ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وإن تدعُ مثقلة إلى

حملها ﴾ أي وان تدعُ نفس مثقلة بأوزارها لتساعد على حمل ولو بعض شيء منه ﴿ لا يُحمَلُ منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ اي حتى ولو كان أباها أو ابنها أو أخاها أو زوجها أو جارها تتعلق به ليحمل عنها شيئاً من حملها فيقول ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل خوفك فلا استطيع ان أعطيك شيئاً وتطلب من جميع من ذكر فيكون الجواب هو هو فذلك قوله تعالى : ﴿ لا يُحمَل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ﴿ ومن تزكّى فإنّما يتزكى لنفسه ﴾ أي ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي اليه المآب وسيجزي كلاً بما يستحق .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۞ (١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَاتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۞ (٢٠) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۞ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَاءُ وَلَا ٱلْأَمْوَاتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي ٱلْقُبُورِ ۞ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۞ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۞ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ ۞ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۞ (٢٦) ﴾

يقول تعالى : كما لا تستوي الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين الذين مثلهم بالأحياء ، والكافرين الذين مثلهم بالأموات ، فلا يستوون. فالمؤمن بصير يمشي في نور على صراط مستقيم في الدارين، حتى ينتهي الى الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم يمشي في ظلمات لا خروج له منها، تائه في غيه وضلاله في الدارين حتى يفضي به ذلك الى الحرور و السموم والحميم، وظل من يحموم لا بارد ولا

كريم . وقوله تعالى : ﴿ إن الله يُسمع من يشاء ﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ أي كما لا ينتفع الموتى بعد موتهم وهم كفاراً بالهداية والدعوة إليها ، كذلك المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم (١) ﴿ إن أنت إلاّ نذير ﴾ أي إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً و نذيراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ﴿ وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير ﴾ أي وما من أمة خلت من بني آدم إلاّ وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل . كما قال تعالى : ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ وهي المعجزات الباهرات ﴿ وبالزبُر ﴾ وهي الكتب ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ أي الواضح البيّن ﴿ ثم أخذت الذين كفروا ﴾ بالعقاب والنكال ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً . والله تعالى أعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ (٢٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝ (٢٨) ﴾

ينبه تعالى على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفة الألوان من أصفر وأحمر وأخضر

---

(١) قلت : لما كان الأموات لا يسمعون لأن حاسة السمع وسائر حواسهم قد تعطلت وفنيت بسبب الموت ، كذلك فإن حال الكفار الذين اختاروا الكفر على الإيمان ، صموا آذانهم عن كل حجة. . .فلم يسمعوها مهما كرر الداعي حججه وبراهينه ... فشبه الله حالهم التي هم عليها ، كحال الأموات الذين لا يسمعون. فكما أن الأموات لا يسمعون الدعوة مهما كررت عليهم ، كذلك هؤلاء الكفار صار حالهم كحال الأموات من حيث عدم السماع. ولو أن الأموات يسمعون لما صح التشبيه بهم. ولكن لما شبه الله الكافرين بالأموات علم قطعاً أن الأموات لا يسمعون؛ لا سيما وان الله تعالى يقول : « وما أنت بمسمع من في القبور » والله أصدق القائلين .

وأبيض الى غير ذلك من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان وفي بعضها طرائق وهي الجدَد جمع جدة فمن الجبال ما هو ابيض وأحمر ، ﴿ وغرابيب سود ﴾ قال عكرمة : الغرابيب الجبال الطوال السود ؛ وقوله تعالى : ﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾ أي كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب والأنعام هي مختلفة أيضاً فالناس منهم بربر وحبوش وطماطم في غاية السواد وصقالبة وروم في غاية البياض والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك ، ولهذا قال تعالى في الآية الأُخرى : ﴿ واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتّى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون ومن هذا اللون فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقوله تعالى : ﴿ إنّما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ أي انمّا يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة بالعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ، أتم ... والعلم به أكمل ... كانت الخشية له أكبر وأعظم وأكثر . وقال الحسن البصري : العالم من خشي الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغّب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الحسن : ﴿ انما يخشى اللهَ من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝ (٣٠) ﴾

يخبر تعالى عن المؤمنين الذين يتلون كتابه ويعملونَ بما فيه من اقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً ﴿ سراً وعلانية يرجون تجارة لن

تبور ﴾ أي يرجون ثواباً لا بد من حصوله من عند الله تعالى لأن القرآن يقول لصاحبه : ان كل تاجر من وراء تجارته، وانك اليوم من وراء كل تجارة. ولهذا قال تعالى : ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿ انه غفور ﴾ أي لذنوبهم ﴿ شكور ﴾ للقليل من أعمالهم . وقال قتادة : كان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

﴿ وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝ (٣١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ والذي أوحينا اليك ﴾ يا محمد ﴿ من الكتاب ﴾ وهو القرآن . ﴿ هو الحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت له بالتنويه ، وأنه منزّل من ربّ العالمين ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ أي خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝ (٣٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ أي هذه الأمة فقد أورثها هذا القرآن العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ وهو المفرط يفعل بعض الواجبات ويرتكب بعض المحرمات ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات ، ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات .

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ﴿ فمنهم ظالم

لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ : ٥٨٤ [كلهم من هذه الأمة] .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٨٥ [قال الله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون : ﴿ الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾]

قال بعضهم ان الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، والصحيح ان الظالم لنفسه من هذه الأمة وهذا اختيار ابن جرير ، كما هو ظاهر الآية وكما تقدمت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً واكتفينا بإيراد ما تيسر ... فاذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة ٥٨٦ [... وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر] [1] .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۞ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۞ (٣٥) ﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ، مأواهم جنات عدن يدخلونها يوم قدومهم على الله عز وجل ﴿ يحلّوْن فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٥٨٧ [تبلغُ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء .] ﴿ ولباسهم

(١) من حديث رواه الامام أحمد عن أبي الدرداء مرفوعاً .

فيها حرير ﴾ ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « ٥٨٨ [من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة] وقال الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ٥٨٩ [ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور، وكأني أنظر اليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: ﴿ الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن، ان ربنا لغفور شكور ﴾] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: غفر لهم الكثير من السيئآت، وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ يقولون أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك. كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: ٥٩٠ [لن يُدخل أحداً منكم عملهُ الجنة » قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال « ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل] ﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء، أي لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، وصاروا في راحة دائمة مستمرة ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما اسلفتم في الأيام الخالية ﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * (٣٧) ﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء، شرع في بيان ما للأشقياء، فقال جل وعلا: ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضي عليهم فيموتوا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: ٥٩١ [« أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون] فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحةً لهم، ولكن لا سبيل الى ذلك ثم قال تعالى: ﴿ كذلك نجزي كل كفور ﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق. وقوله جلت عظمته: ﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾ أي ينادون فيها يجأرون الى الله عز وجل بأصواتهم: ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي

كنا نعمل ﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردّهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون فلهذا لا يجيبهم الى سؤآلهم.ولهذا قال تعالى : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾ أوَ ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لا تنفعتم به في مدة عمركم ؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار المراد هنا فقيل سبع عشرة سنة ، وعشرين سنة ، واربعون سنة وستون سنة . والصحيح انه ستون . روى البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٥٩٢ [اعذر الله عز وجل الى امرىء أخر عمره حتى بلغ ستين سنة] ورواه أحمد والنسائي والبزار .

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى الى عباده ويزيح به عنهم العلل كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة كما ورد بذلك الحديث ، روى الحسن بن عرفة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ٥٩٣ [اعمار أمتي ما بين الستين الى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك] . وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه عن الحسن بن عرفة به وابو بكر بن ابي الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى .

وقوله تعالى : ﴿ وجاءكم النذير ﴾ روى عن ابن عباس وغيره : يعني الشيب قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني به رسول الله ﷺ وقرأ ابن زيد ﴿ هـذا نذير من النذر الأولى ﴾ وهذا هو الصحيح عن قتادة قال : احتج عليهم بالعمر والرسل وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر.لقوله تعالى :﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن اكثركم للحق كارهون ﴾ أي لقد بيّنا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتم.وقوله تعالى : ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ أي فذوقوا عذاب النار جزاءً على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ (٣٨) هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۞ (٣٩) ﴾

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض وانه يعلم ما تخفيه السرائر ، وسيجازي كلّ عامل بعمله ثم قال تعالى : ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ أي يخلف قوم لآخرين قبلهم ، كما قال تعالى : ﴿ ويجعلكم خلائف الأرض فمن كفر فعليه كفره ﴾ أي فانما يعود وبال ذلك عليه ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمرهم حسن عملهم وارتفعت درجاتهم ومنازلهم في الجنة وزاد أجرهم وأحبهم خالقهم وبارئهم رب العالمين

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً ۞ (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ۞ (٤١) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ﴾ هذا تحدي من الله للذين يعبدون سواه وإعجاز لهم بأنه هو خالق السموات والأرض ، وكلّ شيء ، فماذا خلق الذين من دونه حتى تعبدوهم ؟ والجواب ليس للأنداد والمعبودين معه أيّ ملك ، وكيف وانهم هم المملوكون المربوبون لله تعالى ، انهم ما يملكون من قطمير ﴿ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ الجواب ليس : الأمر كذلك ﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلاّ غروراً ﴾ أي بل إنما اتّبعوا في ذلك أهواءهم وما هي إلا غرور وباطل وزور . ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السموات والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما . فقال جل وعلا : ﴿ ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ أي تضطربا عن أماكنهما كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ ولئن زالتا إنْ أمسكهما من أحد من بعده ﴾ أي لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلاّ هو

ومع ذلك حليم غفور، أي يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم فيؤخر . وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستر آخرين ويغفر. ولهذا قال تعالى ﴿ إنه كان حليمـاً غفوراً ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً ۝ (٤٢) اسْتِكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ۝ (٤٣) ﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم لئن جاءهم نذير ليكوُنن أهدى من إحدى الامم كقوله تعالى :﴿ وان كانوا ليقولون لو أن عندنا ذِكْراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ قال تعالى : ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ وهو محمَّد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ﴿ ما زادهـم إلاّ نفوراً ﴾ أي ما ازدادوا إلاّ كفراً إلى كفرهم . ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ استكباراً في الأرض ﴾ عن اتباع آيات الله ﴿ ومكرَ السيِّء ﴾ أي مكروا بالناس في صدّهم إيّاهم عن سبيل الله ﴿ ولا يحيق المكر السّيِّءُ إلاّ بأهله ﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلاّ عليهم أنفسهم دون غيرهم .

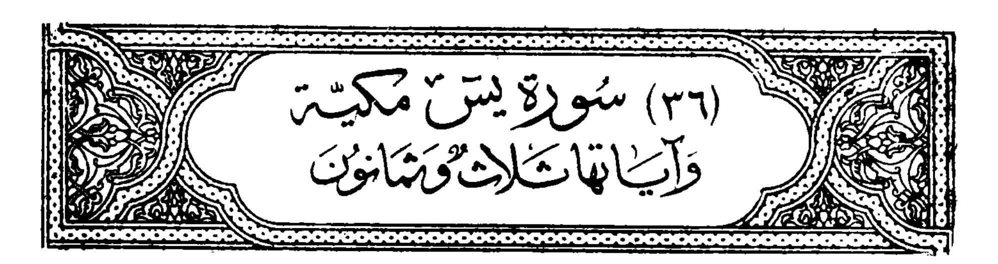
وقوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلاّ سنةَ الأولين ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي لا تغير ولا تبدل بل هي جارية كذلك في كل مكذب.﴿ ولن تجد لسُنَّةِ الله تحويلاً ﴾ أي ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مردّ له ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ

شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ۞ (٤٤)
وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَآبَّةٍ
وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
بِعِبَادِهِ بَصِيراً ۞ (٤٥)

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بك وبرسالتك ، سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة مكذّبي الرسل، كيف دمَّرهم الله ، فخلت منهم منازلهم وسُلبوا نعيمَهم برغم كثرة الأولاد والأموال والعَدد والعُدد فما أغنى كل ذلك شيئاً ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء ﴿ إنه كان عليماً قديراً ﴾ عليم بكل الكائنات قدير على مجموعها . ثم قال تعالى : ﴿ ولو يؤآخذ اللهُ الناسَ بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك أهل الأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق قال سعيد بن جبير والسدي في قوله تعالى ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب.﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمّى ﴾ ولكن يؤجّلهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ويثيب أو يعاقب كلاً بما يستحق.ولهذا قال تعالى : ﴿ فإذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً ﴾ أي يعطي كل ذي حق حقه .

آخر اختصار تفسير سورة فاطر ولله الحمد والمنة وهو الموفق وعليه التكلان



إلا الآية / ٤٥ / فمدنية نزلت بعد سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يس ۞ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۞ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۞ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۞ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ (٧) ﴾

قد تقدم الكلام على الأحرف المقطعة في أول سورة البقرة . ﴿ والقرآنِ الحكيم ﴾ أي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ إنك ﴾ يا محمد ﴿ لمن المرسلين على صراط مستقيم ﴾ أي على منهج ودين قويم وشرع مستقيم. ﴿ تنزيلَ العزيز الرحيم ﴾ أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من ربّ العالمين ربّ العزة الرحيم بعباده المؤمنين ،كما قال تعالى : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ . وقولـه تعالى: ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ يعني بهم العرب فإنه ما أتاهم من نذير قبله [١] وقوله تعالى : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على اكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب انهم لا يؤمنون ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ بالله ، ولا يصدقون رسله [٢] .

---

(١) راجع التعليق . سورة سبأ الآية /٤٤/

(٢) ليس في هذه الآية الكريمة مفهوماً جبرياً قط وسبحان الله عن ذلك . أما الحتم الوارد في كلام ابن جرير المعزو إلى الله سبحانه وتعالى فالمقصود منه ان الله تعالى حتم عليهم أنهم لا يؤمنون . لأنه علم تعالى =

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۝ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ۝ (١٢) ﴾

يقول تعالى : إنّا جعلنا نسبة هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء كنسبة من جُعِل في عنقه غل ، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه فارتفع رأسه فصار مقمحاً ولهذا قال تعالى : ﴿ فهم مقمحون ﴾ والمقمح هو الرافع رأسه ، كما قالت أم زرع في كلامها : وأشرب فأتقمح ، أي أشرب فأروى وأرفع رأسي تهنيئاً وترويـاً . كقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ يعني بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها بخير . وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ﴾ عن الحق ﴿ ومن خلفهم سداً ﴾ عن الحق أيضاً ﴿ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ أي أغشينا أبصارهم عن الحق فلا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه أي إلى الإسلام . قال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن فأنزلت : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا ﴾ –الى قوله– ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ قال : وكانوا يقولون له : هذا محمد ، فيقول : أين هو أين هو ؟ لا يبصره . رواه ابن جرير .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ أي قد ختم عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار، ولا يتأثرون به.وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة .

﴿ إنّما تنذر من اتبع الذكر ﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون المتبعون للقرآن العظيم

= منهم أنه ستعرض عليهم دعوة الحق، وسيختارون الكفر على الإيمان،بعد قيام الحجة عليهم من قبل الرسل ، أو ممن سيكونون على قدم الرسل في الحياة الدنيا ... أجل علم الله تعالى منهم كل ذلك ... وأنهم سيختارون الكفر وأنه سيقع منهم فعلا في الحياة الدنيا... فكتب عليهم ما سيفعلونه وقدره . وذلك قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام.فكلٌّ من علم الله منه ذلك وكتبه وقدّره عليه،فلا بد فاعله في الدنيا .

﴿ وخشي الرحمن بالغيب ﴾ أي من حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى ، ويعلم أن الله مطلع عليه ﴿ فبشره بمغفرة ﴾ أي لذنوبه ﴿ وأجر كريم ﴾ أي كبير. كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ أي يوم القيامة ، ﴿ ونكتب ما قدموا ﴾ أي من الأعمال . وفي قوله تعالى : ﴿ وآثارهم ﴾ قولان :

الأول : نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التي تركوها من بعدهم : كقوله ﷺ : ٥٩٤[من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا] رواه مسلم عن جرير بن عبدالله البجلي مرفوعاً وفيه قصة : مجتابي النمار المضريين ، ورواه ابن أبي حاتم عن جرير رضي الله عنه مرفوعاً .

الثاني : أن المراد بذلك : آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية وقد وردت أحاديث في هذا المعنى نورد منها ما تيسر : قال الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ؛ فقال رسول الله ﷺ : ٥٩٥[يا بني سلمة ، دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم] . وهكذا رواه مسلم عن جابر (١) .

ولا تنافي بين القولين بل في القول الثاني تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب . أما كتاب الأعمال فهو الذي تحصى فيه أعمال المكلفين من خير أو شر وهو المعني في قوله تعالى : ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾

---

(١) يعني : التزموا دياركم فإن آثار خطاكم إلى المسجد تكتب لكم بعددها حسنات ، وتحط عنكم بعددها سيئات . وفي رواية الترمذي : فلم ينتقلوا ...

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ (١٤) قَالُوا مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ (١٦) وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (١٧)

يقول تعالى: ﴿واضرب لهم﴾ أي لقومك الذين كذبوك ﴿مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾ يقال إنها مدينة انطاكية وكان بها ملك يعبد الأصنام اسمه انطيخس، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل فكذّبهم وقد استشكل بعض الأئمة كونها انطاكية بما سنذكره بعد تمام القصة ان شاء الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿ اذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ﴾ أي بادروهما بالتكذيب ﴿ فعززنا بثالث ﴾ أي شددنا أزرهما برسول ثالث ﴿فقالوا﴾ أي لأهل تلك القرية ﴿ إنا إليكم مرسلون ﴾ أي من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له. ﴿ قالوا ما أنتم إلاّ بشر مثلنا ﴾ أي فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر مثلنا !؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة، وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة. كما أخبر تعالى عنهم: ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبيّنات فقالوا أبشرٌ يهدوننا ﴾ ؟! أي استعجبوا من ذلك، وفي ذلك آيات عديدة ولذا قال هؤلاء: ﴿ ما أنتم إلاّ بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلاّ تكذبون قالوا ربنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون ﴾ أي أجابهم الرسل الثلاثة: الله يعلم أنّا رسله إليكم ولو كنا كذبنا عليه لانتقم منا أشد الانتقام ولكنه سينصرنا عليكم. ﴿ وما علينا إلا البلاغُ المبين ﴾ أي ما علينا إلاّ إبلاغكم ما أرسلنا به إليكم فإن أطعتم فلكم سعادة الدارين وإن عصيتم فعليكم مغبة ذلك.

﴿ قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٨) قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (١٩)

عندها قال لهم أهل القرية ﴿ إنّا تطيّرنا بكم ﴾ أي تشاء منا بكم فإن أصابنا شر فمن

أجلكم ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ﴾ بالحجارة ﴿ وليمسنّكم منا عذاب أليم ﴾ أي عقوبة شديدة فقالت لهم رسلهم ﴿ طائركم معكم ﴾ أي مردود عليكم ﴿ أئن ذكرتم ﴾ أي من أجل أنا ذكّرناكم بالحق قابلتمونا بالتهديد والوعيد؟ ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾

قال ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن أهل القرية همّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة ساعياً لينصرهم من قومه ﴿ قال يا قوم اتّبعوا المرسلين ﴾ أي يحضّ على اتّباع رسلهم ﴿ إتبعوا من لا يسألكم أجرا ﴾ أي على إبلاغكم رسالة الله ﴿ وهم مهتدون ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾ أي ما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم المعاد ليجزي كلاً بعمله ﴿ أأتخذ من دونه آلهةً ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿ إن يردني الرحمن بضرّ لا تغن عنّي شفاعتهم شيئاً ولا يُنقذون ﴾ أي هذه الآلهة التي تعبدونها لا يملكون من الأمر شيئاً ، فلو أرادني الله تعالى بسوء لاتستطيع هذه الآلهة انقاذي ﴿ إني إذاً لفي ضلال مبين ﴾ أي إن اتّخذتها آلهةً من دون الله تعالى .
﴿ إني آمنت بربكم ﴾ أي يخاطب الرسلَ : إني آمنت بربكم الذي أرسلكم ﴿ فاسمعون ﴾ أي اسمعوا ما أقول لتشهدوا لي بما آمنت به من توحيد الله تعالى، وما اتبعتكم عليه من الحق . فلما قال ذلك للرسل عليهم الصلاة والسلام وثب عليه قومه فقتلوه ولم يكن أحد له يمنع عنه. وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول اللهمَّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون فلم يزل يقولها حتى لفظ أنفاسه رضي الله عنه وأرضاه. ﴿ قيل ﴾ أي قال الله له ﴿ أُدخل الجنة ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها ، فلما رأى ثوابه ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون ﴾

﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ۝ (٢٩) ﴾

قيل « أي قال الله تعالى له : ﴿ ادخل الجنة ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها فلما رأى ما منّ الله عليه من الثواب العظيم : ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون ﴾ قال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله : ﴿ يا قوم اتّبعوا المرسلين ﴾ وبعد مماته في قوله : ﴿ يا ليتَ قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ . ومرادهُ : أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من النعيم المقيم، والثواب العظيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضي عنه كم كان حريصاً على هداية قومه .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عمير قال : قال عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه للنبي ﷺ : ٥٩٦ [ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام؛ فقال رسول الله ﷺ « إني أخاف أن يقتلوك » فقال : لو وجدوني نائماً لما أيقظوني. فقال له رسول الله ﷺ «انطلق» فانطلق ، فمر على اللات والعزّى ، فقال : لأصبحنّك غداً بما يسوءك فغضبت ثقيف فقال : يا معشر ثقيف إن اللات لا لات ، وإن العزّى لا عزّى وأسلموا تسلموا ، يا معشر الأحلاف إن العزّى لا عزّى وإن اللات لا لات أسلموا تسلموا ، فقال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكحله [1] فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال : « هذا مثله كمثل صاحب يس» ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ »]

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ﴾ يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم ، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليّه ، ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم من أجل إهلاكهم جنداً من الملائكة بل الأمر كان أيسر من ذلك ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ أي فصاح عليهم صائح – قيل جبريل عليه السلام – صيحة واحدة ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ عن آخرهم لم تبق بهم روح تتردد في جسد .

(١) الأكحل عرق في الذراع .

قيل ان الرسل الثلاثة رسل المسيح عليه السلام الى بلدة انطاكية وهذا غير صحيح من وجـــوه :

١ – لو كانوا رسلاً للمسيح عليه السلام لقالوا عبارة تناسب انهم مرسلون من قبله .

٢ – المعلوم أن أهل انطاكية آمنوا برسل المسيح وهي أول مدينة آمنت بالمسيح بينمـــا ذكر الله ان أهل هذه القرية كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم

٣ – ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من السلف أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلكْ أمةً من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين فعلى هذا يتعين ان هذه القرية غير انطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف فإن انطاكية لم يعرف أنها أهلكت « في النصرانية ولا قبل ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۞(٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۞ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۞ (٣٢) ﴾

قال الله تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ أي يا حسرتهم على أنفسهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب كيف ضيعوا أمر الله تعالى وفرطوا في جنبه ولكن لا تنفعهم إذ ذاك الحسرات فسوف يلقون العذاب الأليم لأنهم : ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ أي يكذّبونه ويسخرون منه ويجحدون ما أرسل به من الحق . ثم قال تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ أي ألم يتعظوا بمن أهلك قبلهم من المكذبين بالرسل كيف لم يكن لهم إلى الدنيا كرة ولا رجعة .كما قال الله عنهم : ﴿ إن هي إلاَّ حياتنا الدنيا نموت ونحيى ﴾ وهم القائلون بالدور من الدهرية وبعودتهم الى الدنيا ثانيةً فذكرهم بمن خلا من قبلهم هل عادوا ؟... فكيف هم يعودون ...!؟ ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم خيرِها وشرها . والقيامة هي هذه ليس قبلها قيامة وعودة

إلى الدنيا (١) .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ۞ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۞ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٦) ﴾

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وآية لهم ﴾ أي دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿ الأرض الميتة ﴾ أي إذا كانت هامدةً لا نبات فيها فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء أنبتت كل ما فيها. ولهذا قال تعالى: ﴿ أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ أي جعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم ﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴾ أي جعلنا فيها أنهاراً سارحةً في أمكنة يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره.وقوله جل وعلا : ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أي غرسوه ونصبوه، وإلاّ ففي الحقيقة ما كان إلاّ رحمة الله تعالى بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوّتهم ، ولهذا قال تعالى: ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي فهلاّ يشكرونه على ما أنعم عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ﴾ أي من زروع وثمار ونبات ﴿ ومن أنفسهم ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أي من مخلوقات شتى لا يعرفونها كما قال جلت عظمته : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾

---

(١) قلت: ان فكرة العودة إلى الدنيا مرة ثانية مع انها عقيدة الكافرين الأول... ما يزال بين المسلمين من يقول بهذه العودة إلى الدنيا ويجعلون هذا لأوليائهم عندما ينادونهم ويستغيثون بهم لتفريج الكروب!! فيعتقدون أنهم يحضرون حالا لنجدتهم في هيآت مختلفة ويدعون أنهم يرونهم ويكلمونهم فتأمل يا أخي المسلم كم هو أثر إبليس اللعين في نفوسهم إلى درجة جعلهم يعتقدون بعقيدة الكفار السابقين وهم يظنون أنهم ما يزالون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويقولون : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يقولونها ترداداً من غير فهم بدليل أنهم ينقضونها وهم لا يشعرون وذلك بدعائهم واستغاثتهم بغير الله في أمور لا يكشفها عنهم إلا الله تعالى وإن ما يرونه من الخيالات ما هي إلا الشيطان تمثّل لهم بمن ينادون ليزيدهم طغياناً وتثبيتاً في الشرك نعوذ بالله من الخذلان وسوء المنقلب.اللهم ثبتنا على : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۞ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۞ (٤٠) ﴾

يقول تعالى ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة ، خلق الليل والنهار يتعاقبان بالظلام والضياء والمجيء والذهاب. كما قال تعالى : ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ أي نقتطعه منه فيذهب فيقبل الليل ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ كما جاء في الحديث: ٥٩٧ [إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم] وقوله جل جلاله: ﴿ والشمس تجري لمستقرٍ لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ المراد مستقرّها المكاني ، وهو تحت العرش .

روى البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ٥٩٨ [كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال ﷺ « يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس » قلت : الله ورسوله أعلم قال ﷺ « فإنها تذهب حتى تسجدَ تحت العرش.فذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾] وقيل : المراد بمستقرها هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحضيض ثم قال جل وعلا : ﴿ والقمر قدّرناه منازل ﴾ أي جعلناه يسيرُ سيراً آخر يستدل به على مضيِّ الشهور كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار. كما قال عز وجل: ﴿ يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ وقال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فجعل الشمس لها ضوء يخصها ، والقمر له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً ،يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار وجعل سلطانها بالنهار فهي كوكب نهاري . وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور ، ثم يزداد نورا في الليلة الثانية ويرتفع منزلة.ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً وان كان مقتبساً

من الشمس حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم أي كعنق التمر اليابس المنحني • ثم بعد هذا يبديه الله تعالى جديداً في أول الشهر الآخر وهكذا ... وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ قال المجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا واذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا .

وقوله تعالى : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أي لا فترة بين الليل والنهار بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ، لأنهما مسخّران دائبَيْنِ يتطالبان طلباً حثيثاً .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وكلٌّ في فلك يسبحون ﴾ يعني الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون أي يدورون في فلك السماء . كفلكة المغزل لا يدور المغزل إلاّ بها ولا تدور إلاّ به .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۞ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۞ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۞ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۞ (٤٤) ﴾

يقول تبارك وتعالى : ودلالةٌ لهم أيضاً على قدرته تبارك وتعالى تسخيره البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ، التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم ﴾ أي آباءهم ﴿ في الفلك المشحون ﴾ أي في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التي أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين وقال الضحاك وابن زيد : وهي سفينة نوح عليه الصلاة والسلام . وقوله جل وعلا : ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ يعني بذلك الأبل فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها والأنعام جميعا [1] قال ابن عباس هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح عليه السلام على مثلها. وقوله عز وجل : ﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ يعني الذين في السفن ﴿ فلا

---

(١) وقد امتن الله تعالى على عباده بأن هداهم إلى عمل السيارات والطيارات وجميع المراكب الآلية .

صريخ لهم ﴾ اي لا مغيث لهم ﴿ ولا هم يُنقَذون ﴾ أي مما أصابهم : ﴿ إلا رحمةً منّا ﴾ أي لا تنقذون إلا برحمة منّا.ولهذا قال تعالى : ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ أي إلى أجل مسمّى ووقت معلوم عنده عز وجل .

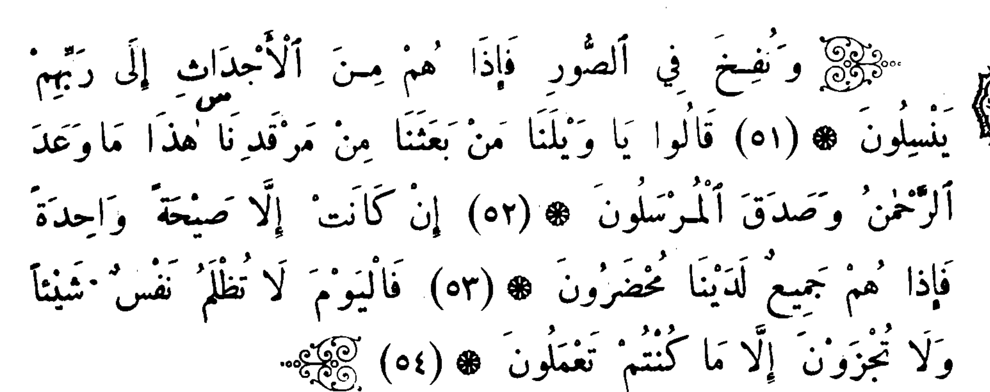
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۞ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ (٤٧) ﴾

يخبر تعالى عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم.فقال جل وعلا : ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾ أي ما بين أيديكم من الذنوب التي تقترفونها وما ستستقبلون من العذاب يوم القيامة﴿ لعلكم ﴾رجاء أن يغفر لكم باتقائكم ذلك﴿ ترحمون ﴾ فتأمنون من عذابه ، ولكنهم أعرضوا عن ذلك ولهذا قال عز وجل : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾على صدق الرسل بما جاؤا به من عند ربهم.﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ أي لا يقبلونها ولا ينتفعون بها ﴿ وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله ﴾ أي على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ من الفقراء أي قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به : ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ أي نحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ أي في أمركم لنا بالإنفاق .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۞ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۞ (٥٠) ﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفار لقيام الساعة في قولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ قال الله عز وجل ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه – والله أعلم –

نفخة الفزع ، ينفخ في الصور نفخة الفزع ، والناس في اسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلاّ أصغى ليتاً ورفع ليتا وهي صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ من أعمالهم وأسواقهم ، ثم يكون بعد هذه النفخة الصعق التي تموت فيها المخاليق ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .



﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ (٥١) ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (٥٢) ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ (٥٣) ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥٤)

هذه هي النفخة الثالثة وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث ولهذا قال تعالى : ﴿ فإذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون ﴾ والنسلان هو المشي السريع كما قال تعالى : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون ﴾ ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من من مرقدنا ﴾ ؟ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلمّا عاينوا ما كذّبوا به في محشرهم : ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد فيقول المؤمنون منهم مجيبين : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ وقيل تجيبهم الملائكة . وقوله تعالى : ﴿ ان كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ فانما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ أي انما تأمرهم أمراً واحداً ، فإذا الجميع محضرون ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي من عملها ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ (٥٥) هُمْ

وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى ٱلْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات ، فنزلوا في روضات الجنات . ﴿ في شغل فاكهون ﴾ بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم . ﴿ هم وأزواجهم ﴾ أي حلائلهم ﴿ في ظلالٍ ﴾ أي ظلال الأشجار ﴿ على الأرائك متكئون ﴾ الأرائك هي السرر في الحجال [1] وقوله عز وجل ﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ أي من جميع أنواعها ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ أي فيها كل ما يطلبون من جميع الملاذ . روى ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : ٥٩٩ [ألا هل مشمر الى الجنة ؟ فان الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور كلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سلامة ، وفاكهة خضرة ، وخير ونعمة ، في محلة عالية بهية » قالوا نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها قال ﷺ « قولوا إن شاء الله » فقال القوم : إن شاء الله]

وقوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من ربٍ رحيم ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من ربٍ رحيم ﴾ فان الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة وقيل أنه تعالى وتقدس يحيّيهم بالسلام .

وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾

ربع الحزب

يخبر تعالى عما يؤول إليه الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا أي يفترقوا عن المؤمنين في موقفهم كقوله عز وجل : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ هـذا

(١) الحجال جمع حجلة محركة وهي موضع يزين بالثياب والستور للعروس (القاموس) .

تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتي وهذا هو الصراط المستقيم فخالفتم أمري وأطعتم الشيطان ولهذا قال عز وجل : ﴿ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ﴾ أي خلقاً كثيراً ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ أي أفما كان لكم عقل لما خالفتم ربكم وعبدتم معه غيره وأطعتم الشيطان وهو عدوّكم الظاهر العداوة .

﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ (٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ (٦٤) ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ (٦٥) وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۞ (٦٦) وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۞ (٦٧) ﴾

يقال للكفار توبيخاً : هذه جهنم التي كنتم تكذبون الرسل بوجودها ، والتي كنتم بها توعدون ذوقوا عذابها وحريقها جزاء كفركم وتكذيبكم ، كيف رأيتم عذابها بل كما وُصِفت لكم ، ﴿ أصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ● اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت .

روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ٦٠٠ [كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجزه ، ثم قال ﷺ : « أتدرون مما أضحك » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال ﷺ : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : رب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجيز عليّ الا شاهداً من نفسي ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه انطقي فتنطق بعمله ، ثم يخلّي بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لكُنّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل »] . ورواه مسلم والنسائي .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنّى

يبصرون ﴾ يقول ابن عباس : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى فكيف يهتدون ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ قال ابن عباس : لأهلكناهم وقال الحسن البصري : لأقعدهم على أرجلهم ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فما استطاعوا مضياً ﴾ إلى الأمام ﴿ ولا يرجعون ﴾ الى الوراء بل يلزمون حالاً واحداً لا يتقدمون ولا يتأخرون .

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۞ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۞ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رُدَّ إلى الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشاط .كما قال تبارك وتعالى : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبةً يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ وقال عز وجل : ﴿ ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ والمراد من هذه – والله أعلم – الأخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار . ولهذا قال عز وجل : ﴿ أفلا يعقلون ﴾ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ، ثم الى الشيخوخة،ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها،ولا انتقال منها،ولا محيد عنها وهي الدار الآخرة .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ يقول عز وجل مخبراً عن نبيه محمد ﷺ أنه ما علّمه الشعر ﴿ وما ينبغي له ﴾ أي ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته.ولهذا أورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم،بل إن أنشده زحّفه أو لم يُتمّه .

روى البيهقي في الدلائل : ٦٠١ [ان رسول الله ﷺ قال للعباس بن مرداس رضي الله عنه:أنت القائل : – « أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة – » فقال إنما هو بين عيينة والأقرع فقال ﷺ : « الكل سواء »] يعني في المعنى.صلوات الله وسلامه عليه والله أعلم . وروى الأموي في مغازيه : ٦٠٢ [ان رسول الله ﷺ جعل يمشي بين القتلى يوم بدر وهو يقول « نفلق هاماً » فيقول الصديق رضي الله عنه متمماً للبيت ، ...

من رجال أعزة * علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما] وهذا لبعض شعراء العرب في قصيدة له وهي في الحماسة .

وروى سعيد بن أبي عروة عن قتادة : ٦٠٣ [قيل لعائشة رضي الله عنها : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت رضي الله عنها : كان أبغضَ الحديث إليه غير أنه ﷺ كان يتمثّل ببيت أخي بني قيس ، فيجعل أولَه آخرَه وآخرَه أوّلَه.فقال أبو بكر رضي الله عنه : ليس هذا هكذا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ « إني والله ما أنا بشاعر وما ينبغي لي »] رواه ابن ابي حاتم وابن جرير وهذا لفظه .

ووقع معه اتفاقاً وبلا قصد قوله يوم حنين وهو راكب بغلته يقدم بها في نحور العدو :

٦٠٤ [« أنا النبي لا كـــــذِبْ أنـــــا ابن عبدِ المطلب »]

وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال : ٦٠٥ [كنّا مع رسول الله ﷺ في غار فنكبت أصبعه فقال ﷺ :

هـــل أنتِ إلاّ أصبع دميتِ وفي سبيل الله مـــا لقيتِ »]

لكن قالوا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن الشعر وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً وما ينبغي له فإن الله تعالى إنما علّمه القرآن العظيم ﴿ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وليس هو بشعرٍ كما زعمه طائفة من جهلـــة قريش ، ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر .

روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : ٦٠٩ [لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً] انفرد به في هذا الوجه وإسناده عـــلى شرط الشيخين ولم يخرجاه . على أن الشعر فيه ما هو مشروع وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة وأمثالهم رضي الله عنهم أجمعين ومنه ما فيه حكم ومواعظ ، وآداب كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية ، ومنهم امية ابن ابي الصلت الذي قال فيه رسول الله ﷺ : ٦٠٧ [آمن شعره وكفر قلبه]

وقد روى ابو داود من حديث أُبي بن كعب وبريدةَ بن الحصيب وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: ٦٠٨ [إن من البيان لَسحراً وإن من الشعر لحكمة] ولهذا قال تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ أي وما يصلح له ﴿ إن هو إلاّ

ذكر وقرآن مبين ﴾ أي ما هذا الذي علّمناه ﴿ إلاّ ذكرٌ وقرآن مبين﴾ أي بيّن واضح لمن تأمله وتدبره ولهذا قال تعالى : ﴿ لينذر من كان حيّاً ﴾[1] أي لينذر هذا القرآن كلَّ حيٍّ على وجه الأرض ، كقوله تعالى : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة ﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ أي هو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۞ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۞ (٧٣) ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿ فهم لها مالكون ﴾ أي ذليلة لا تمتنع منهم ولو كان القطار مائة بعير لسار الجميع بقيادة صغير من بني آدم ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ أي منها ما يركبون في الأسفار ويحملون عليه الأثقال الى سائر الجهات ﴿ ومنها يأكلون ﴾ إذا شاء نحروا ﴿ ولهم فيها منافع ﴾ أي من أصوافها ، وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين ﴿ ومشارب ﴾ أي من ألبانها ، وأبوا لها لمن يتداوى ونحو ذلك ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي أفلا يوحدون خالقَ ذلك ومسخِّره ولايشركون به غيره ؟

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ۞ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ۞ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۞ (٧٦) ﴾

ينكر الله تعالى على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى ، قال الله تعالى : ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ أي لا تقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدحر ، بل لا تقدر على الأستنصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل .

(١) ليعلم الذين يقرأون القرآن للأموات ، أنه نزل نذارةً للأحياء ، وليحيي النفوسَ الموات .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ يعني عند الحساب يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة عند حساب عابديها ، ليكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة عليهم ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ أي تكذيبهم وكفرهم بالله ﴿ إنا نعلم ما يُسِرّون وما يعلنون ﴾ أي نحن نعلم جميع ما هم فيه ، وسنجزيهم وصفهم ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ولا كبيراً بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ (٧٩) ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۞ (٨٠) ﴾

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة : ٦٠٩ [جاء أُبيّ بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم ان الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : « نعم يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار] ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿ أو لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة... ﴾ إلى آخرهن

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ... وذكر الحديث وسواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاصي بن وائل أو فيهما فهي عامة في كل من أنكر البعث ﴿ أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ أي أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماءٍ مهين. كما قال عز وجل ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرارٍ مكين إلى قدر معلوم ﴾ فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته .

وقال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرضَ للأجساد والعظام

الرميمة ، ونسي نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ولهذا قال عز وجل : ﴿ قل يحييها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها اين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت .

روى الامام أحمد عن عقبة بن عمرو قال لحذيفة رضي الله عنهما : ٦١٠ [« ألا تحدّثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته ﷺ يقول : « ان رجلاً حضره الموت فلما آيس من الحياة أوصى أهله إذا أنامتُّ فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت ، فخذوها فدقوها فذروها في اليم ففعلوا فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، فغفر الله عز وجل له » فقال عمرو : وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك وكان نباشاً] وقد أخرجاه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماءٍ حتى صار خُضِراً نضْراً ذا ثمروينع ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد لا يمنعه شيء .

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُۥ كُنْ فَيَكُونُ ۞ (٨٢) فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (٨٣) ﴾

يخبر تعالى وينبه على قدرته في خلق السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن جميعاً وما بينهما ويرشد إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة كقوله تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقال عز وجل ههنا : ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أي مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم ﴿ بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ أي إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرر أو تأكيد . وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ان رسول الله ﷺ قال : ٦١١ [ان الله تعالى يقول : « يا عبادي

كلكم مذنب إلاّ من عافيت ، فاستغفروني اغفرْ لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إني جواد ما جد واجد أفعل ما أشاء عطائي كلام وعذابي كلام إذا أردت شيئاً فانما أقول له كن فيكون »]

وقوله تعالى : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ أي تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحيِّ القيّوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر وإليه ترجع العباد يوم المعاد فيجازي كل عاملٍ بعمله وهو العادل المنعم المتفضل .

ومعنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ ، كقوله عز وجل ﴿ قل من بيده ملكوت كلِّ شيءٍ ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ والملك والملكوت واحد في المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت ومن الناس من زعم ان الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح والصحيح الأول ، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

قال ابو داود عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : ٦١٢ [قمت مع رسول الله ﷺ ليلةً فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلاّ وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب إلاّ وقف وتعوذ قال : ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه : « سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » ثم سجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة سورة] ورواه الترمذي في الشمائل والنسائي من حديث معاوية بن صالح به .

آخر اختصار تفسير سورة يس ولله الحمد والمنة والشكر

انتهى المجلد الثالث ويليه المجلد الرابع

فهرس محتويات المجلد الثالث

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة
١٧ سورة الإسراء مكية نزلت بعد سورة القصص	
الإسراء والمعراج تكريم الله لعبده ورسوله محمد ، لم ينله رسول قبله	٤
إرتقاؤه ﷺ سماءً فسماءً واجتماعه بالأنبياء ﷺ	٥
فرضت الصلاة خمسين ثم خففت إلى خمس	٦
لم يرَ محمد ﷺ ربّه ، والذي دنا فتدلّى هو جبريل ﷺ	٧
رفع الله لمحمد ﷺ المسجد الأقصى ، وبدأ يصفه لقريش	٨
كان المعراج حقيقةً بدناً وروحاً ، يقظة لا مناماً	٩
أدلة الكتاب على أن الاسراء والمعراج وقعا حقيقةً	١٠
تواتر خبر الإسراء والمعراج	١١
فسد بنو اسرائيل ، فسلط الله عليهم الذل والأسر	١٢
القرآن يهدي لأقوم الطرق ، وأوضح السبل ويبشر المؤمنين	١٣
إمتنان الله تعالى على عباده بخلق الليل والنهار	١٤
يجمع عمل الإنسان في كتاب يكون عليه حسيباً	١٥
لا يعذّب الله أحداً قبل إنذاره برسول ...«إقرأ التعليق»	١٦
أحكام في أطفال المشركين والأصم والأحمق والهرِم وأهل الفترة	١٧

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

٢٠ - سورة طه مكية نزلت بعد سورة مريم

٢١ ـ الأنبياء نزلت بعد سورة إبراهيم

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة

٢٢ ـ سورة الحج نزلت بعد سورة النور

٢٣ ــ سورة المؤمنون مكيّة نزلت بعد سورة الأنبياء

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة

٢٤ ــ سورة النور مدنيّة نزلت بعد سورة الحشر

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة

٢٥ – سورة الفرقان مكية نزلت بعد سورة يـس

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة

٢٦ – سورة الشعراء مكية نزلت بعد سورة الواقعة

٢٧ – سورة النمل مكية نزلت بعد سورة الشعراء

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة

٢٩ ـ سورة العنكبوت مكيّة نزلت بعد سورة الروم

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسّرة	الصفحة
القرآن أعظم معجزة أيّد الله بها عبدَه ورسولَه محمداً ﷺ	٤٢٤
التهديد بالعذاب ، عذاب معنوي قبل الحسّيّ	٤٢٥
الصبر في الله ، والتوكّل عليه ، رأس كل نجاح	٤٢٦
عرب الجاهلية مؤمنون بالربوبيّة مشركون بالألوهية	٤٢٧
الجاهليّون يشركون في الرّخاء ، ويوحّدون في الشدة	٤٢٨
سلب الله المشركين نعمة الأمن ، جزاء تكذيبهم بالحق	٤٢٩

٣٠ ـ سورة الروم مكيّة نزلت بعد سورة الانشقاق

كان المشركون يودّون انتصارَ فارس ، والمسلمون يودّون انتصارَ الروم	٤٣٠
حقّق الله وعده ، فقد نصر الروم أقربَ الطائفتَيْن إلى الحقّ	٤٣١
سيحوا في الأرض وانظروا عاقبة من كانوا أشدّ منكم قوّة	٤٣٢
الأنداد يوم القيامة ، يتخلّوْن عن عابديهم ويتبرّأون منهم	٤٣٣
إرشاد الله لعباده أن يسبحوه ويحمدوه ويصلوا له الصلوات الخمس	٤٣٤
مراحل خلق الإنسان : من ماءٍ مهين إلى كمال القوّة والقدرة	٤٣٥
إختلاف الألسنة والألوان والنوم ليلاً والسعي نهاراً والموت والبعث	٤٣٦
الكائنات خاضعة لله جميعاً حتى المشركين مقرّون بأن أربابَهم عبيدُه	٤٣٧
أتحبّون أن يقاسمكم عبيدكم أموالكم ؟ فتنزيه الله عن ذلك أولى	٤٣٨
المولود على الفطرة ، حتى يعرب لسانُه شاكراً أو كفوراً	٤٣٩
الله هو المتصرّف بحكمته وعدله ، يعطي أقواماً ويمنع آخرين	٤٤٠
الله يحي ويميت ويخلق ويرزق ، هل من شركائكم يفعل ذلك؟	٤٤١
إذا تركت المعاصي حصلت البركات من السماء والأرض	٤٤٢
لا تيأس يا محمد ، فكما كذبك قومك ، كذّب المرسلين أقوامهم	٤٤٣
يغيث الله عباده بالمطر فجأةً ، بعد قنوطهم منه	٤٤٤
الموتى لا يسمعون وليس لهم أي اتصال مع أهل الدنيا	٤٤٥
مراحل خاق الإنسان من الحياة إلى الموت	٤٤٦
كتاب الأعمال سجلٌ يحصي على الإنسان عمله ويسجله	٤٤٧
أصبر يا محمد واثبت ، فإنك على الحق	٤٤٨

٣٣ ـ سورة الأحزاب مدنيّة نزلت بعد سورة آل عمران

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة

٣٤ — سورة سبأ مكية نزلت بعد سورة لقمان

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسّرة	الصفحة
بقاء سليمان سنة ميتاً متوكّئاً عصاه ، ينفي معرفةَ الجن بالغيب	٥٢٨
سبأ رجلٌ تولّد منه عشرُ قبائل ، هنّ أصل عربِ اليمن	٥٢٩
بدّل الله ظِلالهم بالأشواك والبلاقع ، وجعلهم شذر مذر	٥٣٠
وهكذا تفرّقت قبائل سبأ في الجزيرة والشام والعراق	٥٣١
المؤمن إذا أصابته سرّاء شكر ، وإذا أصابته ضرّاء صبر	٥٣٢
الذين تدعونهم من دون الله لا يملكون شيئاً معه	٥٣٣
يسرق الجنيّ الكلمةَ ثم يكذب معها مئةَ كَذِبة ، ويلقيها للكاهن	٥٣٤
محمّد ﷺ رسول الله إلى الجن والإنس أجمعين	٥٣٥
لا حجّة بالجهل وتوريط الكبراء لأتباعهم ، فالكل معذّبون	٥٣٦
كلُّ نبيّ كفر به المترفون ، واتّبعه المستضعفون	٥٣٧
الأموال والأولاد لا تقرب إلى الله ، إنّما هي الأعمال الصالحة	٥٣٨
تبرؤ الملائكة المكرّمين من عابديهم	٥٣٩
المشركون يصفون القرآن بأنه مفترى ، ويعترفون بأنه فوق كلام البشر	٥٤٠
تجرّدوا عن هواكم واحكموا : هل محمّد به جنّة ؟!!	٥٤١
زلزل رسول الله ﷺ الأصنام المنصوبة حول الكعبة يوم الفتح	٥٤٢
لا ينفع الإيمان عند معاينة العذاب ، لانتهاء وقت الإيمان	٥٤٣
الملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع وأكثر من ذلك	٥٤٤
إن أراد الله مسّك بضر ، أو أراد كشفَه ، فلا رادّ لذلك	٥٤٥
الله يضلّ من علم منه اختيار طريق الضلال على الهدى	٥٤٦
لا يُقبل الكلمُ الطيّب ، إلا بعمل صالح يرضى الله عنه	٥٤٧
يعلم الله ما تحمل الأنثى وما تضع ، والأعمار في كتاب عنده	٥٤٨
الشكر لله على ما سخّر من نعم في السموات والأرض	٥٤٩
أتدعون من لا يملك شيئا ، وتذرون الغنيَّ الحميد ؟!!	٥٥٠
يوم القيامة لا يحمل أحد وزر أحد ، ولو أقرب الأقربين	٥٥١
الكفار كأهل القبور (وما أنت بمسمع من في القبور)	٥٥٢
العلماء أشد خشية لله من سواهم لأنهم أعلم به منهم	٥٥٣

فهرس الأحاديث للمجلد الثالث

١٨ ــ سورة الكهف

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه

١٩ ـ سورة مريم

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
		٢٠ – سورة طه	
١٢٩	صح	من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها	١٤٩
١٣٣	صح	مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى	١٥٠
١٣٧	صح	إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه .	١٥١
١٣٩	صح	أن رسول الله ﷺ حضر جنازة فلمّا دفن الميت أخذ	١٥٢
١٤٢	صح	إذا أخذتم – يعني الساحر – فاقتلوه ثم قرأ (ولا يفلح	١٥٣
١٤٤	صح	أقام أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها و ...	١٥٤
١٤٤	صح	الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء	١٥٥
١٤٤	صح فق	أن أهل عليين ليرون مَن فوقهم كما ترون الكوكب الغابر	١٥٦
١٤٦	صح فق	لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء	١٥٧
١٥١	صح	إنه سئل عن الصور فقال : قرن ينفخ فيه	١٥٨
١٥١	.	إنه قرن عظيم الدائرة منه بقدر السموات والأرض . .	١٥٩
١٥٢	صح فق	آتي تحت العرش وأخرُّ ساجداً ويفتح عليَّ بمحامد لا	١٦٠
١٥٣	صح	إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة	١٦١
١٥٣	صح	ان الله تابع الوحي على رسوله حتى كان الوحي أكثر ما	١٦٢
١٥٣	.	اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني وزدني علماً	١٦٣
١٥٣	صح	وأعوذ بالله من حال أهل النار	١٦٤
١٥٥	صح فق	حاجَّ موسى آدم فقال له : أنت الذي أخرجت الناس من	١٦٥

٢١ — سورة الانبياء

٢٢ – سورة الحج

٢٣ – سورة المؤمنون

(١) قلت : يعني الوبر ممزوجاً مع الدّم .

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الحديث	رقمه
٢٦٥	حسن	قام رسول الله ... وتلا القرآن ، فلما نزل أمر برجلين	٢٩٨
٢٦٧	صح فق	إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ	٢٩٩
٢٦٨	صح فق	إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تقل أو	٣٠٠
٢٦٩	صح	لا تؤذوا عباد الله ولا تعيّروهم ولا تطلبوا عوراتهم . .	٣٠١
٢٧١	صح فق	اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل وما هنّ يا رسول الله ؟	٣٠٢
٢٧١	صح	قذف المحصنة يهدم عمل مئة سنة	٣٠٣
٢٧١	صح	إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد . . .	٣٠٤
٢٧١	صح م	فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي ،	٣٠٥
٢٧٣	صح	... اذا استأذن أحدكم فلم يؤذن له فلينصرف . . .	٣٠٦
٢٧٣	صح	... أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة وأفطر	٣٠٧
٢٧٣	صح	... إنما الاستئذان من أجل النظر	٣٠٨
٢٧٣	صح فق	لو أن أمرأً اطلع عليك بغير إذن، فحذفته بحصاة ففقأت...	٣٠٩
٢٧٣	صح	؟ ... من ذا ... ؟ فقلت : أنا . قال : أنا أنا ... ! ! !	٣١٠
٢٧٣	صح	... فقال النبي ﷺ لخادمه : اخرج إلى هذا فعلّمه	٣١١
٢٧٤		أسباب نزول الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً)	٣١٢
٢٧٥	صح م	سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصدق	٣١٣
٢٧٥	حسن صح	... يا عليّ لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى ، وليس	٣١٤
٢٧٥	صح	إياكم والجلوس على الطرقات	٣١٥
٢٧٥	صح	احفظ عورتك إلاّ من زوجتك	٣١٦
٢٧٥	صح	كُتب على ابن آدم حظّه من الزنى أدرك ذلك لا محالة	٣١٧
٢٧٥	صح	... أأنتما عمياوان ... ؟	٣١٨
٢٧٥	صح	إن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون	٣١٩
٢٧٧	منقطع	يا أسماء إن المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى...	٣٢٠
٢٧٧	صح فق	لا تباشر المرأةُ المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها	٣٢١
٢٧٨	صح	ان النبي ﷺ أتى فاطمة بعبدٍ قد وهبه لها.	٣٢٢
٢٧٨	صح	دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث	٣٢٣
٢٧٨	صح فق	اياكم والدخول على النساء » قيل يا رسول الله أفرأيت	٣٢٤

٢٦ ــ سورة الشعراء

٢٧ ــ سورة النمل

٣٢ ــ سورة السجدة

٣٣ ــ سورة الأحزاب

(١) أي النبي صلى الله عليه وسلم .

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٩٣	صح	... ان الله تعالى يقول (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين	٥٠٠
٤٩٣	صح	أسباب نزول الآية . (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين	٥٠١
٤٩٣	صح فق	لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن	٥٠٢
٤٩٤	صح	عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر	٥٠٣
٤٩٤	صح فق	اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . .	٥٠٤
٤٩٤	صح فق	سبعة يظلّهم الله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظلّه.	٥٠٥
٤٩٤	صح	كما جاء في الحديث (ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له	٥٠٦
٤٩٤	صح	... إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصلّيا ركعتين ،	٥٠٧
٤٩٤		... ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب الله	٥٠٨
٤٩٥	صح	ان رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثه	٥٠٩
٤٩٧	صح	لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد اذهب	٥١٠
٤٩٩	صح	لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم . .	٥١١
٥٠٠	صح غريب	... إن الرسالة والنبوّة قد انقطعت فلا رسول بعدي	٥١٢
٥٠٠	صح فق	مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها	٥١٣
٥٠٠	صح م	فضّلتُ على الانبياء بست : أعطيت جوامع الكلام ،	٥١٤
٥٠٠	صح فق	إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي	٥١٥
٥٠١		... اللهم اجعلني أعظم شكرك ، وأتبع نصيحتك ،	٥١٦
٥٠٢	صح	يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي .	٥١٧
٥٠٢	صح بخ	أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيّا	٥١٨
٥٠٣	صح	... انطلقا فبشرا ولا تنفّرا ، ويسرا ولا تعسّرا ، . .	٥١٩
٥٠٤	حسن	... لاطلاق لابن آدم فيما لا يملك	٥٢٠
٥٠٥	-	... لاطلاق قبل النكاح.	٥٢١
٥٠٥	صح	ان رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن	٥٢٢
٥٠٧		ان رسول الله ﷺ كان يستأذن في اليوم المرأة منا . .	٥٢٣
٥٠٧	صح	كان رسول الله ﷺ يقسّم بين نسائه فيعدل ثم يقول .	٥٢٤
٥٠٨	صح	ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له النساء . . .	٥٢٥
٥٠٨	صح	لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له أن يتزوج من	٥٢٦

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٥٠٩	صح فق	وافقت ربي عز وجل في ثلاث ؛ قلت : يا رسول الله	٥٢٧
٥٠٩	صح بخ	قال عمر بن الخطاب يا رسول الله ، يدخل عليك البر	٥٢٨
٥٠٩	صح بخ	لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم	٥٢٩
٥١٠	صح	لهذا قال رسول الله ﷺ « اياكم والدخول على النساء »	٥٣٠
٥١٠	صح	لو دعيت إلى ذراع ، ولو أهدى إليّ كراع لقبلت . .	٥٣١
٥١٢	صح	إن الله يصلي على ميامن الصفوف	٥٣٢
٥١٢	صح	اللهم صلّ على آل أبي أوفى	٥٣٣
٥١٢		... صلّى الله عليك وعلى زوجك	٥٣٤
٥١٢	صح بخ	... قال : قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد .	٥٣٥
٥١٢		لما نزلت الآية : (إن الله وملائكته يصلون على النبي . .	٥٣٦
٥١٢	صح م	... أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي	٥٣٧
٥١٢	صح	... قالوا : يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه ، فكيف	٥٣٨
٥١٣	صح	سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجّد الله	٥٣٩
٥١٣		... قال : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت	٥٤٠
٥١٣		اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحدا	٥٤١
٥١٣	حسن صح	أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة	٥٤٢
٥١٣	صح	كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول :	٥٤٣
٥١٤	صح	قال رجل يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها	٥٤٤
٥١٤	صح م	من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه بها عشرا	٥٤٥
٥١٤	جيّد	... قال : أجل أتاني آت من ربي عز وجل فقال : من	٥٤٦
٥١٤	حسن صح	البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصلّ عليّ	٥٤٧
٥١٤	صح	... رغِمَ أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ . .	٥٤٨
٥١٤	صح	ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا عليّ	٥٤٩
٥١٥	صح •	... اذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا عليّ	٥٥٠
٥١٥	صح	كان رسول الله ﷺ اذا دخل المسجد صلى على محمد	٥٥١
٥١٥	صح	إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام	٥٥٢

٣٤ ـ سورة سبأ

انتهى المجلد الثالث ويليه المجلد الرابع